محمد الغربي عمران

الثائر
خُنْثى

رواية

الفهرس

شكر
رقص الحمام
ناصر ٦٤
رائحة قاتل
سمسرة وردة
الرادع
شارع السيسبان
حامل السوط
طريق السحب
قَمَريات
منامات
قصر السعادة
السيف البدر
دَرَسَــة
سيدة القصر
١٩٥٥
نافع
الدويدار
عيون الجنّ
وادي القرود
كائنات الرمل
أعراس السماء
أجراس صغيرة
خنثى
الساعة السليمانية
يفرس
قناطر عالية

بيت بوس

وكر عزرائيل

باب اليمن

الموت بالتقسيط

عدن

دار سعد

نساء الشكلة

متاهة حريم

طيرمانة

الأرملة الصغيرة

خيط بيادة

علوس

يا قمر قُميرة

شكر

الشكر والتقدير لأستاذنا أ. د. عبد العزيز المقالح الذي أعطاني الكثير من وقته وإرشاداته الصائبة.

وللأصدقاء الأعزاء الذين زودوني بملاحظاتهم القيمة:د. أحمد عايض عمران،بودابست/ د. عصام واصل، الجزائر/د. محمد الحصماني، جامعة ذمار/د. عبدالله صلاح، جامعة أم القرى /د. بشير زندال، جامعة محمد الخامس،الرباط/ د. عبد الحميد الحسامي،جامعة الملك خالد،أبها/ القاصة. ابتسام القاسمي، صنعاء/ القاصة. سيرين حسن،صنعاء/ القاصة إيمان الهادي، نجران/ الباحث محمد محسن الحوثي، جامعة صنعاء/ والكاتب عبد المجيد التركي، صنعاء. وأعتذر لما منحوني من أوقاتهم.

رقص الحمام

تلك الليلة لم يكن مصدقاً أنه يسير سليماً، بعد فراره من مقبرة (خزيمة)،في عمق عُتمة أخدود السايلة بعيداً عن رصاص الشرطة الحربية، وحيداً تظلله روائح البارود، تسلَّل داخل مسجد (قبة المهدي) المحاذي للسايلة.

عادت ذاكرته تستعيد أحداث ليلته الأخيرة في سجن الرادع، حيث انكفأ يصلي منتحباً في انتظار زوار الثلث الأخير من الليل. جلبة العسكر في ساحة السجن؛ صوت شاوش السجن (المسوري) يأتيه من الليلة الفائتة «انتظرهم سيأتون لزيارتك ليلة غداً،. يااا بطل!»، ماطّاً حروف كلماته بتهكُّم.

عرف في السجن أن الذين يقتادونه في الثلث الثاني من الليل يعودون به بعد أن ينالوا منه، ومن يأخذونه في الثلث الأخير يذهبون به ولا يعود.

سمع صوت العسكري يردد اسمه. في البداية ظنّأنذلك الاسم لا يخصه. أخذ الصوت يقترب. هزَّ رأسه أحد زملاء السجن:

– هل تسمع اسمك؟

رفع وجهه ناظراً إلى شفاه وعيون من حوله. الصوت يكرِّر تلاوة اسمه،. فاحت رائحته رعباً كما لم تفُح من قبل. نهض يسحب قيوده مستجيباً. لم يكن الاسم الوحيد لذلك الثلث الأخير. اختلط رنين القيود من اتجاهات مختلفة يتقدمون. عيون المساجين شاخصة تحت بصيص سراج يتيم. العسكر ينشبون أصابعهم، يتقاذفون من يصلهم إلى حجرة فك القيود. دُفع أرضاً حتى تعفَّر وجهه. تمدَّد يمسح أنفه المبتلّ أمام حجر (المدقة). فُكّت قيوده. تحاشى النظر في عيني شاوش السجن (المسوري) حيناقترب بنظراته الساخرة، رفع قدمه ووضعها على رقبته:«الأغبياء يصنعون نهاياتهم البائسة،.!». لم يقاوم، أغمض عينيه. كُتِّفت ذراعاه خلف ظهره بشال انتزعوه من على رأسه. دفعته ركلات العسكر خارجاً إلى ظهر عربة جيش تقف أمام الباب الخارجي. أجلسوه بجوارمجموعة وقد صُوِّبت البنادق إلى رؤوسهم. يسترق النظر محاولاً التعرّف على الأماكن التي تعبرُها العربة: شمالاً حتى بوابة القيادة العربية(بستان اليهودي) ثم عادت جنوباً، عبرت بهم أمام بوابة قصر السعادة، أطراف التحرير.

السماء مظلمة والشوارع معتمة ومقفرة إلا من أضواء بعض الدور.قعقعة ودويّانفجارات قادمة من بعيد. يلكزه أحد العسكر بفوهة بندقيته:«على ما تتشحور ياخبيث؟». ينكفئ داسَّاً رأسه بين رؤوس زملائه، يرتل آي القرآن. ارتفع نحيب أحدهم منهاراً، وآخر يلهجُ بأسماء الله، وثالث ينخرط في هستيريا حزينة.لم تدم رحلتهم طويلاً حين دخلوا بهم خلف أسوار لم يتبين في البداية ماهيتها. توقفت العربة. أخذ العسكر بركلهم:«انهضوا يا هَمَجْ،. بسرعة يا خنازير». استقام

يختلسُ النظرَ قبل انطفاء أضواء العربة: صفوف شواهد قبور مبعثرة؛ بقايا سور يمتدُّ بعيداً ليبتلعه الظلام؛ مجموعة من المسلحين يقفون صفاً. شهق رعباً حين أدرك أين يكون. جاء دوره في النزول، أحسَّ برباط معصميه يتراخى، خفق قلبه، حافظ على وضع يديه خلف ظهره. أوقفوهم في صفٍّ موازٍ لسور المقبرة، بدأ نظره يتغلَّب على عتمة المكان: أشباح المسلحين تنهض، أحدهم أشعل عود ثقاب ليشعل سيجارة، لاحظ أن وجهذلك الشبح ليس غريباً، يلوِّح ببقايا سوط، اقترب وخلفه المسلحون من أول الصف، سلّط أحد العسكر ضوءاً يدوياً على وجه أولهم، خاطبه الشبح باسمه، لم يرد عليه، صفعه بسوطه على وجهه، لتنهال عدة رصاصات أسقطته أرضاً. التالي سأله عدة أسئلة، بصق في وجهه،انهال عليه العسكر لطماً وضرباً، جثا أرضاً متألماً، لوَّح حامل السوط لأحد مرافقيه لتنفجر عدة طلقات تركت جسده جثة هامدة. الثالث،. الرابع،. جاء دوره وهو يرددآية الكرسي،نهره حامل السوط:

– بماذا تتمتم؟

لم يجب. أطال تأمل وجهه تحت ضوء يدوي صغير، أمسك شفتيه، فتح فم الملثم ليبصق لعاباً كثيفاً فيه، ثم تمتم حامل السوط: يستفزني طول شعره وصوته الأنثوي! أعقب كلماته برفسة من ركبته بين فخذيه، سقط يتأوه، أمطره العسكر بأحذيتهم الثقيلة ركلاً، تركوه يتلوى. لم يعِ ما يدور، لكن طلقات نارية أعادته من غيبوبته لتنهار قامة أحدهم مضرجةً بالدماء فوقه.ابتعدوا قليلاً إلى من تبقى في الصف. بزغت فكرة الهرب بعد أن أحسَّ بيديه طليقتين، فاح عفنه، صوت ينبع من داخله:«لمَ لاتفر؟ سيخترقك رصاصهم في كل الأحوال، يكفيك شرف المحاولة». لفّ رأسه بشاله، أخفى نصف وجهه، تخلص من أطراف زميله، زحف بمحاذاة جدار السور، تلمّس السور، كاد يختنق بسوائل فمه، لاحظ أنه يبتعد دون أن يشعروا به، يختفي خلف صفٍّ شواهد قبور،. ظلام بارد، نهض يهرول، سمع صوت أحدهم: «هيا،ألقوا بهم في البئر!»، أعقبه طلق ناري، صرخة أحدهم يهوي أرضاً، زاد من سرعته، خمَّن أن يكونوا منشغلين عنه ببقية الصف، لم يلتفت، هرول وسط الظلام مقترباً من نهاية الجدار الطويل، غمره ضوء من الخلف، سمع صوتاً حاداً: «لقد اختفى أحدهم!»، تعالت الأصوات من جديد: «لا تدعوه ينجو»، تداخلت أنوار باتجاهه،. رصاص،. تعثر،. نهض يرى ظلاله على جدار قريب، طلقات أخرى تبرق لتصطدم بأحجار الجدار، ومضات تخترق الظلام شعور بالموت يشتت تفكيره، أبعاد الجدار تهتز، أظلم المكان من جديد. تعالت أصوات الرصاص وصرخات كثيرة، يتخيَّلهم يركضون في عقبه، يهرول مسرعاً، يتمنى انشغالهم بتعقُّب آخرين حاولوا الفرار! ظلَّ الرصاص يئز حوله، يجري موازياً لجدار المقبرة، يتعثر، ينهض ليكتشف زاوية متهالكة. ازداد دوي الرصاص، نفذ من فتحة جدار متهالك ليجد نفسه خارج المقبرة:ظلام مبعثر الاتجاهات؛ نباح كلاب يتهاطل من بعيد. ارتجف، تشتت، هرول هارباً بين مبانٍ، صدى الرصاص، جرى متلمّساً رأسه، عنقه،

صدره، غير مصدِّق، انعطف شمالاً، رائحته دعت الكلاب لملاحقته، أو أنها أصوات الرصاص التي أفزعتها. زاد من سرعة عدْوِه، لا يعرف أيّ ريح تحمله، هبط منحدراً معتماً، تشتت نباح الكلاب. أخدود غائر، عرف أنه مجرى السايلة، تَوارى تحت جسر حجري، تناقص نباح الكلاب، خمَّن أنه قريب من جدار بستان السلطان، تسحَّب بحذر، وجد باباً موارباً في جدار طيني، انسلَّ بهدوء، غاص في ظلمة أشجار متداخلة، توغَّل في برودة ذلك الظلام، خفتت أصوات الرصاص، تكوَّم على نفسه لوقت، تهادى إلى مسامعه أصوات أدعية تبعها عواء حزين لعدة كلاب، نهض يبحث عن باب الخروج في الاتجاه البعيد، تسلَّق جداراً طينياً، أزقة يعرفها، تلمَّس جدرانها غير مصدق، يسير متحاشياً إزعاج الكلاب. مسجد (قبة المهدي)، يعرف مدخله، الحمامات، بيت الصلاة. تكوَّم في إحدى الزوايا، تلمَّس جسمه يبحث عمَّا يمكن اخترق جسمه، تسلّخ باطن قدميه وأصابعه، كلُّ جسده خدوش، يودُّ أن يجأر بأقصى صوته، يعبِّر عن شعور خليط من القوة والضعف، من الفرح والقهر. ارتفع صوت المؤذن شجياً. تسحَّب على درجات قليلة، غرفة مغتسل الموتى. تقرفَص خلف مقعد المغتسل الخشبي، يفكِّر فيما هو فيه، اجتاحته نوبة من الدموع، مسحها بعد إحساسه بالارتواء. أصوات حزينة من مساجد أخرى ترفع أذان الفجر. سمع حركة المصلين تدبُّ للوضوء، صدى أصوات أدعية، طرطشة الماء.داخله خوف مميت، جالد صبره سامعاً أصوات الصلاة، رويداً رويداً تبعثرت الأصوات. نهض متحاملاً على آلام قدميه ومفاصل ساقيه، غسل أطرافه، وجهه. انسلَّ قبل خروجهم من بيت الصلاة يبحث عن مكان يتوارى فيه. خاف من فكرة العودة إلى سكنه وزملاء العمل. فكر أن يلجأ لزميل آخر؛ رعب الوشاية. ظلَّ يسير في أزقة كثيراً ما عبرها. غلالة فضية تهبط. مارة يتدثرون بألحفتهم. دون هدى اخترق أزقة حارة (المطيط)،سار في مجرى السايلة دون هدى. صعد أزقة حارات (الخراز) و(جمال الدين). وقف عند أطراف ساحة سوق البقر مع خيوط ضوء شمس قرون جبل (نقم). يعبر بحذر ساحة اكتظت بالمواشي والبهائم، حركة أصحاب تلك القطعان، باب سمسرة يتصاعد منه دخان المواقد. هبطت فكرة، وسوس: لمَ لا تكون هذه السمسرة مخبئي؟ تذكَّر أن مرتاديها هم من جالبيالمواشي والبهائم ومن المزارعين، وقف أمام بابها الهرم، تحاشى الخارجين ببهائمهم، تجاوز عتبتها يداري آثار الدماء على ملابسه: رائحة الدفء، روائح زريبة. حجرة واسعة، شمال الباب مصطبة عليها خمسة مواقد تتَّقد بجمرها، امرأة في الأربعينات بوجهها الأبيض وفتاة ملثمة تدور حولها، إلى يمين المدخل متكأ يتمدد عليه رجل ممتلئ تحت كوعه وسائد منبعجة، بيده اليسرى مشرب (نارجيلة) يتولّى شفطها. أشارت إليه المرأة بيدها دون أن تنطق. ردَّ عليها:

–أريد «مَمْسَى».

رفعت صوتها وهي تتأمل ملابسة المهترئة، خدوش ملأت أطرافه:

– يا حاج وردة، أمامك قادم جديد.

مشيرةً للملثم بالتقدم نحو الرجل المتَّكئ، ليكرر:

– أريدمَمْسَى.

قال له وهو يشير إلى الداخل:

– هناك مستويات من دكاك النوم. التي فوق زريبة البهايم بربع بقشة، ومصاطبأطراف الحجرة القريبة من الباب بنصف بقشة.

–انظر هناك، فوق زريبة البهايم بربع بقشة، ودكاك أطراف الحجرة القريبة من الباب بنصف بقشة.

– هل لديكم مَمْسَى غير هذه الدكاك؟

– لدينا حاجتك، خلوة السطح بمطهارها، لكن المَمْسَىفيها ببقشة.

– والذي يبقى لأيام طوال؟

– نبعد الربع.

– قل بنص، وسأدفع لاحقاً إيجار نصف شهر.

تنحنح الحاج وردة مستوياً في متكئه: ياااامرة، أين البنيَّة؟ طوّفوه الخلوة.

تأملت الفتاة هندامه باستغرابثم أشارت أن يتبعها. عبرت الحجرة، وقفت به أمام سلم حجري صاعد، مدّت له بمفتاح وهي تتأمل هيأته وقد زادت عيناها صغراً: اصعد هذا، لن تتوه، هي الخلوة الوحيدة على السطح.

***

كما لو كان خالي الهموم صعد يتفحَّص الدرجات، الجدران. حين وصل آخر درج السلم بهره الفضاء المتسع، بستان خلفي مجاور تحيطه دور عالية ومنارة مسجد منقوشة، قباب ناصعة، ضوء شمس ينسكب. وقف يتأمل تفاصيل النوافذ والقمريات، أحزمة الياجور، خضرة تحيط ببعض الدور، مسجد في الجهة القصية من البستان. يبحث عن الخلوة، بالفعل لم يتُه، باب وحيد. أدار المفتاح وهو يتمتم: «يا ألطاف الله»، يغلق الباب على نفسه. أحسَّ براحة وسكينة مقلقة، لم يقاوم دموعه. وقف متجهاً نحو القبلة، كرَّر التكبير والتهليل،قرأ الفاتحة وآية الكرسي باكياً، ركع، سجد دون عدد، يتأمل تلك الجدران، يشعر أنه في أطراف الأرض، تمدَّد على فراشٍ قليلٍ، سريعاً ما حمله ملاك النوم بعيداً بعيداً. نهض مرعوباً لأصواتٍ أفزعته، كل ما حوله ظلام دامس،ابتسم حين أدرك أنها أصوات لمؤذني مساجد قريبة، لا يعرف لأي صلاة، متسائلاً: أيعقل أني نمت نهاراً وليلاً؟ جلس يبدِّد عتمة روحه بترديد كلمات الاستغفار وما حفظ من أوراد. صلى كثيراً حتى تسللت هالات الضوء من شقوق الباب ونافذة وحيدة. أعاد اكتشاف محيطه: سقف بخشباته المكسوَّة بالجير الذي يغطي الجدران، أرفف جصية مرتفعة، باب يفضي إلى حمام صغير به آنية فخارية، حوض مليء بالماء، حجر مربع منقور لتصريف الفضلات.

قرّر الاستحمام، بلَّل شعر رأسه الطويل، دَعَكَ دبق السجن من على بشرته، أطراف شعره، غسلَ جراحاً وخدوشاً مزَّقت بشرته، عاد إلى فراشه يرتجفُ برداً، لفَّ جسده بألحفة متربة، حمله ملاك النوم مرة أخرى بعيداً.

فزع من نومه كمن سمع نقراً. تساءل: هل استدلوا على مخبئي؟ لبس على عَجَل. تكرَّر النقر على الباب، بحث عمَّا يستعين به، تخيَّلهم يحاصرون السطح، فكَّر في طريقة الخلاص، نظر إلى النافذة الوحيدة، فحص جدران الحمام علَّه يجد مخرجاً. خُيِّل إليه سماع صوت رقيق:

– هل تسمعني؟ أرسلتني خالتي وردة لأطلب منك أجرة الممْسَى.

حدّث نفسه: «قد تكون خدعة». تكرر النقر. غطَّى وجهه بطرف شاله،اضطر إلى فتح الباب بحذر وقد أربك الخوف حواسه، ضوء مبهر يغطي السطح والأنحاء. فتاة الأمس:

– ألم تسمعني أقرع الباب؟ أجرة الممْسَى.

قاطعها غاضباً:

– من قال لكم بأني لن أدفع؟ قولي لها يومين فقط.

دون أن تردّ، انصرفت هابطةً. وقف في حيرة من نفسه، دمعت عيناه، خرج إلى السطح يعتصره الجوع، جلس يتأمل ما حوله: مجموعة حمَام تجولُ على السطح باحثة عمَّا تلتقطه مناقيرها، بياض حوائط الدور العالية، بياض القباب، تخاريم المنارات، رياح تحرك أغصان الأشجار. تمتم: هو الخوف!! أو قد تكون مرسلة من قبلهم؟! ماذا عليَّ فعله؟ هل أرحل؟

قضى نهاره وجُلَّ ليله يصارع القلق بمناجاة الله، يصلي طوال الوقت. تكرر سماعه لحركة، حاول أن يكبت خوفه مرتبكاً، كتم أنفاسه يتنصَّت: أصوات!التصق خلف الباب يسترق النظر من شروخه، رآها تقف، تفتت قطع خبز، تنثرها، تلتقطها مناقير صغيرة، تعاود نثر فتاتها. لبرهة من الوقت لم يعد يراها من الشروخ، فتح الباب بهدوء: لا أحد عدا الحمَام المنتشر على السطح، ضوء أبيض يلوِّن الأنحاء. خرج يهشُّ الحمَام، يلتقط فتات الخبز، استيقظ غول الجوع في أحشائه يبحث عن المزيد، يتخيَّل تلك الحمائم مشوية، استعاد حاسة الشم، يحاول الإمساك بها، ينفر الحمام من السطح، يحوم بعيداً، يتعلَّق بأفاريز نوافذ الدور، تخاريم المنارات. يعود للبحث عن فتات الخبز،. لا شيء، يغلق على نفسه الباب.

يمر الوقت موجعاً. ينتظر صباح اليوم التالي. يكرر اختلاس النظر من شروخ الباب، يراها من جديد تنثر فتات الخبز، يحوم الحمَام عالياً، يمتلئ السطح بهديلها.

تسير باتجاه الدرج، تختفي. يفتح بابه بهدوء، يخرج بحذر.

يتكرر ذلك كلَّ صباح، يراقبها تراقص السماء، تطلق نغماتها، تدور رافعةً منديلها فوق رأسها. تدهشه دوائر الحمام، يهبط ثم يحلِّق بعيداً بعيداً ليعود. تنتهي الفتاة من طقسها لتتَّجه نحو باب الدرج،. يخرج.

لم يكن يعلم أنها تتوارى خلف باب السُّلَّم ترقبه، تتابع بحثه عن الفتات، وجهه الأملس ببقايا حروقه القديمة، نظراته الزائغة، شعره الطويل، فضاء السطح. تهبط في حذر بعد أن يغلق باب خلوته.

لم تصادف مثله. تتمنى أن تعرف حالته، أن تسمعه، أن تعرف حكايته، لكنه الخوف والحذر من أن يكون شخصاً عدوانياً.

صباح ذلك اليوم وضعت خلف بابه كسرة خبز، توارت تراقبه خروجه، لم يظهر. قرعت الباب، لتتحرك ظلفته، لم يكن مغلقاً، التفتت علَّه بداخل الحمَّام، رفعت صوتها: هل أنت بخير؟ هل تسمعني؟ كررت وقد خطت عتبة الخلوة تمسح زواياها. رفعت صوتها أكثر قرب باب الحمَّام، تجرَّأت،. لا أحد! صمتت في حيرة، كاد قلبها يسقط: أين يكون؟! مسحت السطح، هبطت مسرعة:

– لا أحد يا خالة وردة في الخلوة!! لم تستوعب الأمر. كررت الفتاة جملتها.قطع الحاج وردة شفطنارجيلتهوقال:

– ليست المرة الأولى التي يفرُّ فيها نزيل دون أن يدفع ما عليه، ولن تكون الأخيرة.

شعرت الفتاة بأنها فقدت شيئاً ما، وجدت نفسها منشغلةً بغيابه، تحاول أن تشغل ذهنها بالعمل، تصعد السطح بفتات الخبز، تنثر ما بين يديها، تجلس تتأمل أسراب الحمام.النهار يذوي وهي تنتظر.

ناصر ٦٤

«حشود كدَّسها الفجر على شوارعميدان التحرير، سياج عسكر يحمي مساحة ترابية خُططت بطحين جير أبيض، جدران حجرية لمبانٍ زُيِّنت بالأعلام والصور تطلُّ على المشهد، منصة تتكئ، صدى صوت«بالإرادة والعزيمة والكفاح، اليمن أعلنها ثورة عالفساد،. بالإرادة والعزيمة و،.»، سياج العسكر يقاوم تدافع الحشود، انخفض صوت (فايدة) لظهور فرقة نحاسية بملابس ملونة تعزف لحن «الله أكبر،. الله أكبر يا بلادي كبري»،ذهاباً وإياباً أمام المنصة، العيون تترقَّب والحناجر تصطخب، صدى الطبول ترددها الجدران المحيطة، تهزُّ الرياحَ قطع قماش ملونة شُكَّت على خيوط أعلى الرؤوس، طائرات (مقاتلة) تحلِّق تحت السماء.

يعلو الصخب لظهور خيَّالة من الطرف الشرقي للتحرير، تتبعها مجموعة دراجات نارية، عربات روسية حمراء، جنود يهرولون حول الموكب. يتوقف أمام المنصة، يظهر عبد الناصر ملوِّحاً بابتسامة عريضة، عيناه خلف نظارة سوداء، يجاوره السلَّال بـ(قبعته) المثلثة. صراخ يصمُّ الآذان. يترجَّل صاعداً، صخب يعلو ويعلو. يقاوم سياج العسكر ضغط الحشود، يتهاوى، يتحوَّل الميدان إلى حنجرة عملاقة، دويٌّ عالٍ، تزداد حنجرة التحرير صخباً. يقف بوجهه الباسم ملوِّحاً يجاوره السلَّال وأعضاء مجلس قيادة الثورة.

ذرَّات مشاعر متصاعدة. التحرير رؤوس متراصة، أسطح الدور المحيطة، بيارقُ وعيون مُلوِّحة. طائرات نفاثة تكسر بصوتها صخبَ الميدان، ليخطب ناصر مهدداً الدول الرجعية، مبشراً بعصر الحرية والعدالة.

طائرة عمودية تدنو من حنجرة الميدان،شلال (شوكليت) تتناثر فوق الرؤوس، تموج الأجساد وتتداخل الأذرع، تبحث الأصابع عن قطع حلوى بين الأقدام،. كان هذا منذ أكثر من عام».

ذلك ما أخذ يحكيه أحدهم لمن حوله في أحد مقاهي ميدان التحرير، قلب صنعاء. الملثم يسترق السمع من على صندوقه الصغير.

يواصل الرجل حكايته لمن حوله،مشيراً إلى منصةٍ متهالكةٍ في الطرف الآخر من الميدان: ألا ترونها تلك التي أمست مهجعاً للكلاب،كانت بالأمس محطَّ أنظار الحشود!!

التفت يمسحُ الميدانَ بنظراته، يتأمل تلك المنصة، بقايا صور، خيوط أعلام مزقتها الشمس، أناس يسيرون فرادى وجماعات، يختفون ليظهر آخرون. عاد يتأمل وجه من يحكي: بشرة حرشفية تخفي عظاماً ناتئة، عينان غائرتان. صمت ذو الوجه العظمي عن الحكي حين طغت أصوات شبيهة بالرعود،رفع رأسه إلى السماء، أصوات يميزها الجميع جيداً، قذائف مدفعية

من أعلى جبال صنعاء.انصرف من كان حوله عدا الملثم الذي اتكأ على جدار المقهى، التفت إليه ذو الوجه العظميكأنه يكتشف وجوده.

– من أنت؟

لم يجب بعد أن أربكه سؤاله، ظل يمعن النظر في عينيه، يتأمل صندوقه الصغير المترب الذي يجلس عليه، واصل العظمي: دائماً يتأخر،أقتل الوقت بالحديث مع من أصادفهم وأنا أنتظر صديقي، عادةً ما نلتقي هنا، لنذهب بعدها لمقيلنا في سمسرة أبي عامر. صمت قليلاً ثم التفت يسأله: وأنت هل تنتظر أحداً؟ هزَّ رأسه نافياً. واصل الرجل: بإمكانك أن تأتي معنا ما دمت وحيداً، نمضغ القات سوياً! هل كنت هنا وأنا أتحدث؟ هز الملثم رأسه بالإيجاب ليردف: أحب أن أحكي ما أعيشه، وأستمع لحكايات الآخرين. الإنسانمجرد حكايات يا صاحبي.

يتحدَّث وقد ذهبت عيناه بعيداً، كمن يترصد المارة، ثم يوجّه سؤالاً آخر: ألا تحب الحكايات؟

تماسك ليخرج صوته رقيقاً:

– نعم تعجبني.

– هه... لك صوت رقيق! ويعجبك سماع الآخرين! ما دمت تجيد السماع أكيد تجيد الحديث. أخمّن أننا سنكون أصحاباً.

أحسَّ بتلقائيته، أعجبه أسلوب حديثه، وإن ظل يبحث عن فرصة ليذهب في حال سبيله.

نهض وقد تهلَّلت ملامحه بابتسامة، مشيراً نحو الميدان: ها قد أتى صاحبي الذي أنتظره. التفت الملثم ليرى رجلاً بملابس عسكرية،قبعتهشبيهة بقبعة الرئيس المثلثة، توجَّسخيفة،همَّ بالانصراف، تلمَّس صندوقه الخشبي الصغير، نهض. أمسك العظمي بمعصمه: أريد أن أُعرِّفك على صاحبي شاعر الثورة.رفع عينيه إلى وجهه:فكٌّ معوجّ،بلاهة تطل من عينيه، مادَّاً كفَّه لمصافحته، ثم قهقه عالياً وهو يرطن بصوت يشبه العواء. ازداد قلبه انقباضاً. همس ذو الوجه العظمي: يسألني إن كنت ستتشاركنا مضغ القات؟

صمت محتاراً، أمسك العسكري كفه بعفوية، وهو يرطن بصوت غير مفهوم، ليبادر موضحاً: يرجوك أن تشاركنا.

سار بينهم وقد خلّفوا المقهى،قطعوا الميدان، مروا أمام (دار الشكر)،. (قبة المتوكل)، باتجاه شارع (باب السبحة).استمر العسكري يتحدث بصوت غير مفهوم، وذو الوجه العظمي يهزُّ رأسه مستحسناً، مردداً: «أهه،. أهه». ساروا بين دكاكين السبحة. وقفوا أمام بابٍ خشبيٍّ هرم، التفتَ مرحّباً به: هذه هي سمسرة أبو عامر التي نقيِّلُ فيها أنا وصاحبي دائماً. تبعهم وعيناه تمسحان المكان: عتمة أشبه بعتمة المغارات الواسعة، ممرات تتخللها أعمدة حجرية تعلوها أقواس عاليةأفضت بهم إلى حجرة أكثر اتساعاً، مساطب اعتلاها متكئون يمضغون أوراق القات، ينفثون

أدخنة النارجيلات، رفع البعض أكفَّهم رداً على تحية العظمي وصديقه الشاعر. غبش دخان النارجيلات جعل الملامح غائمة. تمدَّدت على الأرض مشارب النارجيلات الطويلة، قعقعات جوز التنباك، أصوات منادمة (المخزنين). عامل السمسرة يلوب وقد أصلح متكآتهم، يختفي خلف مجمرة كبيرة ليعود حاملاً نارجيلة هندية طويلة وقلَّة ماء ومبخرة. تموضع ثلاثتهم على مصطبة بجوار بعض، وضع الملثم صندوقه متكئاً عليه، نثرَ العسكريُّ حزمةَ قات على حجره مُطلقاً أصواتاً تخالطها ضحكته. العظميُّ يهزُّ رأسه مستحسناً وهو يقسمها أثلاثاً، يتناول براعم غضة من تحت لثامه. لم يدم صمتُ العسكري، اشتعلت حنجرته بخليط من الأصوات غير المعروفة. يصمت، يلتفتُ ناظراً لمن حوله، يستشعر ردود أفعالهم، لا يفهم ما يدور. يبتسم العظمي مشجعاً، ترتفع أصوات وضحكات من أركان السمسرة، اِتَّضح للملثم أنهم يألفون صوته الغريب. حاول استنتاج ما يدور ناظراً إلى عينيه، الذي هامسه: هنا الكلُّ يعرف شاعر الثورة. قد لا تفهم ما يقول لكن مع مرور الوقت ستفهم ما يقول. صاحبي له قصائدُ وطنيةٌ معروفة، ألقى بعضها في مناسبات مختلفة وبعضها مسجلة في إذاعة الجمهورية، يمكنك أن تسمعه يلقي جديده. كان صوته فيما مضى جميلاً ومفهوماً حتى اخترقت حنجرته شظيَّة في إحدى المعارك، هو مقاتل شرس. حاول أن تنصِتَ حين يصدح صوته، ستفهم ما يقول، ألم تسمع بشاعر الثورة؟ هو هذا من يطلقون عليه تلك الصفة.

***

العسكري يتابع حديثه بعينين باسمتين، أمسك بأصابع الملثم ليضعها على آثار تمزق حنجرته، مركزاً على عينيه، محاولاً استقراء ردَّة فعله. التفت العسكري حين سمع صوت صاحبه: اليوم يكتفي بكتابة الشعر ونشره على صفحات الثورة، يلقي بعضها على من يفهمون صوته، أكثر الناس لا يفهمون ما يقول لكنهملو أصغوا دون عجل عندها سيُدهشون لروعة مشاعره،. جندي نذر نفسه للثورة، يحمل وسام الشجاعة بعد إصابته، ورتبة ملازم.لم يلبستلك النجمة ولم يعلق الوسام يوماً. جمعتنا عدة معارك في جبال خولان ونهم.

هو من قرية بعيدة خلف قعطبة، قرية من قرى الشعيب شرق الضالع، قدِمَ إلى صنعاء مقاتلاً استجابةً لنداء الثورة. في البداية رفض الالتحاق بأيِّ معسكر، فضّل أن يكون مقاتلاً حرَّاً يستجيب لنداء الواجب.

يقول دوماً إن نداءً خفيّاً من أعماقه يحدد وجهته، وله مقولة «نحن أبناء جزيرة واحدة، وعلينا أن نقاتل في سبيل وحدة جزيرتنا، وأن نتجاوز حدود الحكام الطغاة المستغلين، أن نمحوها من وعينا، أن نقاومها، وأن نتعامل كما هي الأرض واحدة،. نغفر لمن لايفهم ذلك». صمت قليلاً ليلتقط أوراق قات، دسّها بين فكَّيه، يلوكها ثم واصل مبتسماً:يبدو أنك من خارج صنعاء! وإلا لمَ تحمل صندوقاً معك؟

استفزه سؤاله،زاد من حذره، أسئلة تذكَّره بأسئلة ذلك المحقق السِّكير. تمتم في سره «صلى الله على محمد»، حاول أن يبدو صوته أجشَّ ومتماسكاً:

– لست من صنعاء!

– لا يهم من أين تكون، فجميعنا أبناء لحظتنا، وقيمة الإنسان في ما يحمل من مبادئ وتلك القيم التي يتعامل بها.

ألقى عليه نظرة فاحصة ثم قال:

– أيهزُّك الشوق إلى بلادك؟

واصل حديثه كأنه لم يطرح عليه سؤالاً:

– أنا دوماً يهزُّني الشوق إلى أمسي!! أتمنى أن تنتهي الحرب لأعود إلى قريتي؛ تلك القرية التي تعلَّقت بطرف جبل صَبِرْ المطلِّ على تعز. منذ انفجار الثورة أقسمت ألَّا أترك صنعاء إلَّا بعد انتصارها، لم أكن أتخيَّل حين خرجت من قريتنا باتجاه عدن أني لن أعود إليها.

–ذهبت إلى عدن؟

–ذات يوم بعيد شجَّعني أبي على المضي، قال لي: «لم تعد صغيراً. هيا اذهب لتبحث عن عمل وعُدْ. أقرانك يذهبون ويعودون محمَّلين بالمال».ما زالت تلك الطريق التي سلكتها عبر الجبال ثم في مجرى وادي(ورزان)حتى (حوطة لحج) ومنها إلى (الوهط) و(الباحة) وقرية (الشقعة)؛ وذلك المنظر لعدن بجبلها وقد احتضنها البحر ماثلاً أمامي، فيها قضيت سنوات أعدُّ العدة للعودة إلى القرية، لكنها الثورة،. هذا أنا يا صاحبي، فهل تحدثنا عن نفسك؟ ماذا تصنع بأيامك؟ أحبّ المؤانسة،. لا قات دون مؤانسة.

أحسَّ أنه وضع نفسه بمصاحبتهم في موضع ما كان عليه أن يقع فيه.يسأل نفسه:ماذا عليَّ قوله حتى لا أكشف نفسي؟ أنقذه صوت العسكري شاعر الثورة حين رفع صوته مغمغماً،استمر في تلك الحالة وذو الوجه العظمي يهز رأسه مشجعاً، ثم صمت، ليعاودتكرارأسئلته للملثم الذي تيقن بأنه في تحقيق وعليه أن يراوغ.

تنحنح يستعدّ، تخيَّل كلماته تحمله في فراغ عتمةٍ لا قرار لها!

– أنا إنسان على باب الله!

– والثورة؟

– الثورة! لها رجالها!

– أعرف من ذلك بأنك رجعي!

– لا أعرف ماذا تعني.

– قد أكون متسرعاً،لكنه القات يجعلني أخرج ما بنفسي، وأعرف بأن الرجعية ليست شيئاً مُطلقاً، فلا يمكن أن نحكم بأن فلاناً ثوري أو رجعي مطلقاً، ولا يمكن معرفة الأشياء إلا بمعرفة

جوهرها. علينا إذا أردنا معرفة الأشياء أن نرسل أرواحنا إلى أعماقها، فالثورة لا تعني التبعية، ولا تعني أن أؤمن بما تؤمن به حرفياً، وأشارك كلَّ ما يقوم به غيري.

– أليست الثورة في أن نتغيَّر إلى الأفضل؟

– بالطبع.

– إذاً، نبدأ بأنفسنا.

– تعني أن نعرف مكامنَ طاقاتنا ومواطنَ ضعفنا. أنا بفضل تأثير القات الآن مشوَّش التفكير، ومنذ وطأت هذه المدينة وأنا أحاول تلمُّس الطريق إلى داخلي، أن أعرف نفسي قبل أن أتوجَّه للآخر، وهذا ما يتعبني.

– لم أفهم!!

– أريدك أن تقول لي دون لفٍّ أو دوران: أنت مع الثورة أم لا؟

– أنا على باب الله...يهمني يومي.

– إذاً أنت مع الثورة ولست معها.

– يجوز.

– وتريد القول إنك لست ضد الإمامة ولست معها!

– تماماً.

– كيف لست مع الإمامة، وفي الوقت نفسه لست مع الثورة؟

– لست مع أحد ولا ضد أحد.

– أتريد أن تقول إن بعض من يدعي الثورية يمارس التسلُّط والاستبداد، والبعض يتأسلم ليغوي الناس، وهناك من يمارس الكهنوت أكثر من الإمام!! وهناك ظَلَمَةٌ ومتسلِّطون، والكثير في صنعاء لا يقبلون الرأيَ المخالفَ لرأيهم!

– أنا لا أقول شيئاً، أنت من تقول. أرجو أن تسمح لي بالانصراف.

نهض حاملاً صندوقه، لينهض العسكري وشاعر الثورة في محاوله لإبقاءه، لكنه مضى وهو يردد كلمات الاعتذار، يجرُّ خطواته عبر أعمدة العقود. قبل أن يصل باب السمسرة التفت فلم يرَ غير كُتلٍ دون ملامح،ثم عبر الباب إلى الشارع المعتم.

أشباح مارة في شارع السبحة. تمتم: ترى كم يكون الوقت؟ سار متحاشياً كلاب الأزقة. باب مسجد النهرين فاغر. هبط أخدود السايلة الملاصق لمسجد النهرين، توقف في عمقه يصغي لشيء ما. أضواء نوافذ الدور، قشعريرة رياح باردة تخلَّلت مسام جسمه.

رائحة قاتل

ضوء مواقد سمسرة وردة، الحاج وردة ممدد على متكئه ينفث دخانه، الخالة وردة تحرك بقايا جمر مواقدها.

جلس بجوار الحاج وردة دون أن يلتفت إليه، مدَّ له كفّه، لكنه تجاهله. نهض باتجاه المواقد، لاحظته الخالة وردة، تهللت أساريرها، ليرتفع صوتها:

– هذا نزيل الخلوة يا حاج وقد عاد.

حرّك الحاج كفه في الهواء كمن يريد إمساك شيء.ارتبك الملثموزادت حيرته حين اتجه الحاج ببصره بعيداً، أشار للخالة وردة مستفسراً، ردت بوضع أصبعها على عينيها. صُدم حين عرف أنه كفيف، أمسك بكفه يتأمل عينيه الصافيتين:

– هذه أجرة الخلوة لشهر قادم!

اعتدل الحاج في جلسته، يتلمَّس النقود قطعة قطعة، دسَّها في عطفات ملابسه مبتسماً:

– هذا أنت؟ ظنناك قد هربت!

للحظات طافت صور ليلة الأمس وهو يتسحَّب خارجاً من السمسرة، سيره بحذر عبر أزقة باردة، تسلله إلى حديقة قصر السعادة المهجور، بحثه طوال الليل عن موقع كنزه المطمور، الحفر بجوار حائط حمام الحديقة المهملة، تسلله إلى جامع قبة المتوكل،اختباؤه تحت ستائر الولي حتى منتصف النهار، ليعود حاملاً صندوقه قادراً على شراء الخبز ودفع أجرة الخلوة.

أمسك الحاج وردة بمعصمه هامساً: ما هي حكاياتك؟

لاحظ أن الخالة وردة تتابع، تصيخ السمع محاولة فهم ما يدور. بدوره حاول التخلص من قبضة الحاج الذي أردف: لكن ما اسمك؟

باغته ذلك السؤال، شعر بأن الحاج يريد الإيقاع به، فكَّر باستعارة اسم كثيراً ما استعاره:

– شيزان!

– أمتأكد أن هذا اسم؟ لا عليك، امضِ لترتاح الآن.

اتجه بمحاذاة مواقد الجمر، مدَّ ببعض الريالات للخالة وردة:

– وهذه كي تزوديني بطعام.

– سبحان مقلِّب الأفلاك. أين كنت؟

ارتفعت جلجلة ضحكة الحاج وردة تخالطها سعلة متواصلة. قال متهكماً:

– بل اسأليه كيف خرج دون أن تشعري!

***

ترك جدالهما، صعد، فتح صندوقه، أخرج ثياباً متنوعةً،اختار ثوباً نسائياً مزركشاً، لبسه، أحس برغوة الشبق تتخلَّل مسامه، طعم لذيذ تفرزه لسانه، لفَّ طرحة حول شعره الطويل، أخرج بيادة عسكرية، انتعلها، شدَّ خيوطها، أطبق على مرود مكحلة بين جفنيه، قنينة عطر صغيرة، حنجور دهان. وقف يتأمل وجهه على مرآة ملتصقة بملاط الجدار. دهن وجهه يتحسَّس آثار حروقه القديمة، أغلق صندوقه.ينتظر زيارة ملاك النوم، مر الليل بطيئاً. تهادت أصوت أدعية متفرقة أعقبها أذان الفجر، دمعت عيناه، نهض يصلي، رافعاً صوته مناجياً بأسمائه الحسنى، يتلو منتحباً آيات الكتاب،. تسلل الضوء من فتحات الباب.

صعدت الفتاة بعد أن أخبرتها الخالة وردة بعودة نزيل الخلوة، همَّت بقرع الباب، ترددت لسماعها نحيباً غير واضح الكلمات، تجلَّدت، قرعت الباب، كررت بقوة، صمت كلُّ شيء، خفق قلبه، التفت، نزع طرحته مرتبكاً، خلع ثوبه المزركش،رفع صوته:

–من يقرع؟

جاءه صوتها رقيقاً:

– أسمع أنيناً! هل من سوء؟

لبس ملابسه،أرخى فلقة الباب بعد أن أعاد لثمته.

– ماذا تريدين؟

–لاشيء خالتي وردة أرسلتني بقهوتك!

–اتركيها!

غشتها خيبة، وضعت ما بيديها غاضبة، استدارت نحو باب الدرج.

يخرج، يجلس متكئاً على الجدار وحيداً، يرتشف قهوته، يفكر في حالته: ذلك الهروب الدائم، التخفي، الخوف، يشتاق لمن يجالسه، ينادمه، يسمعه. فكَّر في ذي الوجه العظمي وصاحبه العسكري، بتلك الأسئلة التي حولت جلسته معهم إلى ما يشبه التحقيق، شاور نفسه: لمَ أخاطر بالذهاب مرة أخرى إليهم؟ قد يكونان من عسس الدولة، لكنهم لا يعرفانني، ثم أننا التقينا بالصدفة، أيضاً ولمَ الخوف من أناس لا أعرفهم؟ تذكر أسلوب ذي الوجه العظمي في الحديث والمنادمة؛ أسلوبٌ مسلٍّ. فكر كثيراً في حياة يعيشها هارباً من كل شيء، في غده القريب والبعيد، في أولئك الأشخاص الذين حوَّلوا حياته إلى دائرة من رعب وجحيم. سأل نفسه: لمَ لا أنال منهم واحداً واحداً؟

في تلك اللحظة قرر أن يواجه الخوفوأن يلاحق الموت.

قبيل شروق الشمس كان ينتظر نقر أظافرها على الباب. لاحظ تسلل ضوء شروخ الباب، التصق بلوح الباب، بعد وقت من الصمت سمع وقع خطوات متتابعة، استرق النظر،لاحظها تقف وسط السطح تنظر إلى السماء ثم تنثر فتات الخبز حولها كما هي

عادتها،تقف على أصابع قدميها، تنزع غطاء رأسها، يسيل شعرها الفاحم شلالاً يغطي وجهها الصغير، تدور وتدور، تلوِّح بطرحتها في الهواء، يتطاير شعرها كمظلة واسعة، تدور مغمضة العينين، تتقافز على رأس أصابعها، ترفع طرحتها في الفضاء ملوِّحةً بشكل دائري، تزمُّ شفتيها، تنفث صفيراً رقيقاً. الحمَام يقترب باتجاه دوران طرحتها.

ظلَّ يتابع مسحوراً بتلك الحركات، لم يتمالك نفسه، فتَح الباب وخرج مشدوهاً يتابع رقصتها. تكاثر الحمَام فوق رأسها، يهبط على كتفيها، ودوائر أخرى من الأجنحة تتطامر تحت بعضها، تصفِّر شفتاها نغماً يرتفع لينخفض تدريجياً.

سربٌ آخر حطَّ حولها، امتلأ السطح ولم تتوقف عن الصفير والدوران، أسراب الحمَام تملأ الفضاء، حطت على أفاريز نوافذ الدور، بياض القباب، رفوف المنارات، أغصان البساتين المحيطة، رفيف أجنحة تلامس وجهها وذراعيها.

توقفت عن الرقص، فتحت عينيها، لم تعد ترى غير أجنحة حجبت كلَّ شيء حتى ضوء الشمس، التفتت، رأته جالساً هناك، هشَّت الحمَام من عليها،تراه يجلس في سكون يرتشف القهوة، أغمضت عينيها، فتحتهما، ابتسمت بنبضات متتالية،اقتربت منه، تتمنى كشف غموضه، شيء ما يشدها إليه، تودُّ أن تجالسه، أن تعرف سر اختفائه! وقفت مرتبكةً تراودها أفكار متناقضة، تودُّ أن تسأله، أن يحدثها، أن تعرفه.

تأمل ملامح وجهها دون لثام، رآه مثلثاً مقلوباً، أنفاً رقيقاً وصغيراً، فماً كبيراً على شكل هلال، عينين خرزيتين. تمنى لو أنها لم تكشف وجهها، أحست بما يدور بخلده.

خطوات خجلى تقودها لتهبط مسرعة.

نهض كالمسحور، أغلق الباب غاضباً، صلَّى لله أن يبعدها من تفكيره، يحمده أنهجعلها تكشف وجهها. ظلَّ في داخله نداء خفي يدفعه إليها. أكمل الركعتين، أحسَّ بأن الله يريده أن يكفَّ عن التفكير في الفتاة، ركعتان طويلتان سجد أثناءهما وأطال، خُيِّل إليه أن ضابط التحقيقات يراهما، يلوِّح بسوط، يقف إلى جواره المسوري شاوش سجن الرادع يقرع حلقات القيود بين يديه، يضحك ليهتز بدنه المكتنز. أقسم أن يقتصَّ منهم واحداً واحداً، تمنى على الله أن يسخِّر له ملك الموت رفيقاً، استعرضهم واحداً بعد الآخر، قرر أن يبدأ بشاويش السجن.

انتظر غروب الشمس بشوق، مشط شعره الطويل،اكتحل كحلاً كثيفاً، دَعَكَوجنتيه بحمرة، لفَّ طرفَ شالِه على وجهه، أخفى كل شيء، خرج من باب السمسرة، عبَر ساحة السوق، دخل مسجد(داوود)،توارى في أحد (مطاهيره)، استبدل لباسه بثوبه النسائي المزركش، شعر برعشة لذيذة، قلبه يخفق، لفَّ قدَّه بستارة ملونة، خمار أسود لا يُظهر إلا عينيه، يتمايل بدلال عبر أزقة يعرف مسالكها، خطوات غير متصنَّعة، يتحدث بطبيعة صوته الرقيق، عبَرَ أزقة صامتة، أخدود السايلة إلى حارة الكدس، شارع القيادة العربية، انعطف جنوباً، بعض المارة، مجموعة من

العسكر أمام (الرادع)، قلبه يخفق وهو يقترب، أربكته رائحته،اعتصم بترديد آية الكرسي، أكثَرَ من التشهُّد والصلاة على النبي، تجاوز مجموعة منهم، ضوء باهت، التفت العسكر نحوه، حدَّث نفسه: لا مفرّ، دوماً الذكور أضعف كائنات الله. وقف أمامهم، قال أحدهم:

– ما حاجتك يا مَرَةْ؟

انهار فجأةً منتحباً، يرطن بكلمات غير مفهومة، يجأر كثكلى. شعر بعضهم بالإثارة، ارتفعت أصواتهم يواسونه، ازداد صوتها وضوحاً:

– أخي، أخي، لم يعد منذ أيام، بحثت ولم أجده، ساعدوني أن أسأل عنه لدى شاوش السجن المسوري.

– المسوري مريض في المستشفى الجمهوري.

– مريض، ضاع أخي؟

لم يعد يهمه ما يقولون، ابتعد باكياً وروحه تصرخ: ها أنا أقترب أيها السجان،الشكر لك يا إلهي.

يلتذُّ لانتفاضة جسده وسط ثوبه النسائي، متعة خطواته، اخترق التحرير، شارع جمال، قاع اليهود، قاربَ حي المستشفى الجمهوري، ساحة كما رآها عند سجوده، عربات عسكرية، أسوار عالية، بوابة مضاءة. منعه عسكري الحراسة من الدخول، انتحب وتلوَّى بإغراء، لم تُفده تلك الحيلة.

ابتعد يجرُّ خطواته، جلس في عتمة إحدى الزوايا يرقب مبانيَ بيضاءَ خلف الأسوار، تخيَّل عيون المسوري حين يتعرف عليه.

***

الساحة الأمامية لا تهدأ، عربات، عسكر، نهض يبحث عن منفذ، يذرع الشوارع المحيطة بالأسوار، هدوء إلا من أصوات قذائف تأتي من بعيد. أكمل السير حول السور الشرقي، انعطف غرباً بمحاذاة جدار السور الشمالي حتى نهايته، مساحة غطتها أشجار حرشية، أكوام خردة، توغَّل وسط ظلام الليل، مخلفات وأشجار عطشى، أكوام زبالة، روائح تفسُّخ، فتحة في جدار المستشفى الخلفي، خمَّن أن يكون ذلك باباً خلفياً للمخلَّفات، تجاوز ركام عفن، وجد نفسه في أحراش مهملة، برزت له خلفية مباني المستشفى، سار بحذر، اقتربت حدة روائح المحاليل، انعطف بين مبنيَيْن إلى ساحة نظيفة تحيطها مبانٍ من عدة جهات،اتجه إلى أحد المباني، حركة في كل اتجاه، الممرات، السلالم، أبواب الدور السفلي تطلُّ على ممرات جانبية، لم يعره أحد اهتماماً، سار بمحاذاة تلك الأبواب، عنابر مليئة بالمصابين، مزيج من الأنين والروائح النفاذة، قرأ يافطات على الأبواب: قسم الباطنية، العظام، الجراحة، المسالك. لا يعرف أين سيجد المسوري، يختلس النظر إلى صفوف الأسرّة علَّه يراه، استوقفه أحدهم:

– هل من خدمة يا سيدتي؟

– أبداً، فقط تداخَلَت عليَّ السلالم، أنا مرافقة لأحد المرضى.

– يمكنني مساعدتك.

– أخي المسوري، شاوش سجن الرادع.

قاطعها:

– غرفة شاوش السجن؟ من ذلك السُّلَّم– مشيراً باتجاه أحد السلالم– الدور الثاني، قسم الغرف الخاصة، هل أوصلك؟

–شكراً لك، أعرف طريقي.

صعد درجات السُّلَّم ومفاصله ترتجف، عدَّها بشكل لا إرادي، استعرض ستة أبواب، لا أحد يشبه المسوري، صادف ممرضاً سأله مدَّعياً توهانه، كادت ساقاه أن تتحولا إلى أجنحة، خفة لم يعهدها، أطلَّ من باب في طرف الممرليراه ممدداً، وقد نبتت أنابيب أنفه وأوردته، إلى جواره سرير خالٍ، فوجئ بشاب يقف في ذهول لدخوله في ذلك الوقت، لم يلتفت إليه، رفع صوته متصنِّعاً، داعياً له بالشفاء، اقترب بوجهه من وجه المسوري يتأمله وقد بدا هرماً بشعره الأشعث وبشرة وجهه المصفرَّةوفمه المفتوحوعينيه المغمضتين، لُفَّت رقبته وصدره بشاش كثيف. استمر ينتحب بحرقة، وذلك الشاب يرقبه مرتبكاً.

– أرجوك يا بنيّ كأس ماء، جف حلقي، لقد أتيت لأطمئن عليه، أريد أن أتحدث إلى طبيب ليطمئن قلبي.

– هو بخير، وقد أجروا له عملية رتق الحاجب وتجبيرة لأضلاعه، هو أحسن، فقط نصحنا الطبيب بعدم إيقاظه.

– ممَّ يشكو؟

– أحدهم طعنه بغتة!

– الكلاب، أين سيذهبون من العقاب؟أريد أن أسمع الطبيب قبل أن أنصرف، هذا ابن خالي، رضعنامن صدر واحد، أرجوك أحضر لي طبيباً كي أطمئن عليه.

هبط الشاب مرتبكاً، راقبه وهو يهبط الدرج، أغلق الباب من الداخل، وقف يتأمله، أحس بكفٍّ تربِّت على رأسه، أنفاس تصطدم بمؤخرة رقبته، مدّ يديه، أزال أغطية المريض، لا يدري لماذا أزالها، تأمل نصف جسده العاري، تقدَّم وسحب بأكفّ مرتجفة أنابيب أنفه وأنابيب وريده، وقف يراقبه، صدره يعلو وينخفض بشكل متسارع، فكر أن يضغط بالمخدة لكتم أنفاسه،لم ترق له الفكرة، يخنقه بالضغط على حنجرته، نعم أعجبته الفكرة، أخذ يبحث عن وسيلة، سحب خيط حذائه، أدخل كفه برفق تحت رأسه، طوى الخيط حول عنقه، داهمته نوبة رجفان شديدة، تماسك، جذب أطراف الخيط بقوة،ارتفعت أطرافه، زاد من شدة الجذب، فتح المسوري عينيه وفمه مُصدراً

صوتاً يشبه الضراط،وقد انتفض جسمه بعنف، ظلَّت أطرافه ترتعش بقوة، خشي أن تفلت الأمور بين يديه، شدّ بعنف،ليهدأ كل شيء رويداً رويداً، سحب خيط حذائه، ترك عينيه الجاحظتين، أغطيته، أنابيب أنفه، أوردة ساعده، كل شيء أعاده كما كان، أحسَّ بمن يمسك كتفه، كاد قلبه يختنق، أنفاس تلفح رقبته، تذكر أنه المرسل من عند الله، يظنها رائحته، فتح الباب، خرج، أطلَّ من الشرفة الأمامية على الساحة، لا أحد، لم تتغير حركة الممرضين والأطباء، سار نحو السلم، خانته مفاصل ساقيه، ثقلت قدماه عن الحركة، هبط الدرجات زاحفاً على مؤخرته، يتوقع ظهور ذلك الشاب، وصل أسفل السلم بمشقة، عبر أطراف الساحة متكئاً على الجدران، التصق بظلِّ جدار يراقب ما يدور.

بعد وقت انعطف شمالاً لتبتلعه ظلمة الساحة الخلفية، مخلفات وقطع خردة، أضواء النوافذ تراقبه، سار بصعوبة فوق ركام العفن باتجاه الباب الخلفي الصغير، الأحراش والمخلفات، داهمه شعور مخيف وهو يتجاوز الأسوار، ابتعد في الشارع الخلفي كمن يهرب من نفسه، اتجه شرقاً حتى وجد نفسه في ظلمة أخدودالسايلة، جثم ينتحب، رفع كفيه باحثاً علَّه يرى أصابعه: لم أكن أتخيَّل أنني سأقتصُّ بهذه البساطة، وأنني سأتحوَّل إلى قاتل، أم أنه لم يمت وعليَّ ملاحقته من جديد وقتله! ينتحب مناجياً الله.

ابتعد يسير في مجرى السايلة المعتم، يرى أشكالاً لا تشبه شيئاً، رياح تصفِّر بصقيع يتخلَّل رأسه، كل شيء دون ملامح، أدركه الإعياء، فقد بوصلة الاتجاهات، سقط أرضاً، تكوَّم على نفسه.

أيقظته لسعة الشمس، رفع رأسه يستطلع الأمر، أحس بسكون غريب، استقام،تسير قدماه في أخدود السايلة، دور ومآذن صنعاء بعيدة. استغرب متسائلاً: من حملني إلى هذا المكان البعيد؟ يعدو باتجاه المدينة، تلاحقه شواهد قبور كثيرة، يهرول مسرعاً، وأخرى تسابقه، لم يكن من فواصل بين القبور وأطراف المدينة.

عبر شوارع وأحياء كثيرة، دخل وسط زحام الأسواق، عرج على مطاهير مسجد داوود ليخرج بملابسه المعتادة، لم يرفع عينيه وهو يعبر صاعداً إلى خلوته، أغلق بابها على نفسه، صمت قليلاً يسترجع ما حدث، لم يعد يرى غير تلك اللحظات وهو يشد خيط حذائه، عينيه الجاحظتين، صوت غرغرة حنجرتهيصمُّ مسامعه، داهمه نحيب حار، فقط يريد أن ينتحب.

سمسرة وردة

لا يعي لماذا قرعُ الباب يصيبه بالرهبة، يتبلَّد لبعض الوقت قبل أن يستجيب لفتحه. أطلَّ دون لثام، تأملت شحوب وجهه،نظرات خوف عينيه الذابلتين، رائحة الخلوة، تجرأت لأول مرة على لمس كفه، سحبته خارج الخلوة، لم يقاوم، أجلسته بجوار أواني القهوة حيث كان يجلس، تختلس النظر إلى وجهه، لم يلفته هديل الحمام، تهاطله على السطح، بياض القباب، نوافذ الدور العالية، خضرة الأشجار المحيطة.

عيناه تسافران إلى البعيد، ظنَّت أن شيئاً ما يتابع النظر إليه، لاحظت عينيه تسافران إلى اللاشيء، لم تدرِ ما عليها فعله، تيقَّنت من أنه يحمل قلباً رقيقاً، وأن هناك امرأة تشقيه، همَّت بسؤاله، أن تطلب منه أن يبوح بما يؤلمه، تراجعت وهي تتأمل شرود نظراته، حملت أوانيها وهبطت في حيرة.

داومت على الصعود تختلس السمع إلى نحيبه وهو يصلِّي، يناجي ربه أن يخلصه من مناظر احتضار الشاويش، تقرع الباب لتخرجه، تتمنى أن تعيد نظراته الشاردة، أن يتحدث عمَّا وراء شقائه.

اكتفت بوجوده صامتاً على أن يغيب لملاقاة معذِّبته، تفكِّر أن تتبعه يوماً إلى مواطن ألمه وشقائه، يوماً بعد يوم تشعر أنها تعرفه منذ زمن بعيد، وأن عليها إخراجه مما هو فيه.

تمسك يده بين كفيها، تمعن النظر في صمت عينيه، تتخيَّل سماع حديث قلبه، رفيف مشاعره.

أحد الصباحات جلست تتغّم بلحنٍ هامس كمن يهدهد طفلاً، تُدحرج كلماتها، تساؤلاتها، لاحظت تفاعل ملامحه وقد التفت ينظر إلى وجهها، نهَرَها:

- ماذا تُريدين مني؟

لم تجب، شعرت بغصَّة، صباحات تجلس بجواره صامتة،اكتفت برسم ابتسامتها، تحاول أن تذيب صوت الرفض بداخله. بعد أيام ردت على سؤاله بسؤال آخر:

- من أين لك كلُّ هذه القسوة؟

أخرجه سؤالها من دائرة التيه، نظر إليها وكأنه يراها لأول مرة، أشرق وجهه بابتسامةٍ شاحبة، تشجَّعت، أرادت أن تخرجه أكثر:

- ما الذي يشغل ذهنك؟ هيا حدثني!

لم تصدق لمعان عينيه حين التفت ناظراً إلى وجهها، لم ينطق، ظنت أن كلماتها ستدفعه للخروج من صمته، صمتت قليلاً ثم واصلت همسها وكأنها تحدث نفسها:

– لا شيء يستحق أن نعذب أنفسنا من أجله!

– ...

– ولو كان حبيباً خائناً أو متكبراً!

– ...

– لماذا ندفع أنفسنا للهلاك؟

– ...

– ألا ترى هزالك؟

– ...

– لا تأكل، لا تتكلم!

أعاد النظر إلى عينيها، خيَّم صمتٌ مبعثر، أحسَّت إزاءه بمشاعر ملتبسة، وضع رأسه بين ركبتيه وأغمض عينيه.

بدأ يتابع صوتها:

– أرجو ألَّا أكون قد ضايقتك!

– ...

– هي رغبة في إخراجك مما أنت فيه!

– ...!

–عرفت أناساًكُثر، أسمع بين وقت وآخر كلمات غزل من بعض نزلاء السمسرة، أجامل هذا وأداري ذاك، كلمات تولد وتموت، لكنك أول من شعرت به!

رفع رأسه، ابتسم، يرى وجهها مقلوباً، صمتت تتأمل نفسها في عينيه، حاول النطق، فرَّت كلماته، كاد يقول إن إلحاحها يضايقه، واصلت كلماتها حين رأته يطيل النظر في وجهها،لاحظت ملامح الضيق:

– قد أكون ثرثارة، وقد تكون كلماتي ثقيلة عليك، لكني أتعذب وأنا أراك تذوي، لماذا اخترت سمسرة وردة دون سماسر صنعاء الكُثر، ألم تسأل نفسك؟ أليس القدر من ساقك إلينا؟

صمتت قليلاً تنتظر ردة فعله، فكرت أن تستدرجه بالمزيد من الكلام حول نفسها، أخفضت صوتها: أسمتني أمي على اسم جدتها، ليسوقني القدر كي أعمل مساعدة لخالتي وردة التي أسماها والدها هي الأخرى باسم والدتها بعد أن توفيت عقب ولادتها.

وأساعد زوجها الحاج الذي تغير اسمه من أحمد إلى وردة، والسبب هو اسم السمسرة الذي اشتُقَّ من اسم إحدى جداته المؤسسة لها منذ مئات السنين، ليتلبَّسه هو الآخر هذا الاسم!

المهم دعنا من تلك الأسماء، أشعر بالخجل وأنا أتحدث إلى صمتك، بودي أن أتعرف إلى ما يشقيك؟ وممَّ تتعذب؟ أن تبوح بما يتعبك، أن أساعدك، وإن صممت على الصمت لن

أسألك مرة أخرى. أتمنى عليك إن قررتَالخروج أن تخبرني! قد تستغرب طلبي،فأنا أخاف عليك، أسأل نفسي لما أفكر فيك، ولا أجد جواباً قط!

قد يكون ذلك بسبب إحساسي بأنك وحيد وغريب في هذا المدينة التي تنخرها الصراعات وتحاصرها الحروب، وهذا أنت تعيش ما نعيش، ننام على أصوات المدافع ونصحو على أصواتها، نفقد يوماً بعد يوم أحد معارفنا، نرى مشانق تُنصب في قلب ميدان التحرير، ونسمع عن جثث تنهشها الكلاب في أطراف المدينة.

تعود وقد وعلت الجروح والخدوش أطرافك ووجهك، أخمّن أن أحدهم قد حاول الاعتداء عليك، أو أنّ في الأمر أشياء أخرى تدفعني للقلق عليك.

أودُّ أن تعلم أن غيابك الأول جعلنا نفكر أنك هربت، وحين عدت زادت حيرتنا! ثم غيابك في اليومين الماضيين جعلنا نعتقد أنك قد قُتلت، حاولتُ أن أتخلَّص من قلقي لكنها خالتي وردة وزوجها دوماً ما يناقشان غيابك، قد تظنُّ أني أبالغ، اِنزل واسألهما عمَّا يتحدثان، قد يذهب تفكيرك إلى ما هو أبعد، لا ألومك، لكننا كثيراً ما ننشغل ببعض نزلائنا، وهكذا وجدنا أنفسنا مشغولين بحضورك وغيابك، حتى أمي في البيت أمست تسألني عنك، صدقني أن شعوري بمن حولي يتغير، طفلتي حين أحتضنها يذهب تفكيري إليك، قد يأتي يوم وأعرف سببخوفي عليك؟

لحظة دخولك السمسرة لفتَّ انتباهي بهيئتك المهلهلة ولثامك،تجنَّبتك خائفةً، منذ اليومين الأولين لوصولكم لم تطلب منا شيئاً، خالتي وردة سألتني عن سرِّ مكوثك في الخلوة لأيام دون شراب وطعام!! لم تصدق حين حدثتها بأنك تلتقط فتات خبز الحمام، قال الحاج وردة:«قد يكون مريضاً!»، كنت أراقبك من خلف باب بيت الدرج، لم أكن أتوقع أني سأنشغل بك، وها أنت تنطوي على نفسك، لا تريد أن تأكل أو تحدث أحداً، كل ذلك جعل مشاعري يوماً بعد يوم تتجه نحوك.

***

صمتت محتارةً، لم تكن تعرف أنه يخافهاوأنه يعاني مما يخفيه، لمحها تداري دموع عينيها، تتساءل: هل تستمع إلى صوتي؟ تصمت قليلاً ثم تهامسه موبِّخةً نفسها: يجوز أني أزعجك، لكنني لا أقصد إلا مساعدتك!

تابعت بصوتٍ كسير: لن أجبرك على الكلام، قد ترى أن لك مبرراتك، لكني لا أملك ما أخفيه، ولذلك أرجو أن تتحمَّل ثرثرتي، وحين أراك قد تعافيت سأصمت، ولذلك سأعاود الجلوس إليك وستستمع إليَّ ما دمت صامتاً، والآن أتركك لأذهب، فقد تكون خالتي بحاجة إلى مساعدتها.

الرادع

عينا شاوش السجن تطاردانه: جحوظهما لحظات احتضاره، حشرجة حنجرته، إحساسه بالكفِّ التي ربَّتت على رأسه، الأنفاس التي لفحت صدغه.

تستعيد ذاكرته مشاهد أيام السجن، يرى الشاوش يستقبله عند وصوله الرادع في تلك الليلة، بعد أن انتزعه العسكر ذوو القبعات الحديدية الحمراء من دفء مسكنه المشترك. قبل تلك الليلة كان يؤمن بالثورة وبعدالة رجالها، ولم يكن يُصدِّق ما يسمعه عن اختفاء أشخاص وسجن آخرين، وما يتحدث به الناس من رؤية جثثٍ ملقاةٍ على أطراف المدينة ومجاري السيول، يردد دوماً: «وإن كان، قد تكون جثث خونة للثورة»، حتى ليلةكسر باب مسكنه.

قبل إلقاء القبض عليه بأسابيع سمع من إذاعة الثورة خبراً حول مؤامرة تحاك ضد الجمهورية، وأن دولة مجاورة قد ضاعفت من دعمها للمتآمرين على الشعب، مشيدةً برجال الجيش والشرطة الحربية الذين ألقوا القبض على عدد كبير ممن يخطِّطون للنيل من الثورة والجمهورية، وقد وصفهم الخبر بالطابور الخامس.

وقتها تزايدت المعارك حول صنعاء، واستطاعت بعضُ قوى الملكية التسلُّل والسيطرة على بعض جبال صنعاء المطلة ومهاجمة قرى الضواحي. أثناء ذلك زادت نقاط التفتيش في مداخل المدينة واستُحدثت سواتر ترابية وصخرية في الشوارع الرئيسية، وحدثت مداهمات لعشرات المساكن بتهمة ملاحقة عناصر التآمر.

جاء من يهمس في أذن الملثم ناصحاً: «خذ حذرك وتوارَ عن الأنظار»، وهذه هي المرة الأولى التي يحذره فيها أحدهم. فكَّر بزيارة القاضي ومعرفة ما يدور، أخذ إجازة من وظيفته كمدير عام بوزارة المعارف، لزم مسكنه المشترك مع بعض زملاء العمل، لكنهم لم يمنحوه الوقت لزيارة القاضي. ليلتها أيقظته ضجة غير معهودة، خرج ليرى أشباحاً بعد أن خُلع الباب، عسكر شاهرين بنادقهم أشبعوه ضرباً وركلاً، اقتادوه هابطين عبر درج مكشوف، نوافذ الدور المطلة على الشارع ترقبُ ما يحدث، أوقفوه أمام أضواء إحدى العربات، استعرضوا ملامحه، ضابط باسم الوجه سأله عن اسمه وعمله، طرح عليه عدة أسئلة أخرى، أعقبها بعدة صفعات وركلات، لينتهي الأمر بعصب عينيه واقتياده على ظهر عربة عسكرية تكدَّست بالأنين والدماء، وقد صُوِّبَت فوهات بنادق العسكر على من في حوضها.

لا يدري أيَّ الشوارع عبروا بهم، تتوقف العربة بين فينة وأخرى،تتعالى صيحات، وقعقعة رصاص، ليؤتى بأعداد جديدة إلى حوض العربة.

عرف بعد وقت أنهم في السجن الحربي في القلعة، أدخلوهم بعد أن سُجّلت أسماؤهم في كشوفات تتضمن بيانات كالوظيفة والعمر وعنوان العمل والسكن، أقرباء أو أصدقاء يتم الاتصال

بهم عند الضرورة القصوى، لم يصدّق مُدوّن البيانات أن لا أقرباء له أو صديق. نقلوه بعد فرزهم قبيل أذان الفجر إلى سجن الرادع، في تلك الليلة عرف الشاوش (المسوري) الذي استعرضهم في حجرة مستطيلة، لا يزال إلى اللحظة يتذكَّر تلك العينين، وذلك الفم الذي يجيد قذف الكلمات البذيئة والشتائم المقذعة، يسير أمامهم، يلطمُ هذا ويبصقُ في وجه آخر،يحفُّه عساكره، تلقَّى عدة صفعات ساخراً منه: وجه كالعجين، وتتآمر، ثم من أين تتنفَّس هذه الرائحة المخزية، أم أنك نقرة خراء متحركة؟

نشطت مطارق حلقات القيود، يسيرون بخطى رتيبة وقد تعالى صليل القيود، عبروا بهم بهواً واسعاً يفضي إلى باحات، تُرى نجوم السماء، ارتفعت صرخات المساجين بالترحيب والكلمات الساخرة، بهَره تكدُّسهم، أصواتهم الفرحة، مع الأيام أدرك أن ذلك نوع من ترويض النفس. لم تكن تلك المرابض في مستويات واحدة، ولذلك يرتفع ضجيج وجلجلة القيود ليل نهار، صخب العراك بين فينة وأخرى، بالكاد يجدُ من يصلُ مكاناً يستلقي فيه. ليلته الأولى افترش الأرض ولم ينم بسبب رغبته بهرش جسمه، ليكتشف أن تراب الأرض وشقوق الجدران مليئة بالقمل والبراغيث و(الكُتَنْ)، أُدميت بشرته، يتعجب لرؤية سجناء ينامون في هدوء يُحسدون عليه. مرت الليالي وقد اكتست بشرته بلون داكن وأضحت له طبقة تغطي أطرافه وبقية جسمه، طبقة كلَّما زاد سمكها شكَّلت درعاً لا تخترقه مجسَّات القمل والحشرات المستوطنة، استعذب تلك الروائح التي طغت على رائحة بين فخذيه.

***

مرت أسابيع على وصوله الرادع،كان خلالها يسمع نداء العسكر على بعض الأسماء،لم يطلبه أو يسأل عنه أحد، ظنَّ أنه من المنسيين، أسعده ذلك وتمنى أن يكون كذلك بعد أن لاحظ مقدار شقاء من يُطلَبون للتحقيق، وغالباً ما يُوزَّع الليل إلى أثلاث، يصمت الجميع حين ينادي المنادي على الأسماء، يسحبون من يسمعون أسماءهم في الثلث الثاني، ليعودوا بهم بعد ساعات وقد أُدميت وجوههم، وآخرون يعودون بهم محمولين أو سحباً لعدم قدرتهم على الوقوف أو السير، والبعض يعود منكساً رأسه دامعاً لشعوره بطعن رجولته. يلوذ بالصمت، قلة من يطلبونهم في ساعات النهار، ليفرج عنهم، يعمُّ الفرح والبهجة بين نزلاء الرادع، تنهمر الدموع وهم يودعون من سيغادرهم.

يدعو الله ألَّا يسمع اسمه بين من يُطلبون في الثلث الأخير من الليل، حين يرتفع صرير مفاصل الباب يرتفع صوت من يتلو الأسماء، تنكتم الأنفاس أثناء ذلك، وما أن ينتهي العسكري حتى تعمُّ أصواتُ التكبير والتهليل ممن لم يسمعوا أسماءهم، يتخلَّلها نحيب بعض المطلوبين، البعض يناجي الله مودِّعاً الجميع، والبعض ينتقي كلماته مُظهراً جلَدَه ورباطة جأشه، وقلَّة يلقون خطباً في الوطنية، معلنين ما قاموا به من بطولات، فاضحين بعض الشخصيات وزعاماتها للقوى

الرجعية وخيانتها للثورة. يخرج المطلوبون ليرفع الجميع أصواتهم بالدعاء لهم، وهم يعرفون أن أرواحهم سترتفع بعد حين من اقتيادهم، ولن يروا بزوغ شمس يوم جديد.

وهناك أوقات يدعو فيها شاوش السجن (المسوري) بعضهم إلى مقيله لينتزع منهم شهادات أو وشايات على بعضهم أو اعترافات كاذبة لاستخدامها ضد شخصيات نافذة خارج السجن.

في عصر ذلك النهار سمع اسمه، وهي المرة الأولى التي يُتلى فيها، البعض بارك له، وآخر يدعو له بالفرج، اضطرب جسمه وتعرَّق، فاحت رائحته بعد أن كانت روائح السجن قد طمرتها، اصطحبه العسكري بلطف، عبَر به حجرة السلاسل ومدقة القيود، صعد به درجات مقيل المسوري، غرفة صغيرة لا تتجاوز متكآتها السبعة متكآت، أجلسه بجوار الأحذية عند الباب، بينما المسوري يتربَّع في زاويته القصيَّة، أشار على العسكر بالانصراف وإقفال الباب، سأله الشاوش حول ما هو مقرر له من كدم وطعام، ثم حدثه حول طلبهم منه إرساله للتحقيق ليلاً، وأنه توسل أن يبقوه أياماً حتى يرى ما يكون منه، قال له:«أعلم أنهم غرروا بك، فأنت وشريحة الشباب مستهدفون من أعداء الثورة والجمهورية، البعض يقع في خديعتهم، لكننا نغفر للشباب عدم تجربتهم». انبهر في بداية الأمر بما يسمعه، وأبهرت حواسه أكثر نظافة الغرفة وترتيب أثاثها، مقارناً تلك المرابض بالأسفل، حيث ترتع البراغيث والقمل والكُتَن في ترابها وجدرانها وسقوفها، وروائح لا تطاق، فلا يميِّز من يدخلها بين رائحة الأجساد وروائح الغائط في مطاهيره التي امتلأت بالمخلّفات الآدمية، وأمسى النزلاء يقضون حوائجهم في الزوايا وأطراف الباحات، محاولاً تخمين ما وراء كلمات الشاوش، حتى سأله عن علاقته بالقاضيوالشيخ، وعن طبيعة الأعمال التي يوكلونها إليه. صمت ناظراً إلى هيئته ثم قال له بصوت عطوف: أُنظر إلى حالتك وتخيَّل ما هم فيه من نعيم، هل سأل أحد منهم عنك؟ ثم قال له: الجهات المسؤولة تعرف كل شيء، فقط عليك أن تكتب تقريراً مفصلاً عن كل ما يربطك بهم، وعمَّا تعرفه من أنشطتهم وما يدور في اجتماعاتهم، وأيضاً عن تواصلهم بأعداء الوطن داخل اليمن ودول رجعية خارجية، وما تصلهم من أموال وكيف يوزعونها. ابتسم المسوري مكرراً:«أجهزة الثورة تعرف كل شيء».

شعر بغبنٍ حقيقيٍّ وهو يفكر في ما طُرح عليه، فقط كان مشغولاً بما أحدثته بداخله تلك الكلمات، لقد ذكر له أسماء أناس يعرفهم بحق، وأناس اشتغل معهم، وآخرين لا يعرفهم. أخذ يحدث نفسه: فماذا يعرفون عني؟ لا يوجد ما أخفيه! أم أن تلك تهويمات من أجل الإيقاع بي؟ ظلَّت الأسئلة تعتمل بداخله، متردداً بين القبول والرفض، ليخرج صوته الرقيق هادئاً:

- لا أستطيع تنفيذ ما طلبته.

صمت الشاوش للحظات وقد تغيرت ملامح وجهه:

– سأترك لك فسحة للتفكير، تذكر بأنهم ينتظرونك للتحقيق معك ليلاً، ويمكنك اختيار طريق الخروج!

– ليس عندي غير ما سمعته.

صرخ الشاوش بغضب:

– قم، قم، لقد أفسدت رائحتك طعم قاتي. أين العسكر، أينكم؟ اسحبوا هذا الربح وزيدوه قيدين ومغلقة!

قبيل الثلث الثاني سمع اسمه بين عدد من الأسماء، وقف ناظراً من حوله:«قد أعود لأحكي لكم، الدعاء»، سار تحفُّه كلمات ونظرات العطف، رأى المسوري يقف ممسكاً بورقة يتلو المطلوبين للشرطة الحربية، وآخرين للبحث الجنائي، والبعض للداخلية، وهكذا حتى تم توزيعهم لتقلُّهم عربات في الخارج إلى الجهات المعنية بالتحقيق، كان هو الوحيد الذي لم يوزعه المسوري للخروج به، رمقه مبتسماً:

– هل فكرت؟ لن تندم إن طاوعتني!

– فكرت!

– ستخرج من هنا حراً.

– أنت حقير!

نطق تلك الكلمة ولم يعرف ما جدوى نطقها، لكن نطقها جلب له شعوراً بالراحة، لتستقبله أكفُّ العسكر الذين طوَّحوا به وأخذوا بضربه، ثم حملوه على عربة عسكرية صغيرة دون غيره يرافقه ثلاثة جنود، عبرت العربة ظلام الشارع، تمنى لو أنهم ساروا به مسافة أبعد حتى يكحِّل عينيه بشوارع صنعاء، شعور دافق حرَّك دموع عينيه وهو يرى قصر السعادة وسط غبش ليلة مقمرة، يشعر بروحه تعبر تلك الهالة البعيدة، انعطفت العربة يميناً من جوار قبة المتوكل إلى ميدان التحرير، رأى بوابة المدرسة العلميةوقصر البشائر،وقفت العربة، اقتادوه عبر بوابة مبنى يُعرف بأنهالداخلية يزفُّه العسكر بالضرب والشتم، صعوداً على درجات عريضة، حتى الدور العلوي، تركوه كومة بين أرجلهم، يظهر رجلٌ ببزة عسكرية ملوحاً ببقايا سوط، صارخاً «اتركوه»، تفرقوا، اقتربت منه أقدام حامل السوط، طرقع بالسوط فوق رأسه:«انهض»، أمسكه من ياقة قميصه، يتأمل وجهه، مسَّد على شعره بسوطه، مدَّ سبَّابته، مسح قطرة دم فارَّة من فمه، لعقها مبتسماً، رفع صوته للفراغ: «من أمركم بأذيته؟ لا يجوز التعامل مع الناس بهذه الطريقة!»، أمسك معصمه: «يبدو أنك جائع، هيا سنصعد حيث نرى صنعاء من مكان عالٍ». سطح واسع، جدار قصير يتيح رؤية جزء من الليل، بدت له صنعاء من ذلك المكان أفقاً مُعتماً إلا من وميض أضواء متفرقة. صَمَتَ متوجساً، أجلسه أمام طاولة صغيرة، ضوء باهت من كوَّة الدرج، أشعل سيجارة، مدَّ له بأخرى لم يرفضها، بدأ يميز الزوايا، صمت لم يطُل: «هل تشرب؟!»، التبس

عليه الأمر، لم ينتظر إجابته، صفَّق موجهاً صوته للفراغ: «الشراب والطعام»، سريعاً ما ظهر من فم الدرج عسكريان يحملان باقة من البصل وخبز الـ(كدم) وصحنين لم يتبيَّن ماهيتهما حتى دعاه لتذوقهما (سحاوق طماط) حار، وصحن فرخة مهروسة، وقارورة وعدة كؤوس. أردف بصوتٍ هامس وهو يصبُّ كأسين: أعتذر لك عن سوء معاملة العسكر.

كان الأمر يزداد تعقيداً لديه، مدَّ له بكأسه هامساً:

- هذه الليلة ستكون شاهدة على تأسيس صداقتنا، إلا إذا اخترت طريقاً أخرى!

أخذ حامل السوط يرتشف كأسه ثم التفت إليه:

- اشرب، فالشراب يمنحك شجاعة!

- لا أشرب.

- يدفئ جسمك ويمنحك جرأة.

***

نقلته كلماته إلى تلك الليلة التي شارك مدرِّسه العشاء وجرعات قيل له: «القليل منه يقوِّي البدن»، ثم أمست عادة. واصل حامل السوط: أتعرف أن أخوَّة الشراب أقوى من أخوَّة البطن! هيا اشرب لنكون إخوة.

رائحة الثوم والدجاجة جعلته يمدُّ يده دون وعي، فتل قطعة من (كدمة) غمسها في صحن السحاوق، فتل أخرى، فتل لحم الدجاجة، ارتشف جرعة، صفَّق حامل السوط: الآن أصبحنا أصدقاء، بل إخوة.

التقط الملثم قطعة بصل، أخذ يلتهم ما في الصحون، مدَّ له بسيجارة بعد أن أشعلها، لم يمانع، شفط دخانها وأضراسه تطحن ما يصل، حامل السوط يتابع حركة يديه وفكيه، شعر بجلده يتنمَّل ورأسه تطفو، أطرافه تخف، رائحته، لسانه يودُّ أن يقهقه، أمسى المكان مألوفاً، لم يعد يشعر بأي خوف أو برد. هامسه حامل السوط:

- أتود أن تقول شيئاً؟

- هز رأسه نافياً!

ثم قهقه وهو يغمغم بكلمات غير واضحة.

صبَّ له كأساً آخر:

- أريدها ليلة مشهودة، كُلْ، اِشرب.

التفت إليه.

- أنا منتشٍ، شكراً لك. لكنك لم تخبرني من أنت؟

- أنا شخص معجب بشجاعتك!

- أعني اسمك.

– لا يهم.

– وكيف نصبح أصدقاء؟

– بالتفاهم، أنا أسألك وأنت تجيب عليَّ.

– لا أحب الأسئلة!

– لا تحبها، أجب عليها، هي أسئلة عادية.

– مثل؟

– ما هي طبيعة علاقتك بالقاضي؟

طال الصمت بينهما.

– لم تجب عليَّ!

أومأ برأسه رافضاً الحديث.

– ومن كان يحضر اجتماعاته؟

حرك رأسه علامة للنفي!

– من هي أبرز الشخصيات التي وجَّهتم إليها الدعوة لمؤتمر (خَمِرْ) ولم تستجب؟

كرر هزَّ رأسه.

– أودّ أن أسمع صوتك!

أومأ برأسه بالنفي وهو يرتشف ويزدرد ما تبقى على الطبق.

صفَّق حامل السوط، لفظت الزوايا عدداً من العسكر، همس لهم بكلمات: الملف،احضروا الملف.

لحظات ثم وُضع ملف أمامه:

– ما دامت الأسئلة تضايقك يا صديقي يمكنك قراءة هذه– مادّاً له عدة أوراق–ثم عليك بأن تبصم على كل ورقة، حينها نكون قد انتهينا من كلِّ شيء.

التقط الأوراق، حاول تمييز كلمات السطر الأول من إحدى الأوراق، تداخلت الأحرف ولم يستطع التقاط خيط القراءة.

– من الصعب قراءتها!

– على كلِّ حال تنقصها بصماتك، وهذه (الأسطمبة)! قهقه عالياً ثم عاد يتابع تقليب الأوراق.

– يبدو أنها أسئلة تتبعها أجوبة؟

اقترب من السراج وأخذ يقرأ بصعوبة، لاحظ أن المحقق يتفرَّسه، قرأ الصفحة الأولى، وجد أنها تدين أسماء كثيرة، بعضها لم يلتقِه وأخرى التقاها ولم يتعامل معها، تمتم:

- القاضي صاحب فضل، أيعقل أن أشارك في كسر ظهره؟ أم أن الصراع بين الأقوياء دوماً ما يكون قرابينه الصغار؟!

صمت حامل السوط يراقب ملامحه، بينما سرحت به ذاكرته إلى عهد ما قبل عام ١٩٦٢م، ذلك اليوم الذي ذهب فيه إلى مقيلاًالقاضي (رئيس الديوان الملكي) بعد أن سمع عن تعاطفه مع أبناء بلاده (إب)، ومن يومها أصبح يتردَّد عليه، يذهب لتهنئته في الأعياد والمناسبات الدينية. وبعد الثورة داوم على الذهاب إليه، ليوصي بعودته إلى وظيفته في (المدرسة العلمية)، ثم بعد عدة أشهر تم تعيينه في وظيفة مدير عام للتعليم في وزارة المعارف،كان القاضي وراء ذلك.

التصق بعدها بديوانه، يكلِّفه ببعض الأعمال ويعتمد عليه ببعض مراجعات من يصلون إليه، إلى ذلك المساء حين دعاه لحضور اجتماع ضمَّ مجموعة وجهاء ومشايخ وضباط ناقشوا فيه سُبُلَ التحضير لمؤتمر تصالحيٍّ لإنهاء الحرب والاقتتال بين الجمهوريين والملكيين، أوكل إليه كتابة ما يدور، حفظ الأوراق، إعداد قوائم المدعوين، كتابة الدعوات، جمع وثائق المؤتمر، وتوثيق كلّ ما يدور فيه. بذل الملثم جهوداً أبرزت قدراته لدى القاضي.

نجحمؤتمر (عمران) نجاحاً كبيراً رغم تباين الأفكار، ثم كان مؤتمر (خَمِرْ)، وهكذا أصبح جزءاً من حاشية ومساعدي القاضي.

ولذا يجد نفسه بعدذلك في وضع غريب، فهو السجين، والمطلوب منه أن يعدَّ تقريراً يدين في مجموعة من رموز الثورة ومن بينهم القاضي، وبعض الشخصيات التي لم يقابلها يوماً، أو يبصم على أقوال ليست أقواله كشهادة معدّة مسبقاً.

اجتاحه إحساس بالخوف، تعاظمت لديه مشاعر المسؤولية، نهض واقفاً، لم يكن يعرف ماذا بعد النهوض، غير أنه مدَّ بالملف لحامل السوط:

- لمَ لا نكون أصدقاء أو إخوة دون بصمات!!

لم يتحرك حامل السوط، ولم يندهش، غير أنه أشار بسوطه قائلاً بصوت قوي:

- حتى نكون أصدقاء لابد أن تبصم!

وقف للحظات ثم التفت:

- لن أبصم يا صديقي!!

صفَّق حامل السوط، سُحب ذلك السراج، لا يدري ما حدث بعد ذلك، إلا أنه كان ممدداً ووجهه وصدره مبلَّلان بماء بارد، طعم الدم في فمه، رائحة الوجع، سيقان أشخاص يقفون حوله، ضجيج دون تمييز، ضربات متتالية على رأسه، غاب عن الوعي من جديد، لم يرَ ما حوله هذه المرة، ولم يعد يميز المكان، أنفه ينزف، أحد أسنانه الأمامية، شفتاه، وجهه متورم، جسده عار.

حاول النهوض، إحساس بوجع بين فخذيه، صقيع مفاصله، تكوَّم على نفسه يبحث عن تفسير لما هو فيه.

فوجئت عيناه بضوء مؤلم، أحدهم يركله بحذاء ثقيل، ثم ألقى بملابس عليه:«استعد لنعيدك إلى الرادع»، سحبوه عبر درجات لا يعرف عددها، العربة التي أقلَّته في الذهاب، عسكر يتصرفون بشكل عنيف، صوت مؤذن قريب، يحاول فتح عينيه فلا يرى إلا ضباباً كثيفاً، حمله العسكر ليضعوه أمام المسوري الذي كان في استقباله، أغمض عينيه، سمع صوته: «الحمد لله على السلامة ياعريس!»، سحبه العسكر إلى مربضه داخل السجن، التفَّ حوله المساجين، ترتفع على مسامعه أسئلة، كلمات متداخلة، همس، يحلق البعض في كدمات وجهه، يرجو من محيطيه أن ينظروا بعيداً وألَّا يسألوه، ثم صرخ ببقايا صوته: "اتركوووني، أرجوكم اتركوني»، انتحب كثيراً.

في اليوم التالي سحبه العسكر إلى مقيل الشاوش، أوقفوه قرب باب مقيله، نظر إليه من زاويته، أشار على العسكر بأن يجلسوه عند الأحذية، صمت قليلاً ثم نظر إليه بازدراء: لمَ لمْ تبصم؟ لم أظنك غبياً بهذا الشكل! لا أحد غيرك سيتوجع. اسمع،ما زال الأمر بيدك، وعليك تغيير مسار حياتك، إلا إذا كنت تجد لذة في ما يصنعون بك؟

لم يتوقع سماع تلك الكلمات، فضَّل الصمت، حينها صرخ الشاوش لعسكره: أعيدوا (خزقي)الخر، هيا خلصوني من رائحته الكريهة!

تضايقه همسات المساجين، نظراتهم، البعض يتودَّد إليه، آخر يهدده، مع مرور الليالي أدرك أن البعض يقتات من تلبية رغبات المساجين، وآخر يتسابق عليه الباحثون عمَّن يمنحهم اللذة القصوى. ذكّرته حياة الرادع بحياة عاشها في الحبس الأبيض(نافع) تمتم: لا أحد في منأى.

شارع السيسبان

ضاقت به خلوته، نقنقة وردة من خلف الباب تطالبه بفتحه. بعد أيام أحس برغبة في الجلوس إليها، أن يتخلص من مشاهد احتضار المسوري،فتح الباب، جلس يستمع إليها، حديثها يدور حول مشاعرها، تركها تعتب وتتوجع، ليعود مواصلاً صلواته باحثاً عن قبَس. يعيده منظر عيني ذلك الشاوش من جديد إلى جحيم إحساسه بالذنب، صوت أنفاسه، يغمض عينيه رافعاً صوته بتلاوة ما تيسر، علَّه يتغلَّب على تلك المناظر والأصوات.

فكّر أن يخرجليلاً، أن يهرب من جحيم مشاهد الاحتضار،انتظر مغيب الشمس، أحكم اللثام حول وجهه، لم يستجب لكلمات الخالة وردة وهي تدعوه للحديث إليها، عتمة سوق البقر، أزقة صنعاء الحجرية، لم تكن له وجهةلكنه وجد خطواته تقوده ليبتاع حزمة قات من شارع (السبحة)، خفق قلبه حين وجد نفسه أمام باب سمسرة أبوعامر، وقف محتاراً، تذكر مضايقة أسئلته، يسأل نفسه: «أين سأذهب؟ أريد من ينادمني، أن أسمع ما ينتشلني، من يحكي»، وجد أن تلك الأسئلة أخف من الوحدة التي تجلب له الجنون.

دخل، أضواء الفوانيس باهتة، العظمي وحيد، تصاحبه نارجيلة طويلة يتنفس دخانها بشكل عبثي، ما أن رآه قادماً حتى نهض فارداً ذراعيه، فاتحاً فمه بابتسامة لم تغيّر دمامة وجهه:

– أصيل والله أصيل، هل تصدّق أني عاتبت نفسي لمضايقتك، فكرت بك عدة مرات، وفكرت أن أزورك، أن أعتذر من مضايقتي لك،لكني لا أعرف مستقرك ولا أعرف عنوان سكنك، ورسول الله أني فكرت فيك كثيراً، هيا اجلس– مشيراً لعامل السمسرة بإعداد مُتَّكئه– أما زلت تخفي وجهك؟ على كلٍّ لا علينا، ماذا تشرب، شاي ملبَّن أو قهوة قشر؟

– أريد أن نتناول القات معاً.

– أمرك غريب، في الوقت الذي يكون الناس قد اكتفوا تبدأ أنت، انظر– أشار إلى صفوف المتكآت– لقد غادر الجميع.

– هذا قاتك وقات صاحبك.

وضع الأغصان على حجره، التقط غصناً من بينها أخذت أسنانه تلوكه، رافعاً صوته:

– والله قات يستاهل السمرة، ما لصاحبي نصيب،انصرف قبل لحظات وأظنه سيعود، هيا يا... – مشيراً لعامل السمسرة– بسرعة عمِّر النارجيلة، يا نجدِّد التخزينة، واللي خرَّبها يعمرها.

جلسا متجاورين، لم يدُم الصمت بينهما حين بادره الصبري:

– أرى في صوتك شيئاً من الكآبة، عسى علومك طيبة؟

– أبداً.

– عرفتك تجيد الإصغاء- هزَّ الملثم رأسه بالموافقة- يطلقون عليَّ الحكَّاء،وبعضهم يصفني بالمهذار، لأني أتحدث بشكل مستمر، أما إذا تناولت القات فلا يطيقني إلا شاعر الثورة، وأنت عليك إذا أردت أن تصاحبني أن تتحمل، فأنا ياصاحبيأرى كل فرد مجرد حكاية تمشي على قدمين، أنا حكاية أو قد أكون حكايات، أنت أيضاً كذلك، وكلٌّ من حولك مجرد حكايات، وفي تلك الحكايات البلسم لأوجاعنا ومتاعبنا، قد يضطر البعض لإخفاء أوجاعه لكنها سريعاًما تقوده للجنون أو قد تقضي عليه، فإن كانت لديك أوجاع أوهموم اِحكها بمزاجك، اضحك عليها قبل أن تضحك عليك، لا تجعلها تطفو على ملامحك وعيونك وصوتك، لا تتركها تلتهمك، تقتل قلبك، اِحكها قبل أن تحكيك!

تعجّب لكلماته الساحرة، أحس أنها تنفذ إلى أعماقه، لكنه فضل السكوت حتى لا يجد نفسه مُستَدْرَجاً يبوح بما يكتم.

– الليلة لن أزعجك بأحاديثي،سأصمت وأسمعك، هيا ياصاحبي أخرج ما بداخلك،نفِّس عن نفسك. القات يحلو بالمنادمة وإلا لما يجتمع الناس على مصاطب السماسر وفوق مفارش المناظر والمفارج.

– جئت لأسمعك.

– يبدو أن مزاجك معكَّر.

– يعني.

– هل تعجبك الحكايات؟

هزّ رأسهبالإيجاب.

– إذاًسأحكي حكاية سفري إلى عدن، وأنتظر أن تتأجج لديك الرغبة بالحديث، حينها أشعرني برغبتك،قاطعني واحكِ.

على كلٍّ، حين وصلتها سكنت مع أناس من منطقتنا في (الشيخ عثمان)، اشتغلت في البداية معهم بتحميل (البوابير) وتفريغها،ثم عملت مع من يشتغلون بتفريغ السفن. بعد حين توسط لي أحدهم لأشتغل مراقباً على عمال التفريغ بـ(دكة معلا)، نصعد السفن ونهبط، نحثُّ الهمم ونشحذ النفوس.

كنت ضمن مجموعة من زملاء العمل، في ذلك الوقت لم أكن قد عهرت بامرأة، أسمع من حولي يتحدثون عن مغامراتهم، عن الحب فأشتعل رغبةً لأن أكون فحلاً، أرجو البعض اصطحابي إلى إحدى النساء لكنهم يردون عليَّ بقولهم: عادك (فاسخ)، اكتفيت بلذة استماع حكاياتهم الغرامية، تلك الحكايات التي كانت تحلِّق بي في سماوات الخيال والأحلام، وصور لفاتنات نحصل عليها من العاملين فوق السفن زادتني جنوناً. ألححت وظللت ألحُّ على أحد رفقاء

العمل أن يصطحبني معه، أغريته بأني سأدفع ما عليه دفعه، ليستجيب لإغرائي مشترطاً عليَّ عدم البوح لأحد بذلك، فأنا كما يقولون لا زلت فاسخاً، اصطحبني إلى حيث يذهبون.

لم أكن قد ذقت الخمر بعد، رغم أننا نحصل على بعض قواريره من على ظهر السفن ونقوم ببيعها. نصحني رفيقي أن أتناول القليل منه قبل توجُّهنا حتى يذهب عني الحياء، كان صادقاً، ما إن ارتشفت أول كأس حتى انتشيت وأحسست أن عليَّ أن أعبِّر عمَّا يجول في نفسي، وأن أغني. سائق عربة الأجرة الذي أقلَّنا أخذ يغني معي «يا طائرة طيري على بندر عدن، زاد الهوى زاد النوى زاد الشجن».

كانت وجهتنا (الشكلة) بـ(دار سعد)، دخل بنا السائق شارع السيسبان، أخذت أبحث ماسحاً بناظري عن تفاصيل شارع الغرام، لم يكن كما تصورت، فلا توجد مبانٍ عالية أو بساتين وزهور نضرة، مجرد أكواخمتراصة، أطفال وكلاب وقطط، حفر مياه آسنة، لم أرَ من سمعت عنهن في مغامرات رفاق العمل، ومن أشاهدهن في صور المجلات: صف من المنازل، أو أنها غرف، على أبوابها نساء شبحيَّات كبيرات في السنِّ يحاولن أن يبدين بغير واقعهن، ما إن رأيننا حتى أخذت كلٌّ منهن تعدِّد مهاراتها وقدراتها على الإمتاع، هنديات وسود وجبليات. ينظر صاحبي إليَّ مبتسماً، محاولاً اكتشاف الرغبة في عينيَّ، قال منتشياً: ما عليك إلا أن تختار! قلت له: وأنت؟ ردَّ وهو يقرص كتفي: بعد أن أطمئن عليك!

إحداهن لفتت انتباهي، جلست على عتبة بابها صامتة، أشرتُ لرفيقي بسعادة إليها: أنا اخترت وانتهيت! دفعني مشجّعاً باتجاهها، تركته دون أن أسأله عن ما بعد، فقط سرت نحوها يدعوني نداء اختلافها. ما إن اقتربت منها حتى وقفت تنظر إلى وجهي صامتة، أمسكت بيدي، سحبتني خلف ستارة بابها، أجلستني على سرير في غرفة صغيرة علَّقت على أحد حوائطها ورقةعليها صورتها، باب إلى الداخل يبدو أنه باب حمام، مشجب على الحائط عليه عباءة سوداء وثوب شفاف، لم تغلق الباب الخارجي، اكتفت بالخرقة المنسدلة، انشغلت عني بخلع ملابسهالتقف بجسدٍ شمعيّ، صدر وافر وبشرة لبنيَّة، تمدَّدَت على السرير، رفعت ساقيها بآلية وصمت مريب، ليبدو دغلها منفرجاً،كما لو أن ذلك الجسد لا يخصُّها.

هي المرة الأولى التي أرى فيها جسد فتاة، فرج فاغر فاه. ظلَّت بوضعيتها تنتظر، عيناها مصوبتان للسقف، أخذت غرائزي تتجهَّم، أتأمل تقاطيع وجهها، أحاول أن أفهم ما يدور، مددتُ أصابعي، لمست إحدى حلمتيها، مسَّدتُ تكويرة ثدييها، داعبتُ سرَّتها، نزلت قليلاً، ظلَّت على وضعيتها، لم تستجب لملامستي، لم تغير من هيأتها، تضاءلت رغبتي وضمر اشتهائي، حلَّ بداخلي إحساس غريب، أنا من تستثيرني الحكايات، والصور أجلس وكأني لست أنا،نهضتُ، سحبتُ ملابسها من على المشجب، غطيتُ عريها، أخذتُ بذراعيها، أجلستها بجواري على حافة

السرير، نظرت إليَّ ببلاهة، أمسكتُ بكفِّها وضعت عدة (شلنقات)، لمعت عيناها بالفرح وهي تنظر إلى كفِّها، احتضنت رقبتي وقبَّلتني،عادت تتعرى.

لم أسمع لها صوتاً، أخذتُ أُلبسها ثيابها، نظراتها أوحت لي ببلاهة، خرجت تائهاً أتلمَّس طريقي، نسيت للحظات المكان والزمان، أصوات المتحذلقات، لم أنتظر صاحبي، سرت بعيداً، زحام السوق المجاور أعاد إليَّ وعيي، وقفت أفكر فيما أنا فيه، في تلك الفتاة، عريها، نظراتها، وضعيتها، ابتسامتها، صمتها، كل ذلك شغلني أثناء عودتي إلى حيث أسكن.

***

بعد ذلك اليوم عرفت طريقي إلى شارع السيسبان، أبحث عمَّن تحكي لي حكايتها، أسمع تعليق إحداهن: يبدو أنه كالديك لا يكتفي بواحدة! وأخرى: إن زارني أتحداه أن يزور أخرى، وثالثة: يبدو أنه غرٌّ تائه! خاب ظنكن، خمِّنَّ ما يشاء؟

بأصوات صاخبة:

–يريد ما يريد كله بشلنقاته: نيك البهائم، أو نكاح القرود، أرسليه وسيفعل ما يريد!

رفعت من أمامي صوتها:

– بيسألني عن حكاية البنت الهبلى!

ردت عليها وقد رفعت ضحكتها:

– يخزيه الله، فكرناه فحل، قولي له هانا شراميط محترمات! شارع للنيك ماله وما للحكايات!

قالتها وهي تقشع ثوبها لتضرب مؤخرتها بكفها، ثم تقدمت تهزني من كتفي.

– هل سمعت، ما عندنا حكايات.

قلت لها:

– سأعطيك ما تريدين.

صمتت تتأملني ثم قالت:

– شوف، بطِّل تناحة، ادخل وسأنيكك نيك ينسيك كل الحكايات!

– احكي لي أولاً، ثم!

– لكن لماذا الحكايات؟

– أشعر بمتعة وأنا أستمع!

– وإذا دليتك على من يعرف حكايتها؟

– أُطلبي.

– عشرة شلنقات، وسأدلك على الحَجّة؟

التقيت بمن دلتني عليها: امرأة كبيرة تزورهن بين فينة وأخرى، يبدو أنها أقدمهن في السيسبان،اختارها الإنكليز منذ سنتين كمراقبة على مرتادات الشكلة،لها غرفة في نهاية الشارع، تحضر يومين في الأسبوع، تستمع إليهن، تقوم بتدوين معلومات كل وافدة جديدة، تتحرى من تراخيصهن وسلامة فحصهن الدوري.

دخلت الغرفة التي تزاول عملها فيها،وقفت أرقبها، حين لمحتني ابتسمت مشيرةً إليَّ بالجلوس، نظرت إليَّ ملياً:

- تفضل!
- لم آتِ إليك شاكياً!
- وماذا لديك؟
- جئت كي أسمعك!
- ما تسمع؟
- حكايات!
- أي حكايات؟

وضحت لها عمَّا أثارته لديَّ تلك الفتاة،ابتسمت موضحةً لي أنّ ذلك ليس من مجال عملها، ونصحتني أن أتجه إلى من أبحث عن حكاياتهن. أخبرتها أني جربت،وقد أشرن أن أتجه إليها.سألتني إن كنت مرسلاً من شخص، فنفيت.

وافقت على أن تحكي لي حكاية تلك الفتاة مقابل خمسة شلنقات، دعتني إلى زيارتها في منزلها بجوار مسجد العيدروس بكريتر، حددت لي يوماً بعينه.

أطفال يسابقونني، يشيرون إلى نصف باب لسور من الصفيح «هذا بيت الحَجة». بحذر دفعت باباً متهالكاً، ساحة مترية، بقايا أخشاب وعلب صفيح، كوخ من الكراتين والألواح المتداخلة، تلتصق به سقيفة تتكئ تحتها قعّادة من حبال السعف، عدة قطط متماوتة تحت القعادة، أكوام مخلفات أسلاك وقطع حديد وأخشاب متداخلة بمحاذاة السور. رفعت صوتي، كررت، وأشعة الشمس تنسكب من علو (شمسان)، يتأملني أطفال عند الباب، جارة تطلّ بوجه نؤوم من خلف السور، تنظر إليَّ بلا مبالاة ثم تختفي. يبدو أن الوقت مبكر، تراجعت بنيَّة الخروج، سمعت صوتاً يدعوني، ظهرت من خلف غرفة الصفيح، مددت لها أكياس خضار وفاكهة وخميراً ساخناً، بيدها المعوجة أمسكت بمعصمي وبالأخرى ما ناولتها، تسير متجلببةً ثوباً أبيضَ، أجلستني في ظلال السقيف، بوجه غير وجه الأمس تتأمل وجهي:

-يا نتريّق سوا.

هززت رأسي موافقاً، لم تغب كثيراً، عادت لتضع أمامي فناجين قهوة وخبز خمير، ملأت فنجاني لتتصاعد رائحة البن، مددت لها بشلنقاتها، ابتسمت بطيبة أُم وقد صبّت من عينيها نظرات عتاب، مسحة براءة لم ألحظها بالأمس:

– أتيت إليَّ محملاً بأكياس الفاكهة والخضار وفوق ذلك تريد أن آخذ منك مالاً؟

– لكنه الشرط.

– لقد حملت يداك أكثر من الشرط.

ومن ذلك اليوم عرفت طريقي إلى بيتها أزورها، أحمل إليها القليل من الفاكهة والخضار، وأحياناً بما تجود به السفن،نتناول الفطور والقهوة. لم تكتفِ بحكاية تلك الفتاة الشمعية بل أخذت تحكي حكايات الهاربات إلى عدن من جور ظلم الأهل وعسف وتسلط الرجال،الفارات من قسوة الصحارى وشدة حياة الجبال، حكايات دمعت لها عيني، وأخرى أضحكتني.

– أسمعني إحداها.

صمت العظمي ملياً:

– سأقص عليك حكاية فتاة بدوية هاربة من المناطق الشرقية، الفارة بعد أن نوى أبوها تزويجها من مسنّ،معتقدةً في بادئ الأمر بأنها ستقضي أياماً قليلة ثم تعود أو ترحل إلى بلاد أخرى. مع مرور الأيام نسيت أن ترحل، ولم تعد تفكر ببلادها ولم يعد يستهويها شيء من الماضي، رغم أنها لم تهنأ يوماً في عدن لكنها أحبتها. كان أمرها غريباً، تسعى لتحصل على زوج، تتقرب من الرجال، تمنح من يروق لها جسدها، جميعهم ينفرون منها بعد أول فراش، حاولت مراراً أن تتماسك لحظات المتعة، أن تتناسى متعتها لترضيه هو، أن تتركه حتى تكتمل متعته، لكنها لم تفلح قط، ما أن تعتمل غلمتها حتى تشتعل روحها، يسيطر عليهاشبق جامح، تتغير ملامحها وصوتها، في لحظة تتحول إلى كائن شرس لا تستطيع السيطرة على نفسها، لا تعرف من أين لها كل تلك الكلمات الجارحة، ولا تلك القدرة على العراك، كثيراً ما فكرت باحثةً عن جذور محنتها، عن بدايتها الأولى،تسترجع ماضي أيامها، طفولتها الأولى، صباها،لتجد أنها كأية صبية، وما يجعلها مختلفة أنها كانت وأسرتها يعيشون خوفاً دائماً، هروباً مستمراً من الموت، أفراد أسرتها دائمو التنقل والبحث عن موطن أمان لمواشيهم، تنشب فجأةً الحروب بين القبائل لأسباب بسيطة، مثل التعدي على حدود المراعي أو آبار الماء. حكت لي ذات مساء:«قبيلتنا كانت مرهوبة الجانب، إلى ذلك اليوم الذي تجمعت ضدهاعدة قبائل لمحاربتنا، انفرط عقد قبيلتنا، انتهت أسرتي بعد ذبح أبي وأمي ضمن مذابح طالت تجمعات قبيلتنا، أُحرقت مساكننا ونُهبت المواشي، لأجد بأني في حلٍّ من أمر الزواج بذلك الكهل. فررت من الموت ومن شيخ طاعن يعتبرني شيئاً تابعاً له، غير مفكرةٍ بشيء، طريق لا أعرفها، لم أسأل إلى أين أفر؟ كل ما كنت أفعله هو أن أسير مع من سار. في تلك الأثناء تناوب عليَّ طوال الطريق اثنان من

الفارين، دماء وآلام، حتى وصلنا مدينة (ساحلية) على تخوم الصحراء. عانيت من جراحي طيلة أيام، ظللت أتجنب الرجال وأخافهم، كان الجميع ينظر إليَّ ككائن مباح، مخلوقات قساة لا يرحمون، يكفي أن تلتقي عيناي بعيني أحدهم حتى يلاحقني، أشهر في تلك المدينة تذوقت مرارة أفعال الرجال المؤلمة، إلى ذلك الصباح الباكر حين لمحت أحدهم يتبوَّل خلف أحد الأكواخ، أتذكر أنه كان يواجه الشمس، رأيت شيئاً بين فخذيه يلتصق بالأرض، لم أرَ في حجمه من قبل، لا أعرف هل كان نابتاًأم يتدلى منه، كنت أتأمل دون خجل، لم يغيّر وضعه، قضيت بقية النهار وذلك الشيء لا يفارق مخيلتي، سرت لاحقاً أبحث عنه بين الأكواخ، أراجع ملامح ذاكرتي، عيناه اللتان تسربتا إلى روحي، ظللت أبحث عنه، كلهم يتشابهون في ملامحهم، أستحضر شكل أنفه الطويل، شفتيه الغليظتين، أتساءل: هل هناك علاقة بين حجم الأنفوحجم شيء الرجل، أو بين غلظة شفتيه؟ دخلت ساحة السوق، وبالفعل ميّزته بين صف من بائعي الحطب، رأيته يقف واضعاً إحدى قدميه على حزمة حطب، صف يقابله من بائعي الحصير وأواني الأكل الخشبية، ودوماً رسول العاشق ناظراه، مركزةً عيني في أمّ عينيه، لم يعرني انتباهاً، تسولت رضاه بابتسامة، تقمصت دور شارية، جعلت فمي يلوك الكلمات وعيني لا تفتر من الالتصاق بعينيه، وسريعاً ما استجاب وصار يأخذ ويعطي معي في الكلام، فزت به في ذلك اليوم، اصطحبني إلى كوخٍ ناءٍ، أتذكر أني كنت متلهفة لخوض التجربة معه، وأظنه كان يعرف قيمة ما يحمل، عرَّيته وعرَّاني، كان خبيراً في ملاطفتي، وكانت روحي تدفعني دفعاً، هي المرة الأولى التي تفقدني مداعبة الأصابع صوابي، اعتليته، أخذت بيدي أدفعه، أصرخ ملء حنجرتي لإحساسي به، انكفأت أقبّل وجهه، أضرمت روحي، لم يتسرع، أخذ بملامسة جسدي، تمرير فمه، أنفاسه، لعابه، شعرت بحرقة ألم، أقنعت نفسي بتحمُّلها، ألم ممزوج بمتعة قوية، رويداً رويداً أخذت أشهق، أنفاسي تتقطَّع، أصرخ بشدة، ولم تكتفِ روحي حين حركت أطرافي لتغرس أظافري في صدره، أسناني بوجهه، أرضع سائلاً لزجاً، سائلاً دافئاً، أيقظني بصراخه، سيل من الصفعات على وجهي، ركلات، ثم تركني ممسكاً بوجهه يعوي لتستيقظ ذاكرة حاسة لساني، فمي يمضغ دماً، زالت غشاوة عيني، وجهه يقطر دماً، تكوّمت مرعوبةً أستعد لأي فعل عنيف منه، مددت يدي أبحث عن مكامن لذتي، دم دافئ بين فخذي، كرَّر صفعي وركلي، ناظراًإليَّ نظرات احتقار، عرفت في ما بعد أنه لم يقطف ذروة لذته، وأن أظافري وأسناني قد خضبت صدره وذراعيه.

***

حاولت أن أقول له إني لم أكن أنا، لكنه تركني مهدّداً إن عاد ووجدني فسيقتلني. مرة بعد أخرى تتعاظم رغبة سكنت أعماقي، لأكتشف أن تلك الآلام قد تحولت إلى رغبة دائمة، نما بداخلي شيء حوَّلني من فريسة إلى صياد، جميعهم يبدأ معي كصياد، ليفاجأ بأنه الطريدة، عرفت أن الرجال جميعهم سُذَّج إلّا هو، أجيد تمثيل دور الطريدة ثم أعرف متى أفاجئه كصيادة،

متعة ما بعدها متعة ما قبل الفراش، ولم يعد يرضيني أي رجل، كلهم يأتونني كفرسان لينقلبوا نعاجاً، أتركهم خائري القوى.

أتذكر يوم غادرت سواحل مدينة حضرمية، كنا على مركب في عرض البحر، دعاني قائد المركب، لم يكن من فاصل بين الركاب، رأيناه قبل وقد اختار فتى صغيراً لم تردعه دموعه ولا نظراتنا، أخذ يلوطه منتشياً بصراخه، وهكذا حين طلب من سبقتني، أمر مساعديه أن يمزقوا ملابسها، أن يثبتوها في وضع معين، يمارس متعته أينما يشاء وكيفما يشاء. إحداهن قاومت، رُميت على الفور في البحر. يزداد عبثه مع دخول الليل حين يثمل، يطلب من إحداهن أن تتعرى وتتبول واقفة، يصرخ منتشياً لشخشخة بولها، يضم يديه ليجمعه ثم يغسل وجهه، يمنح مساعديه بقاياه، صحيح أنهم لم يكونوا يتمتعون بالتفاصيل الصغيرة لكننا كنا نشاهد ما يقومون به لتكمل عقولنا ما لا نراه.

جاء دوري، فكرت أن أمنح جماحه مداه، ولذلك تخيلت من في المركب وهم يتابعون ما يدور، تشاركني عيونهم، تعريت كما طُلب مني دون تردد، استمتعت بشهقاتهم لمرأى جسمي الصغير، أُمعن في إظهار ما خفي بين فخذي ومؤخرتي، رفعت صوتي بأغنية حفظتها،أسترق النظر إلى تلك العيون التي تزيدني جنوناً، لم يكن ربُّ المركب في كامل وعيه حين أخذ يتعرى، في المرات السابقة يكتفي باستخدام فمه أو أصابعه، وفي القليل يخلع بنطاله، صرخ:«أسكتوا هذه الملعونة»، لتفاجئني سياط ثلاثة من معاونيه تسلخ جلدي، أتلوَّى أرضاً، وشيئاً فشيئاً خمدت قواي لينبطح فوقي، يدعك خصوصياته بخصوصياتي، اشتعل الكامن بداخلي، لا أعرف كيف، لكن صوتي ارتفع لتمزق أظافري وأسناني ما طالته، لم أعد في وعيي ولا أدري ما أنا فيه، أحسست بلسع محرق على جسدي، سياط بأيدٍ خبيرة، ركل، صفع، هي المرة الأولى التي أشعر بلذة الضرب، وقفوا يتشاورون، قال أحدهم يخاطب رب القارب: «نقذف بها للبحر»، زجره قائلاً: «لم أتمكن منها بعد، قيّدوها»، أشرقت شمس أفق البحر وأنا ملقاة مكبّلة لا أدري أئنّ بآلامي أم من تلك المتع المتعددة التي نلتها منهم، لم يتركوا خرماً إلا واستقصوا منه مراراً حتى أدموني، حين فكوا وثاقي تمنيت في سري لو أنهم تركوني مكبلة، لاحظت كلمات ونظرات إشفاق من حولي، أغمضت عينيَّ، سددت مسامعي حتى لا تفسد كلماتهم المشفقة متعتي التي اختزنتها.

في عدن عرفت رجالاً كُثر من أبناء جلدتي، كنت دوماً في شوق أن يكون لي زوج، أنتقي بعضهم، أخطط لأتملكه، لكن تلك الروح تسكنني، تنهض فجأةً لتدمر كل شيء، تخرج في ذروة متعتي لتحولني وحشاً دموياً، تغيِّبني لحظات الذروة فيختلط صراخي بحركة أظافري وأسناني، ولم أعرف أن أحدهم وصل إلى ذروة متعته يوماً معي، فما أن تحركني تلك الروح حتى أقاتل بقوة، أعترف لك بأنها ليست قوتي، ودوماً أرى طريدتي منكسرة ذليلة، وهو يحاول جاهداً قهري فلا يستطيع السيطرة، يلجأ لصفعي وشتمي، ثم يقف ليتمكن من ركلي ليتحول صراخي إلى

عويل ممتع، أنهض أبادله الصفع وإطلاق الشتائم التي أستفز بها رجولته ليثور أكثر، أخرج بعدة كدمات وخدوش على جسمي المدمى، ودوماً سعيدة بما نلته، أجلس في خلوتي مع نفسي، أبكي بحرقة مستعرضة تلك المحاولات لكسب حب أحدهم.

إلى ذلك اليوم الذي ضربني أحدهم ضرباً تجاوز المتعة إلى كسر ذراعي، وكسر أحد أضلعي، يومها لم أكن قد امتهنت بيع جسدي، كنت حينئذٍ أسرح بصرّة كبيرة على رأسي أطوف البيوت، أبيع ما تحتاجه النساء من أمشاط وخواتم ومشابك وملابس داخلية، وكانت إحدى طرقي من أمام فرن خبز، لاحظت أن عامل الفرن يبتسم ليستوقفني بعدها، يسألني عن جديدي، يشتري لخطيبته ما يراه مناسباً، وهكذا في كل مرة، لم أفكر فيه رغم تلطفه معي، دوماً أفضّل أبناء جلدتي، لكنه من استمالني فأصبحت أتقصَّد المرور من أمام باب الفرن. يوماً فاجئني بإرجاع كل ما اشتراه في الأيام الماضية، في البداية لم أفهم، لكنه زاد دهشتي حين قال لي:

– هذه هدية مني إليك.

رددت عليه:

– ألم تشترها لخطيبتك؟ فزاد من دهشتي حين قال:

– أنت خطيبتي.

هي المرة الأولى التي أسمع تلك الكلمة، كاد يُقضى عليَّ، فردت ذارعي أحتضنه وأقبل وجنتيه دون شعور بالخجل من المارة. في ذلك اليوم حملت صرتي وقلبي يتنفَّس سعادةً، أفكر طوال الطريق بسحر ذلك الجبلي، لم يذهب من خيالي طوال الوقت، ما كان يقلل من سعادتي أنه جبلي. مرت لحظات تلك الليلة ثقيلة، صباحاً أخذت طريقي إليه، رأى الرغبة في عيوني، سحبني للداخل،اندفعت،أقفل الباب، غرق جسدي بعرقٍ دبق، قلبني على أرض طحين أبيض، تداخلت أجسادنا، أنفاسه الحارة تلفح صدري، شيئه يلكز سرّتي، تأوه حين أمسكت به، عبثت شفتاه بمكامن متعتي،أصابعه تشعل روحي، اعتليته، أحسست بآلام لذيذة، وخز موجع، مسّت اللذة قلبي. فقدت صوابي ولم أعد أعي ما يدور، حاولت السيطرة لكنها روح تجتاحني، صوتي يعلو ويعلو، أطرافي تتشبث به،أسناني، أظافري، دفعته بقوة، أخذ يضربني لا أعرف في بداية الأمر على ماذا ولا بماذا، لا أريد أن أفقد متعتي، شعرت بدفء سائل على وجهي ووخز مؤلم في ذراعي وأضلاعي، أفقت لأجده ممسكاً بلوح خشبي ينهال عليَّ ضرباً، كنت أبكي ألماً حقيقياً، اكتشفت فيما بعد أن لي ضلعاً مكسوراً وساعداً، لم أكن أعرف بأن أنفه قد نشب بين أسناني، وأن إحدى عينيه كادت تفقؤها أظافري، بشرة وجهه، رقبته، انكفأت على نفسي أبكي بحرقة.

ومن يومها تغيّر مجرى حياتي، فقدت الثقة بنفسي، وأمست قناعة تسكنني بأني غير كل النساء، ولن يكون لي زوج، أمارس متعتي مع رجل فلا يكرِّرها قطّ، يبادلونني الشتائم والصراخ وكذلك الضرب والعض والخربشة وتذوق دماء بعضنا.

وبعد ذلك الجبلي اتجهت إلى شارع السيسبان، وكم كانت دهشتي حين اكتشف الطبيب أثناء فحصي من الأمراض بأني لا زلت عذراء!

صمت الصبري ناظراًفي عينيه:

– يكفي الليلة فقد أرهقني مضغ القات.

– هل تقول عذراء؟

– نعم، ذاك ما قالته لي الحجة!

خرج من السمسرة بعد صمت طويل بينهما،عبر وحيداً في أزقة موحشة، ساحة سوق البقر في سكون، سار بين أكوام العلف، عبر باب السمسرة، وحيداً على متكئه وبقبقة النارجيلة لا تنقطع.

– نزيل الخلوة ياحاج.

استوى في جلسته ماداً يده.

– تعال، أين تختفي، أخفتنا عليك.

– ...

أمسك بيد الحاج،جلس بجواره:

– أخاف أن إحداهن سحرتك!

– ...

– لا أقصد زوجة، أنت تعرف ما أعني، وإلا لمَتختفي خلسة؟ لا تخجل، على الفتى أن يستمتع بحياته، قد يأتي يوم. اسألني أنا!

رفعت الخالة وردة صوتها:

– أتريد قهوة، أو زاداً دافئاً؟

هزّ رأسه بالنفي، نهض،سار وسط روائح السمسرة صاعداً درج السلم الحجري.

في خلوته تمدَّد يستعيد صدى صوت العظمي، وقد تغلب على صور احتضار شاوش السجن بعض الشيء، يشعر بتحسُّن حالته، يتأهب لمصاحبة ملاك النوم وهو يشعر بسحر غامض لحكاية الوجه العظمي، يمنِّي نفسه بالعودة إلى سمسرة أبي عامر لسماع تلك الحكايات، لايعرف لماذا يشعر بأن والده في تلك الميدنة.

حامل السوط

قبيل شروق الشمس يتوقَّع صعودَ الفتاة وردة، ممدداً وقد أحكم إغلاق بابه سمعَ ذلك النقرَ المعهود، قاوم رغبته في النهوض، تكرَّر النقر بإيقاع رتيب ثم صَمَتَ كلُّ شيء. قاده الفضول ليتلصَّص من شروخ الباب، كعادتها تراقص الحمام، لمح وجهها المقلوب مشوباً بغموض محبَّب، يهتزُّ جسمها فيزداد نبض قلبه، يتعجب من تلك العلاقة بين أسراب الحمام ووردة، شعر بنوعٍ من البهجة لمنظر تلك الكائنات وهي تشكِّل دائرةً كبيرةً في السماء، أحسَّ بعاطفة نحوها، لا يعرف سبب تغيّر إحساسه تجاهها في هذا الصباح، ليلة البارحة يعاهد نفسه بصدِّها ومصارحتها بمشاعره تجاهها وإزالة ما تتوهَّم به، والآن يشعر بقلبه يخفق لمرآها. لم يكتفِ باختلاس النظر من خلف الباب، سارع إلى فتح بابه،اندفعكالمسحور نحو قلب السطح، أمسك بيدها، ارتجفت دهشةً وفرحاً، أخذ يدور باتجاه دورانها، ناظراً إلى السماء، محاولاً إصدار لحنٍ شبيهٍ بصفيرها، استمرَّ يدور ويدور والحمام يتكاثر، يهبط ثم يعلو، ينظر إلى ملامح مثلث وجهها المقلوب، يتساءل: لماذا أراها الآن جميلة؟ وجهها المثلث أكثر امتلاءً،شفتاها أكثر رقةً، عيناها أكثر اتساعاً، أنفها دقيق، تمنَّى لو أن الحمام لا يهبط، وأنها تظلُّ ترقص ليرقص معها، تعجبه حركة يديها، نغمة فمها.

بدورها كانت تتساءل عن ذلك التحول، تحول حالته وكأنه ليس كائن الأمس الصموت،شكّت في أن يكون به مسّ يتحكم فيه، غطى الحمام السطح بأجنحة كثيرة، صمت فمها وهدأت حركتها، خرجا من دائرة الريش.

تبرعَمَ الصمتُ بينهما، كلٌّ ينتظر صوت الآخر. انتظر صوتها، مكثت وقتاً ثم نهضت حاملةًآنيتها هابطةً دون أن تنظر إليه. شعر بحنق ثقيل، يبحث عمَّن يواسيه، في الوقت الذي اعتقد بأنه يسعدها، أقفل على نفسه خلوته يبحث عن حمق تصرفها.

ضاق بصمته، قاده شوقه مرة أخرى إلى سمسرة أبي عامر، لم يجد الصبري، تردَّدَ لليالٍ علّه يعود، لم يجد غير إجابة عامل السمسرة:«صاحبك لم يعد بعد»، أدرك لحظتها أن لحكاياته سحراً، وأنها من أنقذته من بئر الاكتئاب. عاد إلى خلوته حزيناً، وردة تصعد السطح كعادتها كلَّ صباح تُراقص الحمام، تصبُّ القهوة صامتةً، ينتظر صوتها، تحمل آنيتها وتتركه يمضغ سكوناً مميتاً، ضاق الكون به، يسأل نفسه: كيف يعيش المرء دون سماعه للآخرين؟

انكفأ يفكريمغادر صنعاء، يهرب من صمت قاتل، أن يبحث عن أبيه وأمه، تذكر أنه قطع على نفسه وعداً بأن يقتصَّ ممن تسببوا في شقاء أيامه، فضَّل إنجاز ما وعد نفسه به قبل الرحيل، تبادر إلى ذهنه حامل السوط، صرخ: اقتربت منيَّتك أيها الجلاد.

يشعر بثقل رأسه، تأتيه صوره من الأمس القريب، صوت ذلك المحقق الذي يقبع في مبنى الداخلية:«سأعرف كيف أجعلك تكره كلمة لا، سأبعد بقايا الحمق من أعماقك، من يقول لا، أعرف كيف أروِّضه، أجعله يعيد اكتشاف روعة كلمة نعم، من يرفض هذه الكلمة الرائعة يجب أن يُعالج، وأنا خير حكيم».

شعر بتلك الكفِّ على كتفه، الأنفاس تلفحُ خدَّه، رفع بصعوبة رأسه، مدَّ ذراعيه، لم تكن تلك الكفُّ وهماً، لقد اصطدمت بساعده حين رفعها وسط ظلام خلوته، لم يخالطه شكٌّ من أن ذلك هو الله يباركه، أيقن بأنها رسالة الله أن يمضي.

***

حامَ حول مربّع مباني الداخلية،سار في شارع جمال، اختفى يراقب بوابة المبنى خلف بقايا صخرة نُحتت من الحجر الصلد كمعصرة لزيت السمسم، لا أحد، نوافذ المبنى مطفأة، سراجٌ شاذٌّ يتدلَّى فوق البوابة. أصوات قذائف وانفجارات تأتي من جبال صنعاء، عربات عسكرية تعبر ميدان التحرير مسرعة، حارس البوابة يخرج من كشكه يتبوَّل على الجدار ثم يعود، مضت ساعات وأصوات دويِّ المدافع تتتالى، فاجأته أضواء من اتجاه التحرير، هدير محرك عربة توقفت أمام البوابة، دكّ أحذية ثقيلة تخبط الأرض، حامل السوط وحوله ثلة من العسكر يتجهون للداخل، للحظات ثم أضيئت بعض نوافذ الدور الثاني، يرتفع هدير محرك عربة أخرى هذه المرة قادمة من اتجاه شارع (جمال) كادت أنوارها تكشفه، تحرك يستتر في ظلال جدران قريبة، مرت أضواؤها بسلام لتتوقف أمام بوابة مبنى حامل السوط، هبط العسكر يركلون أحدهم وقد علت أصواتهم بكلمات نابية ثم سحبوه إلى الداخل.

خيَّم السكون على محيط الشارع، يراقب علَّه يجد منفذاً إلى داخل المبنى الذي احتضن عذابه ذات ليلة،دويّ رصاص ظنها بعيدة عنه، لتتوالى عدة طلقات قبل أن يدرك بأن خطر الموت يقترب منه، انبطح أرضاً، زحف نحو ساتر الجدران القريبة، أول زقاق استوعب خوفه انعطف محتمياً به، ثم هرول في زقاق يفضي إلى الساحة الفاصلة بين قصر البشائر والمدرسة العلمية، ارتفعت جلبة العسكر ليرتفع صخب الرصاص في كلِّ اتجاه، يعرف أيَّ اتجاه يسلك، اقترب من بئر تحتل حوافَّها أشجارُ التين، تجاور مبنى المدرسة العلمية، تسني الدواب مياه الأعماق نهاراً، هبط ممسكاً بفروع الأشجار، تشبثت أصابعه بحوافِّ الأحجار. وجد فجوةً في الجدار، يدعو الله ألا يكون بيتاً للزواحف، قبع يتمتم بالصلوات الإبراهيمة، سمع وقع أقدام، أصواتاً تقترب، عدة طلقات نارية في جوف البئر، لمعان شظاياها، روائح بارود، وصدى أعقبها رفيف طيور خالها خفافيش، للحظات سمع رعوداً تدوِّي، لمعان بروق.

تسلق جدار البئر، سار وسط مطر غزير عبر التحرير الذي امتلأ بسيول غزيرة، مبانٍ سكبت السماء دموعها، تلمّس جدراناً، سار وسط عواصف أغوته اتجاهاتها، روحه تقودهفي أزقة

ضيقة، مسجد (النزيلي)، دفع باباً خشبياً ليجده مفتوحاً، صَرْحٌ يصطخب بدموع السماء، جدران تلفُّها عتمة يبددها لمعان البروق، كرَّر السجود تحت وابل السماء، قعقعة الرعود تمزق قلبه، باب منارة في طرف الصرح فاغرٌ فاه، تتلمَّس قدماه صاعداً حمى حلزونية، باب آخر صغير في خاصرة المنارة، ابتهج حين أحس بفضاء بارد، ازدادت السماء انهماراً، وقف علَّه يميز ما حوله، عتمة مطبقة، لمع برق أضاء ما حوله، اضطجع خوفاً من أن يراه أحد ما، ينتظر برقاً آخر لتستجيب السماء، تلمع لجّة أشجار عالية خلف المسجد، ظلَّ يتصيَّد برق السماء وسط مطر غزير، بروق تتوالى، ميَّز خلف الأشجار مبنى حامل السوط، التهبت رغبته في الانتقام، بروق أخرى، رأى واجهة المبنى الخلفية، نوافذه، احتار في وسيلة يهبط بها جدار المسجد العالي ليصل إلى قاع بستان المبنى، فكَّر أن يحلِّق قافزاً، تراجع أن يقفز ليحتضن إحدى الأشجار العالية، لاحظ على ضوء لمعان السماء أن العواصف تقرِّبُ فروعَ الأشجار وتبعدها، ثم تعاود حتى تلامس سطح المسجد، أخذ ينتظر هبوبَ العاصفة، تهب في ظلمة حالكة، يلمع الضوء بعد أن تبتعد الفروع، انتظر أن يقارن الضوء بهبوبها، فجأةً تزامن لمع برق بهبوب رياح شديدة هزَّت كلَّ ما حوله ليلحظ تمايلَ شجرة غصونها متفرعة، لحظتها عرف طريقه، احتضن فرع العتمة، كادت الفرحة تكتم أنفاسه، أمسك بالفرع يتلمَّس طريقه من فرع إلى آخر، حتى ساق الشجرة الضخم، ليجد نفسه وسط لجَّة غصونٍ كثيرة، خمَّن أنه على ظهر شجرة كافور ضخمة، شعر بزهو لحظة لامسحذاءه العسكري وحلَ الأرض، هبط أكثر ليغوص في طينٍ رخو، يسحبُ قدماً لتغوص أخرى، بعد جهدٍ لامس جدار المبنى، ينتظر ضوء برق باحثاً عن مسرب، لامس قضباناً متصالبة تسدُّ فوهات النوافذ السفلية، تسلَّق حديد إحدى النوافذ، لم يجد شروخاً بين الأحجار ليتشبث بأصابعه صاعداً، عاد للوحل، سار بصعوبة حتى ركن المبنى، انحرف بعدة خطوات، تلمَّست أصابعه كوَّةً في الجدار، أدخل رأسه، رائحة لا تطاق، استمر في حشر جسمه، ازدادت روائح العفن، اكتشف متَّسعاً كما لو كانت غرفة سفلية، تسحَّب حتى كان بالداخل يتلمَّس جدراناً تَرِبَة، تلمَّست أصابعه كومةً وسط ذلك الفراغ، تشمَّم قطعةً رخوة، ميَّز رائحة البراز، أدرك أنه أسفل مطهار وأنه أمام كومة براز، تمتم: لا يهم، حاول جسَّ أطراف السقف بأصابعه، صعد كومة البراز، تتحسَّسُ قدماه مواطئها، تتصاعد الرائحة أكثر، أقدامه تهرس روائح لا تطاق، لامس حافة نقرة الحمَّام،كاد يصرخ فرحاً، عبَرَ بكفه فتحة بين حجرين، صعد أكثر حتى قمة الكومة، يدخل يديه الفتحة، يحاول ضاغطاً برأسه توسيع تلك النقرة، استطاع اقتلاع إحدى الأحجار عالياً، تلتها الثانية، تساقطت أطراف النقع واتسعت، صعد برأسه، تساقطت قطع الطين والحصى، نفذ برأسه، صمت وظلام مطبق، يسوّي من اتجاه كتفيه، يحاول، يدخل ساعده الأيمن، كتفه اليسرى، يثبُ بمرفقه، يسحب صدره، يتكئ على ساعديه، يجذب جذعه، يُنْفِذ بقية جسمه، يقف ليلتقط أنفاسه، يهدأ قليلاً، سكون غريب تبدِّده قهقهة الرعود، يتلمَّس ما حوله،

حوض ماء، باب، يسحب ظلفته، يمطُّ عنقه،ضوء باهت، تتلمَّس عيناه المكان، درجات خمس هابطة، صالة مستطيلة تنتهي بذلك الباب، هو باب المبنى المطل على ميدان التحرير، أخذ يستعيد تضاريس المبنى، إلى يمينه غرف، اقشعر بدنه لذكرى تلك الساعات التي كان يقضيها فيها، تقدَّم بحذر، أصغى بجوار أحد الأبواب، سمع همساً كما لو كان حديثاً بين عدة أشخاص، قهقهة متقطعة،صخب،أبواب أخرى صامتة، اتجه الدرج الصاعد إلى الدور العلوي حيث غرف التحقيقات ومكتب حامل السوط، تسحَّب موازياً للجدار حتى واجه السلم، وقف يسترد أنفاسه، ترعبه الرعود المتتالية، رأى جزءاً من كشك الحراسة الخارجي، يزحف ببطء شديد كدودة ضخمة على الأرض، ضجيج زخات المطر، لمعان البرق، رأى كتف عسكري الكشك الخارجي، أخذ يزحف حتى رأى شبحَ العسكريّ متكئاً على زاوية الكشك، لا يدري أنائم أم أن الرعود أربكته، جالساً دون حركة، لم يصدق أنه صار على أولى الدرجات، لاحظ آثار أقدامه من وحل وبراز، تلك الآثار أخذت تقلقه، صعد بهدوء حتى الدور العلوي، الصالة التي سُحب فيها عدة مرات، أبواب غرف على جانبيه، يعرف خارطة المبنى جيداً، استعرض محتويات الغرف، ثم تسلَّل إلى مكتب حامل السوط، دخل مكتب حامل السوط، سراج يتدلى، طاولة واسعة عليها بقايا طعام و(بيريه) عسكري، أدخل رأسه فيه، قارورة فارغة وثلاثة أكواب، مقعد وثير مهترئ خلفها عَلَمُ الثورة على سارية ينام، أربعة كراسٍ بطول الجدار الداخلي، خزائن جدارية، أخرى خشبية مقفلة، رفّ وضعت فوقه ثلاث قنابل يدوية،مجموعة بنادق ورشاشات تكومت عند زاوية بعيدة، صندوق خشبي طويل تنبئ أحشاؤه عن (كشطات) رصاص لامع،بجواره شمَّاعة عليها ملابس عسكرية، عدة بنادق عُلقت على الجدار.

رؤيته لأحد المقاعد أعاد ذاكرته إلى حيث أجلسوه عليه معصوب العينين، معصماه خلف ظهره، صوت عملاق:

– لمَ تعاند؟ أن تبصم يعني العودة فوراً إلى بيتك! لم يجد كلمات يجيب بها على سؤاله، عاد الصوت: نريدك أن تتعاون معنا أفضل من أن نهبط بك الغرف السفلية وحينها لن نقبل منك إلا الأنين!

تشجَّع ليخرج صوته منكسراً:

– لن أبصم.

حينها نزع عصابة عينيه ليتأمل من يقف أمامه، لم يكن في ضخامة ذلك الصوت المصطنع، هو نفسه حامل السوط بقامته الضئيلة وملامحه القبيحة، أمسك بفكّه، أرخاه، بصق في فمه، صرخ بصوت حاد:

– خذوه، فنِّدوا له محاسن كلمة نعم!

سحبوه حتى إحدى القاعات السفلية.

***

قطعت خيطَ ذكريات الأمس بروقٌ وقعقعةُ رعودٍ قوية،وقفيستطلع من النافذة المطلة على الأشجار جهة المسجد، قلق، رائحته وبقايا الوحل والبراز يعصف بأنفه، تلمَّس ثوبه النسائي، فكَّر أن يغتسل بماء السماء، صعد درجاتٍ سبق أن صعدها إلى السطح، وقف تحت زخات المطر، هي تلك الطاولة، المقاعد تغتسل، تخلَّلت البرودة مفاصله، دَعَكَ أصابع كفيه، ذراعيه، ثوبه النسائي، ساقيه، شعر رأسه، عتمة ضبابية يبددها لمعان برق للحيظات، أخذت أوصاله ترتجف، أسنانه تصطكّ، بصعوبة هبط الدرجات، تلمَّس بأصابعه المرتعشة باب مكتب حامل السوط، بلَلُ ثوبه يزيده ارتعاشاً، نزعه، التقط جاكتاً عسكرياً وبنطالاً من على الشماعة، سحب طرحته، اعتمر قبعة شبيهة بقبعة السَّلّال المعلقة صورته على الجدار، أطفأ السراج بعد سماعه جلبة أسفل الدور السفلي، ردّ ظلفة الباب، التفَّ خلف العلم، أوصاله ترتجف رغم إحساسه ببعض الدفء، لم تمضِ لحظات حتى سمع وقع أقدام، كلمات بين عدة أشخاص، زادت حدة صوت أحدهم:«أين الملعون؟ ألم تحضروه؟». بهدوء استطاع إفساح ثغرة ليرى المشهد: عسكر يخرجون عند الباب، أحدهم يدخل يضع ملفاً منتفخاً على المنضدة، يدكُّ الأرض بحذائه الغليظة، «تمام يا فندم هذه أوراق المتهم»، لا يرى من تُلقى له التحية، خمَّن أن يكون في الطرف الأيمن لغرفة المكتب المستطيلة، سمع صوتاً قاسياً: «أدخلوه الزنزانة». يدخل آخر، يرصّع الأرض بقدمه، يلقي التحية ثم يلتقط بقايا الأطعمة من على الطاولة، القارورة، الأكواب، ينصرف خارجاً. آخر يدخل حاملاً لفائفَ ورقية، يفتح تلك اللفائف، طبق كبير مملوء لحماً مقطّعاً، قارورة، أكواب، عدة قرون (بسباس)، كدم، علبة سجائر أبو جنيه،كبريت، قارورة ماء. يستقيم العسكري، يضرب الأرض بقدمه، يلقي التحية، يرفع صوته:«تمام يا فندم عشاك جاهز». يظهر وجه من تُوجَّه له التحايا، عرفه،ارتجف لمرأى حامل السوط، يضع مسدسه (تيتاكروف) على الطاولة، سوطه الأسود:هيا، لينصرف الجميع، وإذا ما وصل المتهم استقبلوه، وضبّوه في الدور الأسفل، متى ما جهزتوهأخبروني، هيا انصرفوا.

يرى قفا رأس حامل السوط يجلس خلف مكتبه، بياض أشعث خالطه السواد، عارٍ إلا من فانلَّة علاقي وسروال، يشعل سيجارة، يصبُّ كأساً، يقضم قرن (بسباس)، يفتح الملف، الورقة الأولى، الثانية، يشير تحت بعض الأسطر، وهكذا يقلب عدة صفحات، يطبق الملف، يضعه جانباً، يعود لمجِّ سيجارته، يرَّتشف كأسه، ينهض حاملاً سوطه، يذرع الغرفة ضارباً به كفه الأيسر، يجلس صابّاً كأساً ثانية، يتجرع ثالثة، يتناول الخبز، يأتي على ما في الطبق، يشعل سيجارة، يصفِّق. ما إن ظهر العسكري حتى أمره:«اقفل الباب جيداً وتعال سامرني»،لم يدكُّ الأرض بقدمه أو يرفع يده للتحية، سارع بإقفال الباب، وقف باسم الوجه، أشار عليه بالجلوس، صبَّ له كأساً:«كُلْ، كُلْ»، مدّ يده بصمت، لم تمض لحظات حتى كان الصحن المعدني نظيفاً،

سقاه كأساً بعد آخر، لم تكن من كلمات بينهما، شعر بتلك الكفّ تدفعه، أنفاس على صدغه ورقبته، انسلَّ من بطن العلم بهدوء، التقط الفرد (تيتاكروف)، وجّهه نحوهما، لم يكن يعرف ماذا بعد، رغبة تسكنه تسيطر عليه للانتقام، أطرافه ترتعش، صوته زاد نعومةًوهو يلكز العسكري بفوهة المسدس: «هيا أحكِم وثاق معصمي سيدك وإلا فجّرت رأسك»، استدار وعيناه تقطران ذعراً، نهره: «هيا أحكم وثاق معصميه، ورجليه». استدار حامل السوط ينظر إليهما ببلاهة، لم يدارِ عريه، وقف العسكري يبحث عمَّا يستعين به لتنفيذ ما أمره، غمغم حامل السوط معترضاً، محاولاً النهوض، عاجله بضربه على رأسه، عاد يخور كثورٍ عجوز، لكز العسكري بخاصرته، نفّذ العسكري مهمته بدقة، صرخ، وقف العسكري يرتجف واضعاً كفيه بين فخذيه،«بسرعة تمدّد بجواره منكفئاً على وجهك»، التقط متفجّرة يلوّح بها، سارت الأمور كما يجب، أخذ يشد وثاق العسكري مقيداً ذراعيه خلف ظهره، حامل السوط يراقب ما يدور مرتجفاً، يهمهمُ كدودة لا تقوى على الزحف، اقترب الملثم من وجهه، همس: «انظر إليَّ، لا تخدعك الملابس، أنا لست عسكرياً، هل تتذكرني؟ لا أظنك تتذكر أحداً وأنت في هذه الحالة، ثم من ستتذكر؟ كنت تمثّل أمام ضحاياك دور الفحل! والليلة أراك على النقيض»، وضع إحدى ركبتيه على صدره، يرتجف جسم حامل السوط، يهمّ بالصراخ، سحب خيط حذاء بيادته، لفَّه تحت رقبته، شدَّه بكلِّ قوته، أعجبه أن يرى عينيه نافرتين، تحشرُج صوته ذكَّره بفحيح المسوري لحظات احتضاره، عينُ العسكري تراقب ما يدور بعنقٍ منكفئ، صعدت الروح بصعوبة، أعاد خيط حذائه، وقف يتأمل ما حوله، مسح جبهته، وضع قدمه على ظهر العسكري: «إن قمت بأي حركة أو أصدرت أي صوت سأخنقك كنعجة»، دثَّره بغطاء كان على مشجب الجدار، التقط عدَّة قنابل، أطفأ الضوء، مكث للحظات، انسحب خارجاً بحذر يستطلع الطارود، سكون مخيف إلَّا من أصوات الرعود وهطول المطر، هبط الدرجات بحذر شديد، لاحظ باب المبنى مقفلاً، ساورته شكوك أن يكون العسكر قد شعروا بشيءما! أضواء الصالة السفلية مضاءة، هبط يتوقَّع أن يمزِّق رأسه الرصاص، سمع صراخاً من اتجاه أحد أبواب الغرف، فكَّر أن يتراجع حين ظهر أحدهم متجهاً لدرج الحمَّام، تسمَّر كلٌّ منهما يتأمَّل الآخر للحظات، دوّت صرخة ذلك العسكري:«من أنت؟ وكيف دخلت؟» ليظهر بعد لحظات أكثر من عسكري، أحدهم صوَّب بندقيته نحوه، اضطرب ملوحاً بإحدى القنابل، تصارخوا، دوّت رصاصة، تراجع يحتمي بزاوية الجدار، نزع صاعق القنبلة بأسنانه، قذف بها ثم تراجع إلى الخلف، دوّى انفجار اهتزت له جدران المبنى، هرول مخترقاً طريقه وسط غبار كثيف، صعد درج الحمَّام، قذف بقنبلة أخرى، دوَّى انفجار يصم المسامع، أدخل قدميه في نقع الحمَّام، هبطت ساقاه، جذعه، صدره، وقف على كومة رطبة لا يراها، هبط من النقرة كاملاً، سمع دويَّ عدة طلقات، خرج من مخزن البراز، غاصت ساقاه في وحل البستان، يحمل رائحة ما علِقَ به، بخطوات حذرتجاوز عدة جذوع، التصق خلف أضخمها، طلقات نارية

من سطح المبنى وأخرى من عدة نوافذ، عرف أنهم لم يحددوا مساره بعد، أضواء وأصوات من المبنى تمسح أشجار البستان، كتم أنفاسه، عمَّت الظلمة ليسحب أقدامه خلف جذع آخر، حتى الشجرة العملاقة، سمع طلقات نارية خمَّن أن تكون باتجاه ميدان التحرير، نباح كلاب بعيدة، بأظافره أخذ يصعد الجذع، تعود الأنوار، يستكين، يصعد من فرع إلى فرع، يدعو الله الستر، يصل بعد جهد إلى الفرع العالي، يدنو به باتجاه سطح المسجد، تعود الأضواء والأصوات من سطح المبنى ونوافذه، سُلِّطت الأضواء باتجاه حركة الفرع الذي يدنو بثقله من سطح المسجد، تعالت الصرخات، وصل بصعوبة سطح المسجد، أخذ يزحف بارتباك، تعالت طلقات الرصاص، دخل باب المنارة، زادت كثافة إطلاق النار، هبط عبر درج المنارة الحلزوني، خرج إلى صرح المسجد، الرصاص يزداد، أعقبه انفجارات قنابل يدوية من جهة أشجار البستان، عبر الصرح، هرول خارجاً باتجاه شارع القصر، ظلمة حالكة، دويٌّ رصاص ونباح كلاب سريعاً ما طغى عليها صوت المطر.

***

روحٌ تدفعه باتجاه مقبرة (خزيمة)، انطلق وسط نمنمة الأمطار في أقصر مسافة إليها، تجاوز ثغرة سورها، لمعان البرق تبعث القبور لتخبو من جديد، اختلطت قعقعة الرعود وفرقعة الرصاص، سار يتلمَّس جدار المقبرة متذكراً حامل السوط ذات ليلة، سمع همهمة مئات الأرواح بداخله، تكوَّم بجوار أحد القبور، رائحة حذائه وساقيه تكتم أنفاسه،لا يعرف كم مضى في أحضان ملاك النوم. أيقظتهاأصوات أدعية وتسابيح مساجد الفجر، لحظات وظهر وهج أفق الفجر، أخفى وجهه ما عدا عينيه، خرج باتجاه صنعاء القديمة، عبر باب اليمن، دخل مغتسلات مسجد الرضوان، حاول إزالة ما علق به، خرج وقد توقفت السماء عن الانهمار، يشعر بنشوة لنظرات المارة إلى ملابسه العسكرية، سُحب السماء تحجب أشعة الشمس، سار في أزقة أسواق مقفرة إلا من بعض المارة، دخل السمسرة دون أن يشغل نفسه بنظرات زوجة الحاج، عبر حجرة المصاطب نحو عتمة الدرج الصاعد، أحسَّ بكفٍّ على كتفه، ظن أنها كفُّ ذلك الكائن اللامرئي، سمع صوتها:

- لن أعتقك هذه المرة!

لم يلتفت، صعد عتمة السلم، أقفل باب خلوته، لم ينم ليلتها،تارةً ينتحب وأخرى يتمتم بصلوات وأدعية بصوت حزين،تتوالى مشاهد حامل السوط، تدمع عيناه، أفزعته طرقات الباب.

- أنا خالتك وردة، افتح.

يتكوَّم على نفسه،يمر الوقت وقرع الباب يعاود بعد حين، يقاوم صوراً شتى تختلط بين وجه شاوش السجن ووجه الجلاد حامل السوط، يقاوم قرع الباب وتلك الصور بالصلوات والأدعية، لا يعرف كم مضى من الأيام وتلك المشاهد تسيطر على ذاكرته، ومخزونه لتلك

الآيات والصلوات يتناقص، ليشعر بنضوب ذاكرته وفقدان توازنه، لم يعد يعي ما عليه فعله،لا يقوى على النهوض من فراشه، تدمع عيناه ولا يرى أو يسمع غير أصوات مشاهد ذلك الشاوش وذلك العسكري وحامل السوط، تتوالى المشاهد لتبدأ من حيث انتهت. شعر بضوء يقهر عينيه، أناس حوله لا يعرف أحداً منهم، عقله توقف عن التفكير، لا يعرف ما يدور، رويداً رويداً ميَّز وجهها المثلث المقلوب، عيني الحاج وردة الصافيتين، وجه زوجته الضحوك، أصوات الشفاقة.

بعد أيام من ترددهم أخذت وردة تؤنِّب نفسها، متذكرةً ذلك اليوم الذي تركته فيه دون أن تحادثه،تكفّر عن ذلك الإحساس بالتردد عليه، تنصرف لتعود لإطعامه، تتأمل عينيه وقد عاد إليهما بعض الألق، جسده، تلاحظ عروقه النافرة، تحسّنت ذاكرته يوماً بعد يوم،تسمعه يتمتم بتلك الأوراد والأدعية، آيات وأحاديث، تحدثه فيهز رأسه، بدأ يميِّز كلماتها، تنتظر أن تسمع صوته، لم يكن يعي ما حصل له، لكنه سمعها كمن يحدث نفسه: لا ندري ماذا حلَّ بجسمك،حبست نفسك دون شراب أو طعام طيلة هذه الأيام؟ سألتك مراراً أين تذهب ومن تلك التي تدفعك للموت؟ فلم تجب عليَّ! رجوتك أن تخبرنا قبل أن تغيب فلم تخبر أحد، عرفت من خالتي وردة أنك عدت بزي عسكري، قالت إنك لم تكن بخير! وإنها لحقت بك لتعرف حالتك، لكنك لم تستجب، لتطلب منا بعد أيام- من مكوثك دون ظهور- مساعدتها على قلع الباب، وجدناك في آخر رمق، الخلوة اكتسبت رائحة لا تطاق، فراشك وملابسك وجسمك متَّسخ بمخلفاتك، عيناك تحتضران، فمك يابس، حتى يدك لا تقوى على رفعها.

يسمع صوتها ولا يعي كلَّ ما تتحدث به، لا يعرف أنه قد فقد الإحساس بالعطش والجوع، وأن حواسه انشغلت بصور ليلة حامل السوط.

بعد عدة أيام هلَّلت حين لاحظت ابتسامة عينيه وهي تحدثه:لم يعد بيننا من مستور، أدخلتك (المطهار)، غسلت بدنك مراراً، وأنا من أطعمك وأسقيك، وحقيقة الأمر لقد تضاعف عطفي عليك، أنت بين يديَّ طفل وديع، فهل تخفي عني ما يشقيك؟ لم يعد بيننا من مستور.

ذات صباح سمعت صوته:«أريد أن أخرج إلى السطح»، التفتت تنظر إلى عينيه وشفتاه تكرَّران ما نطق به، لم تتمالك نفسها وهي تحمل ذراعه على كتفها، أخرجته، أجلسته حيث يجلس عادةً لارتشاف القهوة، رقصت مع الحمَام كما تحب أن ترقص، أفرحتها ابتسامته، لتعود تجالسه، يرتشف من يدها، يلتقم كسر الخبز، خلال أيام استطاعت أن تعيده إلى نفسه،يقول بعض الجمل غير المترابطة، يستمع إليها: أنا سعيدة لخروجك مما يشقيك، سعيدة حين يعجبك رقصي، وأنت تراقب حركة الحمام، حين تكون بأحسن حال يسكنني جذل لطيف.

فاجأته بلمس خده:أدعو الله أن يشفيك مما ابتلاك، حين أراك بخير يغنِّي قلبي، أتذكر تقلُّب حالك فأحتار، ويظل سؤالي: ما الذي يشقيك؟ يتقطَّع قلبي ألماً حين أراك تتعذب، لا أعرف كيف أساعدك؟ إن أردت أن تتحدث عمَّا يشقيك فأرجوك أن تتحدث، بالأمس لم تكن بهاتين

العينين الصافيتين ولا بهذا الوجه الطليق، ظننت أنك خرجت مساء الأمس، فهل من سرّ يعيد إليك روحك، وذلك الهمّ الذي يحتلك فجأةً، هل هي امرأة أخرى؟ كيف هي؟ ولماذا تشقيك تارةً وتسعدك أخرى؟ أظنك تحبها، هل هي تحبك؟ لا أظن ذلك، أشعر بعذابك، فأنا أحبك دون أن تشعر بمقدار حبي، حب لم أذقه من قبل، يوم زوّجتني أمي بذلك العسكري كانت تقول لي:«ستحبينه بعد الزواج»، ومن أول ليلة كنت أبحث عن ذلك الحب الذي وعدتني به أمي، لم يكن قاسياً معي، كانت أمي تسألني:«هل تحبين زوجك؟» فأحتار في الإجابة ثم أهز رأسي مبتسمة، أضحك خجلاً متخيِّلة ما يحدث بيننا في ظلام الليالي من حب، لم أكن أفرق بين اللذة والحب، وهكذا اعتقدت أن الحب يختبئ في الظلام، ولذلك كنت أنتظر الليل، أسارع لإطفاء السراج، أتلمَّس سعادتي في جسمه، يتفوّه بكلمات ممتعة غير التي أسمعها في النور، ملامسات وأفعال لا أجدها إلا في الظلام، وبذلك اعتقدت أنني أعيش الحب، إلى أن رأيتك وأحسست بك، في البداية ظننت أن ما أشعر به تجاهك أمر عارض وأني سأغسل قلبي منك مثل كثيرين ممن يمرون على السمسرة، ثم أحسست بك داخلي تتبرعم، تزهر في أعماقي. في البداية أربكني ذلك الإحساس، خفت، بكيت حين بدأت أمي والخالة وردة تسألانني عمَّا يشغلني، أمسيت أحب العزلة، أفكر فيك، أنتظر قدوم صباح كلِّ يوم حتى أراك.

وها أنت لا تشعر بي ولا بعذابي، لا تعرف بأني أحمل قلباً تصعب السيطرة عليه، قلباً يتمزق كلَّما لاحظ الهمَّ يشغلك، أراك تذوي أمامي، أجنّ، نعم أرى ذبولك ويستقر بي الحزن، أبكي، أسأل نفسي: ماذا رأيتِ فيه؟ غيره كُثر، كلماتهم تصطدم لتسقط ميتة، نظراتهم تتبخر قبل أن تستقر في قلبي.

وأنت لا تستقر على حال، أيام تبدو فيها منطوياً، كئيباً، بل تقترب من الهلاك، وأخرى كما أنت اليوم سعيد، تتغير بين يوم وآخر، تغيب فأظنك لن تعود، أسمع صوت المدافع والحرب وأجزم بأني لن أراك، أبكي بشدة عليكوأسأل نفسي: ما ضرَّه لو أسدى إليَّ معروفاً وأخبرني أين يذهب، تيقَّنت من أنها امرأة، امرأة تعجبك، وإلا فأين تغيب، وعلى ماذا كلُّ هذا العذاب الذي يوصلك إلى شفا الموت؟

وهذا ما جعلني أشعر بمسؤولية تجاهك كما لو كنت طفلاً، في الوقت الذي أتمنى أن تحدثني عن نفسك، لكنك لا تتحدث إليَّ، أتساءل: ماذا لو حدثت الآخرين عن حياتي؟ ماذا في الأمر؟ لا أرى في حياة نعيشها ما يستحق الإخفاء، ها أنا أحكي لك فما الضير في أن تعرف؟ وما يخيفك لو حكيت؟

التفت يتأمَّل عينيها مبتسماً، مدَّ يده، أمسك بكفها، شعرت بنبضها يتسارع ودمها يتدفق، كظمت دفقة سعادة، شعور غير مسبوق، فكرت أن تحتضنه، أحسّت أن حنجرتها خذلتها، وأنها غير قادرة على التنفُّس، سمعت صوته:

- أودُّ أن أسمعك.

هزت رأسها بشغف تشجّعه، فكَّر أن يخبرها بما يشغله، أن يبوح لها بكل تلك الأعمال الليلية التي قام بها، وأن لا وجود لأي امرأة في حياته كما تتصوَّر، وجد نفسه في صراع مع الكلمات، يشعر بدافع يدعوه لأن يحكيوأن يسمعها وأن الحكايات حياة، أحس بالكلمات تصعد حنجرته، تذوي وتموت، كاد يصرخ، لينقذه صوته الرقيق:

– لا أعرف، لكني أتذكر أنني بحاجة إلى من ينادمني، كنتِ قد تحدثتِ إلي قبل أيام، أو أنني واهم، ثم خُيِّل لي أنك لا تريدين سماعي!

والآن أريد أن أسمعك تحكين.وإن كنت ترغبين بسماعي سأحدثك، لكني لا أريد أن أوهمك بشيء، أنا لي همومي ومتاعبي، وحياتي ليست مستقرة، لا أتدخَّل في مشاعرك، وفي الوقت نفسه أرجو أن تفهميني ولا تغضبي، أقدِّرك وأحترمك، وأراك جميلة، لكن...

صمت ناظراً في عينيها، تراخت قبضة يده وانكسرت نظراته، تحاملت وردة على نفسها، شعرت أن عليها أن تشجعه، أن يواصل حديثه، أن يبوح بما في نفسه:

- سؤال دوماً ما يشغلني: من يكون؟ ولماذا حالته في اضطراب وعدم استقرار؟ ولا أملك إلا أن أسألك نفس الأسئلة، أن أسمع صوتك، ولا أطالبك بشيء لا تمتلكه، والأهم عندي أن أراك وأطمئن عليك.

طريق السحب

يوماً بعد يوم أخذت حالته تستقر وكلماتها تمنحه إحساساً جديداً، ذات صباح جلست بجواره تتأمل أسراب الحمام، فاجأها صوته:

–لا يوجد ما أخفيه عنك، أنا من بلاد بعيدة، ووديانها وجبالها خضراء، أو هكذا رأيت بلادي التي رحلت منها صبياً صغيراً، لم يكن لي من خيار في تلك الليلة إلا أن أهرب، كان لنا بيت صغير يطل على (صلبة) القرية، وهي ساحة يتجمع الناس عند أفراحهم وأعيادهم فيها، ولي أب اقتاده عسكر عامل الإمام في ليلة مظلمةبوشاية من شيخ القرية، لم يصطحب حماره تلك المرة، وهو الذي يتنقل به عارضاً سلعه من بهارات وملح بين سكان القرى المحيطة بقريتنا. ننتظر وأمي عودته في كلِّ حين، وكنت أنا أواصل سفري صباح كلِّ سبت إلى قرية لأتعلم القرآن عند فقيهها، أعود إلى أمي مع نهاية كلِّ خميس، كان لي زملاء نذهب ونعود سوياً من قريتنا، لي أخوات، أكبرنا ولد.

في آخر يوم عدت إلى قريتنا، بدت لنا زاهية تحت شمس الغروب، دورها بهية، نتسابق وزملائي للوصول إلى أطرافها، نصعد سفوحها، أمنِّي نفسي بأحضان أمي، رائحتها، خبزها، صوتها حين تحتضنني يردد: «ياقمر قمَّيرة»، فأردّ عليها: «قميرة»، فتواصل: «يا سراج الليلة»، فأرد عليها:«الليلة»، فيعاود صوتها وهي تهزني: «طر بنا سرب الحمام»، فأكمل أنا: «سرب الحمام»،فتواصل: «يا قمر صنعاء ويا أحلى قمر، يا ضياء القلب ويا نور البصر»، تغني وعيناها تبتسمان لعينيَّ.

كانت الشمس تحتضر حين اقتربت وزملائي من أطراف القرية، صادفنا رعياناً يسوقون أغنامهم، سرنا معهم، يشيرون إليَّ بحذر وهم يتهامسون، لم أهتم في بادئ الأمر، تفرقنا، أسير معلقاً خباء (قرآني) على كتفي، تكررت نظرات من أصادفهم، همسهم، تحاشيهم إياي أثار في نفسي تساؤلات، شققت طريقي متجاهلاً كلَّ من أصادفه، تتابعني نظرات البعض وقد اقتربت من منزلنا، صدمني منظر لم أتخيله قط، وقفت مذهولاً أمام بيت لا يشبه بيتنا، يتصاعد دخان تبعثره رياح المغيب، جدران مهدمة دون سقوف، شعرت برجفة تحت أقدامي، خطوت منادياً بأعلى صوتي وأنا أبكي، اقتربت من جدار لم يعد له باب، رأيت زير الماء مهشماً،تنّور أمي مكسّراً، كل شيء ركام، ظهرت إحدى جارات أمي، سحبتني باتجاه باب بيتها، بلهفة احتضنت فجيعتي، رأيت نساءً وأطفالاً على أسطح المنازل المجاورة، لم أميّز نظراتهم أو ملامحهم لغرقان عيوني بالخوف، زحفت عتمة الليل على القرية.

أدخلتني جارة أمي بيتها، تمسح دمعي بكفها، عاودت ركوعها لاحتضاني، تحاول أن تنطق، تفتح فمها لتحتضر الكلمات، تهتز عيناها، انفجرت باكيةً كطفل صغير وقد طوَّقتني

بذراعيها، صمتت لتعاود النظر في عينيّ، تخذلها الكلمات، تعاود البكاء وقد احتضنت دموعي، أحسست بأضلاعها، رجفان قلبها، تعود لتمعن النظر في عينيّ، فزع وخوف، يهتز فكُّها، تحاول النطق مرة أخرى، يتحول صوتها إلى أنين، نهضت تفرِّق صبيانها الذين تكوَّموا عند باب الغرفة، عادت بعد حين بملامح ثابتة، جلست إليَّ محاولةً الابتسام:

– أريد أن تسمعني، أمك وأخوتك بخير.

لا أعرف كم بذلت من جهد حتى تخفي صوراً شاهدتها، انفجرت باكياً، رفعت وجهي بكفِّها، كانت مصمِّمة على أن تساعدني على التماسك، واصلت: الرجال لا يبكون، ألا تريد أن تكون رجلاً؟ أدركت أنها تحاول أن يظهر صوتها صلباً، أكملت كلامها وهي تغالب دموعها وقد دسَّت بكفِّي قطعة خبز: سأتركك تنام، غداً سأحدثك، عليك أن تعرف أن أمك بخير.

لم أنم، كنت أغالب دموعي، أرى أمي تحتضنني،«أهلا مهجتي»،ثم تهدهدني بأغنيتي المفضلة «ياقمر قميرة»، نتجمع حولها وقد أحاطتنا بستارتها الكبيرة، تسألني عمَّا أرسلت معي من حبوب للفقيه الذي يعلِّمني القرآن وعن معاملته لي، تسألني عن الطعام الذي نأكله في بيته، عمَّا حفظته من الآيات، أفتح قرآني أقرأ لها، فتقول:«اقرأ لي مريم»، تنصت وقد أغمضت عينيها تستمع لصوتي، وأظنها قد نعست، لتحتضنني وهي تمطرني قُبلاً حتى أشبع ضحكاً، تمسح دموعها وهي تبتسم، تسألني عن صلواتي في بيت الفقيه، أحدثها بتفاصيل صغيرة هناك، أدرك في عيونها نظرات الرضا وهي تضحك من قلبها، تودعني بقبلة في جبهتي، تمددنا لننام، تغطينا.

أراها ونحن نتبعها إلى قطعة الأرض التي يحاول الشيخ الاستيلاء عليها، لديه سبعة أبناء، كبيرهم يقول إن أباه اشتراها من جدي في آخر أيامه، كان أبي يقول إن ورقتهم مزوَّرة، وتقول أمي:«هذه قرية أبوكم وجدكم، وأنا لن أفرط في الأرض، سنظلُّ نحرثها حتى عودة أبيكم»، ثم أرى دمعة يتيمة تسيل على خدها، لا تحب أن تبدو أمامنا ضعيفة، دوماً تشدّ من صوتها لتبدو قوية.

في تلك الليلة لم أستطع مقاومة خوفي، أنتظر الصباح لتحدثني جارة أمي، طال الليل ولم أحتمل الانتظار، نهضت، تلمَّست أقدامي الظلام خائفاً، أضرب الباب باكياً، سمعت صوت جارة أمي قادماً، اصطدمت يداها برأسي، احتضنتني حتى هدأ صوت بكائي، أشعلت سراجاً:

– لِمَ لم تنم؟

– خائف!

– الآن سأؤانسك، لكن قبل ذلك عليك أن تغتسل. – تتكلم وقد أمسكت بكفي لتدخل بي باباً صغيراً، تضع السراج على رف عال، تأمرني بخلع ملابسي وهي تغرف الماء، مدَّت يدها لرأسي: لا وقت لدينا، اقترب الفجر. شهقت عالياً لبرودة الماء، أخذت تدعك رأسي، وجهي، صدري، يديَّ وأطرافي وظهري بقماش خشن، مواصلةً صوتها، قالت لي إن أبناء الشيخ يرسلون

من يخيف أمي ليلاً،وفي النهار يتهمونها في شرفها. قالت: ثم أخذوا يجمعون سكان القرية، يهمسون في مسامع الرجال أن رجالاً يباتون في حضنها بهتاناً وزوراً، وليلة البارحة خرج رجال القرية بفوانيسهم وآخرون بمعاولهم وهراواتهم، تجمَّعوا أمام بيتكم مهددين، سرت شائعة أن الرجال قد هربوا من عندها، تسلَّق البعض جدران البيت، أخذوا ينبشون السقف، وآخرون يهدمون الجدران، والبعض وقف محرضاً:«طهِّروا القرية من الزانية، أقيموا حدود الله». بادر أحدهم بإشعال النار في السطح ثم في خشب النوافذ، تعالت ألسنة اللهب لتنير الأنحاء، أتت النيران على البيت ليصبح كما رأيته.كانت أمك قد جاءتني قبل يومين من الحريق، أخبرتني أن هناك من يقرع نوافذها ليلاً ويهددها، تسمع وقع أقدام على السطح، باحت لي بخوفها على أولادها، نصحتها بأن تُكثر من الصلوات، وأن تتيقظ وتجعل من إحدى نوافذها مخرجاً إذا ما داهموها، حين شبَّ الحريق احتضنت إخوتك وهربت قبل أن تصلهم النيران.كثيراً ما حاولوا قتل والدك، وكانوا يعرفون أن أمك مصدر قوته، ولمرات سعوا لتشويه سمعتها، يعيِّرون والدك بأنه لم يتزوج بمن يعرفون، وأنه جلبها من إحدى جولاته لبيع بهاراته من بلاد لا يعرفها أحد، وأنها دون أصل، وحين لم يفلح معهم ذلك أخذوا يبثون الشائعات بأنها تستغلُّ غيابه، تستضيف الرجال على فراشه، جربوا كلَّ الوسائل كي ينالوا من أسرتكم، وعندما لم يجدِ ذلك نفعاً حاولوا بثَّ أخبار بأنه يعمل مع أعداء مولانا الإمام وأنه ينقل الرسائل والأخبار بينهم، ليأتي من يقتاده وتظل أمك وحيدةتقاوم أطماعهم.

أكملت غسلي، لفَّتني بلحفة كبيرة، قالت لي وهي تجفف جسمي: أنت قاري كتاب الله وحافظ ياسين وآية الكرسي، وأمك كانت تعتز بك، هي ذهبت تبحث عن والدك، وما عليك إلا البحث عنهما، حين تغادر قريتنا أُتلُ ما حفظته في سرِّك حتى لا ينالك مكروه، ردِّد آيات كتاب الله لتفتح لك الأبواب المغلقة وتلين لك القلوب القاسية والرقاب العاصية، ويعلم الله يا ولدي بأن أمك من أطهر النساء، لكنه الطمع أعمى قلوبهم، لا يفرّقون بين الحلال والحرام، ربك يمهل ولا يهمل، أمك بخير، اتبعها لتبحثا عن أبيك سوياً، سيلمُّ الله شملكم، دوماً لا تنسَ ما سمعته مني.

***

أخذت تدهن يدي ورجلي بالسمن، ثم ساقي وذراعي، دهنت وجهيثم ألبستني ثوباً لأحد أبنائها، نظرت في وجهي وقد فردت كفها: «هذه سلفتك مني»، قالتها وهي تضع في يدي قرشين (فرانصي) فضة، ثم خبأتهما في أسفل خباء قرآني. كانت تتكلم وهي تبسط قرآني بين يديها، قبَّلته كما كانت أمي تفعل، رفعته على رأسها وهي تتمتم مغمضة العينين، وضعته على صدرها.

علقت خباء قرآني على كتفي، ومزودة مليئة بالكعك والخبز على الكتف الآخر، ضمتني إلى صدرها: والآن أستودعك من لا يخفى عليه ظاهر ولا باطن.

خرجت ممسكةً بكفي وسط عتمةٍ باردة، سكون ينخر قلبي، كان صوتها مشروخاً: «أنت رجل، أليس كذلك؟ أمك سارت في الطريق الشرقي للقرية، وأنت ستسلكه لتبحث عنها حتى تجدها، عدني بذلك، وعندما تلقاها أخبرها أني أسلّم عليها، لا تنسَ ذلك، يجوز أنها سلكت طريق صنعاء، اتبعها، لديك زاد قليل، لا تأكل إلا إذا جُعت، أنت تعرف طريق الوادي أليس كذلك؟ استمر في السير شرقاً، سترى قرى لم ترها من قبل، وستصادف رعاة ومزارعين اسألهم عن طريق صنعاء، هي ليست بعيدة». ظلت توجهني بنصائحها الكثيرة، لم أتبينها في وقتها لكنها مع مرور الأيام أخذت تحضرني.

انخفض صوتها: «انظر هناك، ماذا ترى؟ ألا ترى تلك الهالة الفضية، إنه قدوم الفجر يأتي دوماً من الأفق البعيد، يبشر بقدوم يوم جديد». ضمَّتني وقد شحب صوتها: «هيا انطلق، تذكر أنّ لك رباً اسمه الكريم، لا تخف، الله رفيقك في كلِّ مكان، لا أريد أن تشرق الشمس إلا وقد ابتعدت عن شرورهم، هيا يا صغيري جدّ خطاك».

انهار صوتها لحظة سحبت يدها من كفي، شعرت بسقوط قلبي وأنا أخطو خطواتي وسط عتمة مخيفة، كلُّ شيء من حولي أشباح دون ملامح، كنتُ أبتعد وأسمع صوتها يذوي حتى انقطع، فكرت أن أجلس حيث أنا ولا أفارق قريتنا، الخوف يلتهم سيقاني، لكنه صوتها:«أمك سارت في الطريق الشرقي للقرية، وأنت ستبحث عنها حتى تجدها، عدني بذلك». أخطو فترتطم قدماي ويعلو وقعهما، أكابد خوفاً له طعم الدموع، سرت حتى لم أعد أسمع إلا أنين قلبي، لا أرى إلا الخوف حولي، سريعاً ما تعالت زقزقة العصافير، تكاثر ذلك الضوء الفضي، لا أحد غيري يبكي سائراً، وصوت جارة أمي يتردد:«لا أريد أن تشرق الشمس إلا وقد ابتعدت عن شرورهم، هيا يا صغيري جدّ خطاك». حقول ذرة عن يميني وشمالي تحركها الريح مصدرةً أصواتاً مخيفة، حقول أخرى كنا وأمي قد شاركنا في حصادها في أيام مضت، سرت وذلك الضوء يزداد لتشرق الشمس بهية، رأيت السحالي الملونة على الصخور تهزُّ رؤوسها، فراشاً يحطّ على حوافِّ سواقي الماء، نظرات مرحة لفئران تتقافز لتبتلعها جحورها، ظهرت قرى جديدة على أطراف سهل واسع، ألتفتُّ، لم أعد أرى قريتنا، زاد خوف قلبي، مزارع يسوق ثوراً، وحمار يحمل محراثاً، رعاة تتهادى قطعانهم نحو المراعي، يشيرون شرقاً حين أسأل عن طريق صنعاء، سرت وسط خوف تكاثر الغرباء، أناس يجدّون السير في اتجاهين متعاكسين. جلست على حجر أترصد العابرين في حيرة، سألت أحدهم، قال إنني فيها، لا أعرف في أي اتجاه أسير، ملأ الدمع عيني، أناس يظهرون ثم يختفون، جمَّال أشار بعصاه ليدلني على اتجاه صنعاء دون أن ينطق من علوِّ جمَله.

«لا تسافر مع نفر قليل، سر مع أناس كُثر»، ذلك صوتها يأتيني من الفجر. جلست أنتظر حتى رأيت خليطاً من البهائم والمواشي وبشراًكثراً، سرت في مؤخرة ذلك الجمع كجروٍ

يلتمس الأمان، أتأخر متحاشياً الاقتراب من أحد، ثم أجدُّ للحاق بهم، بينهم عجم يدعونهم (هندي بابا) مسافرون للحج، دوماً يرددون: «الله محبة». صعدنا جبلاً لم أرَ في علوه أبداً (سمارة)، تزنّرت على جوانبه قرى كثيرة، شلالات مياه تطرب لوقعها المسامع،كنا نعلو ونعلو، رؤية اقتراب الشمس من أفق بعيد، بعث المنظر الرجفة في قلبي، صعدت مبهوراً، توقف الجمع في قرية كبيرة، شغلتني الشمس التي أمست تحتنا.

سألت (مقهوية)، صاحبة نُزل، عن امرأة تصطحب أطفالها، نظرت إليَّ بعيون عطوفة، عدَّدت لها أوصافها، تبسّمت قائلةً: أظنني رأيت مثل تلك المرأة،فمن يأتي سريعاً ما يمضي.

بتُّ ليلتي أحلم أرى أمي تبتسم، تمدّ يدها تمسح دمعي، أتمنى استنشاق رائحتها، لكنها لم تحتضنّي، أحلم بدفء صدرها، لا أعرف إلاّ أني صحوت على جلبة، في بادئ الأمر ظننت أنني في بيتنا، ثم صدرت تساؤلاتي: «أين أنا؟ ومن هؤلاء؟»، لتسعفني ذاكرتي بأحداث الأمس، مسَّني غمٌّ وألم، تمنيت لو أنني خُلقت بدون ذاكرة، أو أن عقلي لا يفكر بالغد وما عليَّ مكابدته. صباحاً خرجت خلف تلك الجماعة التي ظلت بدوابِّها ومواشيها تصعد جبل (سمارة) وكأنها تبتغي مجاورة السماء، برودة الجو تزداد والدواب المحمّلة بعضها يتعثر، سار الركب حتى حجبت سحب كثيفة الشمس، لم أعد أرَ إلا ما تحت أقدامي ومن هم بجواري، ترتفع أصوات زاعقة لأناس لا نراهم:«احذروا سقوط الهاوية، الزموا اليمين»، كل الجهات تحولت إلى أصوات مفزعة أن نلزم طرف الطريق الملاصق للجبال، أصوات لا نرى أصحابها، جمل يسقط بصاحبه، صرخات أخرى عن سقوط حمار بحمولته، كنت أتمنى لو أعرف كم سنظل وسط تلك السحب، أم أن ما أمامنا من بلاد تعيش سنواتها وسط غبش دائم، يظهر أناس يسيرون عكسنا، تلتقي وجوهنا ثم تبتلعها ذرّات السحاب.

في مكان ما من طريق السُّحب أخذت تصطدم بنا كتلٌ محمَّلة بماء لم يكن من برق أو رعد، فقط أصوات ريح تصمُّ الآذان تحمل تلك الكتل القطنية، تغمر أقدامنا جداول، ترتفع أصوات شلالات وخرير مياه لا نراها، كل شيء مبلَّل، صوت الماء ولونه يصبغ كلَّ شيء، نعبر فرضة صخرية، تبزغ الشمس معلقة، كانت قد قطعت ثلثي السماء، السحب تشكل سهولاً على مدِّ البصر، نتجمَّع على أرض فوق السحب، البعض يقول إنهم فقدوا عدة أشخاص وعدداً من المواشي في الهاوية، لم يظهر على ملامحهم الحزن، مضينا في الطريق وكأن شيئاً لم يحدث، أتابع السحب على مبعدة منا تحملها ريح مسرعة، تتبعها سحب أخرى كأنها في حالة مطاردة، تعبر فجّاً هائلاً بين جبلين مصدرةً دويّاً مرعباً، السحب تتجه نحو السماء، تتشكل دوائر، ترسم وجوهاً، قطعاناً، حيوانات، تتناسخ الأشكال لتظهر بصور شتى. عبرنا (قاع الحقل) ووصلنا سوق (يريم) مع نهاية النهار، لم أرَ قرية أكبر منها، حوانيت متقاربة، وناس كثر. حين سألت زوجة صاحب (المقهاية) أكّدت أنها قد رأت تلك المرأة يوماً في مقهايتها لكنها لا تعرف اتجاه سيرها.

عند الفجر طلب مني صاحب النزل أن أبقى لمنافعتهم، ووعدني بأنه وزوجته سيبحثان عن أمي، كنت متردداً حين بدأ الركب بالرحيل، لكن صوت جارة أمي يحثني على مواصلة الطريق إلى صنعاء. تركت يريم ولحقت بالركب، مررنا بحقول تحيط المحجة، يقف جبل عالٍ كقرن ثور عند طرفها الجنوبي، يلفت انتباه القادمين ببياضه، قالوا إن البياض مخلفات طيور تفضّل التعشيش على قمته. في اليوم الثالث عبرنا قاعاً مستوياً تتمدد عليه قرية كبيرة، قرية هي الأكبر (ذمار)، في البدء لم أكن قد رأيت مدينة، إلا أن المسافرين قالوا لي إنها مدينة وليست قرية، ومن يومها عرفت الفرق بين المدينة والقرية: رماد يملأ الشوارع، كسر عظام، نوى بلح وحُمَرْ، أناس يعتمرون عمائم و(صمائط) ضخمة، يلبسون ثياباً على ثياب فتبدو أجسامهم ممتلئة ووجوههم بضمورها مضحكة.

***

دخل الركب مبنى بوسط المدينة، يصفونها بمقهاية (شمهان)، لم يكن يهمني ذلك الزحام الشديد داخل السمسرة، كنت أبحث عمَّن أسأله عن أمي، امرأة من بين عدة نساء، تلك تعجن، وأخرى تقوم بتنظيف الزريبة، وثالثة تشعل حطب التنّور، ورابعة تجلب الماء، هكذا ظلَّت تتحرك بينهن، في صوتها لوعة وحزن، تعلو وجهها ابتسامة.

أهمُّ بالاقتراب منها لكنها تتحرك وكأنها تدير معركة. حين حلَّ المساء وهدأ النزلاء في مهاجعهم اقتربت مني تلك المرأة، أمسكت كفي بين كفيها: «ابن من أنت؟»، حرَّك سؤالها عاصفةً من الارتباك واليتم في أعماقي، صوت جارة أمي يتردد:«تجنّب الغرباء ولا تجب على أسئلتهم»، احترت بين دفء يديها وصوت جارة أمي، انكسرت نظراتي عن عينيها، لم يطل الصمت: «وأين أبوك؟»، رفعت وجهي وقد حجبت رؤيتي الدموع، لم أتوقع أن تسحبني بين أحضانها، كان بكائي بحاجة إلى من يحضنه، انتحبت، ربَّتت على ظهري حتى هدأ بكائي، أمسكت رأسي، نظرت في عيني وأصابعها تمسح دموعي، رفعت صوتها في من حولها: «أين عشاؤه؟»، حين أكملتُ ما قُدِّم لي من طعام أمسكت بكفي من جديد: «والآن ألا تحدثني عن سبب دموعك، أين أهلك؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ لاحظتك طوال النهار تتابعني بنظراتك ولم ألمحك تطلب خبزاً أو قهوة للعشاء مثل الآخرين، وها أنا أسأل عنك فهل تخبرني؟»، شعرت بسخونة الخجل في أذني ووجهي، كنت متلهفاً لسؤالها عن أمي، وأنا أحاول أن أتجنب الجواب عن أسئلتها، أخبرتها بأني طالب علم، وأنّ لي أماً سبقتني في الطريق مع إخوتي. كنت أنظر إلى عينيها وأنا أصف لها ملامح أمي، صوتها، هيئتها،وعيونها تتابع شفتي، سألتها: «هل مرّت أمي بكم؟»، صمتت قليلاً كمن تستحثُّ ذهنها ثم قالت: «أظنني رأيت امرأة بالوجه الذي تصفه».

كانت مشاعري في تلك الليلة مرتبكة، أتقلَّب في مكاني بنوم متقطع، أُمنِّي نفسي بلقاء أمي، في لحظة أحسست بيد تمسح رأسي، أنفاس لها رائحة أنفاس أمي تلفح وجهي، حجبت العتمة ما يحيطني، سمعت صوت أمي:«نمْ فلا يزال الليل يسافر»، هدأ كل شيء بعد أن أعادت الغطاء على رأسي. قمت على ضجيج رواد (المقهاية) فزعاً عند الفجر، حملت خباء قرآني وزوادتي الفارغة، ذهبت أبحث عمَّن جئت برفقتهم، كانوا قد خرجوا بمواشيهم ودوابهم، قيل إن مقصدهم سوق المدينة (الربوع)، لم يتبقَّ إلاّ عدد قليل معظمهم هنود، محتاراً أسأل نفسي: ماذا عليَّ القيام به، أشعر بوجود أمي، في الوقت الذي لا أعرف كيف أخرج من ذمار، ولا الطريق التي عليَّ أن أسلكها، ولا مع من أسافر. كانت عيون تلك المرأة تراقبني:

- هل ستبقى معنا؟
- لا، سأسافر إلى صنعاء فأنا طالب علم.
- وأمك؟
- سأبحث عنها.

التأمت الدائرة حولي، صبيان وصبايا ونساء عجائز ورجال، الكلُّ يتأملني. تماسكت محاولاً أن أكون رجلاً كما وصفتني جارة أمي «أنت رجل أليس كذلك؟»، يتردد صوتها بداخلي ولا أعرف إلا أن الرجال لا يبكون. رفعتني تلك المقهوية حتى ساوى وجهي وجهها، أجلستني على مصطبة عالية:

- هل تقبل أن أكون لك أم؟

زاد ضغطها على مشاعري وانهارت رجولةٌ لم أذق طعمها، بكيت لتحتضنني من جديد، ارتفع همس من حولنا، قلت لها وصوتي يتقطع من البكاء:

- لكني ذاهب للبحث عن أمي!
- تمنيت لو كان لي ابن بشجاعتك، توقعت أن ترفض عرضي لتختار البحث عنها، لا أملك إلا أن أدعو لك في صلواتي- رفعت صوتها في من حولها- هيا، لا تقفوا هكذا كالأنعام، جهّزوا (سبار) ولدي الذي يسافر وحيداً، ألا تسمعونني؟ انظروا ابني ما أجمله، يسافر باحثاً عن أمه، زوِّدوه بما يعينه على رحلته.

كنت أشعر بدفء كلماتها في قلبي. ملأت زوادتي بكعك خمير وجيوبي بزبيب أسود، لفَّت حول رأسي شالاً، طوقت ذراعيها حول جسمي دامعة العينين، ثم التفتت إلى مجموعة يتأهبون الخروج بدوابهم:

- هذا ابني يا مياس أمانة في عنقك إلى صنعاء، سأسألك حين تعود عنه.

حين خرجنا من ذمار كنت أبكي تلك المرأة، أتذكر ملامحها، كانت تشبه ملامح أمي، وعدت نفسي يوماً أن أعود إليها، طوال الطريق وصوتها يرافقني، طوال ليلتي في قرية الطين

(معبر) أحاول تمييز ملامحها عن ملامح أمي. عبرنا قاع جهران صعوداً في نقيل يسلح لنبيت في قرية منازلها قُدَّت في جبل. شمس نهار اليوم التالي لوَّنت جبالاً سوداء، قيل إنها الجبال التي تحيط صنعاء لتحرسها، ظهرت لنا في البدء منارات سامقة ودور عالية، أفق لا يشبه أيَّ أفق، نسير في أرض سهلية حصوية وقد جدَّ الجميع في السير، ارتفعت الأصوات وأمسى الخطو هرولة، كنت أتعجَّب لِمَ هذا، فقال أحدهم: «حتى نلحق بصنعاء»، تعجبت! لكن الشمس غابت قبل أن نصل.

توافد المسافرون ليُشكِّلوا بدوابِّهم تجمّعاً كبيراً أمام (باب اليمن) ولم يسمحوا لنا بدخول الباب، عندها أدركت أننا لم نلحق بها، أشعلوا النيران وأمسى الجميع ينتظرون الصباح.

كانت كلمات جارة أمي تتردَّد: «إذا وصلت صنعاء وصلت الأمان، أُقصد بيوت الله لا تقصد بيوت الناس». قبيل طلوع الشمس فُتح الباب، عبرت مع من عبر إلى الداخل، ابتعدت عمَّن جئت معهم، فلم أسمع أحداً منهم يذكر بأنه يقصد بيوت الله، مسجد الرضوان الذي بتُّ في زاوية من صرحه الخارجي. اليوم التالي سرت وسط روائح وألوان أسواق لا تنتهي،أبحث في وجوه من أصادف علّي أرى وجه أبي أو أمي. مساجد كثر هي التي بتُّ فيها ألتمس الدفء: مسجد الحميدي، جماح، المذهب، عقيل،ومساجد كثيرة، أتنقل ليلة بعد أخرى من مسجد إلى آخر: خضير،الزمر،الشهيدين،الفليحي،داوود،طاووس، قبة المهدي، إلا أن المساجد التي أمست مستقري هي الأبهر والنهرين والجامع الكبير.

قَمَريات

أسيرُ وسط تشعُّبات الأسواق التي لا تنتهي، أناسٌ يتحدثون بأصوات عالية، شوارع تزدحم بسلع لم أرَها من قبل، وروائح جديدة. أسير وأسير حتى لا أعرف أين أنا، صنعاء متاهة كبيرة، كلُّ الاتجاهات تقابلني أسوارها أو أخدود مجرى السيول، مساجد كُثر حتى أن بعضها متجاور، أحرص على أداء صلاة غروب الشمس والعشاء في المسجد الذي اخترت المبيت فيه، أتسلَّل إلى إحدى الزوايا، أو أختفي في أحد المطاهير أو خلف مغتسل الموتى، حتى إذا ما انصرف الجميع وأقفلت الأبواب أخرج إلى بيت الصلاة حيث تهيمن على فضائه عتمة موحشة، لكنها دافئة، أتغلَّب عليها بتحضير ما كان بين صلاتي المغيب والعشاء من ضجيج وزحام، متخيلاً تلك الأصوات وحركة العُبَّاد وترانيم حلقات الذكر.

تشدُّني مساجد بعينها، حيث حلقات الذكر أو دوائر المديح، وبعضها تراتيل جماعية للقرآن، وأخرى حلقات درس، لكن ما سحرني هي أصوات منشدي المدائح، أطرب لأصواتهم الجماعية، يحملني الوجد بعيداً، أشعر بدموعي تنهمر وروحي تحلق بعيداً بعيداً. بعد أشهر من المداومة في تلك الدوائر دعاني أحدهم للاشتراك معهم في الغناء، ساورني الشك حين لاحظت تلك العيون تتأملني وأياديهم تتلمَّسني،ليرتفع صوت جارة أمي من أعماقي: «لا تَنْقَدْ لحديث الغرباء مهما أعجبك، لا تستجب لدعوة أحد لينفرد بك، ولا تأمن لأيٍّ كان». تسلَّلتُ فارّاً، خرجت من المسجد وأصواتهم تجول في ذهني، أصوات ترانيم حلقاتهم بداخلي تتردد في يقظتي ومنامي،طوال النهار أبحث بين ملامح المارة، وبعد مغيب الشمس من مسجد إلى آخر، لم يستقر بي ليلي، وفي كلِّ مسجد يرتفع صوت جارة أمي فأنسلُّ خارجاً، قاطعت كلَّ الحلقات، تجنَّبت الاقتراب منها، لكنه الجوع، دفعني لأهيم في أزقة أسواق صنعاء، أستعرض تلك الأطعمة المعروضة أمام النساء المتكآت على جدار مسجد الرضوان بأوعية الخبز والبيض والدجاج وأغصان الريحان، يقابلهن صفٌّ من باعة تمر العجوة والزبيب واللوز، روائح تزيد من عنف جوعي، أذرعُ ممرَّ السوق هابطاً حتى باب اليمن وصاعداً حتى سمسرة النحاس، أفكر بالتقاط ما قُسِمَ من أمام امرأة تبيع اللبن والخبز، أتصوَّر كيف سأمرق من بين مارة السوق وكيف سأتجاوز أكوام البلح والزبيب، أغصان البردقوش وورد الجوري والريحان، شعرت برعشة خجلاً من نظراتها وهي تراقبني، يلاصقها طفلان يلعقان أصابع بلَّلها بياض اللبن، خففت ابتسامتها حالتي، مادَّةً لي بكسرة خبز، مطبطبةً بكفِّها الأيسر علىالأرض، تشير عليَّ أن أجلس بجوار طفليها، ترددت، رفعت صوتها:

- تعال، شاركهما.

نظر الطفلان بتعجُّب حين اقتربت. قادني جوعي لأجلس حيث أشارت. أخذت أقضم كسرة الخبز بنهم، أخذت بكفّها تملّس شعري:

– أين بيتكم؟ كان سؤالها غريباً بالنسبة لي، لاحظت ارتباكي: أين أهلك؟! لم أجد الجواب، فاضت عيناي وقد أخفيت وجهي بين ذارعي، تلك المرأة قادتني إلى دكان مجاور، قالت لي: هذا خالي (الأسطى)، وهذا دكانه، يمكنك أن تأتي صباح كلَّ يوم لمعاونته.

لم أكن أفهم أي معاونة تقصد، دكان كلُّ ما به أبيض، جدرانه بيضاء، سقفه أبيض، حتى الرجل بملابسه ووجهه وأطرافه الملطخة بالبياض، كنت أتمنى أن تصطحبني مع أطفالها، خرج صوتي ضعيفاً:

– أعاونك أنت!

– لا تخف، لن أتركك، ستجدني هناك صباح كلِّ يوم، وسأستعين بك.

منذ ذلك النهار أضحى لي عمل، أقف في ذلك الدكان الذي عرفت سرّ بياضه، حين نمزج دقيق النورة ومعجون الجص يطرطش (الأسطى) الجدران ليعرف كثافة اللون، وهكذا في كل مرة.

في بداية أيامي لم يكن لي من عمل غير ما يأمرني به صاحب الدكان، أحرس الدكان حين يخرج لقضاء عمله، أعاونه في خلط الجص بالماء ليحوّله معجوناً أبيض يشكّل منه رفوفاً وألواحاً مطعَّمة بالزجاج، أو خلط النورة بالماء والملح لتبييض الجدران.لكن ما سحرني وبهرني إتقانه صناعة قمريَّاته الملوَّنة، تلك الألواح الجُصِّية المطعَّمة بقطع الزجاج الملوَّن،قضيت شهوراً طويلة أحاول تقليده، لاحظت بعد ذلك أن واجهات دور صنعاء تملؤها تلك القمريات الملوَّنة.في السنة الثانية أجدتُ استخدام البيكار والمسطرة، قصّ الزجاج بقلم الماس بمقاسات محددة، إمساك السكين القرنية لنحت ألواح الجُصّ.

يصطحبني معه لأمدّه بجرادل النورة لتبييض الواجهات، ونعمل على تبييض غرف الدور، تعليق رفوف، أو تزيين مفرج أو منظر بالجصّ والنورَةْ.يسكنني إحساس بأني سألتقي أبي وأمي، أنشغل بترصد من أصادف.

مرّت أشهر وقد أتقنت الكثير من تلك الأعمال، خاصةً صنع القمريات المعشَّقة بالزجاج الملوَّن، لكني لم أجرؤ يوماً على الخروج من نوافذ الدور والوقوف على السقالة، أرى الريح تحرِّك أطراف الحبال، قطرات النورة تذروها الرياح، شيلان رؤوسهم وثيابهم ترفرف في الفضاء وهم يبيّضون الواجهات العالية بالنورة، أراقبهمفأشعر بالدُّوار، وما زاد رعبي يوم أن فقد الأسطى توازنه ليهوي من علو سقالته في الدورالرابعويرتطم بالأرض كثمرة هُرست على أحجار الزقاق، أصواتٌ هلِعَة تجمَّعت، صرخات احتضن صداها جدران الدور المحيطة.

***

في تلك الليلة انكفأت حزيناً في زاوية قصيَّة من مسجد الرضوان أفكر في ذلك الرجل الذي رأيته يهوي، ليلتها قررت ترك ذلك العمل.

عدت أبحث عن أمي وأبي بعد أن كان العمل قد أخذ يشغلني عنهم.لا أفارق زاوية مسجد(قبة المهدي) ليلاً، أشارك في دوائر الدرس المسائية. في إحدى الليالي تهادى إلى مسامعي صوت هامس ورقيق يتلو، يهزُّ رأسه بشكل دائري تارةً وتارةً يميل بعمامته البيضاء إلى عمود يسنده، انتظمت الدوائر كأهلَّة متلاصقة حوله، أرهف السمع، كلام يدهشني، أفكر طوال الوقت فيه، أنتظر أن أسمع أجوبة لما تطرح من أسئلة، سؤال يضعه صاحب العمامة على الطلبة عند نهاية كل درس. يوماً بعد يوم أخذت أقترب حتى وجدت نفسي ضمن أهلَّة حول صاحب العمامة البيضاء، إلى ذلك اليوم الذي طرح سؤالاً على طلابهعجز الجميع عن الإجابة عنه، فوجدت شفتيَّ تجيبانه: «العلة إن أمكن استنباطها فذلك خير، وإن لم فذلك تعبُّد». التفتت الوجوهتتفرَّسني، لم يستدر، استعاض بفمه: «من هذا؟»، همس بعض الطلبة: «هذا غريب، غريب، غريب»، مدّ المعمَّم يديه، تلقفته الأيدي، شعرت لحظتها برهبة وخوف، أمسك من حولي يدي يقرّبونها إليه، تلامست أيدينا، قبض على كفي.

–هل تحضر درسي كل مساء؟

– من فترة قصيرة.

– أين تعلمت قبل؟

– في بلادنا.

– أين بلادك؟

– حُبيش!

– من درَّسك؟

– الفقيه السحولي.

– لا بأس،اِبقَ حتى بعد الصلاة!

عند سماعه مؤذن العشاء تمتم بأدعية هازَّاً رأسه، ثم سار بين المصلين حتى أول الصفوف، استقام على سجادة ممددة لا يطأها أحد، استقمت بعيداً، لم أكن أعي ما يدور حولي، أتساءل: «ماذا يريد مني؟ هل أزعجته إجابتي؟»، كان ذهني بعيداً عن الصلاة، لم أكن أسمع من إمام الصلاة إلا طنين «النااه وأطبر، سمئ الناااه من أمده، الناه...».

حين أخذ من في المسجد يتفرقون أمسك بكفييداعب أصابعي، سألني عن الدروس التي حضرتها، وهل لي أقارب بصنعاء؟ أخبرته بأني لا أعرف أحداً، يشغلني البحث عن أمي، ولا أعرف في أي اتجاه أسير. ترك أصابعي بعد أن قال لي«لا تتأخر عن درس الغد»، ثم سار وحيداً. سرت أتابعه يخرج من باب بيت الصلاة، صرح المسجد الخارجي،أسمعه يردد أدعيته

بصوت مسموع حتى ابتلعته عتمة الشارع،تمنيت لو أنه أخذني معه، كنت سعيداً باهتمامه بي، فرحاً حين دعاني للانضمام إلى حلقة درسه.

دوماً يأتي إلى المسجد قبيل أذان المغيب، الطلبة يصفونه بـ«سيدنا»، تتحرك قدماه بمرونة ما أن تصطدم بعائق حتى ترتدّ لتغير اتجاهها، قامته تميل إلى الخلف قليلاً، إحدى يديه تمتد للأمام بشكلٍ مُنحنٍ، وجهه المستطيل بفكّه البارز إلى الأمام، شعر ذقنه الكثيف يغطي سطره، بؤبؤا عينيه في اهتزاز دائم، عمامته البيضاء لافتة لضخامتها، لم أرَ له ابتسامة. يأخذ طريقه وسط المسجد، يسير متفادياً الأعمدة الحجرية، يجلس مستنداً إلى عموده، تحلَّق الدَّرَسَةُ في أهلَّة متتالية حوله، سألهم:

– هل من متأخر؟ أجابه أحدهم بصوت مرتفع:

– لا أحد! صمت قليلاً ثم قال:

– والغريب؟!

أجابه أكثر من صوت:

– هنا بيننا.

ويا لعجبي حين التفت إليَّ مبتسماً، كنت أظنه ضريراً،تأملت عينيه وسط شعيرات رمشيه الكثيفين، لم يكن (بصيراً)، لم أجد تفسيراً!

صمت، أدركت وردة أن أمراً ما قد غيّر مزاجه، أو أن شواهد تلك الأيام قد بعثت شيئاً من الألم في نفسه، لم تعلق على صمته، أمسكت بكفيه تواسيه بصمتها، تنتظر أن يعود إلى طبيعته.

– حكايتك أحزنتني.

– أكره ذكر الماضي، وأكره من يعيدني إليه!

– لا بأس، توقف إن كان ذلك يؤلمك.

في اليوم التالي سألها:

–كم مضى عليَّ دون أن أخرج من السمسرة؟

هامسته بصوت شفيق:

– أكثر من شهر!

اتَّسعت عيناه فاتحاً فمه مندهشاً، أمسكت بكفه تواسيه:

– ما حكيته لي عن عذاباتك جعلني أشعر بك أكثر.

نظر إليها مبتسماً، شدته عذوبة صوتها، ذلك المثلث المقلوب يراه اللحظة أكثر حُسناً، ابتسامة عينيها الخرزيتين، فمها حين تتحدث.

سمع من أعماقه صوت يزجره:«لا تضعف، لا تتعلق بها، ألم تسأل نفسك: وماذا بعد؟ لا تقدم على شيء قد يثقل عليك، يهتك أسرارك». قطع شروده صوتها:

– حكيت لي عن طفولة القرية، هروبك إلى صنعاء، أرجوك واصل حكايتك، دعني أقترب منك أكثر.

تغيرت ملامح وجهه:

– لكني أتعب.

– هيا واصل فذاك يسعدني.

تخللت أصابعها تدلِّل شعره الطويل، عاد صوته حذراً قلقاً، قال:

– داومت على حلقة درس ذلك الأعمش، اهتم بي زملائي الدّرَسة، دوماً نتناقش في الدروس الماضية، عرفت أن جلَّهم يدرسون في مدارس نظامية، وأنهم يحضرون حلقات الدرس لمزيد من المعرفة، كان الجميع يقدِّر تحصيلي واجتهادي.

وما أفرحني أن أرى المدرّس مهتماً بي، يدعوني إلى حضور دروس حلقة الفجر في مسجد (النهرين)، ومن أجل أن أرافقه فجراً طلب مني أن أسكن معه في منزله، لم يكن من أحد غيرنا في داره، قال لي إنه يرى فيَّ نجابة صباه، وإنه سيتبنَّى تعليمي. وجدت نفسي منقاداً إليه، دون أن أنسما كانت جارة أمي قد حذرتني منه.

في إحدى الليالي دعاني، أخذ يداعب وجهي بكفيه، يقبّل جبهتي ليتنسم رائحة ذقنه الكثيفة. فكرت ليلتها بالفرار، أن أتخلَّص من تصرفات كنت أكرهها، لكنه أغلق عليَّ الباب واضعاً بين يدي عدة كتب منها :متن الأزهار في فقه الأئمة الأطهار، المهذب في فتاوى الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة عليه السلام،التجريد في فقه الإمام القاسم الرسي والهادي يحيى بن الحسين،المنتخب للإمام الهادي،نهج البلاغة،شرح الأزهار.

كان يسألني حين يعود:

–ما المنزلة بين المنزلتين؟

فأجيبه مما قرأت:

– إن مرتكب الكبيرة في منزلة ما بين المنزلتين، أي أن الفاسق في الدنيا لا يسمى مؤمناً بوجه من الوجوه، ولايسمى كافراً، بل هو في منزلة بين هاتين المنزلتين، فإن تاب رجع إلى إيمانه، وإن مات مصرّاً على فسقه كان من المخلدين في عذاب جهنم.

ثم يسألني حول التوحيد والوعد والوعيد والعدل، وما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحين أعجز عن الإجابة يشير لي بفتح الكتب لأبحث عنها.

وبعدها أجيبه. ليسألني:

–هل الصحابة يخطئون؟

تلعثمت فأجاب:يصيبون ويخطئون، ومنهم منافقون، وما العصمة إلا للأنبياء صلوات ربي عليهم.

وحول التقيّة سألني ذات مرة فلم أعرف للإجابة طريقاً، ابتسم وقال: يجوز للمؤمن أن ينطق بكلمة الكفر إذا أُكره، كما قال عزّ من قائل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾،ومع خوف الضرر كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرِ﴾.

هامسني ذات مساء: «سأفتح لك الأبواب، لكن عليك أن تعاهدني بالطاعة التامة»، مكثت صامتاً،أدرك حيرتي فأمسك بكفي وقال:«أتقسم؟»، هززت رأسي بالموافقة، لقنني ما أقول، ثم قال: «والآن يجب أن تدرس».

التبس عليَّ الأمر، سألته:

- أي دراسة؟!
- أن تلتحق بالمدرسة؟
- كيف؟
- كيف، تأتي لاحقاً، قبلها عليك بحصولك على أمر قبول التحاقك بها، ألديك الرغبة؟
- لديَّ.
- إذاً سأتشفع لك لدى السيف صاحب المعارف،الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين ليزيدهم الله من فضله أو ليردّ عليهم ما قد محته الذنوب من الحسنات لقول الله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾. غداً ستذهب بهذا القرطاس، ستنتظره أمام باب داره وإذا ما رأيتهخارجاً تقدَّم، قل له: يقرئك سيدناالسلام. ثم مدّ له بقرطاسك.

أخذ يلقنني ما عليَّ قوله أثناء تقديم الطلب، وكيف أقف، افترض أسئلة سيوجهها السيف لي، وما عليَّ قوله.

***

مكثت بقية ذلك الليل أحلم بما سيكون صباحي، غير مصدّق أني سأكون طليقاً، أنظر بوابة تلك المدرسة كحلم بعيد المنال، أرى نفسي أسير متسكعاً في ميدان (شرارة) الذي أصبح بعد الثورة (ميدان التحرير)، أرى الدَّرَسَة بملابسهم النظيفة يخرجون أو يدخلون.

ماإن سمعت تسابيح المسجد المجاور حتى استأذنته. كنت أقف أمام بوابة سور دار السيف، عدد من المعمّمين ينتظرون خروجه، في البدء ظننتهم أقارب له، يتحرك بعضهم متبختراً بثيابه البيضاء الفضفاضة، يتحدث بتأنُّق.

أستذكر نصائح سيدنا، فُتحت البوابة لتظهر ثلاثة خيول يمتطيها فرسان ببنادقهم، يتوسطهم فارس معمَّم، لم يعيروا توسلات المعممين، ليبتعد الخيالة شمالاً مخلفين غبار الحوافر، اكتنفتني حيرة، تقدمت أسأل حارس بوابة القصر، اقتربت منه منكَّس الرأس لأسأله فبادرني:

– وما الطلب؟ أريته قرطاسي، ابتسم وقال: أنت من طلاب الأعلام! يمكنك اللَّحاق به إلى القرية (الروضة)، إن وصلت سلْ عن بستان غدير.

هي المرة الأولى التي أخرج فيها إلى أطراف صنعاء الشمالية، سهول ومزارع ورواب. أشار أحد المارة إلى تجمُّع دور وسط خضرة منبسطة بعد أن سألته، سرت في طريقي غير مشغول بالعابرين، أحلم وقد قاربت الشمس قلب السماء، دخلت القرية، سألت، الجميع يعرف بستان غدير، سور طيني ممتد شرقاً وغرباً، بوابة دون حراس. لم يطُلْ بي المقام حين ظهر نفس الخيَّالة، لوَّحت لهم مضطرباً بقرطاسي، تجرأت فارداً ذراعي معترضاً طريقهم، صرخ بي أحدهم:

– ما دهاك؟ نهرني أحدهم هامّاً النزول من على خيله، لم أميِّز أياً منهم السيف.

– أتيت من صنعاء راجياً عطف مولانا السيف. كرر آخر:

– هيا ابتعد عن الطريق، إياك تكرار ذلك... لم يكمل إلا وقد رفع أحدهم يده:

– دعه! لم أصدق تحوَّل الحال وقد أشار عليَّ بالتقدم نحوه، تقدمت متعثراً، وقفت أمام خيل دهماء مسرجة بأبسطة مزركشة: ما حاجتك؟ تغلبت على ترددي ونصائح سيدنا مخبوءة تحت لساني:

– يقرئك سيدنا السلام، وبي رغبة لمواصلة دراستي. قلتها مادّاً بشفاعة سيدنا إليه، نظر إليَّ:

– لا منحل!

لم أفهم تلك الكلمة واعتقدتها رفضاً:

– لكني طالب علم.

– ما حاجتك بالدراسة؟

– حبّاً في كتاب الله وسنة رسوله الكريم، وخدمة لمولانا الناصر وآله.

– هل أبوك عالم، وهل أنتم من بيت علم؟

– نعم يا سيدي.

نظر إليَّ مبتسماً وقد فرد شفاعة سيدنا بين يديه، ينظر فيه، ثم أخرج قلماً ولا أعرف ما خطّ، مدَّ لي بالورقة لاكزاً خيله في خيلاء، ليتبعه الخيَّالة باتجاه المدينة. وقفت أقرأ ذلك الأمر: «مدير بيت العلم يلحق»، كررت قراءته غير مصدق، سرت وأنا أرى نفسي أدخل تلك البوابة لابساً ملابس الطلبة.

رفعت نظري لأرى صنعاء تتكئ في دعة على سفوح جبالها الشرقية، لم تعد تهمني مسافة الطريق، كان خوفي ينصبُّ على قرطاسي، طويت المسافة تحملني الغبطة، أقف وأخرج القرطاس أقرأه لأطمئن، أطويه بعناية لأعيده إلى مخبئه، ثم أمضي مهرولاً باتجاه صنعاء، يزداد السابلة كلما اقتربت من أطرافها، دخلت شوارع حارة شعوب، الزمر، عبرت أحياء مطير وطلحة، كان الوقت بُعيد صلاة العصر، اخترت أن أبيت بعيداً عن متناول سيدنا حتى أرى ما سيكون من أمري.

***

صباح اليوم التالي أحالني مدير بيت العلم إلى مدرّس ليقدّر مستوى تعليمي، وسريعاً ما وجَّه، بعد عدة أسئلة، بقبولي ضمن طلبة المدرسة العلمية بالصف الثاني من الشعبة الثانية.

صعدت تلك الدرجات السوداء، عبرت بوابة حلم يعانق السماء، ساحة واسعة تحيطها عدة مبانٍ، عبرت رهبة المكان، رؤوس الطلبة أراها من خلف النوافذ، أشار عليَّ أحدهم حين سألته إلى مكتب مدير المدرسة، سلموني كسوتي، كتب الدراسة، قادني معلم إلى فصلي، طلب من الدَّرَسَة مساعدتي فيما فاتني، استقبلتني عيون الفصل بالهمس والابتسامات. عند انتهاء اليوم الدراسي توجهت إلى مسؤول القسم الداخلي، ملأ بيانات في سجل خاص، فرش بين صفوف متوازية في عنبر المنامات، هي المرة الأولى منذ خرجت من قريتنا يكون لي فرشي الخاص وملابس بلون واحد،ولي وجبتان.

ليالٍ أصحو من نومي فزعاً وسط عتمة دافئة، تزورني كوابيس، أرى نفسي في عتمة أحد المساجد، يصرخ فيَّسيدنا الأعمش أن أتبعه، أنهض مرعوباً، أتأكد أنه حلم ليس إلا، أحمد الله أني أصبحت في أمان، أخاف على ما أنا فيه.

أتذكر عهداً لقنني إياه،أفكر بزيارته، أن أشكره على صنيعه، أبت نفسي، أدعو الله ألا أصادفه في حياتي.

تهرب ذاكرتي إلى سنوات طفولتي الأولى، زملاء دراستي في تلك القرية البعيدة، بيتنا المهدم، جارة أمي ووصاياها: «إذا وصلت صنعاء اعرف أنك وصلت الأمان، سكانها طيبون، أنت حامل كتاب الله ومن يحمل كتابه لا يضيع»، أعاود النوم بمشاعر مضطربة.

يصحو جميع من في السكن فجراً، يتسرَّبون وسط عتمة باردة إلى بيت الصلاة، المعلمون في مقدمة الصفوف، لا أحد يتخلف عن صلاة الفجر.

منامات

في اليوم الثالث لالتحاقي وقفنا أمام مسجد قبة المتوكل حتى خرجت جنازة أحد الميسورين، سرنا في صفوف منتظمة أمامها، يسبقنا المعلمون، نردد خلف أحدهم بصوت حزين «الله لا إله إلا هو حيٌّ قيوم،لا اله إلا هو صمدٌ باقٍ، لا إله إلا هو»، مضينا حتى مشارف المقبرة، فجأةً لمحت سيدنا الأعمش بذقنه الطويلة وعمامته الملفتة، سرت برودة في أطرافي، كدت أتبوَّل على نفسي، أحسّ زميلي برعشة أصابعي بين كفه، لاحظ اضطرابي، جمعونا لحظات إدخال الميت القبر، نرتِّل بصوت جماعي سورة (يس والقرآن الحكيم)، كنت مشغولاً بمراقبته.

قدّموا لنا وجبة الميت،لم أهنأ بها، عيناي مشغولتان بالمعمَّم، حمدت الله أنهم أذنوا لنا بالانصراف.

استغربت حين رأيته بعد أيام يسير في ساحة المدرسة، عرفت أنه أحد أقدم مدرِّسي المدرسة، وأنه يتولَّى تدريس مواد الدين واللغة للفصول النهائية،انهارت أحلامي بالخلاص منه، وبَّخت نفسي، حرصت على تجنُّب المرور أمام تلك الفصول التي يتولى تدريسها، راقبته حتى عرفت أوقات دخوله من البوابة وأوقات انصرافه.

تقيَّدت بخط سير بعيداً عن خطِّ سيره،أقضي أوقاتي بين الفصل وجلوسي بجوار نافذة المنامة أراقب ما يدور، نجحت لأيام أن أبتعد عن الاحتكاك به.

كانت ساعات اليوم تتوزع بين المسجد بدايةً بصلاة المغيب، ثم صلاة العشاء، نعود لنتناول وجبة العشاء لتبدأ بعدها فترة النوم، صلاة الفجر جماعة، وجبة الفطور ثم حضور قاعة الدرس، وهكذا أخذت الدروس يوماً بعد يوم تشغل ذهني عن البحث عن أبي وأمي.

لم أكن ألحظ في البداية ما يدور بين الطلبة في المنامة، حتى ذلك المساء الذي هامسني أحدهم بكلمات غير لائقة، أعاتبه فيردُّ عليَّ بأنه يودُّ صحوبيتي، تطور الأمر إلى محاولة الاعتداء عليَّ ليلاً، كرَّر الأمر وقد جاء بمجموعة أصحاب، شكوت ذلك للإدارة، فاضحاً ما يدور ليلاً، حدثتهم عن تلك الممارسات بين زملاء المنامة، شارحاً بالتفصيل ما ألحظه من ممارسات شائنة، أبدوا الاهتمام، استهواني تخييل تفاصيل صغيرة، حين أكملت شرح ما يدور في الظلام سألني أحد المدرسين:«هل تحدثت بهذا إلى أحد؟»، أشرت بالنفي. أخذ بكفه يربِّت على كتفي، موجهاً كلامه إلى بقية المعلمين:«علينا بسرعة معالجة الوضع»، سعدت لذلك الاهتمام، هممت بالنهوض لكنه أشار عليَّ بالبقاء في مكاني للحظات، خرج الجميع، مرَّ وقت من الانتظار بعدها فُتح الباب، فوجئت بدخول سيدنا الأعمش، ارتبكت حواسي وغمر جسمي عرقٌ غزير، ظلّ يذرع الحجرة وأنا أحاول تخمين المسألة، توقف مشيراً بسبَّابته إلى وجهي:«أتريد أن

تُفصل وتطرد من الدار؟ ألا تدرك خطورة ما تفوَّهت به على نفسك؟ أتريد أن يشار إليك بالقُحبي أو المخنث؟»، دهشت لصوته الهادئ، فلم يعاتبني على عدم زيارته! أدركت لحظتها أن معرفته تجاوزت ظنوني. عقلي لم يعد يستوعب، يُفرض عليَّ صوته:«يجب أن تعرف عقاب من يتجرأ على تشويه سمعة المدرسة العلمية، بطلبتها ممن يقرأون كتاب الله ويتعلمون سنة نبيه، لن يسمح لأحد بترديد ما قلته، سيأكلون لحمك نيئاً، ولذلك أنصحك بأن لا تُعرِّض نفسك للهلاك، اِنسَ ما قلته، أنت تعرف مقدار محبتي لك، وأثق بصلاحك، هل تسمع؟».

خانني لساني، ضاعت الكلمات لينقذني صوته:«والآن عليك بالانصراف، لا تنسَ ما قلته لك»، لم أقوَ على النهوض، ركعت متسحّباً نحو الخارج لا أعي ما يدور حولي، أشعر برعب يدفعني، لم أتجه إلى قاعة الدرس، جثوت على فراشي مرهقاً أحاول استيعاب ما حصل، أسأل نفسي: «هل يعرف المعلمون معرفتي السابقة بالأعمش؟ ولمَ هو من يفاتحني في الأمر وينصحني دون غيره؟! لماذا لم يعاتبني لتهرّبي منه؟». لم يحدثني عن عدم زيارتي له، ثلاثة أيام أعيش مشتت الذهن، أضناني التفكير ليل نهار، متخيلاً نفسي وقد عدت إلى الشوارع، متسولاً من مسجد إلى آخر، أو أن أخرج من صنعاء.

***

اقترب مني ذلك الصديق نهاراً، جلس صامتاً يطيل النظر في ما حوله، سأل عن أحوالي، قال لي معاتباً:«لماذا ذهبت إليهم؟ ما نعيشه نوع من التسلية، متعة أن نصاحب بعضنا، والأجمل أن يودّك معلم، أتفضّل أن تُطرد؟». جلست أستمع إلى نصائحه،وضّح لي ما يدور، ومن لحظتها أصبحنا أصحاباً، ينادمني طوال الوقت، نتسامر ليلاً، نأكل معاً، لم يكن الحديث بيننا لينتهي، أخبرني بأنه ضمن جماعة، وبصحوبيتنا أمسيت واحداً منهم، لم يعد أحد يؤذيني، وأن طلاب المدرسة عبارة عن جماعات، لكلِّ جماعة مساحتها وحدود نفوذها، تتصارع جميعها لتوسيع نفوذها: الساحة، الممرات، أسطح المباني والزوايا، كلٌّ له مساحته غير المرئية، كلُّ جماعة تعرف جيداً أين تنتهي حدودها، تنشب خلافات على شخص أو حدود مساحة، تصل حدّ الاشتباك بالأيدي، تختفي مثلما تظهر دون أن تعلن أسبابها، يرتبط البعض بعلاقات تتجاوز الصحوبية، والبعض يجاهر بعشق زميل له، البعض يتنافسون على ودِّ صبي له نصيب من الوسامة، وبعض المعارك تحتدم لتمتد لعدة أيام، لكنها تنتهي فجأةً. ليلةً بعد أخرى تتكشف لي الحياة السرية، حياة خفية، يشارك فيها المعلمون.

حدثت صاحبي عن سيدنا، بحت له بمعرفتي به قبل التحاقي بالمدرسة، وعن حيرتي حين دخل عليَّ في الإدارة في الوقت الذي كنت أظن عدم معرفته بوجودي، حدثته عن صدمتي حين اكتشفت أنه عليم بكلِّ شيء عني! همس لي بأن جُلَّ المعلمين ينتمون إلى جماعات الليل، وأن بعضهم يتحكم بجماعته،وأن جلّ المعلمين جواسيس لبعض سيوف الإسلام، وأن فوق تلك

الجمعيات هناك رابطة سرية رئيسها أحد المعلمين هي المسؤولة عن أنشطة تتبع مولانا السيف محمد البدر. قال لي إنهم وجدوا أحدهم ذات صباح مخنوقاً وقد لفظ أنفاسه قبيل صباح بارد في المطاهير، اختفت الجثة، لتنتشر شائعة بأنه سافر لزيارة أبيه المريض. قال لي إن الجميع كانوا يعرفون القاتل، كلماته جعلتني أرى ما لم أكن أتوقعه، أجابت عن أسئلة كانت ترهقني.

صاحبي يجيد لغة الليل، يتسلل بي دون خوف خارج المنامة، يريني أشباحاً تتسامر.

حدثني أنهم أرسلوا أحدهم إلى الحبس بتهمة محاولته قتل زميل له، ولم تكن التهمة صحيحة، لكنه حُبس بسبب إفشائه بعض أسرار الدار.

انسجمت حياتي داخل المدرسة، وإن ظلّ خوفي منصبَّاً من سيدنا الأعمش، أراقبه داخلاً أو منصرفاً. مضت الأيام حتى ظننته نسي كلَّ شيء عني، وأني أفلحت بتجنبه، إلى ذلك الصباح الذي تأهَّبت فيه المدرسة لاستقبال السيف محمد البدر لحضور حفل عيد النصر، زُيِّنت المباني بالأعلام المنصورة، وامتلأت الساحة بصفوف الطلبة والمعلمين، رُصَّت المقاعد في ظلال المبنى الشرقي، نفخ حامل (البورزان) عند قدومه وعدد من سيوف الإسلام من بينهم السيف صاحب المعارف، امتلأت الساحة، واكتظت المنصة الصغيرة، ألقيت الكلمات الترحيبية والقصائد الحماسية، ثم نشيد عيد الجلوس. كنت سعيداً ومرتبكاً وقد تم اختياري لإلقاء كلمة الطلبة. سمعت اسمي يتلى، سرت إلى منصة الخطابة، أتأمل وجهي في عيون السيوف ومن يحيطون بهم، صعدت، كانت عيون الساحة على وجهي حين مضيت أتلو ما كُتب على ورقة بصوت أطربني حين سمعته يجلجل عبر مكبر الصوت، لمحت سيدنا على أحد المقاعد الخلفية، هازّاً رأسه، رافعاً مسبحته على غير عادته، كما لو كانت عيناه تنظران إليَّ، كدت أفقد تركيزي، هربت إلى عيون جموع الطلبة. أكملت قراءة كلمتي، دوَّى تصفيق هزَّ كياني، هبطت تحملني مشاعر الرضا، قادني أحد المعلمين لمصافحة السيف، ثم هبطت جلست صامتاً أتابع كلمة السيف، انفضَّ الحفل بعدها، هممت بالانصراف،رأيته قادماً.

– أريدك، انتظر.

انصرف الجميع ولم يبق غيرنا.

– هل أنت سعيد؟

لم أجرؤ على رفع ناظري إلى عينيه، أجلس صامتاً، كان صوته ودوداً، هززت رأسي بالإيجاب،ثم قال: قاربتالسنة الدراسية على الانتهاء وأنا أراهن نفسي على عودتك إلى صوابك!

شعرت بجفاف لساني، أقف عارياً أسمع صوتاً أكرهه، ماذا يريد أن أجيب؟ أخذت بتشجيع نفسي: هل أقول له إني أكره نفسي، وإني كرهت مصاحبته، ولا أريد أن أشكره؟ هل أقول له إنني كنت سأفارقه سجّلت في المدرسة أم لم أسجل؟ وإني مللت رائحته، ملمس أصابعه وهو يتحسس مفاصل أصابعي، مبرراً بأنه يسبح لله، وإن كلماته كانت تجرحني وهو يردد: سبحان

وجهك الجميل، سبحان...! هل أذكّره بشذوذ أفعاله وبذاءة كلماته؟هل أقول له إني أخجل حين أستعيد تلك اللحظات معه، وإني ضقت منه وأمسيت أبحث عن ملاذ لا يعرف إليه طريقاً، وإن المدرسة مثَّلت لي ذلك المرفأ؟

قطع صوته حديثي إلى نفسي:

– هل تسمعني؟ أتعرف أن من علمني حرفاً صرت له عبداً أم أنك نسيت ما عاهدتني عليه؟ لا أريدك عبداً، أريدك أن تظل وفياً. وتعرف أني مؤمن بذكائك، وذلك الإيمان جعلني أفي بوعدي الذي قطعته بأن أتبنى رعايتك!

صمت، وقد أمسك بأصابع كفي متمتماً يردد أسماء الله كما كان يفعل في السابق. فضّلت الصمت حتى ينهي تمتماته: تظن أني بعيدٌ عنك، وأني أجهل ما أنت فيه، وأحب أن تعرف بأنك لم تغب عن ناظري لحظة منذ وقوفك أمام اللجنة، أتابعك منذ أول يوم وطأت فيه قدماك هذه الدار، ألا تعرف من اختارك اليوم لإلقاء كلمة الطلبة؟

جملته كادت تخرجني عن صمتي، أحسست بلساني يلوك صراخاً جافاً، كاد ينفرط صبري، أحسست بدمع العجز ينسكب في أعماقي، أكابد كي لا يخرج صوتي. رفع أصبعه يمسح خدي. صمت وهو يهدر: أعلم الآن أنك نادم، وقلبك طيب، لا تؤنب نفسك، أثق بأنك على عهدك، أمرٌ آخر أريد أنبهك إليه، لم أستوقفك من أجل أن أحدثك بما سمعت، بل لأنبهك بتدني مستواك. لا أريد أن يهددك شبح الطرد برسوبك، ولذلك أدعوك العودة إلى درس الفجر حتى تحافظ على تفوقك، أنت تعرف المسجد،سأنتظر حضورك. والآن أستودعك الكريم.

***

بعد لحظات التقاني صاحبي، سألني عن سر ذلك الحديث الطويل،فعرفت أنه كان يراقبنا، بحت له بخوفي منالرسوب، وأن سيدنا دعاني إلى دروس الفجر.

– أخاف يعيدك إلى سيرته الماضية!

– وأنا أخاف الرسوب.

– سنكون سوياً، أنا من يحتاج إلى مثل تلك الدروس لا أنت.

حيرة تتقاذفني، أخفي مخاوفي ممن حولي، لا أريد أن أجد نفسي مطروداً أو يفاجئني بشيء لا يخطر على بال.

خرجت مع التسابيح الأولى، دهشت حين رأيت طلبة كثر يستيقظون قبيل الفجر، أعاد لي أصوات أدعية المنارات توازني، تسابيح تصعد إلى السماء من كل زوايا المدينة، أحاول تخفيف وقع أقدامي حتى أستمع إلى أصوات السماء، نعبر ميدان شراره ثم باب السبحة، نهبط أخدود السايلة المحاذي لمسجد النهرين، تتراءى السايلة أخدوداً يردد صدى أصوات المؤذنين، تمتزج الأصوات في فضاء ذلك الأخدود لتنير أرواح المارة، تعلمت في ذلك الفجر أن أقف

لحظات الأذان على أطراف المجرى، مغمض العينين تحلق روحي وتعلو فوق دفء صنعاء، أشم روائح تتصاعد ألواناً عطرة من مناراتها السامقة مكونةً مجرىً أبيض يصبّ في قبة السماء العالية.

أسير بعدها في أزقة المدينة الخالية إلا من تلك الأصوات التي تسكنني، تستوعبنا أنفاس المسجد، أستقيم وسط صفوف المصلين لأسمع ما يردده الإمام، يتردد صداها داخل المسجد كأجنحة من نور.

تكتمل حلقة الدرس بعد الصلاة، يتناول سيدنا دروساً من كتاب **المناهلفي علم الصرف**لابن غياث. همس ليفي اليوم الثالث:«ابِقَ، أريدك أن ترافقني». استمر يسبِّح طوال الطريق، وتلك الأصابع تجوس مفاصل أصابعي ذاكراً أسماء الله التسعة والتسعين، ألوذ بالصمت، يكمل ليوجه كلماته إليَّ:«لماذا أحضرت ذلك الفتى معك؟! جميع من يحضرون درسي يستأذنون الحضور، لا أريد أن يتحول درس المسجد إلى لقاء صحوبية وصداقات، أريدك من الغد أن تحضر دون رفيق»، أكمل توجيهاته وصمت ينتظر ردي، كانت المسافة تتقلص بين مكاننا وباب داره، وأنا أرى صاحبي يراقبنا من الطرف الثاني للطريق، يبتسم وهو يشير إليَّ بيديه ملوحاً، التفت سيدنا ليشير إلى الطرف الآخر للطريق: «ذلك هو صاحبك؟ ماذا تتحدثان حين تتسامران؟»، لم أنطق، فضّلت النظر إلى تراب الأرض أمام أقدامي.

تجاوزت الاختبار بتفوق وانتقلت إلى الفصل الثالث من الشعبة الثانية،أتذكّر أنه قال لي:«نتائج تفوقك جاءت لأنك أطعتني، ستتفوق دوماً طالما سرتَ كما أوجهك! ومن أجل ذلك سيكون لك درس خاص لا يحضره غيرك، درس أقيمه لك في داري! لكن قبل ذلك عليك أن تتخلص من صاحبك، أعرف أنه لا يحضر الدرس لكنه يحضر المسجد وأنه يلازمك طوال الطريق، وفوق ذلك تمسي تحدثه بكل ما يجول بخاطرك، وهذا لا يضمن لك التفوق الدائم، ها أنت تراه يرسب، أتريد أن ترسب معه، أم تجتهد لتتجاوز فصلين في اختبار واحد؟! سأرى إن كنت تحب التفوق أم أنك مثل صاحبك البليد».

نازعتني نفسي ذلك اليوم وطوال الليل بين طاعة سيدنا وطاعة قلبي، يسألني صاحبي عما يدور، انقضى الليل دون أن أخرج معه أو أحدثه، وعند الفجر لم أذهب إلى الدرس، بحت له بكلِّ ما يكبته صدري، حدثته بظنوني بمن وراء نتائجه المتدنية، وأنه يأمرني بعدم مصاحبته،ولذلك قررت عدم الذهاب إلى دروسه.

قصر السعادة

لم يمر على عصياني أكثر من سبعة أيام حتى تم استدعائي إلى الإدارة،سألني مدير الدار:

– ماذا صنعت؟

رددت مرعوباً:

– ماذا؟

– عسكر يسألون عليك.

صمتُّ متعجباً، ليسلمني لهم اللذان عبرا بي الساحة نحو بوابة الخروج، لم أكن أعرف لماذا ولا إلى أين يقتادانني؟ سلكا بي طريقاً أرتادها صباحاً عبر ميدان شرارة، حاذينا قبة المتوكل، انعطفا بي يساراً،مرَّا بي في أول الشارع الفاصل بين سجن الرادع وبوابة قصر السعادة، انحرفا باتجاه بوابة القصر، طرق أحدهما بوابة أسوار القصر، فُتح فرخ صغير بقلب البوابة، ساحة فسيحة صُلِّت بأحجار مشذَّبة تتوسط عدة مبانٍ، أغلق أحدهم الفرخ، وقفنا تحت شمس الضحى، إلى يسار البوابة درج ملتصق بجدار السور ينتهي ببرج حراسة، إلى الجنوب مبنى من ثلاثة أدوار يقف وحيداً، وإلى الشمال مبانٍ ملحقة من دورين يفصلها عن القصر ممر، خلفها تظلُّ أفرع أشجار كثيفة، رفع أحدهم صوته عالياً: «شاوش عبدالله!» ليظهر وجه رجل يسحب قيوده هابطاً الدرج، ذو وجه ممتلئ وقوام متوسط.

– لقد أتينا بمن أمرتم بإحضاره.

– دعه لي وأسرع بإحضار من يدقّ له مرود الأدب.

دهشت لكلمة مرود! لم أفهم ما يعني يدقّ مرود، عاود صوت الشاوش عبدالله: «هيا مدده أمام المدقَّة»، مددني أرضاً، رفعوا ساقيَّ ليضعوهما على صخرة مستوية، أدخل أحدهم حلقتي حديد حول ساقيَّ، أخذ يهوي بمطرقة ضخمة حتى ضاقت الحلقات، عندها رفع الشاوش يده لأحد العسكر: «أدخله (النظارة) وأحكم إغلاق بابها». عشرات الأسئلة دون أجوبة، وحيداً في غرفة صغيرة كلُّما فيها تراب، أبحث عن زاوية نظيفة، لا شيء غير التراب، ضوء يتسرب من نافذة خلفية سيِّجت بقضبان حديدية، بستان كثيف الأشجار،ساقية تجري في عمق كثافة خضرته. جلست أتأمل ذلك الدغل،عدت أسترق النظر من شروخ الباب، لم يعد أحد في الساحة، بعد وقت رأيت الشاوش يجرجر قيوده هابطاً في أعلى درج برج الحراسة، مستغرباً من حارس مقيدْ؟ هبط ليعود صاعداً،راقبته حتى ابتلعه البرج، غمرني إحساس بالذل، جلست على التراب وسط صمت خانق، يخفق قلبي خوف المجهول، هل علم صاحبي بحالتي؛ الجماعة التي يفترض انتمائي إليها؛ سيدنا؟! قدم الليل وأنا على حالتي أنتظر، لا أعرف ما أنتظر، تبوَّلت في إحدى الزوايا،

أخذت من زاوية أخرى مكاناً لأتكوَّم على نفسي، لم يأتِ النوم لشدة البرد، تذكرت صوت جارة أمي:«أنت قارئ كتاب الله وحافظ ياسين وآية الكرسي، صلِّ فروضك، دوماًاتلُ ما حفظت في سرك، لن ينالك مكروه، ردد آيات كتاب الله لتفتح لك الأبواب المغلقة وتلين لك القلوب القاسية والرقاب العاصية». نهضت أصلي، أردد ما حفظته عن ظهر قلب، أكرر صلواتي. سمعت أحدهم يرفع صوته بدعاء يبدد العتمة، ظننته خيالياً، أو أن الأصوات تأتي من سجن خلف الجدران، أصخت السمع، عرفت أن تلك الأصوات تناجي الله من مسجد مجاور وأن الفجر اقترب. بعد حين ارتفعت زقزقة عصافير من الجوار، تسرَّب الضوء رويداً رويداً من نافذة القضبان وشروخ الباب، التصقت أسترق السمع والنظر عبر شروخ الباب أبحث عن ضئيل أمل، أرى البعض يعبر الساحة سريعاً ليختفي، ثم آخر، وهكذا حتى رأيت عربة مزينة يتقدمها جوادان، حامَ العسكر حولها يفتح أحدهم بوابة الأسوار، وآخرون يصطفون أمامها وخلفها، لمحت وجهاً ليس غريباً، لحظة استدارة الخيل، وجه السيف البدر، اضطرب قلبي، تحفَّزت بكلِّ ما أوتيت من قهر، صرخت وصرخت، لكن العربة كانت قد مضت خارجاً ولم يتبقَّ غير الشاوش عبدالله يجرجر قيوده وبعض العسكر، واصلت الصراخ صافقاً الباب بكلتا يديَّ، لم يعد يهمني شيء، ظلَّ صوتي ينفخ حتى فُتح الباب، رأيت وجه الشاوش فزعاً ينظر إلى وجهي ثم يبادل النظر من حوله.

عرفت بعدها بأنهم نسوني، وأن السيف البدر أمر بإحضاري، وجَّه الشاوش بفراش وطعام وماء، قال لي:«لن أنساك بعد الآن، لك ثلاث وجبات وأن أخرجك كي تقضي حاجتك مع مغيب كلِّ شمس»، قلت له:«والصلوات؟»، رد ساخراً:

– وتصلي؟

أفزعتني طريقة نطقه لتلك «وتصلي».

– ماذا تعني؟

– لا شيء، يمكنك أن تصلي المغرب والعشاء حين أخرجك إلى البستان، وبقية الفروض في النظارة.

ظلت نبرة صوته «وتصلي»يتردد صداها بداخلي، تلك المفردة جعلتني أخمِّن أنه يعرف شيئاً عني.

قضيت نهاري بين الصلوات متنقلاً بين النافذة وشروخ الباب، أنتظر لحظة مغيب الشمس، يصطحبني إلى بستان القصر، وقف بي بجوار جدول ينسال وسط جذوع أشجار كبيرة، يتسكع بعيداً، يغيب في لجتها بعيداً،تصطخب أصوات عصافير وجمع من الطيور بعد نهار حافل بالشقاء، يقف الشاوش على مبعدة، أتوارى لأغتسل عارياً خلف أغصان متشابكة، ينتظر ظهوري، أعود لأكمل وضوئي على حواف مجرى الماء، أستقيم مصلياً، أطيل، تزحف العتمة

وتخفُّ زقزقة العصافير ليرتفع نقيق الضفادع، رويداً رويداً يتداخل ذلك الصرير مع نقيق متقطع، يعمَّ الظلام وتتكاثر النجوم، تحوّل المكان إلى مسرح أشباح، أسمع صوت الشاوش «هيا كفاية»، أتبعه وأنا أتعجَّب من تلك القيود التي يتسربل بها، بعد أيام خرج صوته مختلفاً:

– أراك حريصاً على صلواتك، كثير التسابيح وذكر الله، ألا تزيل حيرتي؟!

– أي حيرة؟

– يقال إنك تكره مولانا، وإنك تحرّض الطلبة.

قاطعته منزعجاً:

– أي مولى؟!

– مولانا الإمام!

– يا رب صلِّ على رسولك خير البرية المصطفى المجتبى، صفوة خلقك، اللهم إنَّا نستغفرك فاغفر لنا، ومن قال ذلك؟

– هذا ما وصل إلى مولاي سيف الإسلام البدر ليأمر بالتحفُّظ عليك!

– جزاك الكريم خير الجزاء، كلنا نتوق إلى مرضاة الله وغفرانه، ونحلم بالرضوان وجنة الفردوس، فكيف لمثلي من يقرأ كتاب الله وسنة نبيه سيد الثقلين أن يفعل ذلك؟

عاد بي صامتاً، وهكذا يخرجني عند مغيب الشمس ينتظر فأطيل في صلاتي، وقد اخترت لقراءتي من طوال السور، يجلس منتظراً لي وقد أخذ يردّد ما يسمعه مني. في الأيام التالية أخذ في نقاشي حول بعض أمور الدين، ثم طلب مني أن أحفِّظه بعض الأدعية وبعض قصار السور،إلى ذلك المساء حين أشار عليَّ أن أقفل باب النظارة من الداخل، يعود ليُسمعني ما حفظ، ظننت ما بيننا يشفع لي أن أتمنى عليه ما يستطيع فعله، تشجَّعت وطلبت منه أن يتشفَّع لي عند السيف لأعود لدراستي، انتفض غاضباً، ولعدة ليالٍ لا يتحدث إليَّ، أعدت عليه طلبي، غير أنه نبهني إلى أن مثل هذه الأمور لا تُذكر، وأن عليَّ الصبر حتى يرضى مولانا: «وإن نسيني؟»، قلت له بخوف وصوت مستكين، رد بحزم: «لا تتحدث هكذا، وعليك أن تفهم بأن مولانا يرانا ويسمعنا فكيف ينساك؟»، جادلته في مسألة: «يرانا ويسمعنا»، فنبهني إلى أن له جنّاً مُسخَّرة، تظاهرت بتصديق ما يقول!

سألته عن قيود أرجله، في بداية الأمر صمت مغاضباً، ثم اقترب من مسمعي بصوت خفيض:

– هذه قيود الطاعة!

– قيود الطاعة؟ القيد يا صاحبي هو القيد، وأنت شاوش. قاطعني بعصبية:

– دعنا من هذا الحديث، قد لا يعرف درَسِّيٌّ مثلك هذا الشرف!

– ولِمَ لم ينلْ قيود الطاعة غيرك؟

أخذ يشير عليَّ بيديه دون أن يصدر صوتاً، عرفت ما يعنيه –أن مولانا يسمع من خلف الجدران، وأنه لايريد طردي من مسامرته، فقط عليَّ ألَّا نتحدث عن قيوده، هو سعيد ببقائها! – لكني كابرت وهمست له:

– لم أفهم؟

– هذا فضل من مولاي، لو كنت مثلك مغضوباً عليَّ لانتزع بندقيتي ورماني في أحد سجونه، لكنه راضٍ عني، وإلا لمَ تركني أحرس أحد قصوره؟

لم أدرِ ما أردّ عليه، ولم أفهم، غير أن سعادته كانت بادية في نبرة صوته وملامحه.

لم أعد إلى مناقشته حول أمور تغضبه، ليتركني أصلي دون مرافقته بُعيد مغيب شمس كلِّ يوم، تتبهه جلجلة قيودي في ذهابي وإيابي، أصلي كثيراً، تستحكم العتمة على المكان فأشعر براحة نفسية ساحرة، إلى مغيب ذلك النهار حين أحسست بحصوات صغيرة، في البدء حسبته فرعاً يابساً أو ثمرة سقطت من الشجرة، واصلت صلاتي لترتطم أخرى بظهري، استبدَّ بي الفضول، أكملت التشهُّد، سلَّمت على ملائكتي، هدأت أنتظر بريبة وحذر، بدا شبح يتحرك بين جذوع الأشجار، خفق قلبي بشدة، نهضت مرتبكاً أجرُّ خطاي في طريق عودتي، كدت أسقط، أقفلت الباب من الداخل وأنا ألهث، جلست على فراشي أرتجف، لم أشعل فتيل السراج، انسلَّ صوت رقيق من خلف النافذة، لم أتحرك من زاويتي.

***

مع مغيب شمس اليوم التالي فضَّلت عدم الخروج، تساءل الشاوش فتعلَّلت بمغصٍ يقعدني. أقضي نهاري في سلام حتى إذا جنَّ الليل يخيل إليَّ بأن هناك من يهامسني من خلف النافذة، ليلة بعد أخرى يتكرر ذلك الهمس من خلف النافذة، ظننت المكان مسكوناً. طلبت من الشاوش أن يسمح لي بالصعود لنتسامر، رحب كثيراً، سحبت قيودي صاعداً بصعوبة، غرفة دائرية لا تتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص، بشاشته أخجلتني، قدم لي قصعة طعام، وحين أكملت مدَّ لي بوريقات القات، دفأني بجزء مما يغطي نصفه الأسفل، أخذ يتحدث عن بلاده منتشياً، وعن خدمته التي تمتد لأكثر من عشرين سنة، ثم أخذ يمسح بعض أوراق القات مصمِّماً على أن أتناولها من يده، ظننت أني قد وجدت حلَّاً، فجأةً مدَّد سيقانه ليدخل أرجله بين فخذي منتشياً، انتفضت فزعاً وتركت الأغطية أعلنت غضبي،ليتشبث بذراعي وهو يلهث:

– سأدفئك وتدفئني، لا تفهمني غلط! أبعدت يديه وأنا أنهره:

– ألا تتقي الله،تذكَّر ما حفظته من كتاب الله!

– لا تغضب، دعك وهذا العتوّ، عُدْ لنتسامر، لا تكن غبياً متخيِّلاً أفعالاً لم أفكر فيها.

رفعت يدي ودفعته، أسحب قدميَّ هابطاً، سمعته يتفوَّه بالتهديد والوعيد، أقفلت على نفسي باب النظارة ونمت حزيناً. عند الصباح رأيت على النافذة مصحفاً صغيراً، فتحته بحذر

لأجد قصاصة عند سورة يوسف كتب عليها«أراك تطيل الوقوف بين يدي الله، فما يخيفك إن قابلتني؟ سمعت عن حالتك وفكرت بالسماع منك، فهل نتقابل بعد مغيب شمس النهار، أنا امرأة فكيف تخشى مقابلتي؟». كان أمر تلك الكلمات محيراً، لم يفارقني ذلك المصحف، أسأل نفسي: سأخرج أواجه ما عليَّ مواجهته!

استقمت أصلي مرتجفاً، تترقب حواسي أيَّ صوت أو حركة، لم تمضِ غير لحيظات حتى رأيت شبح سيدة تظهر من خلف شجرة تشير أن أتقدَّم، اضطربت نفسي ولم أعد أعي ما أتلوه في صلاتي، كررت دعوتي بيديها، خطوت كالمسحور دون أن أكمل صلاتي، لم أرَ غير عينيها، طأطأت رأسي، مدَّت كفها، أمسكت بيدي، دفء عطر:

– حين سمعت من يتحدث عن حبيس النظارةظننتك أكبر مما أنت عليه! لماذا لا ترفع وجهك؟

رفعت ناظري في خجل، تبسّم عينيها وبريق نظراتها جعلني أدنو من جديد، همست:

– لم أسمع عن فتى يخجل من امرأة، يبدو أنك لا زلت بتولاً!

لم أردّ على صوتها، أخذت تتحدث بصوت عطوف:

– حين لمحتك تطيل السجود سألت عنك فقالوا إنك من جماعة الحسنيين! هل أنت كذلك؟

كان لصوتها وقع لطيف على نفسي يشبه صوت جارة أمي، لها غموض ساحر رددت:

– لا أعرف ماذا تقصدين بالحسنيين!

لم يمهلنا صوت الشاوش:«أين أنت أيها المعتوه؟». سحبت يدي مذعوراً لتختفي وجلةً خلف الأشجار. اقترب صليل قيوده،«دوماً ما أصادف من يتصفون بالحمق». لم أرد عليه، كان خيال تلك المرأة يحاصر ناظري. وصل بي إلى باب نظارتي:«هاه، هل ستتبعني إلى الأعلى لنتسامر أم أنك تخشى تهيؤاتك؟»، دخلت دون أن ألتفت إليه فأسمعه يردد: إذاً سأغلق عليك الباب حتى تشفى من حمق يركبك!

تلك الليلة كنت أبحث عن الرجل بداخلي، هي المرة الأولى التي تبعث كلمات امرأة أحاسيس وليدة فيَّ، امرأة تريدني رجلاً، كيف يكون الرجل رجلاً في نظر امرأة؟ تمنيت لو أن صاحبي إلى جواري كي يشير عليّ في ما أنا فيه. أن تراني رجلاً! لم أنم ليلتها، أضع رائحة العطر تحت خدي، أرهف السمع علّي أسمع صوتاً من خلف قضبان النافذة، أستعيد كلماتها، دفء يديها، نظراتها، إحساسي برائحتها.

أعادتني أصوات تراتيل الفجر إلى نفسي، زقزقة العصافير، وهج الصباح، نهار جديد أريده أن ينقضي، انتظرت أفول الشمس بصبر، خرجت متخيِّلاً كيف أكون رجلاً؟ أحاول أن أرى نفسي في عينيها وكلماتها، وقفت أصلي ناظراً في المكان الذي ظهرت البارحة منه، أطلتُ

الوقوف، لا صوت أو حركة غير العصافير، مر الوقت، تبعتها جوقة الضفادع، صرير خلته من داخلي، عمَّ الظلام ولا زلت أنتظر ظهورها. كنت راكعاً في مكاني حين سمعت صوتاً من فوق رأسي، ارتعدت فرائصي خوفاً، كيف لم أسمع صليل قيوده.

– لمَ لا تردّ على ندائي؟

– نداؤك!

– هل أنت مهبول؟

– الله يسامحك، قطعت صلاتي.

– أمرك غريب! انهض لتعود إلى نظارتك، إن تأخرت بعد اليوم لن أسمح لك بالخروج!

أسايره في ما يقول: «الصلاة بضع ركعات، وأنت تغرف صلاة!».لم أصدر صوتاً، محاولاً ألا أبدو أني غريب الأطوار، أخفي اضطرابي، اقترب بي من باب النظارة: «لن تندم إن صعدت لمسامرتي!»، أمسكت فمي عن الرد، ليغلق الباب ويمضي وهو يردد: كنت أعتقدك أذكى مما أنت عليه!

في الليلة التالية رأيتها تقف حين هممتُ بالركوع، كاد قلبي يسقط، لم أكمل صلاتي، سرت قُدماً وأنا أفكر كيف أبدو أمامها رجلاً، مدت يدها، حاولت أن أكون من يقبض على أصابعها:

– هاه، أخبرني عن صِلاتك بالحسنيين!

– لا أعرف عمَّ تتحدثين!

– يبدو أنها وشاية، أشفق عليك.

– لكني مجرد طالب، فمن يشِ بي، ولماذا؟!

– إذا كنت لا تعرف أيها الفتى ما تعنيه كلمة حسنيين، فعليك أن تعرف أن من وشى بك قال إنك تعمل بين طلبة المدرسة العلمية لمناصرة السيف الحسن، عم السيف البدر.

وقفت فاغراً فمي أمام كلماتها، بالفعل كنت أجهل ما يدور لكنني وعدتها بفهم ما تقول والعمل في صف مولانا السيف البدر.

– أنا لا أعرف عمَّ تتحدثين، قلت كلماتي ثم رفعت وجهي لأرى عينيها الباسمتين، تمنيت لو تكون في مثل جرأتها صديقة لي، كان كلُّ تفكيري أن أبدو رجلاً أمامها، تشجعت وقلت لها: أفكر طوال الوقت بكلماتك، وأتمنى لو أسمعك كثيراً، فهل سأراك دائماً؟

– حسبتك متشوقاً للعودة إلى مدرستك!

– بالطبع، بالطبع، لكن... لم أكمل عبارتي مرتبكاً.

– ماذا تريد أن تقول؟ لا يهم، سأساعدك للعودة إلى مدرستك، وسألتقي بك يوماً وأنت في أحسن حال.

كانت تلك آخر كلماتها حين ابتعدت لتختفي خلف الأشجار، تلوّح بكفها كأنها حلم. وقفت في حيرة من أمري، لم أنتظر كلمات الشاوش عبدالله، عدت أتشمَّمُ كفي بعد ملامسة كفها، أجرُّ خطاي يرافقني عطرها.

***

أستقيم للصلاة، أبحث عمَّا ينبئ عن وجودها لكنها لا تأتي، ظلَّ أملي لعدة ليالٍ، حتى ذلك الصباح حين كنت أسترق النظر من شروخ الباب، حركة العسكر والخدم في أوجها، وقع حوافر الخيل، عربة مولانا، صفوف (العكفة).«أحضروا لي ذلك الشقي»، صوت لم أتبيَّن صاحبه، لحظات وفتح باب النظارة بعنف وسرعة، أمسك أحدهم بمعصمي يجرني، سقطت أرضاً،«على رسلك»، رفعت ناظري لأرى وجه مولانا، كرر صوته:

– اتركوه.

وقف يتأملني، بينما حلَّق الجميع في وجل: ألست أنت ذلك الذي...؟! ثم صمت قليلاً مبتسماً وعيناه لم تفارقا عيني:

– أليس من الأفضل أن تنتبه لدراستك بدلاً من الانشغال بترهات لا تفيدك؟

استجمعت شجاعتي وقلت:

– قال عزّ من قائل:(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأٍ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)، متذكراً كلمات امرأة البستان حول الحسنيين.

– تبدو فصيحاً. يا شاوش عبدالله، فكَّ قيده، يا لبؤس ما يصنعون!

تقدمت ممسكاً بجلبابه، ثم أمسكت كفه ألثمها، ليفاجئني بأن وضع بين كفي خمسة دراهم حجر، ثم وجَّه كلامه للشاوش: «هيا أرسلوا من يعيده إلى مدرسته»، فُتح الباب الكبير، مضى على عربته تحيطه صفوف (العُكفة).

تحلَّق حولي عدد من العسكر والخدم، استلقيت أرضاً واضعاً ساقيَّ على حجر المدقَّة، مُحكماً قبضتي على دراهمي، يحوم حولي أحدهم بملامح باسمة.

– لن أفك مراودك إلا إذا أعطيتنا مما أعطاك مولانا!

نظرت إلى الشاوش الذي غمز لي بعينه، «أما أنا فلا أريد دراهمه». لفت نظري تحرك مصراع نافذة تتوسط مشربية الدور الثالث من القصر، وجه امرأة يطل، لم تكن غيرها. التفت الشاوش إلى حيث استقر بصري، استدارت الرؤوس واحداً تلو الآخر، لتتحرك الأيدي بالعتلَّات والمطارق تفكّ قيودي على عجل. ابتسمت وأنا أتمنى لو أنهم تركوني مستلقياً على الأرض حتى تظلّ عيناي معلقتين.

خرجت برفقة أحد العسكر، منحته قرشاً على أن يخاطب المعلمين ومدير الدار على لسان السيف آمراً بالعناية التامة بي. لاحظت بعض الطلبة وقد خرجوا من شُعبهم وفصولهم

يسترقون السمع لما يدور في الإدارة، ما لبث أن خرج من تبقى من الطلبة ليعمّ الهرج والمرج، ويعلم الجميع أن السيف البدر قد أرسل من يبلغ إدارة المدرسة بالاهتمام بي. خرجت باتجاه شُعبتي تحفّني نظرات الإعجاب والتقدير من عيون تتابع وأفواه تهمس، كنت سعيداً بذلك الفتح، لم تكتمل فرحتي حين علمت أن صديقي قد غادر المدرسة مطروداً. البعض يقول إنه انتقل إلى مدرسة أخرى، وآخرون يؤكدون أنه غادر صنعاء إلى بلاده بلاد الأشراف (مارب)، وخبر ثالث يؤكدأنه اختفى في ظروف غامضة. سبَّب لي فقدانه غصّة وأنا من كنت أحمل في جعبتي حكايات أتشوَّق لمسامرته بها، تعاظمت غصَّتي لتتحوَّل إلى كآبة وانطواء، ولم تعد تعني لي أسئلة من حولي أو دروس الشعبة شيئاً.

صمت الملثم يتأمل وجه وردة، ثم قال بصوت حزين:

– مللتُ من جَلد نفسي.

لاحظَت بدورها تغيّر ملامحه، أدركت أنه يخبّئ أكثر مما يعلن، وأن ما يخفيه أكثر عذاباً له. أمسكت بأصابع يديه تدلكها، صمتت لا تعرف ما يدور بخلده، لا تريده أن يتعذب أكثر فتسوء حالته، فكرت أن تخفف عنه، أن تحكي له بعض ذكرياتها:

– جاء دوري لأحكي لك، ثم تكمل لي حكايتك لاحقاً، هل تود سماعي؟

هز رأسه مبتسماً، ابتسمت وهي تتأمل عينيه:

– في الثالثة عشرة من عمري جاءت خالتي وردة لخطبتي من أمي، كان الراغب عسكرياً، سريعاً ما زوجوني به، تجاوزت معه السنة، لم يكن له بيت، ولذا كان يأتيني لأيام عند أمي، يغيب بعدها أسابيع ليظهر من جديد، وهكذا مضت أيامنا معاً، أنجبت طفلة كان يحبها ويحلم باليوم الذي يراها تهرول أمامه، فجأةً ذهب ولم يعد، لا أعرف إلا أنه استشهد في إحدى المعارك حول صنعاء،ترك لي طفلة في قماطها، ولي أمٌّ تعيش في الماضي، فقدت زوجها –والدي– منذ سنين، رافضةً الزواج بعده،أعيش حياتي راضية، على عكس أمي التي ترفض الواقع.

كان أبي وجدي يعملان في سمسرة ورثها جدي عن والدته، وكانت جدتي لأمي تعمل ضمن من يعملن في سمسرة جدي التي لا يرتادها غير عليَّة القوم من تجار ومشايخ ومتنفذين، إلى تلك السنة، حين أغارت قبائل الناصر أحمد على صنعاء بعد مقتل والده الإمام الشهيد المتوكل على الله، وإسقاط إمامة عبدالله الوزير. كانت سمسرة جدي مقراً لسكن القادمين إلى صنعاء لمناصرة الإمام الوزير، وحين اجتياحقبائل مولانا الناصر للمدينة دمرت السمسرةوسقط جدي قتيلاً هو ومن بالسمسرة، عدا أبي الذي اختبأ.

نُهبت المدينة وأُحرق وخُرِّب معظم أجزائها، لينتقم الإمام الناصر لدين الحق، مرسلاً قبائله وعسكره لملاحقة من يشك في عدم ولائهم. اعتقل المئات وأرسلهم إلى سجونٍ متفرقة في أنحاء اليمن، وأعدم العشرات منهم، ليفر أبي خوفاً مع من فرَّ خارج صنعاء، ومنها إلى عدن ثم خارج اليمن.

عاد أبي بعد سنوات بثروة قيل إنه جمعها متنقلاً بين الحبشة والسودان، ليتزوج أمي، ويشتري أجمل دور صنعاء وبساتينها، فتح متجراً هو الأكبر، استأجر جلَّابين إلى جبال بني مطر وحراز لجلب أكياس البن وإعادة شحنها خارج اليمن. أخذ الناس يتناقلون أخبار هذا التاجر واسع الثراء حتى وصلت أخباره إلى مسامعالإمام الناصر، أرسل من يصطحبه إلى مقامه، مع مرور الأيام أضحى والدي من رجال المقام، وأصبحت أمي من المقرَّبات إلى حريمه بما تحمله من هدايا، يزُرن دارها وتزورهن في دورهن، لم تكن دارنا صغيرة بل كانت داراً من ستة طوابق تحفُّها البساتين من كلِّ جانب.

لم يدم ذلك العز، أو أن أحدهم ذكَّر الناصر بموقف جدي في ٤٨ ليقرر إعادتنا إلى ما كنا عليه. نصب الناصر لولدي فخاً تمثَّل بتكليفه ببناء رصيف في بحر الحديدة ليستقبل المراكب الكبيرة، وأوهمه أنه سيكون المتسلِّطَ عليه في تصدير تجارة البن والقطن والجلود واستيراد (القاز) وقماش (المريكني)، وإن أراد أن يمتلك مراكبَ تجارية فله الحق. قادته أحلامه إلى ردم البحر، جمع مئات العمال وراح يعمل بكلِّ جهده لبناء البحر، حالماً بأن يصبَّ البحر في جيبه، صرف بثقة لردم البحر، استنفد مدَّخراته من (الفرانصي) ثم أخذ ببيع بساتينه ودوره واحداً بعد الآخر، استدان ليكتشف بأن البحر لا يرتوي، ولم يبقِ له غير الدار التي كان يسكنها. عاد يتوسَّل المقربين من مقام الناصر ليقابله، مرَّت أشهر دون جدوى، وبعد شفاعات بعض سيوف الإسلام أصدر المقام أمره بتكليفه عاملاً على ذمار، وقال له:«هذه عوضك»، ليُقتل في ظروف غامضة بعد بضع سنوات، ليتركنا لأقدارنا.

أوصدت أمي أبوابها، رفضت الهبوط من برجها، ظلَّت تعيش كما لو كانت أميرة، تصرف ببذخ حتى نفدما تركه أبي من مدَّخرات بسيطة، لتبيع بستان دارنا، ثم طوابقه السفلية طابقاً طابقاً، ولم يتبقَّ لنا غير ثلاث غرف في الدور العلوي.

حينها لم نجد ما نأكل، لجأت لخالتي وردة التي عادةً ما تدعوني بابنتي، وأنا أدعوها بخالتي، ومن يومها أعمل كمساعدة لها على أعمال السمسرة.

تعلم أمي أنه لم يعد لنا غير ما أحصل عليه من عملي، وما تجود به خالتي وردة من حبوب وبعض الطعام، ومع ذلك حين تغضب تعيِّرني بعملي في السمسرةفلا أجد إلا السكوت الدائم... جور الزمن أورثها النزق والتأفُّف.

***

في ذلك الصباح أرسل الأعمش من يدعوني إليه:

– افتقدتك، فاتتك دروس كثيرة، توقعت بمجرد عودتك أن تسعى لتحصيل ما فاتك، وإذا بأخبار تتحدث عن إهمالك.

صمت ممسكاً كفي يبحث عن مفاصل أصابعي، ثم تابع:

– لا يوجد من يعرف مقدار ذكائك مثلي، عليك أن تغيِّر نمط تفكيرك، أن تطرد الاستهتار من حياتك، إلا إذا كنت تريد أن تطرد مثل صاحبك البليد من المدرسة لتعود إلى حياة الشوارع.

عند سماعي تلك الكلمات انطلق صوتي بحدة وقد وقفت موجهاً كلماتي إليه:

– دوماً تهددني بالشارع، لم أعد أحتمل منك كل هذا الاهتمام، فهلَّا أعتقتني؟ هلَّا تركتني وشأني؟

اعتقدت أن كلماتي ستصعقه لكنه قاطعني ناظراً في عيني وقد رسمت ملامحه غضباً وزادت عيناه اعمشاشاً:

– كيف تجرؤ على رفع صوتك؟ أنسيت أني معلمك، أم أن ما يشاع عن اهتمام السيف بك قد جعل الغرور يركبك؟! اسمع يا ولد، سأغفر لك ذلك وإياك وتكرار الأمر، وعليك من فجر غد أن تعود لحلقة الدرس في المسجد، وإلا سأعرف كيف أعدّل اعوجاجك، انتهى الكلام، هيا انصرف!

لم يضف أي كلمة وهو يشير بيده باتجاه الباب. نهضت كسيراً لا أعرف كيف أفهم تلك العبارات التي سمعتها منه، ولم يكن من بدّ أن أعود إلى حلقة درسه، يحاصرني الخوف من ذلك الأعمش الدميم، أشك في حواس من حولي أنها تنقل ما أتفوّه به إليه وأن جميع حركاتي مرصودة، فكرت فيما دار، قررت أن أذعن له وأن أكسب ودّه، ضقت وهو يسخر من اهتمام السيف بي، بذلت جهداً مضاعفاً حتى دوَّنت ما فاتني.

– أريد تفوقك المطلق على أقرانك، أن تتجاوز المراحل، ولذلك سترافقني لأعطيك دروساً إضافية في البيت!

لم أعلّق، ما أن يكمل حلقة درس الفجر حتى أرافقه إلى داره، يسير ممسكاً كفي كالأعمى، لم أجرؤ يوماً على سؤاله لماذا يتصرف كذلك، ثم أخرج به باتجاه المدرسة وبعد انتهاء اليوم الدراسي أرافقه إلى بيته. قبيل مغيب الشمس أحضر لأرافقه إلى المسجد نصلي وأحضر الدرس. لم أعد أعبأ بنظرات الزملاء أو بما أسمعه من تعليقات، انشغلت بالسير في دائرة لا تنتهي من الدروس، أمرني أن أجلس لامتحان فصلين في اختبار واحد بدل فصل، لتعلن النتيجة بتفوقي في الفصلين. انتقلت إلى الفصل الأخير في الشعبة الثالثة.

كنت أظهر سعادتي بتلك النتائج على من حولي، وأخفي الشعور المرّ بالتعاسة وأنا أعيش أسير دائرة سيطرته عليَّ.

أجلس على طرف فراشه وقد أكملت كتابة ما يمليه عليَّ، يقول لي:

– أتشعر بحبي لك؟ أصمت محتاراً، ليواصل: هل تحبني؟ لم يكن لتلك الأسئلة من أجوبة: أريدك أن تتبع نصائحي لتكون ذلك العالم في أصول المذهب، ولا عليك إلا المزيد من الطاعة لتجني المزيد من النجاحات، اسمع لما سأقوله لك.

أريدك من صباح الغد أن تدعو من سيستجيب لك، أن تستقطب من الطلبة الجدد للرابطة الأدبية، ابدأ بطلبة الفصل الأدنى،اختر النابهين لتشكل جماعة وضمهم للرابطة العليا للمدرسة، واعلم أن مهمة تلك الرابطة إقامة ندوات الخطابة وتنظيم جلسات الأدب، وسأحدثك لاحقاً بكل التفاصيل، على أن لا يشترك فيها غير الطلبة، وأن توحي للجميع أن كلَّ ذلك من بنات أفكارك.

خرجت عائداً إلى المدرسة أفكّر في ذلك العمل الذي وجّهني به، أرى في نفسي فرحة الطلبة بتشكيل جماعات تضم للرابطة واندفاعهم للالتحاق بها، أتعجب من قدرته على خلط الأشياء، أن يقدم لي ما يجذبني مقابل ما يريده هو.

منذ اللحظات الأولى سعيت جاهداً لتنفيذ الفكرة، صُدمت حين وجدت رفضاً عاماً، الجميع ضد أن أكون أنا من يدعو، يتهامسون، والبعض يطلقها في وجهي على شكل عيرة: لو جاءت من غيرك! (ياولْد) سيدنا. أخبرته بفشل تنفيذ الفكرة، قال لي: يلزمك الصبر، استقطب في البداية واحداً ثم ثانياً، وهكذا لا تحبط. بالفعل استطعت أن أستقطب أحدهم، ثم توالى انضمام الطلبة لننفذ أول جلسة شعرية في فصلنا، بعدها تسابق الطلبة لتكوين روابط فصولهم، وسريعاً ما اتسعت دائرة الرابطة لتشمل طلبة في فصول جميع الشُّعَب، وكانت أول ندوة نظمتها الرابطة على مستوى المدرسة مسابقة في الخطابة اشترك فيها طلاب جميع الفصول، تلتها ندوة شعرية. يوماً بعد يوم تحولت المدرسة إلى ملتقى لطلبة المدارس الأخرى.

أشار بعدها بتوسيع الرابطة إلى مدارس أخرى، فكوَّنا في المدارس القريبة (الإصلاح) و(الأيتام) و(الصنايع) روابط تابعة لرابطتنا. تنوعت أنشطة الرابطة، وكان طموحنا الاشتراك بتنظيم حفل عيد الجلوس (النصر)، نصبنا منصة في قلب ميدان (شرارة)، أشركنا طلبة من جميع المدارس في عرض منظم أمام السيف وضيوفه، عزفت الموسيقى العسكرية لأول مرة،ألقيت القصائد وعدة كلمات من مختلف المدارس اختتمها السيف البدر بكلمة أشاد فيها بدقة تنظيم الاحتفال، شاكراً وزارة المعارف والقائمين عليها.

عقب ذلك الاحتفال صدر أمر بتولي المدرس الأعمش مديراً للمدرسة. بعد ذلك التعيين طلب مني الانتقال للسكن بمنزله، متعذراً بكثرة مهامه وضرورة مساعدته، طالت ذقنه وأصبحت تغطي بطنه.

اختبرت الفصل الثالث من الشعبة الثالثةوالفصل الأول من الشعبة الرابعة مع نهاية العام لأنتقل إلى الفصل الثاني من الشعبة الرابعة والأخيرة.

السيف البدر

بعد الامتحانات بدأت العطلة السنوية لأسمع الطلبة يرددون لبعضهم البعض عبارة «بلادك يا الغريب بلادك» بنشوة وفرحة السفر إلى أهاليهم، تشعرني أصواتهم بالحزن، مستعيداً ذكريات فراري من قريتي، أبي الذي عليَّ البحث عنه، أمي التي لا أعرف لها طريقاً، وذلك الأعمش الذي أحكم قبضته عليَّ.

مكثت عدة أيام لا أخرج من منزله، يكلفني بقراءة المزيد من كتب المذهب، يتركني معتمداً على نفسه في الذهاب والعودة إلى المسجد. ضاقت بي نفسي، فضَّلت أن أفاتحه برغبتي في العودة للسكن في المدرسة العلمية، أجلس مع من بقي من الطلبة، لكني لم أجرؤ على مفاتحته، ليأتي الحل من السماء حين جاء من يطرق باب الدار،أحد زملاء سكن المدرسة وبجواره فتى كأني رأيته من قبل، أقلِّب الأمر، متمعِّناً في ملامح ذلك الفتى، كان بهندام نظيف ووجه حسن تبدو عليه ملامح النعمة. تصافحنا وأنا أحاول الاستنتاج:

- أريدك جانباً.وبعد خطوات أردف هامساً: هناك من يريدك في قصر السعادة.

ارتجف قلبي وشعرت بخوف، عادت ذاكرتي إلى أيام النظارة والشاوش عبدالله، أعدت ناظري أتأمله، كان أصغر مني قليلاً.

-عليَّ اصطحابك الآن!

تجرأت وسألته:

- أفي الأمر...

لم يدعني أكمل:

- لا تقلق، الأمر خير!

وددت إغاظة سيدنا، أغلقت الباب خلفي ومضيت دون إخباره، سرت قلقاً من عودتي إلى حبس النظارة، أردّد أدعية، أستغفر الله، أضاء تفكيري تذكُّر امرأة بستان القصر، رددت آخر جملة نطقتها «سألتقي بك يوماً»، أيعقل أن تكون هي من دعتني، وددت سؤاله عمَّن أرسله، فضلت التريُّث، ثم تمنيت لو أسأله هل يعرفها، ومن تكون، وهل هي من أرسلت في طلبي؟ احترمت صمته وهو يسير أمامي، يبتسم بين فينة وأخرى، لم يكن يشبه أولئك العسكر الأوباش. حاذينا مسجد قبة المتوكل، أسوار القصر، عبرنا نفس فرخ بوابة الأسوار، تبعته رافعاً نظري إلى مشربية الدور الثالث، نوافذها مغلقة، الشاوش عبدالله يقف دون قيود هذه المرة:

- ها أنت ذا تعود إلينا مجدداً!

أعادت إليَّ كلماته «تعود إلينا» اضطرابي، وقفت بعض الوجوه تتفرَّسني، أعين عابرة، وأخرى تنتظر أي أمر. أشار الفتى أن أتبعه، اجتاز بي الفسحة المرصوفة بالحجر الأسود، عبر

بي بوابة الدار الكبير، قاعة واسعة كل جدرانها حجر مصقول مشذَّب، غير مصدق بأني داخل ذلك المبنى (القصر)، أصعد سلماً حجرياً عريضاً، رائحة لا تشبه أي رائحة، لا شيء سوى وقع أقدامنا من درجة إلى أخرى، دخل بي قاعة مماثلة لسابقتها –الطابق الثاني– في الاتساع وقد عُلِّق على حوائطها الحجرية سجاد ومرايا كبيرة، باب يتدفق منه ضوء، عدد من العسكر يقفون حوله، أشار مرافقي لأحدهم دون أن ينبس بكلمة ثم انصرف، أحسست أنه يخونني،تقدم نحوي من أشار عليه، اقتادني بلطف نحو باب الضوء، ازداد قلبي اضطراباً، تصبَّب جسمي عرقاً، أعبر باب الضوء، بدا كل شيء أبيضَ، جدرانها، سقفها، من بها يلبسون الثياب والعمائم البيضاء، وقد اتكأوا على مساند ووسائد بيضاء، أجسادهم ووجوههم ممتلئة، ضوء النوافذ يزيد ملامحهم بهاءً، كل شيء نظيف ووثير عدا أغصان القات التي انتشرت فوق الوسائد والمتكآت. سمعت ذلك العسكري وقد وقف وسط الحجرة:«مولاي هذا من أردت إحضاره»، لأرى وجه مولاي السيف البدر من على مرتبة عالية، تحيطه مساند ووسائد عن يمينه وشماله، وثلاثة صبيان عند قدميه يخرجون براعم القات من وعاء معدني، وآخر يمسك إبريقاً أصفرَ منقوشاً، وثالث يحمل متفلاً للبصاق، عيون مكحلة، شعور منسدلة، حركات فيها رقّة وتغنُّج، شككت في الأمر أسأل نفسي: هل أحلم أم أعيش الواقع؟!

أشار بكفه ليجلسني بجوار إحدى النوافذ المطلة على البستان، عيون من على المتكآت تتفحصني، ملأت عيوني بملامحهم واحداً واحداً، وجوه منعَّمة، منشغلة بمضغ براعم أغصان القات، يحيط بكلّ منهم عدد من الغلمان. أسأل نفسي: ماذا يريد مني، أهو احتفال آخر؟ أم أنني قادم على كارثة؟! هربت بناظري خارج النافذة القريبة، أشجار على مد البصر حول القصر، هو ذلك البستان الذي كنت أصلي عند أطرافه، بحثت علِّي أميز تلك الزاوية التي كان يخرجني الشاوش إليها، مجرى الجدول يبدو هناك، لكن المكان ليس المكان.

تتداخل أصواتهم، تتعالى ضحكات، يرفع السيف صوته، يصمت الجميع، يعمّ الضحك،تتبعها ضحكات، وهكذا مر الوقت وكل ما يدور لا يعنيني.

فجأةً استقام السيف ليهبَّ كلُّ من في الحجرة وقوفاً، رفع كفه ناقلاً نظراته في جانبي الحجرة:«سأترككم، أكملوا مقيلكم». لم أدرِ ما عليَّ فعله، أنظر إليه متمنياً رؤيتي، التقت عيناي بعينيه حين وضع عمامته على رأسه، أشارإليَّ:

– ما اسمك؟

نطق لساني:

– شيزان يامولاي!

نظر إلى أحدهم: «هيئوا له مهجعاً لمباته في المبنى الجنوبي، وقاعة لتعليم غلمان القصر وما يعينهم على أداء فروضهم»، ثم التفت إليَّ مبتسماً ماضياًيتبعه غلمانه وعدد من المعمَّمين خارجاً.

هدأ كلُّ شيء، وقفت متمعناً في ما أنا فيه، كتمت ضحكة في داخلي وأنا أتصوَّر المدير الأعمش ينتظر عودتي، شعرت بروحي تمرح وأحاسيسي تجنح وأنا أتخيله وقد وصله الخبر بأني في قصر السعادة. دعاني من كلَّفه السيف لمرافقته، هبطنا، دخلنا مبنىً جانبياً، طاف بي غرف الدور الثاني من المبنى.

– تلك غرفة مهجعك، والقاعة المجاورة هي قاعة للدَّرَسَة، هي ثلاثة أشهر تحفِّظهم فيها حروف الهجاء، وتهجِّي الكلمات، حفظ قصار السور، أداء فروضهم الدينية، وتعلمهم بعض الآداب، سيكون لك راتب الطعام.غير مسموح الخروج إلا بعد انقضاء مدتك هنا، لا يجوز أن يتصل بك أحد من خارج، أو استقبال أحد.

حمدت الله أني لن أخرج ولا يتصل بي أحد. قبل أن ينصرف قال مبتسماً:

– وما ينقصك أنا موجود.

لم أكن أعرف ما هي وظيفة ذلك المكلّف، ولم أره حتى غادرت.

***

قضيت ليلتي أتعرف على مكونات المبنى الذي سيكون فيه مهجعي، الدور الأرضي يبدو أنه مخصص لتشوين الحبوب وتخزين الحطب، الدور العلوي عدة حجرات وقاعات فارغة وثلاثة مطاهير، نوافذه الخلفية تطل على جزء من بستان واسع، تظهر قبة لمبنى صغير خلف أشجار هرمة، نوافذه الشمالية تطل على الساحة الأمامية للقصر، أرى منها المباني الشمالية وبرج حراسة البوابة.

صباح اليوم التالي تجمّع أكثر الدَّرَسَة، ظننت في بداية الأمر أنهم خليط من الصبايا والصبيان: ملابسهم،أسلوب حديثهم، نظراتهم، ألفاظهم،ضحكاتهم، شعرهم، أعمارهم متقاربة.

ذلك الفتى الذي اصطحبني بالأمس، ابتسمت أحييه، التفت لمن حوله جذلاً. قلَّة منهم يجيدون القراءة والكتابة، وبقيتهم بالكاد يتهجون الأحرف. وزّعتهم على مجموعات ووضعت على رأس كل مجموعة من يجيد القراءة والكتابة، بدأت كل مجموعة ترديد حروف الهجاء بشكل جماعي ثم تركيب وتهجئة الكلمات البسيطة.

يرفض دَرْسِيٌّ استمراره في مجموعته، مطالباً نقله إلى مجموعة بعينها، وآخر يريد أن يكون وصاحبه في نفسالمجموعة، يتقصَّدني أحدهم متدللاً، وثالث يتعامل معي بتأفف وتعالٍ، رابع يهديني جبنة وحلوى.

الفتى الذي اصطحبني بالأمس كانت حاله مختلفة، لم أكن أعرف أنه أوحى للجميع بصحوبيتي له، وأنه المفضّل لديَّ، ولذلك كان يتصرف على هذا الأساس، معتمداً على فارق السن بينه وبين بقية الدَّرَسَة، وكذلك تميّزه عنهم بإجادة القراءة والكتابة. بدوري أحاول إزالة ذلك المفهوم، متبعاً معاملة الجميع بنفس المستوى.

لم يكن لي إلا أن أساير تلك الكائنات وأن أحافظ على مكانتي من أي زلّة، كابحاً جماح غرائزي أمام أوادم لايفتأ كلُّ فرد منهم في إثبات قدرته على الإغواء والمكايدة: يتحدث أحد الدَّرَسَة إليَّ بكلام يخدش الحياء، وآخر يدَّعي أني هامسته بكلام، وثالث...، لأكتشف بعد حين أن ذلك الفتى وراء كلِّ تلك الممارسات. فكّرت في معاملته بشدة وحذر، أكلِّف من يشذِّب تكرار كتابة بعض الفقرات كي أردعه. ذلك الفتى أهملت الرد عليه أو التجاوب مع تصرفاته لأيام، إلى ذلك اليوم الذي وقف يطلب مني الكلام على انفراد، تجمَّعت عيون الصبيان في وجهي ووجهه وكأنهم يعون ما يدور، صمتُّ أفكّر. أشرت إليه أن يتبعني ليرتفع همس أفواههم.

– أريد أن أعترف لك بأني أخطأت.

هكذا بدأ هو الكلام بصوت مهذب، فكرت أن أنكر أي إساءة منه،أن أردّ عليه بجُمل عامة. بعد صمت قصير رفع عينيه:

– أعلن توبتي، وأعلم أن ما يحصل مني هو بدافع إعجابي بك، أقاربك في العمر وهذا يجعلني أطمع بصحوبيتك!

ألجمتني صراحته، ابتسمت وأنا أهزُّ رأسي، بينما أمسك بيدي يقبّلها. شعرت بتأنيب ضميري لقسوتي عليه، كدت بدوري أعتذر له لكني حافظت على تماسكي كمدرس، ربَّتُّ على كتفه هامساً:

– عد إلى مكانك.

وقف ناظراً إلى عيني ومسحة ابتسامةعينيه:

– بقي أمر آخر، سيدتي كلفتني أن أنقل إليك رغبتها في لقائك اليوم، وقالت لي أن توافيها في الوقت والمكان الذي اعتدت لقياها فيه.

– أي سيدة؟

– من أعمل على خدمتها.

لم أصدّق ما سمعته، لم يخب ظني بها، تيقنت كم ذلك الولد طيب وساذج وأن إهمالي له قسوة يجب ألا أمارسها.

في تلك اللحظة عرفت أنه غلامها، عدت إلى قاعة امتلأت بهمس شفاههم، ينظرون إليَّ نظرات ترقّب، ملامحي كادت تفضح ما يعتمل بداخلي، شعرت أن المكان لا يستوعبني، مضى بقية اليوم ببطء شديد، أقف أمام النافذة أتشوَّق سرعة مغيب الشمس. الساحة الأمامية

للقصر، الممر المؤدي إلى البستان، حدثت نفسي: لكن ماذا عن الشاوش عبدالله، قد يراني أعبر في اتجاه جدول الماء؟ أخطأت حين جافيته منذ عودتي، كان عليَّ أن أكسب وده. جزمت بأنيلست بحاجة إليه فأنا اليوم مدرّس غلمان القصر، أسير أينما أريد، لن أظهر ضعفي أمامه، على الجميع أن يعاملنيكمعلّم وهو أولهم، سأتعامل معه بحزم، ثم إن ذهابي إلى البستان أمر عادي، أروّح عن نفسي وأصلي. لن ألتفت إليه أو إلى درجات برج الحراسة، بل ولا إلى مبنى خدم القصر أو مبنى العسكر، ولن ألقي التحية على من أصادفهم، سأمضي بأنفة وأظهر ما استطعت من عجرفة وكبر حتى يتناقل جميع العسكر والخدم تصرفاتي ويهابونني.

***

غابت الشمس لأهبط مسرعاً، مضيت قُدماً، جدران السور أكثر تماسكاً، درج برج الحراسة، البوابة،باب النظارة، مبنى العسكر،ومبنى الخدم.سرت دون أن التفت، لا أعرف إن كان قد رآني أحد، اقتربت من صخب العصافير، فروع الأشجار استطالت وتداخلت، أجراس الجدول. انكفأت أتوضأ للصلاة، أختلس النظر بين الأشجار وقلبي يخفق بشدة، أعدت اغتراف الماء أغسل وجهي ويدي وقدمي عدة مرات. زحفت العتمة، تيارات الريح تميل إلى البرودة، ارتفع خرير الجدول أكثر. أخذت أصلي، كررت ركوعي وسجودي حتى أطبق الظلام. أفزعني صوت:

– عمَّ تبحث هنا أيها الفتى؟

قبل أن ألتفت ميّزت صوته، ما ضايقني أسلوب نطقه للكلمات وهو يدعوني بالفتى! تمالكت نفسي وضبطت صوتي:

– أبحث عمَّا تبحث عنه أيها العسكري!

– يا مدرّس الصبيان، عملك في ذلك المبنى، فهل تهت أم أنك تبحث عن أحد دَرَسَتِك؟ أم تحب أن أخابر من له الأمر؟

صليت على رسول الله في سري، ورأيت أن عليَّ أن أغيّر من أسلوبي تجاهه.

– الناس يقولون في مثل هذا الوقت: مساء الخير.

– والناس يستأذنون.

– بالفعل لقد وددت أن نكون معاً، أن أردّد عليك بعض الأدعية كي تحفظها.

– لسنا في خاطرك منذ عدت، لو كنت صادقاً لفكرت في زيارتي!

تغيّر صوته، ما طمأنني.

– معك حق في هذه.

– لا تذر الرماد على العيون، فقط أحب أن أذكّرك أن من أكل باليدين اختنق، وعلّك أن تزكّي أو تتصدق على الأقل للمحتاجين والمعوزين.

– لم أفهم قصدك!

– بل تفهم، فكّر في الأمر، سأنتظر ما تجود به، أو ستجد مني أموراً أخرى!

قضيت تلك الليلة أقلِّب الأمر في خاطري، ماذا لو حضرت وضبطنا الشاوش؟ صوت ذلك الفتى: «سيدتي كلفتني أن أنقل إليك رغبتها بلقائك حيث تعودت لقياك»، قد تكون رأت الشاوش وتجنبت الحضور! من أين لي أن أتأكد. أستعيد لحظات انتظاري، صوت الشاوش، تختلط الأصوات والمشاهد عليَّ.

اليوم التالي تابعت جلوس ذلك الفتى بين الدَّرَسَة، أنظر إليه فينظر إليَّ باسماً، أتمعن في ملامح وجهه، عينيه، نظراته المحايدة، فكّرتُ في سؤاله ثم أحجمت حتى أحفظ خصوصية علاقتي بها. أنشغل بالدرس وكأنّ الأمر عادي، كان يوماً شاقاً عليَّ. تفكيري مشتت، أحاول أن أبدو طبيعياً أمام صخب يسكنني، تمنيت لو أن ذلك الفتى يطلبني على انفراد، أن يتأخر بعد انصراف الدَّرَسَة. التفت ينظر إليَّ باسماً وهو يخرج من بين الدَّرَسَة، لنظراته معانٍ لم أفهمها، تساءلت:هل يريد قول شيء، أم أنه أحسَّ بأني أتسوَّله؟ تبعته متظاهراً بالحرص على توديعهم حتى أسفل الدرج، صعدت بشعور المنهزم، انقضت ساعات النهار ليتولاني الليل بسياطه. مرت ليالٍ أقضيها بجوار إحدى النوافذ،يغشى القمر أشجار البستان المهجور بهالة مخيفة، تلك القبة البيضاء تقبع بوحشتها وسط الأشجار، سناء القمر يذوب على المشهد كشمع نيئ، صوت بومة يناجي السكون.

لم أبرح سكني، أختلس النظر من خلف زجاج النافذة، أرى الشاوش يرفع نظره إلى نوافذ المبنى، كنت مرعوباً من تهديده، فكرت أن أتقرب إليه، هبطت أستأذنه للصلاة بين الأشجار، سألني: لماذا لا تصلي في مهجعك؟ أخذت بالحديث معه الجانب غير الصدامي، لكنه وجّه اتهامه: أشك في مجيئك للصلاة هنا، إن أخبرتني عن سر ذلك...! قاطعته ذاهباً به إلى حديث بعيد، أذكّره بما قال عز وجل، وعمَّن يُغضب الله بأفعاله. فيردّ عليَّ بحنق: وأولئك السادة قاريين الأعلام! ألا يعرفون ما قال الله وكل واحد منهم لديه أكثر من غلام!؟ لم أجد ما أرد عليه به غير أني تذكرت ما قاله لي يوماً: ألا تخاف أن يسمع حديثك مولانا؟ صمت ناظراً إليَّ ببلاهة.

ظلّ يلوّح بكلماته الملتبسة، يهدّد تارةوأخرى يتسول زكاتي أو صدقاتي، أراوغه تارةً وأخرى أحجم عن الرد عليه.

يوماً حضر الفتى مبكراً على غير عادة الدَّرَسَة، كانت العادة أن يتجمعوا أمام باب المبنى ومن ثم يصعدون جماعات. أدهشني وهو يقف أمامي لاهثاً، وبدوري كنت أتلهف لصوته.

–أرجو ألا أكون قد أزعجتك.

– تفضل ماذا لديك؟

– جئت قبل أن يأتي الصبيان كي أسألك!

– عمَّاذا؟

– عن تلك النظرات التي تحاصرني بها!

– أي نظرات؟

–نظراتك التي تعاتبني بها، أسأل نفسي: هل أخطأت في شيء؟ لقد وعدتك أن أكون مثالاً للدَّرْسِي المهذب، وقد أوفيت لك،لكنها نظراتك.

لم يكمل، سريعان ما أجهش باكياً ثم حاول أن يواصل كلامه:

– سأترك حضور الدرس إن كان حضوري يضايقك، لا أريد إزعاجك.

ارتبكت أمام منظر وجهه الباكي، وقد علت حمرة خدوده، أدهشني ببراءته:

–لا بأس عليك، أنت فتى مهذب ولا يوجد شيء ممّا تحدثت به. أنا أقدِّر فيك اجتهادك وأدبك.

كررت كلماتي التي حاولت بها أن أخفف من ألمه. في الوقت الذي أمسك هو بكفي يقبّلها ممتناً، ثم طوقني بذراعيه يبكي، تخللت صدري حرارة أنفاسه، أحسست بشعور محرج، أبعدته مخفياً فزعي، كابحاً أفكاراً تغزو رأسي،وقف ينظر إليَّ مندهشاً:

- لماذا تكرهني؟

نظرت إليه صامتاً، اغرورقت عيناه بالدموع من جديد. ارتباكه أحزنني، أوبِّخ نفسي لتلك الشكوك، أمسح على رأسه مواسياً. لحظتها سمعت وقع أقدام وضحكات تصعد. صوّبوا عيونهم وقد تلوَّن وجهه بابتسامة عريضة، أخفي ذعري وأعينهم الصغيرة تتساءل عمّا يحصل. قال درسِيٌّ بصوت مهذب:

- نعتذر لإزعاجكم.

ابتسمت متصنّعاً الهدوء، نظر الفتى إلى وجهي باسماً وقال:

- ألم تروا يوماً أصحاباً معاً؟ قالها بتغنج.

هززت رأسي بعصبية محاولاً إنهاء الموضوع،كنت أودّ أن أسأله عن سيدته وعن عدم حضورها في ذلك اليوم، لكنه قضى الوقت في عتاب وبكاء. حنقت على نفسي:

- هيا إلى أماكنكم، بسرعة.

سار ذلك الفتى يتمطَّى، مبتسماً في عيون من حوله.

تعمّدت ألاّ أنظر إلى وجهه طوال درس ذلك اليوم والأيام التالية، حتى أني لم أوجّه إليه أي كلمة. كنت قد نويت تجنبه وعدم إعطائه أي فرصة للتقرب مني. إلا أن نظراته المتكررة تزيدني حيرةً، أراه كمن يتضوّر ألماً، أراجع نفسي: قد أكون مخطئاً، ولا يجوز أن أحدّد موقفي منه على شكوك دون أن أتأكد، وصوت في داخلي يقول: نظرات البراءة ما هي إلا فخّ، تتلبَّسني الحيرة طوال الوقت.

***

بين يوم وآخر يزور الفصل بعض سادة القصر، يقف الزائر لأرى عيون الدَّرَسَة تتهامس في براءة الدلال، يرفع السيد صوته مصطنعاً الأبوَّة، موجهاً كلماته إلى غلامه، لا يلبث أن تفضحه نبرات صوته، مادّاً بكريم يمناه ما جاد به من مكسّرات وحلوى. يتبادل الدَّرَسَة نظرات وكلمات لا أفهمها.

إلى ذلك اليوم الذي زارنا أحدهم مكلَّلاً بعمامة صغيرة، وملابسه البيضاء الفضفاضة، يطوي على نصف وجهه بعذبة عِمَّته، ألقى التحية بصوتٍ فخيم، صافحته مرحِّباً:

- أتيت بعد أن سمعت عن جهدك المبذول لتعليمهم كتاب الله، وأسألك إن كان هناك ما ينقصك؟

- زيارتكم تشريف لي، وكل شيء متوفر...

- وفراشكوطعامك؟

- كل شيء تمام.

- الدَّرَسَة؟

– يمكنك سؤالهم.

أشرت إلى أحدهم لتلاوة آخر درس، ردّد كلمات التشجيع، وثانٍ وثالث. أثنى على الدَّرَسَة، ثم أشار:

– وذلك الدويدار؟

–الدويدار!

– ذلك الدرسي،كيف تحصيله؟ أجبته ببرود:

–لا بأس به!

شَكَرَ ما أقوم به، مستأذناً لمغادرتنا، تبعته مودعاً،مدَّ لي صرَّة صغيرة حسبتها حلوى ومكسّرات أوزّعها على الطلبة، لكنه كمن عرف ما يدور بخلدي:

– هذه لك!

شدَّ على يدي وقال بصوتٍ رقيق:

– ألا تريد أن نلتقي؟

لم أتوقع تلك الكلمات،ارتعش صدري، لم أفهم ما عناه. رأيت في عينيه ألفة غريبة. ارتسمت على وجهي ابتسامة الدهشة. سحبت كفي دون أن أتفوَّه حتى بكلمات وداع.

أحسست أنه زائر مختلف، لم يغادرنا عطره، رائحته التصقت بأصابعي، كنت أشعر بشيء يهزني خلافاً لكل من زارنا.

أكملت الدرس،خلوت إلى نفسي، فتحت تلك الصرَّة، ثوب وشال وصرة صغيرةتقضت عقتها، بهرني منظر القروش، عددتها حتى زادت على الخمسين قرش فرانصي، بحثت عمَّا يدلني على هوية ذلك الزائر فلم أستدل إلى شيء!

–سيدتي تسلم عليك! وتسألك هل أعجبك الثوب؟

– سيدتك؟

– هي من زارتنا بالأمس، ألم تتعرف عليها؟

– أهي من وصفتك بالدويدار؟!

–هي بعينها، فأنا دويدارها و...

احتضنته دون شعور! التصق بي يقبّل رقبتي، يشدّ بذراعيه حول خصري، كنت مشغولاً بتلك التساؤلات والاستنتاجات حول ذلك الزائر، فكرت في أحد سادة القصر ممن زارنا سابقاً وأغدق علينا بهداياه، ثم ذهب بي الخيال بعيداً نحو مولانا السيف! لكنها– هي بالذات– لم تأتِ على بالي!

استمرّ فم ذلك الدويدار يقبلني.

استعدت تصنّعي كمدرس أمام الدويدار بعد أن تخلَّصت من ذراعيه وتلك الأنفاس التي تخللت صدري ورقبتي، صاعداً بفمه إلى وجهي،كمن فقد السيطرة على نفسه. حاولت التخلص من يديه وأنفاسه لكنه تمسك بقوة وهو يهذي بكلمات معطوبة، اضطررت إلى دفعه بقوة. وقفت ناظراً إليه مرتبكاً:

– سأسامحك هذه المرة، وإياك وتكرار هذا، أراك مثل بقية زملائك، ولا تنسَ دوماً أني مدرسك، سأعتبر الأمر منتهياً.

ترقرقت الدموع في عينيه، انبعج فمه:

– على ما تسامحني، في ما أخطأت؟

اندفع مطوّقاً رقبتي، أخذ بتقبيل خدي، لامست شفتاه أطراف فمي، حاولت الفكاك من قبضته، صرخت فيه وقد تيقنت من عدم براءة ما يقوم به. أزاح وجهه قليلاً هامساً:

– لا تفهمني خطأ، أريد أن نكون أصحاباً،أنا معجب بك!

شعرت بوخز كلماته، ذكرت الله في سري، تخيَّلت سيدنا كما لو كان هو، فاحت تلك الرائحة التي يتنفسها جسمي. أزحته بعد جهد، ركع متشبثاً بساقيَّ، كنت مرعوباً أن يظهر أحدهم، حاولت سحب ساقي ليزداد تشبثاً، اضطررت أن أسحب ساقي بعنف، استعدت ثباتي أفكر في إقناعه، أمسكت بذراعيه، رفعته، بدا صوتي هادئاً:

– ارفع وجهك لتسمعني. مسحت دموعه وأردفت: هيا دع البكاء، سنكون أصحاباً.

صمت صوته لبرهة وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه الدامع، اتسعت عيناه، احتضن رأسي يقبله، أجاهد لأحدَّ من اندفاعه.

اختلط عرق وجهينا، زادت حمرة وجهه لتشمل أطراف أنفه، يتأمل عيني ثم يعاود تقبيل وجهي، كرر تقبيله، يهبط بشفتيه حتى أطراف فمي، بل أنه أخذ (...)، كدت أستسلم، أحسست برغبة تجتاح روحي، قاومت، رعب الإنزال أعادني لوعيي، رفعت يدي لأهوي على وجهه بعنف، أتبعتها بعدة صفعات،تمدد أرضاً ينظر إليَّ بذهول، وقفت موجهاً إليه غضبي:

– ألاتمتلك عقلاً؟ لا أريدك صاحباً كما تتصور!

***

نهض منكّس الرأس، سار مبتعداً ولم يلتفت إليَّ، وقع خطواته هابطاً كادت توقف نبض قلبي، وقفت خلف النافذة أتابع مروره عبر الساحة، لاحظت الشاوش يتأمله وقد اقتعد إحدى درجات سلمه.

مرّت عليَّ لحظات ثقيلة ومؤلمة، نظراته الصامتة تحاصرني، ملامحه الحزينة، لا أعرف! هل كان عليَّ صفعه بتلك القسوة؟ أوبّخ نفسي: لمَ أنا أرعن وعديم الحيلة؟

تلك الليلة مكثت خلف النافذة الخلفية أتأمل أشباح الأشجار الخلفية، أشباح ساكنة تغرق في سواد حالك، تماهت قبّة المبنى الصغير مع سواد الأشجار، لم يزرني القمر كما يفعل في مرات بؤسي، ولم يغشَ عيني النعاس.

صباح اليوم التالي أخذ الفتى مكانه بين الدَّرَسَة، حاولت ألَّا تلتقي عينانا، أرمقه منهمكاً في تدوين ما أملي عليهم، وهكذا لعدة أيام سارت الأمور كما أريد. إلا أنه مع نهاية دروس أحد الأيام أبطأ في اللحاق بزملائه، أوحيت بعدم الاهتمام به حتى يلحق بهم، إلا أنه ظلَّ واقفاً. أبتعد مذعوراً، أختلس النظر متمنياً أن ينصرف، لكن صوته لحق بي:

-أريد الحديث إليك...!

- وأنا أريدك أن تلحق بزملائك.

اقترب نحوي:

- لن أنصرف قبل أن تسمعني.

لم يكمل حتى تغيّرت ملامح وجهه، ساكباً دموعاً صامتة. رقّ قلبي، تقدمت نحوه بحذر، أمسكت بمعصمه أحدّثه متّجهاً به نحو الدرج، أدفعه للمغادرة:

-لا عليك...!

-أنا أتعذب بشدة، لا أريد أن تظن بي الظنون، أريد أن أكون في مستوى ثقتك، لقد أزعجتك كثيراً وسببت لك مضايقات، لكن صدقني أني لا أقصد، فقط أريد أن أكون عند حسن ظنك بي، أنت مَثَلي الذي أريد أن أكونه يوماً.

-قبلتُ عذرك، والآن قم، الحق بزملائك.

- ملامح وجهك لا تقول ذلك. أريدك بجد أن تسامحني، وأعدك ألاّ أكرر ذلك، ولا أريد بعد اليوم صحوبيتك. فقط ألا تظن بي الظنون.

فردت ملامح وجهي مبتسماً.

- اتفقنا، وأشكرك كثيراً.

- لم أنتظرك لأقول ما قلته، فأنا أحمل إليك رسالة من سيدتي.

- هاتها.

- حمّلتني سلامها إليك.

- بلّغها السلام الكثير وقل لها يجزيها الله خير الثواب.

- لم أكمل بعد.

- تفضل.

- وطلبت أن أبلغك بطلبها أن تلتقيها بعد مغيب شمس اليوم في الحمّام.

-أي حمّام؟

– الحمّام الواقع في البستان المهجور، خلف هذا الدار!

لم أعد أسمع ما يتفوّه به، ذهب تفكيري إلى تلك اللحظات البعيدة، إلى زيارتها للفصل، عطرها الذي خلّفته على يدي، أجواء الحجرة، نظراتها العميقة، كلماتها «ألا تريد رؤيتي؟»، يا لسذاجتي، تأتي إلى الفصل متنكرة، أي روح تلك، وأي امرأة هي؟! تهبني كلَّ ذلك المال! أخذ الدويدار يسحبني من يدي:

– تعال وسأريك موقعه من إحدى النوافذ.

أشار من النافذة الخلفية إلى تلك القبة الصغيرة التي أراها تسكن في هدوء بين الأشجار، ابتسم في نشوة وقال: هل رضيت عني الآن؟.

هززت رأسي نشواناً.

سيدة القصر

تركني لسعادتي، أراقص الأمل من حجرة إلى أخرى، كنت جذلاناً لأن الدويدار سريع النسيان والمغفرة لقسوتي معه، معاهداً نفسي على تحمُّل كلِّ حماقاته. انصبَّت أفكاري حول اللقاء بها، أن أكون رجلاً كما أوحت لي ذات يوم،«سألقاك يوماً وأنت في أحسن حال»، وها هي تفي بوعدها، عليَّ أن أكون في أحسن حال أمامها. كان الوقت يمر بارداً وثقيلاً، لم أصدق أني أسمع صوت مؤذن (قبة المتوكل) يداعب فؤادي برقته. لبست الثوب، سكبت عطراً، ملأت جيوبي زبيباً وكعكاً، هبطت السلم مسرعاً، مسحت الساحة، لا أحد غير تيارات باردة، انعطفت في خفة يميناً خلف المبنى، لم تكن المسافة الفاصلة بين المبنى وتلك القبة كبيرة، لكنها الأشجار المهملة توحي بالوحشة، سرت في طريقي أتحاشى الفروع الهابطة، عبرت وسط الأشجار بحذر، مبنى صغير، باب، وقفت علِّي أرى حركة أو أسمع صوتاً، رمقت ذلك السلم، ضوء أسفل السلم الحجري الرطب، هبطت بحذر، حجرة فسيحة، ضوء شمعة يتراقص على رف، مساطب عند زوايا الحجرة، تكويرة قبة عالية، باب معتم أسفل الجدار يفضي إلى الداخل. وقفت وسط سكون مهيب، ذرات بخار دافئ تلامس أعلى الباب،فكرت في خلع ملابسي والدخول، تريثت أنتظر، مر الوقت والسكون يزيدني قلقاً، خرير ماء يتعالى من الداخل. تقدمت باتجاه الباب الداخلي، خرير الماء يزداد وضوحاً، خطوت نحو الداخل،عتمة رطبة، كتمت أنفاسي أرهف السمع، خرير الماء يرتفع، حدثت نفسي: إن تكن بالداخل أو سأنتظرها، تعمقت قليلاً وقلبي يرتجف خوفاً ورعباً، أهامس نفسي: لماذا تختار مثل هذا المكان، أتختبر رجولتي؟! خوفي أنها تحمل روحاً غريبة، لن أتراجع حتى أعرف من تكون تلك المرأة.

قررت التعمُّق ومفاجأتها، أتلمَّس جدراناً رطبة، تزداد الحرارة كلما توغَّلت، أقف أنصت لذلك الخرير الهامس يواصل نداءه، الجدران تباعدت أو أنني أقف في حجرة واسعة، تشجعت بمواصلة لمس الجدران واكتشافها، تجويف باب آخر يتنفس حرارةً أشد،تجاوزته إلى فتحة أخرى أقل سخونةً، ثالثة، أدور متلمِّساً الجدران، خُيِّل لي أني أسمع همساً ما لبثأن اتضح الصوت: لمَ تأخرت؟ جفَّ فمي، فضّلت عدم الحركة، كتمت أنفاسي محاولاً تحديد اتجاه الكلمات، لحيظات وارتفعت أصوات طرطشة مياه، صخب ضحكات، انقبض قلبي، ارتبكت حين توالت على رأسي أوعية الماء، أكثر من صوت وعدّة دلاء تنسكب متتالية فوق رأسي، رفعت كفي، أيادٍ تسحبني أرضاً، حاولتالنهوض، زاد تدفق الماء على جسمي، كدت أختنق،حبوت أحاول الفرار من ذلك الشلالباحثاً عن مخرج يعيدني إلى ضوء الشمعة، زحفت والماء يزداد انسكاباً، تخيلتهن جنيات يعبثن بي، لم يعد يهمني شيء غير الخلاص من تدفق المياه، أيادٍ وأقدام، أجساد،صخب أصوات تفتت رأسي، أزحف باحثاً عن النجاة، أخيراً ظهر ضوء خافت زحفت في اتجاهه، أيادٍ

تسحبني، تضغط على رأسي، تغمر جسمي، أقدام تتوكأ عليَّ، أشعر بالاختناق، أقاوم، تزداد أعداد الأيدي والأقدام، أفقد قدرتي على المقاومة، يغيب وعيي، لم أعد أعي ما يدور.

استعدت وعيي شيئاً فشيئاً أتلمَّس ما حولي بروائح خمجة ، لم يعد من ماء يتدفق ولا صخب، آلام شديدة، صمت يملأ المكان. أزحف على أرض حجرية زلقة، أرى بصيص ضوء، لم أعد أميّز الاتجاهات، ممر يقودني إلى ذلك البصيص، ضوء يترقرق من زاويته، لم يعد على جسدي ما يستره، مفاصل جسمي مرهقة، نهضت بعرييهارباً على الدرجات نحو الأعلى، رياح باردة تتسرب من فتحة الباب، زحفت وسط ظلمة الأحراش، أصوات متفرقة من بعيد، أبحث عن منفذ يقودني باتجاه شبح المبنى،حين اقتربت منه شعرت أني أقترب من صديق افتقدته، تحاملت على مفاصلي أخذت أزحف، لم أصدّق أني أمسيت على فراشي، تركت لدموعي العنان،شعور بأن كلَّ شيء خذلني، حمَّى باردة ترعش أوصالي، كانت الأسئلة تجوس بخاطري طوال الليل: ماذا حصل لي؟ لماذا عليها أن تفعل بي كل هذا؟ تمنيت لو أعرف الحقيقة، أشعر بمرارة تكاد تفتك بي، تقتلني، حتى ملاك النوم لم ينقذني، صوت يتهادى بأدعية نهاية الليل، أردد بعده، ثم أصوات آذان الفجر تناغي آلامي لتزيد منشيجي. تسلل وهج الفجر، أتقلَّب بجسدٍ مفكَّك، تدفق ضوء الشمسلأفحص جسمي، تسلخات، خدوش وكدمات، لهيب حرقان، كل تلك الآلام دفعتني للتساؤل: لماذا صنعت بي هذا؟ هي من منحتني كل ذلك المال! هي من حاولت قتلي! لكن لماذا؟ حاولت الهروب من أحزاني إلى القرآن، أتلو سورة يوسف، أكرر يوسف وأنا أنتحب.

***

لم يكن لي أن أنهض من فراشي حين سمعت صخب الدَّرَسَة يصعدون، بعد برهة صوت الدويدار من خلف الباب:

– افتح أيها المدرس حان موعد الدرس.

لم أجب على ندائهم، أردف: أتشكو من شيء؟

خرج صوتي متهدجاً:

– عليكم أن تتصرفوا لأني مريض.

تلاشى الصخب.لا أعرف كيف فتح الباب أو أني تركته دون إحكام، رأيته وحيداً يتقدم نحوي، ينظر إلى وجهي. قلة من الدَّرَسَة وقفوا خلفه، ملامحهم حزينة، كلماتهم. لا أريد لأحد أن يعرف ما بي، حاولت المكابرة، كتمت آلامي، اقترب وجه الدويدار من وجهي:

– أراك شاحباً، ووجهك مجرح!

ساحت دمعة من عيني، لا أدري لماذا سافر عقلي إلى سنواتٍ مضت، يستعرض آلام عشتها تباعاً، سنوات لم أهنأ فيها كثيراً. قال الدويدار بصوتٍ عطوف:

– أخبرنا من عمل بك هذا؟

خجلٌ يتماوج داخلي، أخرجت يدي من تحت الأغطية، أشرت إليهم:

– عودوا، اذهبوا، اتركوني وشأني!

هدأ كل شيء، زحفت متلحفاً بالأغطية، أقفلت باب حجرتي، عدت لتلاوة سورة يوسف ثم يوسف، أردد مناجاتي لله، أسأله اللطف بي، أكرر ذلك طوال الوقت.

صباح اليوم التالي جاء من يطرق الباب، تثاقلت مفضّلاً الصمت، لا أريد أن يراني أحد، تكرر الطرق بقوة، ثم فتح الباب خلعاً. هي بعمامتها وثيابها البيضاء، ركعت بجوار فراشي لم تنطق لكن عينيها تحملان نظرات عميقة، يقف دويدارها ماسحاً دموعه. أمسكت يدي:

– ما الذي حدث لك؟

نظرت إلى عينيها. رأيت فيهما مزيجاً من الخبث والطيبة، ملهوفة: هيا حدثني عمَّا تشعر به، ماذا جرى لك؟

نوازع بداخلي تتجاذبني، أودّ ألاّ يعرف دويدارها شيئاً، أن أبدو متماسكاً أمامها، أن تشعر بأني قوي.

– لا شيء، لا أريد شيئاً، فقط اتركوني وشأني!

– يبدو أن حالتك خطيرة، سأرسل إليك حكيماً.

– لا أحتاج إلى حكيمولا عطف أحد.

– سيكون الدويدار قريباً لأي أمر.

– ...!

أمسكت بكفي بين يديها، شعرت بأصابع يديها ترتجف، نهضت دون أن تتفوَّه بكلمة، خرجت يتبعها دويدارها، انكفأت أبكي لعدم نطقي تلك الكلمات التي أردت أن أثأر بها لكرامتي، لا أعرف لماذا لم أنطقها؟

أقفلت الباب، تكوَّمت تحت أغطيتي، أخذني النوم، لا أعرف كم قضيت بعيداً، بين أحضان ملاك النوم دون ألوان أو روائح. صحوت وسط عتمة ليل لا أعرف كم انقضى منه، استعدت بعض صفاء ذهني. أسترجع لحظات هبوطي السلم، تلك الشمعة، خرير الماء، تدفق الماء، أصوات، أيادٍ، أقدام تعلو جسمي وأخرى تدهس رأسي. يردد صوت بداخلي: إن لم تكن هي وصباياها فمن؟ أم أن ذلك المكان سكنٌ للجن؟

لخمسة أيام تقاطر على زيارتي صبيان وأسياد، أناس لم أرهم من خدم وعسكر، أرسل السيف مداوياً فحص أطرافي، سألني عن أسباب تلك الخدوش، أمَرَ من كان حولي بالخروج، أقفل الأبواب وأمرني بكشف جسمي، أتلو ما تيسّر، أردد ما أحفظه من أدعية. طلب ماءً دافئاً، أخذ يغمس طرف خرقة يمررها على جراحي، يسألني فلا أملك أجوبة، رفضت طلبه بالنظر إلى مكامن بعينها في جسمي، قبل أن ينصرف قال لي:«لا تستجب لدعواتهم، كثيراً ما ينقلون

عدواهم ليلازمك المرض إلى آخر حياتك! تجنب ذلك»، لم أفهم شيئاً. ترك لي مرهماً أوصاني بدهن أماكن الألم، وأكّد: حتى تلك التي رفضت أن أراها.

عاهدت نفسي ألاّ أستجيب لأي دعوة، ألاّ أقسو على ذلك الدويدار الذي ظلت عيناه تدمعان كلما التقت عيوننا، أنَّبني ضميري منكراً قسوتي وظنوني، أسلوبي العنيف معه، لا أريد بعد ذلك اليوم أن أقترب من أحد: الشاوش عبدالله، الخدم الذين يتوارون، الدَّرَسَة، السادة الذين يشجعون غلمانهم،تلك المرأة الغريبة، سأتجنب الجميع، لم يعد لي في هذا القصر مكان، سأهرب في أول فرصة.

***

يعاود المداوي زيارتي، يكرّر غسل جروحي، دهن المراهم، يذرَّ مسحوقه ويمضي.

طوال أيام تعبي ظل الدويدار يتردد عليَّ، يقف ساهماً صامتاً، يغيب ليعود ملهوفاً، إلى أن أشرت إليه أن يجلس جواري،كان سعيداً، لم أعتذر له ولم يعبّر عن سعادته حين سمحت له بالجلوس بجواري، وجد كلٌّ منا رغبته في التقرب للآخر، سألته عمَّا يظن الزوار بي:

– يظن البعض أن بك مسَّاً، وآخرون يظنون أنك تشاجرت مع أحدهم، وقلة بأنك مريض بمرضٍ مُعدٍ، كثيرة هي التكهنات.

استمرّ يعبّر عن حزنه لما أنا فيه، وجدت نفسي أتحدث إليه بشكل متواصل، أسأله العودة لمؤانستي. حين أرسلت سيدته صُرَّةً طلبت منه إعادتها إليها دون أن أفتحها، أخبرته بخوفي منها، وأني لا أريد فضلها:

– لكنها تقدّرك وتعزّك!

– مهما يكن، أريدك أن تبلغها بأني لا أرغب في مقابلتها يوماً، ولا أريد!

– ستسألني لماذا؟

– قل لها ذلك وكفى!

صمت يتأمل وجهي، ثم أعقبت: عليك بالحذر منها ياصاحبي!

لم تفاجئني دموعه فهو كثيراً ما يدمع، أمسك كفي يقبّلها:

– أخيراً تنطقها، ما أروعك وأنت تقول لي «ياصاحبي»، أخيراً نحن أصحاب، أكان علينا أن نعاني حتى نكون أصحاباً؟ لِمَ لا تأتي الأشياء بسهولة، أن نحصل عليها بيسر، أعلينا أن نتعذب حتى ننال ما نبتغيه؟

عدت لتدريس الدَّرَسَة، أطلقت يد الدويدار فيهم، أجاهر بصحوبيته، لم يعد هناك من متاعب، ولم أعد أجد أي منغصات، يجلس بجواري، يراجع لبعضهم، يستمع لما حفظه البعض، يتخلف بعد نهاية الدرس، يجالسني، يأتي في مواعيد مختلفة، سألته عمَّن تكون تلك الشريفة؟ صمت مبتسماً، أو أنه كان يفكر في الإجابة:

– لماذا السؤال؟

– سأخبرك لاحقاً!

– وإن قلت لك لا أعرف؟

– ألست دويدارها؟

– لكني لا أعرف عنها شيئاً! رده فاجأني:

– أين تنام؟ وكيف تعيش داخل القصر؟ ألست إلى جوارها على الدوام؟

– لست بجوارها على الدوام. للغلمان قصبة داخل القصر، يحرسها خصيان، لا يخرج منها أحد إلا إذا طلب منه سيده أو سيدته ذلك.

– سؤالي: من هي؟

– يبدو أنك تتصور أننا وأسياد القصر نعيش في نفس المكان، أو أن سكان القصر يعيشون مع بعضهم البعض. القصر موزع قصبات وحافات، فمثلاً الحريم لهن الدور الثالث من القصر لا يدخله الغلمان إلا إذا طلبته الشريفة تابعها، ولا يدخل الدور الثالث رجل، عدا مولانا، فهناك خصيان يتحكمون في مداخل المباني الملحقة بالقصر ويختلطون بالجميع،الأدوار العليا من القصر لمولانا، الدور الثاني للضيافة والمقيل، وهناك أربعة دور أو قصبة ملحقة بالقصر يسكنها أكثر من سيد، الدور الأرضي قاعات واسعة، وأكبرها قاعة الموالد، نتجمَّع متى ما طلب مولانا إحياء ليلة من ليالي الذكر، يجلس السادة في المناسبات على مكان مرتفع فُرش بالسجاد والمساند والمتاكئ الملونة، قبالتهم صف طويل من حملة الدفوف، وصف آخر من الخصيان لنقف نحن الغلمان في صف طويل، ننشد «الحمد والشكر» على إيقاع الدفوف، تتلوها «طلع البدر علينا»، وهكذا يستمر المديح على إيقاع ضرب الدفوف لتتصاعد أدخنة المباخر التي يدور بها نفرٌ منا، يهتز صفّ المدَّاحين بإيقاع متسارع ليتمايل من في القاعة في نشوةٍ وجذل، يتمايل الجميع في حركتهم الراقصة وقد غشي دخان المباخر أجواء القاعة، يصمت الصخب وتبقى الأجساد علىتمايلها.

– وما يهمني من ذلك؟

– ألا تحب أن تكون يوماً معنا داخل قصبات ذلك القصر؟

– أنا؟

– وتعرف كيف نعيش؟

– يمكنك أن تحكي لي.

– يمكنك تخيلها.

– أريد أن أسمعك.

- هناك مخادع خاصة ببعض السادة للمقيل ولأوقات الأُنس، يمضغون القات مع من يحبون، حتى إذا ما جاء الرفاق يعود كلٌّ إلى مهجعه.

- لم أفهم!

- وقد يصطحبونهم إلى مقايل جماعية خارج أو داخل القصر.

- ومن يتبع السيدات مثلك؟

- أما نحن فنظل داخل قصبتنا، نواصل نشوتنا، مرة نقوم بإنشاد أناشيد العرسان ويكون من بيننا العريس والعروس، وأخرى نردد ما هو مطلوب منا حفظه من شعر أو قصص أو طرائف.

- حياة ممتعة؟

- جلُّ من تراهم يحبون التباهي بحسن غلمانهم في مقايلهم وأسمارهم، فحسن الغلام ودرجة حفظه يعطي سيده مكانة بين السادة.

في أول دخولي هذا القصر عرفت أحد السيوف، كان صاحب أطوار غريبة، يتهامس من عرفه بأنه صغير الأير وضعيف الباءة، ولذلك يدعو أحدهم يمتطيه ليُثار وبدوره يمتطي من يعشق، وكانت عنده وصفة دوماً يرددها «من يريد تكبير أيره عليه بترك غيره يمتطيه».

انتشرت تلك الوصفة بين الغلمان، فترانا في خلوتنا نتباهى بكشف أيورنا، يخجل البعض لصغر ما لديهلنبدأ بمعالجته وتغيير مستقبله، وفي العادة يظهر من بيننا من يجيد فنون الحديث حول الإمتاع، نستمع إليه كما نستمع إليك في دروسك، يعلمنا لنتعلم مما لديه، فبعض الغلمان يريد أن يفاجئ سيده بجديده حتى لا يميل لغيره، والبعض يخطط لاستدراج سيد آخر أكثر كرماً وأكثر وسامةً ولطفاً، ولا يقتصر التعلم على فنون الإمتاع بل هناك من يفضلون الغلمان أصحاب الملكات والمواهب الأدبية، بليغ الحديث، وصاحب الصوت الجميل لمؤانسته في مقايله والمسامرة بالطرب، والبعض يفضلونه لقدرته على حفظ الشعر وإلقائه في المقيل.

- وماذا عن النساء؟

- فضاء الطابق الثالث لهن، القصر مبانٍ متداخلة، النساء يعلمن بما يدور، ولكلٍّ أسرارها، فترى سكان القصر يعيشون في صوامع مغلقة.

- لم أتصور تلك الحياة خلف جدران القصر.

- أطلق لخيالك سماواته، هناك ما هو أكثر مؤانسةً، والأيام ستتيح لي أن أسمع منك وتسمع مني الكثير،خاصةً مما تعرف.

- وما عرّفني؟

- ألست من طلبة العلم في داخلية المدرسة؟

- وما هو المطلوب مني؟

- أن أصطحبك يوماً.

بعد أيام أعارني ثوباً وتسلل بي إلى قصبة الغلمان، عبر ممرات متداخلة، أعيش دون تصنُّع أردية المدرّس، أسمعهم كثيراً فأندهش لصغر سن بعضهم ومعرفته بما يسحر، لأكتشف بأني أجهل الكثير، يقول لي الدويدار: «أعطنا مما لديك»، أرتبك صامتاً وأتحول إلى درسيٍّ مبتدئ أمام مدرسين استحلبوا أسيادهم صنوف الأساليب.

١٩٥٥

لم أكن أتوقع أن قصر السعادة سيخلو من سكانه يوماً، وتلك المتَع ستنتهي، وأن الدويدار سيختفيإلى ليل لا يشبهه ليل. صحوت على جلبة غير مسبوقة، وقفت خلف النافذة الأمامية: حركة أشباح تتحرك أمام بوابة القصر، كثر يحملون أمتعة، عربات تُملأ، خيول وبهائم تخرج خارج الأسوار. أراقب مرعوباً، أحاول استنتاج ما يحدث، لم أجرؤ على النزول، صوت أدعية الليل يتلوها أذان الفجر من المساجد المحيطة بدَّد بعض الرعب، انتشرت أضواء الأفق، حركة خفيفة للعسكر ولخدم القصر، تنفَّست الشمس روائحها. مر الوقت وأنا أنتظر، لم يحضر الدَّرسَة، هبطت بعد الشمس متوجساً، رأيت الشاوش عبدالله واقفاً أعلى سلّم برجه متَّزراً بندقيته وحزام الرصاص، عدد من العسكر على الأسوار يحملون بنادقهم:

– سلام عليك شاوش عبدالله.

– ما الذي يبقيك هكذا؟ صوته كان جافاً وهو يطرح سؤاله بسؤال آخر، ما جعلني أطرح تساؤلي لأكثر من واحد. الجميع يتحركون بسرعة، لا يكترثون لسؤالي، كنت في حيرة والجميع مشغول،عاودت النظر إلى الشاوش:

– كيف تريدني أن أكون؟

– احمل بندقية، نحن نتوقع أي اعتداء على القصر.

– اعتداء!!

– هيا احمل بندقية.

لكنني لا أعرف الرماية.

– إذاً اذهب إلى سكن الخدم، هناك ستعرف ما عليك فعله.

– سأرحل!

– لا أحد يستطيع الخروج من هنا، كل شيء تحت إمرتي، هيا، سمعت وإلاّ.

عرفت لاحقاً أن حركة الليل هي بأمر مولانا السيف الذي أرسل من الحديدة يأمر بنقل كل نسائه وأفراد حاشيته بمن فيهم الغلمان إلى حيث يقيم في الحديدة، بعد أن وصله إعلان عمه السيف عبدالله إماماً، وأن أعوانه يحاصرون مولانا الإمام الناصر في قصر صالة في تعز.

وقف الشاوش عبدالله خطيباً صباح اليوم التالي. منظره مهيب من منتصف سلم البرج، بملابس عسكرية لأول مرة، يرتجل كلمته ووقف كل خدم وعسكر القصر يستمعونإليه:«أحدثكم اليومبعد أن أصبحت المسؤول عن حماية هذا القصر من أي اعتداء، عليكم الإنصات لكل كلمة أقولهاثم السمع والطاعة، وعليكم بالطاعة وتنفيذ الأوامر، كما لن أتسامح مع أي مخالف أو

متقاعس»، ثم أخذ يوزع المهام والتكاليف لتنفيذ العقوبات الصادرة منه ضد أي مخالف، وآخر مسؤول عن حبس المخالفين لأوامره على أن يكون الحبس غرفة النظارة في البداية، يتبعه ثلاثة عسكر، وثالث مسؤول عن مجموعة حراسة الأسوار الغربية والقبلية، ورابع مسؤول عن حراسة الأسوار الجنوبيةالشرقية، وكذا وزّع العسكر في مهام دفاعية على أسطح القصر والمباني الملحقة. وحين جاء دور توزيع مهام الخدم لم يُشر إليَّ. طبخ الطعام على فريق من الخادمات وتوزيعه على مجموعة من الخدم، جمع المخلفات ونظافة الأمكنة على آخرين، وأبقى لنفسه حمل مفاتيح مخازن الطحين والحطب وزيت الإضاءة والسلاح وقيادة كل الفرق.

***

سيدة مسنة هي من تقودني،ذكرتني بأمي، لم أرها من قبل. قيل إنها مربية مولانا السيف وعدد من سيوف الإسلام، ولاّها مولانا السيف رئيسة على خدم القصر، مولانا السيف كان دوماً يدعوها ليستمع إليها، لم يكن أي من خدم وخادمات القصر ذا بشرة سوداء، البعض منهم يلفت بياض بشرتهم الأنظار.

تتحرك بثقل بدنها، تتابع جميع أعمال الخدم داخل القصر، تطرح الملاحظات على هذه، توجه ذاك، تسأل عن هذه، تستدعي أخرى. دائمة التنقل بين طبقات القصر وحافاته، لها غرفة في الدور الثالث بمبنى الخدم، نادراً ما تسمح لأحد بمجالستها، لم تنجب أطفالاً رغم زواجها المتكرر، الجميع يناديها بـ«أمي تقية»، حتى كبار السن.

سكن الخدم ذو روائح غريبة، احتلت زوايا الممرات وغرف سكنهم أكوام المخلفات، ملابس متسخة، فرش مترية ومبقعة، جدران داكنة يلوّنها سخام قاتم، لا توجد أماكن خاصة بالنوم وأخرى للمقيل أو تناول الطعام، كل الغرف هي للنوم والطعام والمقيل، الجميع يرعى بعضه بعضاً، الأطفال يتنقلون بين الأحضان، الجميع يحترم رغبات الجميع،الكل مشاع لبعضهم البعض، يتماهى الفرد في الجميع، يأكلون معاً، يتسامرون أو يقيلون معاً، يتحدثون في كل شيء، يرقصون ويغنون معاً طوال الليل، فلا يميز الغريب بين أزواج بعضهم البعض، يعيشون ببساطة وقد تضاءلت نزعة التملك والاستحواذ في ذلك الحيز من القصر.

دعتني أمي تقية للجلوس معهم، الجميع يتهامسون حولي، سألتني، وحين عرف الجميع أني مدرس الصبيان هزت رأسها كما لو كانت قد سمعت بذلك. يتحدث الجميع في كل شيء وعن أي شيء، تتحدث إحداهن عمَّا يعجبها في الفراش، فيردّ آخر أن زوجته مثلها لكنها تحب أن تُؤتى في كل اتجاه، لتحكي أمي العجوز عن ذكرياتها مع الرجال، معدِّدة فرسانها الذين لا تنساهم أبداً، تشترك مسنّة أخرى حول رجل ذكرته بأنه قليل الحيلة لكن لسانه حلو، وهكذا أستمع إلى أحاديثهم في مواضيع كانت لديَّ سرّية، أحضر أسمارهم، نأكل معاً، لا أملّ الاستماع إلى حكاياتهم.

لم أسمع أن إحداهن قد أُغرمت بأحد سكان القصر، أسأل أمي تقية فتغترف من ذكريات صباها: رجال القصر لا يجيدون شيئاً، نحن للجميع، رجالهن مطايا لكنه واجب الأَمَة تجاه سيدها أن تؤدي ما يطلب منها، يميلون إلى لذائذ أخرى، نحن النساء نتخلَّل كل طوابق القصر وحماماته وغرفه ومطابخه، فنحن من نطبخ ونكنس ونغسل ونساعد النساء في زينتهن ونربي الصغار، نرى الزوجات الصغيرات يشتكين من حياتهن، يسألننا عن رضانا وسعادتنا، فنحدثهن بأننا هنيئات بما نجده من رجالنا، نسهّل لهن اللقاء مع رجالنا. بعد أيام يظهر على ملامحهن السعد والرضا. تبوح بعضهن برغبتهن في أن يعشن بعيداً عن القصر، يتسلَّلن ليقضين أوقاتاً هنيَّة، يتمرغن على تلك الأفرشة المتربة والملطخة، يستنشقن ما تسميه عفناً كما روائح زهر البساتين، نسعد لسعادتهن. فنرى أطفالنا يعيشون في القصور، وأطفالهم يعيشون بيننا، لا يهم لدينا؛ فكلهم أطفالنا.

لم يمر الأسبوع الأول على توزيع المهام حتى دعاني لأكون مرافقاً له، أعرف ما يرمي إليه. تباطأت في مشاركته المقيل، أرسلني فوراً إلى النظارة كأول حبيس. اليوم التالي أرسل خادمين بينهما أمي تقية بعد رفضهما إرسال خادمة لمسامرته. وهكذا ما أن تغيب شمس اليوم حتى يرسل عدداً آخر إلى الحبس بتهم مختلفة أبرزها عصيان تنفيذ أوامره.

اكتظت غرفة النظارة بنزلائها، ليُصدر أمراً باعتماد المبنى الجنوبي- الذي كنت أدرِّس فيه- كحبس إضافي. بعدها أعلن قراره بقطع يد أحد العسكر بتهمة سرقة ثمار إحدى الأشجار وقال إننا في حالة حرب لا يجب على أحد أن يستأثر بشيء لنفسه دون بقية من في القصر.

انتشرت أخبار حول إطلاق مولانا الناصر لدين الله جيوش جنِّه في أنحاء اليمن لمعاقبة من ناصروا أخاه عبدالله، وأن على أنصار مولانا الناصر تمييز وجوههم بدهنها بالقطران الأسود حتى لا تمسّهم الجن.

خاف الناس من بطش جنّ الإمام، حتى ذلك المساء الذي أخذت ألسنة اللهب تلتهم بعض دور صنعاء ومعسكراتها. هزّ الرعب أنحاء المدينة وانتشر خبر وصول جنّ مولانا الناصر صنعاء، وأن كهوف الجبال المطلة أمست مقراتٍ، وأن الإمام يرى ما يدور بعيون جنِّه. شبّت الحرائق لترتفع أعمدة الدخان، تردد صدى العويل، فر بعض السكان من المدينة لتتلوَّن صخور الوديان بدمائهم.

لتسقط صنعاء ويستسلم الإمام عبدالله ليُساق مع شقيقه السيف العباس وكوكبة من أعوانهم إلى السجون، ليأمر سيّافه ببتر رقابهم أمام حشود مهللة وأمام ناظريه، وبحضور حشود الشعب يلحس مولانا الدم المتقاطرمن السيف، ويطأ الدماء بأقدام عارية، يقلب رؤوساً يعرفها. فجأةًأجهش باكياً، ثم أمر بنصب خيام العزاء.

صرف الجن المناصرة له،رآهم الناس وهم يخرجون يثيرون سحب الغبار يحملون الصناديق والنوافذ وأبواب الحوانيت والمنازل والمساجد فوق ظهورهم، وآخرون يقودون قوافل الجمال والحمير والبقر المحملة بأكياس الحبوب ومواعين الطعام وبراميل القاز والسجاجيد والملابس، والبعض يسوق قطعان الغنم والماعز الجبلي والحمير والبقر والجمال.

***

يعود إلى قصر السعادة ألقه بعودة حاشية مولانا السيف ولي العهد، أعود إلى المبنى الجنوبي الذي خصص لتعليم الصبيان. عاد الجميع إلا صاحبي الدويدار، يقال إنه فر إلى بلاده، لم يعد لقلبي مقر خلف تلك الأسوار، طلبني السيف ولي العهد إلى مقيل القات، أخبرته عن انتهائي ممّا كلّفني به، أتأمل وجهه الجميل ثم سمعت صوته أقرب إلى الهمس يسألني:«نشاط الرابطة الأدبية جيد، حدثني عنها». استمع إليَّ ثم قال:«أريدك أن ترفع إليَّ تقريراً عن نشاطها، وأن تكتب عمَّا يُقال ويعتمل في المدرسة، البلاد تحاك ضدها الدسائس والمؤامرات، وأنتم عماد الغد، هذا أمر وعليك تنفيذه،ضع ما تكتبه في ظرف وأوصله إلى الشاوش عبدالله، ولا تناقشه في شيء».

قبّلت يده، مدّ لي بحفنة من الدراهم وضعتها فوق ما كانت تلك الشريفة قد وهبتني، احترت أين أخبّئ ثروتي الصغيرة، فكرت؛ ثم قررت دفنها وصندوق مع ملابسي المزركشةخلف المبنى إلى جوار جدار حمام البستان المهجور.

اليوم التالي رأيت الشاوش عبدالله بلباسه العسكري. لم يكن لي ما يستحق حمله غير مجموعة من الثياب، وقفت على حجارة الساحة الأمامية للقصر، كنت أود أن ألتفت إلى مشربية الدور الثالث، صوت الشاوش عبدالله ينهرني:

– من المعيب أن تخرج دون وداع يليق بك!

لم تستفزني كلماته.

–يكفيني شرف وداعك لي.

– أين درَستك، أليس من الوفاء أن يودّعوا مدرسهم.

لم أردّ عليه، غير أني ابتسمت ملوحاً له بالوداع، لأعبر ذلك الحبس،أخلّف ذكريات لم أكن أتوقع حدوثها. أسير بين الناس في الشارع، أبحث في داخلي عن سر السعادة التي أشعر بها رغم فقدان صاحبي. تذكرت سيدنا، هي المرة الأولى التي أشعر فيها أني لا أهابه،كنت مستعداً لمواجهته، أحداث القصر أعطتني قدرة على مواجهة الأمور، أو هكذا إحساسي وأنا أسير في اتجاه ميدان شرارة. سرت أهلوس بصوت مسموع: سأواجهه بكل ما أفكر به، سأقتص من تلك الروح التي أمعنت في إهانتي، وذلك العقل الذي تقصّد إذلالي، لن يجد ما يهددني به، سأكون في غنى عن دروسهولن يجد ما يستغلني به.

في اليوم الأول لعودتي إلى المدرسة العلمية أدهشتني نظرات التقدير، همسات صِلاتي بسيوف قصر السعادة.

سعيت لمقابلة سيدنا مدير المدرسة الذي فاجأني بهدوئه، ظننت أن ذلك إثر علمه بصلتي بالسيوف، لكني أُصبت بخيبة بعد أن قال:

– أحببت أن أبث شائعة صِلاتك بالسيوف بين الطلاب والمعلمين، وها أنت تلمس منهم ذلك التقدير.

شكرته والغيظ يملأ قلبي. أضاف وأصبع كفه تتخلل شعر ذقنه الطويل:

– لم يتبقَّ عليك غيرفصلين في الشعبة النهائية، أريدك أن تضاعف جهدك لتتجاوزها في الاختبار القادم.

همدت رغبتي في مقارعته، صوته برائحة تحدٍّ غامض، تحَرّك لساني بكلمات أخالها لينة:

– أنت صاحب الفضل، وبدون رعايتك لا حول لي ولا قوة.

ثم قبّلت جبهته، استأذنه بالانصراف. سمعت صوته آمراً:

– سترافقني إلى البيت اليوم!

وددت القول له: لم أعد أحتمل. لكني صمت.

سألني ذات مساء:

– كيف هي حياة القصور؟

– سجون مليئة بالمتع!

– وأين كان موقعك؟

–أي موقع!

ران صمت لبرهة، خمّنت ما يفكر به.

– الحياة تفاعل حتى لو ظننا عكس ذلك، من سابع سماء وحتى أدق الكائنات، ومن يظن نفسه فاعلاً فهو غبي وجاهل!

***

اجتهدت لأتجاوز آخر سنة، وأسميتها سنة الخلاص، قسّمت وقتي في المدرسة بين الدرس والجلوس– دون أن أخبر سيدنا – مع من أرى فيهم الجدية والمصداقية من أعضاء الرابطة الأدبية في مدرسة الإصلاح ومدرسة الصنائع وبقية المدارس، كعيون لما يدور في مدارسهم،ألتقي بهم بعيداً عن الأنظار وبالذات عن سيدنا المدير، أخبرهم عمَّا ينتظرنا من مستقبل باهر مكرّراً لهم ضرورة رصد كل عمل أو قول شائن من معلم أو طالب.

اتّسعت شبكة العيون في مدارس صنعاء وسط أعضاء الرابطة، أستقبل ما يصلني لألخصه في تقرير أسبوعيأسلمه الشاوش عبدالله، قبيل صلاة المغيب، الذي يردد على مسامعي:

– شغلتني بشكاواك المتكررة! أخيراً طلب مولاي رؤيتك!

هي المرة الأولى التي أتجاوز فيها طوابق القصر العليا صعوداً. أوصلني أحد (عكفته) لينتظرني خارج الباب، يجلس وحيداً بعد مقيله، قبَّلت باطن كفه، جلست أمامه راكعاً. سألني مبتسماً عن أحواليوعن دراستي، عن بعض الأسماء التي ذكرتها في تقاريري السابقة، ذكر لي أسماء بعينها، نبّهني إلى ضرورة وضع العيون على أصحاب تلك الأسماء. كنت مندهشاً من معرفته بكل ما يدور، أيقنت أن هناك غيري من يرفع إليه التقارير. نبهت زملائي لما يحدث، وأن الجميع تحت المجهر.

سيدنا المدير لم يشغلني كثيراً، فقط يردّد دوماً:«ركّز على تحصيلك، الاختبارات النهائية اقتربت»، وأنا أفكر في اليوم الذي أنفكُّفيه من سيطرته عليَّ، أن أقف لأقول له ما أريد دون خوف. يكرر:«لم يتبقَّ غير أسابيع، هل أنت مستعد؟».

وبالفعل دنا ذلك اليوم، كنت خائفاً مرتبكاً، لأفاجأ بأني حصلت على أعلى نتيجة بين أقراني. نظم أعضاء الرابطة الأدبية حفلاً للمتخرجين بالاشتراك مع إدارة الدار، حضره السيف وزير المعارف والسيف مدير بيت العلم بصنعاء، ليُعلن النتائج مقرونةً بتعيين عدد من المتخرجين معلمين بالمدرسة. كان اسمي ضمن الأسماء المعيَّنة.

دعاني سيدنالنحتفل منفردين بتلك النتائج، استحسنتها وأنا أحدث نفسي أن يكون حفل الخلاص، لقد أمسيت معلماً ولا أخشى شيئاً. استعرت صوته الهادئ، فاتحته بما أعانيه منذ عرفته، أوضحت له بأنه امتهنني كثيراً واستغلّ حاجتي، وأني كنت أتألم وأكره كل ما له صلة به. صمت يستمع إلى آلامي، كانت دفاعاتي تتعزز، تأججت رغبتي لتعنيفه، لم أره في مثل ذلك الصمت، تماديت. فجأةً نظر إليَّ راسماًابتسامةً باهتة،وكانت عيناه ترتجفان.

– منذ زمن أنتظر منك ذلك، وأنصحك بالتواضع قليلاً، نصيحة محب، لا أريد أن تتجبّر، إذا أحببت أن لا تعاملني كما يجب أن يعامل الطالب أستاذه عاملني كزميل، لا أريدكناكراً للجميل. فكّر، فكّر جيداً، قد تغيّر رأيك في أي وقت، وأنصحك أن تغير رأيك.

رفضت كلَّ ما طرحه، ليصمت ويتغير صوته:

– إذاً فارقني الآن،لا أريد رؤيتك في داري بعد اليوم.

كان الوقت متأخراً، لم أكن أتوقع أن يطردني،ظننته سيستجديني، صمتْ للحظات، ثم كرر دون أن يلتفت إليَّ:

– هيا انصرف، ما عدت أطيق رائحتك العفنة! ثم رفع صوته مكرراً، سمعت صوته بعد أن ابتعدت باتجاه الباب هادئاً: لا تنسى إغلاق الباب وراءك.

وكأن شيئاً لم يكن.

مسحت وردة دمعةً انزلقت على خده، وشعرت بأنها أقرب إليه من أي وقت مضى. التفت إليها وهو يشعربسعادة.

– ستكمل لي ما بدأته من حياتك.

ابتسم علامة الموافقة. انصرفت هابطةً تحملها أحاسيس لذيذة، ليعود بدورهإلى خلوته يفكر في أن يجرب الخروج ليلاً.

***

مع غروب الشمس شدّه الشوق لمنادمة العظمي، هبط من خلوته متحاملاً على نفسه، التقفته الخالة وردة:

– نزيل الخلوة ياحاج يريد الخروج.

– أين أنت؟ أمرك غريب ما أن تتماثل للشفاء حتى تحملك قدماك لتعود من جديد.

– لن أذهب بعيداً.

– سنرى.

تخيّل العظمي وقد وقف يحتضنه في شوق، مردِّداً:

– أين غبت هذه المدة ياصاحبي؟

وهكذا ظل يُمنّي نفسه بمنادمته، لكنه ما أن أطل على عامل السمسرة حتى قال له:

– لم يعد صاحبك بعد.

– ورفيقه العسكري؟

– ولا رفيقه.

نافع

لم يعد من خيار أمامه إلا أن يقضي لياليه وحيداً يستمع إلى وردةويسعدها بحكاياته:

في أول درس لي أمام الطلبة كان مقرراً كتاب **الطراز** ليحيى بن حمزة. وقد استفدت من دروس قصر السعادة في أن أقف دون خجل، مع فارق مستوى تحصيل الطلبة. أحرص على أن أعامل جميع طلبة الفصل بنفس المحبة. أوزِّع وقتي بين التحضير لدروسي واللقاءات بأعضاء شبكة الرابطة السريين، أتحرّى كلّ شيء، منحت ما تبقى من وقتي لتلخيص التقارير التي أسلمها لدار السعادة بانتظام.

عرفنا أن هناك جماعات حسنية، عيون تراقب كلّ ما يدور، وأن ذلك امتداد لصراع يحتدم بين آل حميد الدين ليقاتل بعضها بعضاً.

في ذلك النهار قال لي الشاوش عبدالله:

– مولانا خارج اليمن فلمن أسلم ما تكتب؟

وكانت جولة السيف قد أعلنت إلى دولتَي التشيك والسوفييت، ليمتد غيابه أسابيع، ابتهجت بعدهاصنعاء لعودته، وتحدثت الإذاعة حول شرائه أسلحة جديد.

أمر السيف بعد وصولهبافتتاح كليات عسكريةوتحدث عن تطوير للبلاد. مقابل ذلك صعّد أنصار عمه السيف الحسن من حملتهم ضده كولي للعهد، مشككين من قدراته، معظِّمين السيف الحسن وأهليته إماماً لليمن.

طلبني السيف إلى مجلسه، ناقشني كثيراً حول تلك التقارير التي تُرفع إليه، تطرَّق لبعض الأسماء، جماعات داخل المدارس، صلات بعضهم بالحسنيين. سألني عن سيدنا مدير المدرسة وعن أسماء أخرى! حثّني على المزيد من الأنشطة، ولأول مرة يضع بين يديَّ كيساً صغيراً من الفرانصي.

في المدرسة أقوم بواجبي، أحرص على ألا أحتكّ بسيدنا المدير، يرسل من ينبهني إلى اجتماعات المعلمين الشهرية، وحين أحضر لا يتحدث كلٌّ منا للآخر بشكل مباشر، يحاول كلٌّ تجنب الآخر، كنت سعيداً حين أشعر بأن المسافة بيننا تتسع. أكملت السنة الأولى كمدرّس، أخذت أفكر في الالتحاق بإحدى الكليات العسكرية وأن أطرح على مولانا نقل نشاطي ضد الحسنيين إلى تلك الكليات، أن أدعو الناس لتأييده.

بدأنا بعام دراسي جديد، أخطط فيه طرح فكرة أن ينقلني مولانا إلى مدرسة أخرى، أحلم بذلك اليوم الذي أكون مديراً، ليفاجئني المدير بزيارته لفصلي، سألني أن أصرف الطلبة وأمرني بإقفال الباب:

– ما الداعي لذلك؟

– كي تسمعني.

– أسمعك!

– جئتك بصفتي مديراً، وقد لاحظ الجميع جفاءك لي!

– أي جفاء؟

– لا أريدك إلا أن تكون طبيعياً في التعامل معي، لا أعاتبك على شيء ولا أغصبك على شيء، الإدارة يؤمّها جميع المعلمين، لا أحد يبالغ مثلك في الرفض.

–وماذا تريد؟

– أن تتعامل معي كأي زميل.

– لكنك لست زميلاً.

– فماذا أنا بالنسبة لك؟

– أنت معذبي، أنت الذي أتمنى أن أنساك.

لم يرد عليَّ بأي كلمة، رأيت شفتيه ترتجفان. نهض ممسكاً بشعر ذقنه الطويل باتجاه الباب وهو يردد بطريقة مرتبكة: حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل. ليغيب صوته تدريجياً.

شعرت حينها أن حِملاً أُزيح من قلبي، خرجت من الفصل لأرى الساحة ومباني الدار بألوان جديدة.

لم أعد أخشى شيئاً. يرسل سيدنا في طلبي فلا أجيبه، يضطر لزيارتي في الفصل مرة أخرى، لأتركه يثرثر بكلام يعزز كبرياءه. لم أتوقع أن يحاول إقناعي بعد أن أفشيت له كل ما في نفسي. في آخر زيارة تركته للجدران تسمعه، خرجت إلى الساحة وأنا مصمم على أن أطرح فكرة نقل نشاطي على مولانا السيف في أول فرصة تتاح لي.

***

لأيام انشغلت بالتدريس ورفع التقارير، أتحيَّن الفرصة كي يسمح لي السيف بمقابلته. إلى ذلك الصباح، صفوف الطلبة تتأهب لدخول الفصول بعد توزيع الكسوة الجديدة، لفت انتباه الجميع دخول خمسة عساكر، ترقَّب الجميع ما يدور، اتجه العسكر نحو المدير، تجمَّع المعلمون في حلقه حولهم، عادةً يأتي عسكري أو اثنان ليخرجوا بعدها مصطحبين أحدهم أو أكثر، ودوماً ما تتجه الأنظار إليَّ. اليوم يترقَّب الجميع ما يدور، انفرجت حلقة المعلمين من حول العسكر لينادي المدير باسمي، لم أستوعب بادئ الأمر. تقدم ثلاثة منهم نحوي، أمسكوا بذراعيَّ، بينما توجه بقية العسكر ومشرف السكن إلى المنامات، انتشر الهمس بين الجميع، انقضت لحظات من الترقبليعودوا حاملين رزمة منشورات أراها لأول مرة. زاد الترقب والهمس، قال أحد العسكر

موجهاً كلامه إلى المدير والمعلمين: سنقتاده بأدلة خيانته. ارتفع الهمس أكثر ليتحول إلى أصوات متداخلة، انصبّت الأعين عليَّ وهم يقتادونني خارجاً، ابتسمت في ثقة غير آبهٍ بهمسهم ونظراتهم، كنت على يقين من خطأ ما يصنعون، وأن الخبر سريعاً ما سيصل إلى مولانا ولي العهد لأمثل بين يديه، وعندها أخبره برغبتي في الانتقال إلى إحدى المدارس.

نظرات المارة وتعليقاتهم كانت مؤلمة، اتجهوا بي عكس ما كنت أتوقع، أدخلوني قصر البشاير، أودعوني غرفةً أكثر اتساعاً من نظارة قصر السعادة. لم أكن وحيداً، عدة محابيس يتجمَّعون في خوف، البعض قُيِّدت أرجلهم وأيديهم، وآخرون غُلَّت إلى أعناقهم. كنت الوحيد دون قيد ما أعطاني الأمل بالعودة. سألت أحد العسكر أستعطفه:

- لماذا أنا هنا؟

- أمر مولانا الإمام حفظه الله!

- حبسني، لكني...

لم يدعني أكمل.

- اهجع، قلنا لا تزيد هدرة!

كتبت خطاباً إلى مولانا ولي العهد. نقدت أحد العسكر نصف ريال (فرانصي) لإيصاله إلى الشاوش عبدالله. انقضى منتصف النهار دون رد. أرسلت بخطابٍ ثانٍ، مضت ساعات الليل مملة. احتواني نوم متقطع، صحوت على آذان الفجر، لم يطل بي الوقت حين فتح العسكر الباب، صوت أحدهم يردّد عدة أسماء، سمعت اسمي بينها، تيقنت من أن خطابي قد وصل ولي العهد. أخرجونا من تلك الغرفة، تنفست رئتي هواء نقياً، عسكر يتجمعون، صوت محرك عربة، أخذ ضوء الأفق ينتشر، وضعوا القيود حول ساقيَّ. سألته حول جدوى ما يصنع. نهرني بنزق وغلظة أن أصمت. حاولت أن أشرح له وهو يغلق حول عنقي حلقة يصلها بسلسلة طويلة، ركلني بعنف آمراً إياي أن أقف بمحاذة آخرين في صمت، ثم أخذ يصل أغلالنا بتلك السلسلة. ثلاثة جنود يعنّفوننا أن نصعد عربةً كانت تنفث دخانها، مستخدمين عصيّاً في تقريع رؤوسنا. يسحب كلٌّ منا الآخر للصعود! كنت أتعجب، في الوقت الذي أنتظر فيه أن يشيروا عليَّ بالخروج وضعت القيود والأغلال حول ساقي وعنقي. صعد مجموعة من العسكر تنقر عصيهم رؤوسنا، يصرخ أحدهم: «هيا، فليجثم الجميع متجاورين على القاع!»، أسترق النظر، يقف العسكر ممسكين بحديد أطراف الحوض، يقف أحدهم ويبدو أنه سائق العربة: «كل شيء تمام؟»، فيردّ عليه أحدهم: «تمام يا فندم!». لم تشرق الشمس، بعد حين خرجت العربة، عبرت ميدان (شرارة)، المباني المحيطة بالميدان، بوابة مدرستي، دار الشكر، قبة المتوكل، قصر السعادة، بدت لي بوابته غريبة، تلك الأسوار،رؤوس مباني القصر. ابتعدت العربة في شوارع باردة باتجاه الشمال، مبانٍ تفر صامتة، شوارع موحشة. خرجت العربة إلى أطراف المدينة، بزغ

ضوء الشمس من أعالي الجبل الطويل، العربة تشق طريقها بين بساتين سوِّرت بالطين النّيء، دور المدينة وشواهدها تبتعد، لحظتها انكمش الأمل بداخلي، أحسست بمرارة تصعد، يتذوقها لساني، ماتت الكلمات، صوت موتور العربة وغبار الدواليب يحاصر حواسي، دارت في رأسي مخاوف. ألتفت إلى من حولي: عدة رؤوس مشعثة، ملابس متسخة، عيونهم منهكة، سلسلة واحدة تجمع همّنا. اقتربنا من منابت جبال محروقة، قوافل جمال محملة بحطب وأكياستتبعها قطعان حمير.

***

اختفت دور صنعاء عن أنظارنا، تتساءل عيناي إلى أين يذهبون بنا، أم أنه كابوس سريعاً ما ينقشع. تهتز العربة بعنف، يتحرك العسكر حولنا والعربة تتوغل في وادٍ تحيطه جبال سوداء، لتعبر بعد وقت إلى سهلٍ منبسط، مدينة سهلية صغيرة قالوا إنها (عمران). صعدت بنا العربة تلالاً تشرف على المدينة، دخلت بنا بوابة كبيرة (قشلة عمران) خلف أسوار عالية، لتتعالى أصوات العسكر، ونسمع من يردّ على أصواتهم، صمت محركها، عسكر كثر يتحلقون حول العربة، رفع أحدهم صوته:

–هيا بسرعة انزلوا، لعنة الله عليكم!

يركلنا عسكري ويسحبنا آخرون بالسلاسل، يتبادلون بعض الأسئلة والأجوبة:

– من هؤلاء؟ فيرد عليهم السائق:

– عصاة، مجدّفون.

أفواه تقذف بعصارتها على وجوهنا، وأخرى تغرغر لتجمع زلالها، يشيّعوننا بلعناتهم، أحدهم يشير نحو الاتجاه الذي علينا أن نسلكه، وآخر يستخدم أقدامه ليدفعنا على الإسراع. ساحة واسعة ربضت عند أطرافها ثلاث عربات تلاصق حائطاً عالياً، قلاع تتداخل دائرياً، مبانٍ متجاورة من الحجر الأبيض. أدخلونا من باب سفلي: فضاء معتم، تلمسنا جدراناً وزوايا قريبة من ضوء الباب، تهادت أصوات لا نرى مصدرها، اقتربت تلك الأصوات، أشباح متهالكة، بدت أجسامهم هزيلة، بقايا ملابس ممزقة ومتسخة، مُدّت أكفهم يتسوَّلون طعاماً. تبادلت النظرات مع شركائي في السلسة الحديدية كما تعودنا طوال الطريق، أشرنا لتلك الأشباح بأننا لا نحمل شيئاً، أخذوا يعبثون بملابسنا، ما لبثت أن تعالت أصواتهم غاضبة لنشتبك في عراك حتى استبدّ بنا الإنهاك، لم نتحدث إلى بعضنا طوال الطريق،اكتفينا بتبادل النظرات.

فُتح الباب ليدخل علينا مجموعة عسكر يحملون قروانة طعام، وآخرون عصيّاً، وضعوا الوعاء أرضاً، أولئك المشعثون هجموا لحظة خروج العسكر لينشب عراك بيننا وبينهم على ذلك الطعام القليل!

هو الجوع والخوف ما جعل صوتي يتنفس، في محاولة يائسة أن ينظر الله إلى حالتي، أن يلطف بي. ردد من حولي بصوت جماعي حزين ما أردده. ليظهروا من خلف العتمة، يقتربون منا وقد ارتسمت على وجوههم ملامح حزينة، جلسوا على مقربة منا يرددون ما نردد حتى اختفى ضوء الباب وزحفت ظلمة باردة، نسمع أصواتاً تجهش باكية، وأخرى تلعن الكون وما فيه. ليهدأ كل شيء، ويعمّ صمت ملاك النوم.

أصوات العسكر من بين عتمة أخالها عتمة الفجر، عصيهم، أقدامهم، أكفّهم تسحب سلسة أغلالنا، يدفعوننا بعنف لنصعد العربة نفسها، تحفّنا أصواتهم اللاعنة، هبطت بنا وسط برد قارس، عبرنا وادياً منبسطاً باتجاه جبال بيضاء، كل ما حولنا أخضر، أرض مرتوية لهطول أمطار البارحة، مشبعة. تنغرس دواليب العربة،تغوص في وحل الأرض: «هيا انزلوا، هيا بسرعة!»، يسحبوننا بالسلاسل، غاصت سيقاننا المقيدة في الطين، بأصابعنا نزيل وحل الدواليب، نملأ الفجوات بأحجار، نتعاون على دفع العربة، تخرج من بركة رخوة إلى أخرى، تدور الإطارات، تتطاير كتل الوحل شلالات على أجسامنا، يكتفي العسكر بكيل الشتائم، تشبّعت ملابسنا وأجسامنا بالوحل وتغيّرت أشكالنا، جوعٌ وبرد. مع انقضاء النهار تجاوزنا وادي الوحل لتصعد بنا العربة جبالاً بيضاء، تصعد في عتمة باردة، لا نرى شيئاً، أنين محرك العربة، لتبرق السماء وتصهل الأنحاء،يغسلنا مزن السماء بينما عنف العسكر يزداد. بعد وقت اقتربنا من مبنى في عرض الطريق، خليط من المسافرين والبهائم، عرفت بأنها (مقهاية) يلجأ إليها عابرو السبيل. اشرأبّت أعناق العسكر وهم يمرون بنا وسط جموع تكدست بهم زوايا المقهاية، يضاعفون شتائمهم، أفواه لا نسمع إلا همسها، حشرونا في إحدى الزوايا بينما تجمع العسكر حول موقد جمر.

أمست السماء تجلد الأرض ببرقها، قبيل الفجر أخرجونا وذرات السحب تحجب الرؤية، لا نرى أبعد من خطوات، يتعالى خرير الماء تحت أقدامنا. صعدنا العربة، طريق صخري ضيق، تهبط بنا العربة ببطء خوف الانزلاق، أخذت السحب تنقشع، أشرفنا على وديان سحيقة لا نرى بطونها، جبال في الطرف الآخر لتلك الهاوية الغائرة، تكللها السحب، قرى تطرز قمماً بعيدة، ومبنى بالكاد نراه. يشير أحد العساكر: هو ذلك الحبس الذي نقصد الوصول إليه!

كم بدا المنظر مبهماً لي وسط ذلك الطقس القاسي والتضاريس الوعرة، نرى الجبال تفصلنا عنها وديان غائرة بعيدة، وتلك النقطة البيضاء، أو ما أسماها العسكري بالحبس الأبيض، وكأنها حلم ينقذنا من عذاب مرير، حبس نحلم بالوصول إليه. أسأل نفسي: أضاقت الحبوس حتى يرسلونا إلى منفى على قمة جبال عالية؟

بدأت العربة طريقها هابطة، حافة جروف سحيقة تذكرني بجروف (نقيل سمارة)، تنسال مياه المنحدرات لتنحت أخاديد في الأجزاء التربة، تعود السحب تحجب عنا أفق الجبال المقابلة،

رهام سريعاً ما تحول إلى مطر منسكب. ينزلنا العسكر، نسير أمام العربة نزيل صخوراً سقطت أونردم أخاديد جرفت تربتها المياه المتساقطة. بعد معاناة وصلنا عمق (وادي شرس) لتأخذ العربة بالصعود في طريق صخرية وعرة.

رويداً رويداً تعممت قمم الجبال بغسقٍ مبهج. توقفت العربة بجوار مبنى وحيد على جانب الطريق، مقهاية مماثلة لتلك المقهاية التي بتنا فيها الليلة الماضية، تطفئ العربة أنوارها، نرى ضوء سراج ضئيلاً، امرأة وشيخ طاعن في السن يقفان مرحبين بنا، رائحة الدفء والقهوة تستقبل أنوفنا، تكوَّمت ورفاقي على إحدى المصاطب، لم يكن في المقهاية من نزلاء غيرنا، لا أعرف كم مضى من الوقت وقد احتوانا ملاك النوم، شعرت بمن يداعب أطرافي، تلك المسنّة تجلس على طرف الدكّة وقد احتضنت ساقي، المستّبجوارها يحمل وعاءً، قالت بأن أنيننا أبكاهما. قُلت لها:

– لكننا نائمون!

– يا ولدي المغبون يئنّ حتى لو كان ميتاً!

ذكرتني تلك الملامح بملامح جارة أمي، شعرت أن آلام جسمي خفت، وقد انتقلت تدهن أطراف زميل آخر.

خرجنا نواصل صعودنا، لم يعد العسكر بتلك القسوة. وقبل أن ينتهي النهار علونا قمماً عالية، ليظهر ذلك المبنى الأبيض على قمة عالية، تصعد العربة لنرى قرى على قمم أخرى، فوق إحداها قصر (سعدان)، قصر مولانا الناصر، لنتوقف أخيراً أمام سور أبيض يمتد ليحيط بقمم عديدة. صرخت فرحاً: «أخيراً وصلنا الحبس!». خرج إلينا مجموعة عسكر من بوابة صغيرة لذلك السور، مأمور الحبس يتقدمهم، رياح باردة رغم أشعة شمس المغيب، أهامس من حولي: «أخيراً سأنام حتى أرتوي، سأتخلص من إرهاق كاد يفقدني عقلي، ستهجع قدمي بعد وحل الطريق وصخور منحدراته!». مأمور الحبس كان اسمه (جرامة)، لمح مهامساتنا، قرأ السائق ورقة فردها بين يديه قبل أن يمدها لمأمور الحبس:«نائبنا على حجة يودع (...) الحبس ولا يتصل به أحد حتى يصلكم حكمي بشأنه»، وأشار إليَّ، ثم قرأ ورقة أخرى:«نائب على حجة يودع (...) في الحبس حتى يعيدوا بنادق الدولة أو يصلكم أمري بشأنهم»، صمت قليلاً ثم قال: تلك أوامر مولانا الإمام!

لم يكن يهمني ما ينتظرني. كنت على يقين من أنه لن يكون أشد إيلاماً من قسوة أولئك العسكر الأوباش، أن أتخلص من طنين كلماتهم. يكفي ألا أرى بعد ذلك وجوههم، ولا أشعر بعذاب تلك الطريق؛ لا أريد رفع نظري إليهم.

***

أدخلونا حجرةً مستطيلة، صفّونا أمام جدار طويل، أمرونا بوضع أقدامنا فوق (المدقة)، حجر مستطيلة كأنه نابت في الأرض، أزالوا تلك السلسة التي أشركونا بها، أزالوا قيود صنعاء، استبدلوها بقيود صدئة، أمسك جرامة بالسراج، قرَّبه من وجهي:

– عرفنا سبب إرسال مولانا زملائك، لكننا لم نعرف ماذا صنعت ليرسلك إلينا؟!

لم يجد صوتي قدرةً على الخروج، صمتُّ وقد سرح خيالي إلى السيف البدر، أيعقل أن خبري لم يصله؟ لكزني أحدهم (الرسم):

– ردّ على المأمور، أم أنك أعجم؟

– الأمر بين أيديكم،اقرأوه.

أخذ جرامة السراج، سار بعيداً،أشار لرسمه غاضباً:

– هيا قودّوهم إلى الداخل، وليعلم الجميع أن جنّ مولانا يملأون أنحاء الحبس، يرى بعيونهم ويسمع بآذانهم،فلا تغيب عنه لا شاردة ولا واردة، يطلق سراح من يسير سيرة الطاعة، يطعم السيف من يزداد عصياناً!

بخطوات مبتورة أحاول مسايرة (رسم) الحبس، هبطوا درجات معتمة،يحفظ خطوهم مواطن أقدامهم، تعثرت عدة مرات، بمشقة تجاوزت درجات هابطة، زحفت في قاعة مستوية، تدفق الضوء بعد أن فُتح بابها، أخرجونا وأقفلوا الباب. وقفت أحاول استيعاب ما حولي: أفق مفتوح، سماء، جبال وتلال، أشجار وصخور، أناس يجرجرون قيودهم، يقتربون منا، نتبادل النظرات في تعجب دون أن نتفوه بكلمة. أسأل نفسي: أين أنا؟حلّق المقيّدون حولنا يتفحصون هيئاتنا، أسمالنا الملطخة، ملامحنا، يتساءلون فيما بينهم، خيّل إليَّ أن وجهاً بين تلك الوجوه مألوف لديَّ، أسرعت بذاكرتي أسترجع وجوه الأمس، أفتش، أطلت النظر، يزداد قلبي خفقاناً، وعينا ذلك الوجه تقترب، اقتربت بوجهي منه أكثر، مدّ يده، لامس ساعدي، وجهي، رقبتي، استدار الجميع، أفواههم وعيونهم تتابعه، صرخ فارداً ذراعيه:

– أنت مُدرّسي!

عيناه هي عينا الدويدار، أمسكت وجهه بين كفيَّ صارخاً:

– الدويدار! هي عيناك، كيف استطال وجهك؟ وهذا الشعر المغطي أطرافه!

فتحت ذراعي، احتضنته، أحسست برجفان قلبه. عاد يتأمل وجهي، أمسك ذراعي، سحبني وسار بي بعيداً، تصلصل قيودنا. تبعنا بعضهم.

سمعت صوتاً من خلفنا:

– لا تقل دويدار، هذا شيخ!!

التفتُّ لأرى شاباً طويلاً بملامح جامدة، قال الدويدار ممسكاً بمعصمه:

–هذا مرافقي.

– مرافقك؟

– لم أعد ذلك الدويدار الذي خبرته بقصر السعادة!

–وما أنت عليه الآن، أما زلت صاحبي؟

– صاحبك يا ذاك، هنا الوقت مباح فلا شيء أمامنا غير الصحوبية، الآن استرح من السفر، والأيام لنا.

– ستخبرني بكل شيء.

– بكل شيء!

– سبحان الله، نلتقي مرة أخرى.

– وفي هذا الحبس!

–لكني لم أرَ أو أسمع حبساً يضم جبالاً وقفاراً!

جلجلة القيود تصدر إيقاعاً ثابتاً، نسيت آلام جسدي وجراح ساقي، نسيت زملاء الرحلة الذين ذابوا بين تساؤلات المحابيس.

الشمس تحتضر وهو يسير بي بين أكوام (دشم) تتكوم على بعضها البعض، شبيهة بقفر دبابير،دخل بي أحدها وترك ذا الملامح الجامدة خارجاً.

يتأمل كلٌّ منا عيني الآخر، كنت أودُّ أن يحدثني عمَّا نحن فيه، أين نحن؟ ولماذا لا يفر المحابيس؟ لكن مقاومة جسدي انهارت، تمازج نومي بحمَّى باردة، لم أعد أعرف هل كنت نائماً أم أنني فقدت وعيي. بعد أن أفقتقال لي الدويدار إنني كنت أهذي وأئنّ طوال الوقت! لأيام لا أقوى على النهوض من جراح قدمي ويدي وحزوز القيود. يحدثني الدويدار حكايات لم أستطع الربط بين أجزائها، يوماً بعد يوم استطعت تجميع ما يحكيه، لم يتركني أسأله عن طبيعة ما نحن فيه وذلك القفر! استمر يتحدث عن حكايته بعد هروبه:

– هربت إلى بلادي بعد أن خرجنا من قصر السعادة في تلك الليلة لأمسي في حماية والدي، معتقداً أن الإمام الدستوري سيصمد في سيطرته على صنعاء،وسريعاً ما أرسل الإمام الناصر عسكره بعد دخوله صنعاء في طلب إعادتي كرهينة طاعة، رفض والدي، اعتبر الإمام ذلك إهانةً له، أرسل قبائل لمحاربة قبيلتنا، وقبائل أخرى على من فرّ من الرهائن، قاومت قبيلتنا أياماً، ليصاب والدي الشيخ بطلق ناري توفي على إثره، اجتمعت القبيلة ووقَّعت لي (قاعدة) مشيخ خلفاً لوالدي الشهيد. لم يوقف الإمام حربه حتى تمّ اقتيادي إلى هذا الحبس قبل ثلاث سنوات.

يحدثني عن ظروف معاناته في بداية الحبس، وأنه نذر حياته بعد ذلك في سبيل مقاومة الطاغية وأسرته. أفزعني كلامه، لم أكن قد سمعت منه مثل ذلك الكلام من قبل، أحاول أن

أستنكر كلامه، أسمع صوته آتياً من بعيد كأنه ليس من عرفت. تحول صوته مع طول الوقت إلى أنين، صوت يتدفق بكلام قويّ وجارح.

ليعاود ملاك النوم احتضاني بدفئه، لا أعرف كم قضيت من الوقت نائماً، قد تكون ساعات أو يوماً أو بضعة أيام، صحوت وسط عتمة باردة وحيداً، أتحسس جسمي، التأمت بعض جراحي بعد أن داوم صديقي الدويدار على دهنها، ثم لفَّ حلقات القيود بخرق. عتمة وصمت مخيف تبدده أصوات تأتي من الجوار،خرجت من الدشمة زحفاً، متحمِّلاً آلامي، أتلمس طريقي باتجاه الصخب،زحفت بين تلك الدشم، الأصوات تقترب أكثر، وهج لهب ينعكس على الأنحاء. رأيت مشهداً لم أتوقعه: ألسنة نيران تتعالى في كبد العتمة، حلقة حول النار يغنون ويتمايلون في صخب، آخرون ارتقوا عدة صخور يناجون السماء بما يشبه العواء.

***

جلست على مبعدة أتأمل ما يدور، برودة تيارات الريح، نجوم تهامسُ وميضها، أسأل نفسي: أين أنا؟! أيعقل أن يكون ما أنا فيه حبساً؟ أشعر برهبة وغرائبية المكان، شككت في قواي، قد يكون إحساسي من فرط الإرهاق، أو أني فقدت عقلي، ذاكرتي تستعيد صوت العسكري حين تلا أمر الإمام «نائب حجة يودع هذا (...) الحبس ولا يتصل به أحد حتى يصلكم حكمي بشأنه»، ذاك ما تلاه عسكري الأمس، أمر مولانا الناصر بشأني، جرامة ورسمه، العسكر، العربة، مصاعب الطريق من صنعاء، أيعقل أن يكون كل ذلك مجرد تهيؤات، وهذه القيود ماذا تعني؟ لكن ماذا يعني كل ما حولي: الصخب حول النار، الصارخون فوق الصخور، تلك النجوم التي تملأ السماء؟

سافر الليل وقد استمر مَن حول النار في شدوهم ورقصهم، ومَن على الصخور بأصواتهم، لتظهر رؤوس ضباع وسط عتمة الأشجار تلمع عيونها، تتقدم وهي تتشمَّم الأرض، تقتعد مؤخراتها، يتصرف مَن حول النار كمن تعوّد على رؤيتها، أراقب من مكاني ما يدور، ينسلُّ نفرٌ حول الأشجار يسيرون بخطى بمرتبكة في اتجاهات حذرة، يستمر من حول النار بأصواتهم ورقصهم، تحرّك الضباع رؤوسها مصدرةً أنيناً دون أن تجرؤ على التقدُّم. فجأةً يظهر نفرٌ من خلف العتمة يحملون العصيَّ، وبحركة مباغتة يمسك بعضهم ذيول الضباع، تحاول الإفلات، تدور، يهجم مَن حول النار بعصيِّهم الطويلة يشبعونها ضرباً، تسقط مضرجةًبدمائها، يسحبونها ميتة، يلقونها وسط جمر اللهب، يضيفون جذوع أشجار، تتصاعد ألسنة النيران، تنتشر روائح الشواء، يزيد صخب من حول النار، لم يمضِ وقت حتى رأيتهم يخرجون بقايا تلك الضباع المحروقة بفروع أشجار جافة، يسحبونها، يقطعونها على صفحة الصخر وقد توزعوا إلى جماعات، يحمل كلُّ فرد حصَّته مبتهجاً، تبدأ أسنانهم وقواطعهم بتمزيقها ومضغها، يتفرقون

باتجاهات مختلفة نحو دشمهم، بينما تأخذ ألسنة النيران بالتضاؤل حتى تتحول إلى رماد تلهو به الريح.

اتَّسع وميض النجوم، صمت كلُّ شيء إلا من نعيق بومة وعواء ضوارٍ حزينة، عدت أجرُّ قيودي حتى دشمة الدويدار، سألته حول ذلك الحبس: كيف يكون حبساً وهو بأفق مفتوح؟ قال لي: سأحدثك بذلك لاحقاً. سألته عن ذلك اللهب، وعمَّن يعوي من على الصخور العالية. صمت قليلاً ثم قال:

– تلك حكاية قديمة، فنزلاء حبس القفر هذا منقسمون على أنفسهم منذ سنوات، بدايةً من تزايد افتراس وحوش عدة محابيس، حينها كلف مأمور الحبس المحابيس بإشعال النار معلقاً«ستبتلعكم الوحوش أو أفواه القبور، لا فرق عندي وعليكم بإشعال النار». وليلة بعد أخرى تزايد السُّمَّرُ حول النار، ليتناقص ظهور تلك الحيوانات المفترسة، ليعتاد المحابيس على ليالٍ تنيرها النار، يدقون على التَنَكويرقصون ويغنون حتى منتصف الليل، لم يبقَ أحد إلا وشارك حول لهب النار، إلى ليلة شتوية باردة انبرى أحدهم واعظاً ومهدداً من غضب الله عليهم، منكراً غناءهم ورقصهم، مبتعداً عن نارهم، واصماً إياهم بالعصيان ومخالفة الشرع، مُقبِّحاً أصحاب الأحاجي والنكت، مطالباً الجميع بتحويل أسمارهم حول النار لذكر الله والاستغفار، محذراً من غضب الله عليهم. استهجن الجميع دعوته، ليصعد إحدى الصخور العالية يناجي السماء، في بداية الأمر لم يتبعه أحد، ظلَّ يناجي السماء مع بداية كل ليلة وحيداً، وهكذا أمسى يصعد صخرته، وهم بدورهم يشعلون النار يغنُّون ويرقصون، إلى تلك الليلة التي سمع الجميع عواء ذئاب بعد صوت يطلقه، وكأنها تناجي صوته، يصمت فتصمت، يرفع صوته فيرتفع عواؤها!! البعض اعتبر ذلك آية من آيات دعوته، أن تتبعه الوحوش مُسبَّحةً لله. انضمّ إليه البعضيصعدون صخوراً تجاوره يردّدون ما يردد، وهكذا أخذ أنصاره يتزايدون، لينقسم المحابيس إلى فئتين: فئة صاعدة الصخور تناجي السماء ويرتلون القرآن بأصواتٍ صارخة، وفئة تتحلَّق طوال الليل حول النار.

أنهى الدويدار حكاية تلك الليلة ليحتضنه ملاك النوم، بينما قضيت الليل أتقلَّب مفكراً في غرابة ذلك الحبس، أنتظر الصباح لاكتشاف أنحائه. قبيل شروق الشمس تركت الدويدار، زحفت خارجاً على أربع، أزقة الدشم، جدار عالٍ هو ذلك الأبيض الذي يظهر للناظرين من أنحاء بعيدة، تتكئ معظم الدشم على بعضها، والكلُّ على السور الأبيض. زحفت حتى خارج الأطراف، ذلك الجدار الأبيض يمتد بعيداً بعيداً شرقاً وغرباً في كلِّ اتجاه، حتى لكأنه يحيط البلاد بجبالها وأوديتها، باب المبنى الذي أدخلونا منه مقفل وقد أخذ بعض المحابيس يزحفون ليتجمعوا أمام بابه، يحملون بين أكفهم (قروانات) خشبية، يصطخب المكان بصلصلة القيود. أخذت مكاناً

منزوياً أراقب ما يحدث، لم يمر وقت حتى فُتح الباب ليطلَّ منه عدد من العسكر يملأون القروانات بمطبوخ العدس وخبزتين.

***

ألتفت لأرى أناساًيجرّون قيودهم الثقيلة من قفارٍ دون حدود، ومن بين تلال وشعاب وأشجارٍ عملاقة، ومن أسفل مجاري سيول وأودية غائرة. لم أستوعب ما أنا فيه، أتساءل عمَّا أراه: هل هو وهم؟ لكن ما الذي يدعو كلَّ هؤلاء للوقوف قرب الباب يستجدون طعاماً؟ لماذا لايفرون؟! هذا السؤال ظلَّ يلحُّ عليَّ. خليط غير متجانس من المحابيس، المعمم، لابس الجلباب، أشباه العراة، صاحب الجدايل والشعر الطويل، آخر وقد قُيِّد إلى آخر، آخرون وقد غُلَّوا إلى أعناقهم، كثرة ممن حملت سيقانه عدة قيود، آخر قيّدوه بسلاسل إلى جدار بجوار الباب، وآخرون موثقون إلى صخور لا يقوون على حملها. في تلك اللحظة عادت ذاكرتي إلى اليوم الذي اقتاد فيه عسكر عامل مولانا الإمامَ من القرية. إحساس بأني سأراه يوماً، أو أنه في سجن أبعد.

الدويدار

أسوار بيضاء تمتد إلى ما لا نهاية، جِنٌّ مولانا يراقبون الأنحاء، كما حذرنا مأمور الحبس لحظة وصولنا: «جنّ مولانا يملأون قفار الحبس، يرى بعيونهم ويسمع بآذانهم، فلا تغيب عنه لا شاردة ولا واردة. يطلق سراح من يسير سيرة الطاعة، يطعم السيف من يزداد عصيانا». يخبرني الدويدار أن بعض المحابيس رأوا كائناتٍ تظهر لتختفي، وآخر يجزم بأنهم يأتونه ليسامرونه، كثيرة هي أخبار جنِّ الإمام في ذلك المكان.

ألتزم الحياد بين مهللي الصخور ليلاً ومن يتجمعون خلف النار، تنشب تحرشات واشتباكات تنتهي بالصلح وهكذا يزداد العداء بين الجماعتين شهراً بعد شهر.

مرّت أولى سنوات حبسي ليتضاءل الأمل، أسأل نفسي: أيعقل حتى اليوم أن خبري لم يصل إلى مولاي السيف؟ الدويدار كان يزيدني يأساً، مؤكّداً أن معظم أوامر الحبس هي من السيف نفسه، وأنه يلعب مع والده الناصر لعبةً خبيثة. أحسست بغبن كاد يقتلني، لم أجد سبباً واحداً لحبسي، من يومها سقط شيء في أعماقي.

أكمل سنة ثانية سجن، لم يعد من أمل، أفكّر في الهرب، أن أكتشف ما يتحدثون عنه من جنٍّ وكثرة ضوارٍ، صدى كلماتهم تلاحقني: «من حاولوا الفرار وُجدت بقاياهم بعد أن افترستهم سباع القفار، ثم أن جنَّ الإمام تترصد لهم، فإما يعاد ليعاقب أو يتلبَّسه أحدهم ليهيم في الفيافي والقفار، بأطرافها جروف سحيقة وهاويات لا قرار لها».

أرى في كلماتهم شيئاً من الحقيقة، فمن هذا الذي يستطيع الفرار وخطواته لا تتجاوز الشبر إن لم تكن أقل؟ ومن ذا الذي يستطيع مصارعة ضبع أو ذئب جائع دون أي سلاح؟ لكنها فكرة الفرار ظلت تنخر رأسي، تستحكم على تفكيري حين أخلو في ظلمة الليل.

* * *

هجرت الجميع،من حول دائرة الناروراكبي الصخور ليلاً، ولم تعد تعنيني خلافاتهم، أقضي أوقاتي متصوراً نفسي، وقد تركت الجميع، لأبعد بعيداً، عبر الشعاب الغويطة، لكنها سيدة قصر السعادة تقتحم أفكاري،أفكر بسؤال دويدارها عمَّن تكون؟ لم أجرؤ على سؤاله منذ وصولي، يحكي ويكرر بعض حكاياته، يستمتع بحكايات القصر وغلمانه ونزوات سادته وخدمه وعسكره لكنه لا يقترب من ذكرها. تعمَّدتُ في إحدى الليالي أن أحاصره بسؤالي عنها، وسط صمت العتمة، ينظر إليَّ ملياً، ثم سمعت صوته: «صدّقني كنت أنتظر سؤالك عنها منذ دخلت هذا العبث! وأتعجب لماذا تأخرت في طرحه؟»، صمت كثيراً، كمن يبحث عن وسيلة لنسج حكايات من وحي سؤالي، خلته لن ينطق: «قبل حديثي عنها أريد أن أعترف لك بأشياء». صوته كان منكسراً، كتمت أنفاسي أنتظر حكاية امرأة السعادة، لم أكن قد شفيت منها، تحضرني دوماً،

انخفض صوته كمن يحدث نفسه: «لا تندهش إن قلت لك إني كنت أحبها حباً غريباً يتأرجح بين الأمومة والصبيانية، واليوم أشعر بأني فقط أحبها لا كما يحب الرجال النساء! بل هي رغبة تملك شيطانية تستبدّ بي! كنت أزداد ارتباكاً حين تنشغل بغيري، وحين ظهرت أنت لاحظت اهتمامها بكفزاد جنوني، أبحث عن سبب لذلك الاهتمام، ترسلني لأنقل إليك رغبتها في لقياك مراراً، وبدوري أعود إليها مدّعياً رفضك، كنت أحاول بناء حائل بينكما، أراقبك كي أبعدك عنها. دون أن أشعر وجدتني يوماً بعد يوم أعجب بك، أتقرَّب إليك، أقلِّدك، أريدكما الاثنين لي، حين ألحظ اهتمامكما ببعض يجنُّ جنوني، أحبها وأحبك، ليس حباً عادياً، حباً لا أجد له تفسيراً حتى اليوم، أصبتماني بالارتباك والحيرة، هي تكرر السؤال عنك، وأنا أرى نظراتك تسألني تنتظر ما أقوله لك عنها، ويوماً بعد يوم زادت غيرتي منك عليها، وغيرتي عليك منها، أودّ أن ينظر كلٌّ منكما إليَّ وحدي. لم أملّ محاولتي إبعادكما عن بعض، لم أيأس، أنت تصدني مرة بعد أخرى، بل وصل صلفك أن تتجاهلني وكأني لستُ مخلوقاً يتحرك أمامك، تهينني في قاعة الدرس. حاولت أن أكرهك فلم يتأتَّ لي ذلك، بل كان النقيض يعتمل بداخلي، أخطط لأعمال أقوم بها لتقرِّبك مني فأفشل، في بداية الأمر اختلقت لك موعداً معها في البستان، وجعلت من يوحي للشاوش بتسلُّلك إلى البستان. كنت مشغولاً بك، أعمل ليزداد عنفك ورفضك لصحوبيتي. استعرّ صراعي مع نفسي، أخطط لاستدراجك إلى موعد وهميٍّ معها، وكان حمام البستان المهجور، لأشترك ومجموعة من الصبيان، وكان ماكان، أبكيك بحرقة، كاد خوفي عليك يقتلني وأنا أراك طريح الفراش، في الوقت الذي كنت سعيداً لأني نجحت في كرهك لها، وأكثر غبطةً حين اقتربت مني، أقبلت عليَّ أكثر مما كنت أحلم، وأمسينا أكثر من أصحاب، لتسكن سعادة روحي، كنت أتساءل وما زلت: «هل كان علينا أن نؤلم من نحب حتى تستجيب مشاعره؟»، سعيد وأنا أراك تقترب مني وتبتعد عنها، سعيد لأنها بدأت تعتبرك معتوهاً ولا تستحق شفقتها، ترى ما حولك مخيفاً وأنا صاحبك الوفي.

واليوم ها أنت ذا معي في هذا المكان المخيف، نسكن معاً دشمة بالكاد تستوعبنا، تعود إليَّ بعد أن أيقنت أني فارقتك، وهذه صحوبيتي تعترف لك».

صمت قليلاً ثم سمعتُ صوت بكائه، ذكرتني تلك الحرقة بأيام قصر السعادة، أمسك ذراعي يلثم يدي وما يصادفه في عتمة الدشمة، نوبة من البكاء سحبتني لأشاركه، صمت كلُّ شيء، استفاقت أسئلة ولم يصمت خوفي، أستعيد ألاعيبه، إجادته أدوار البراءة، لكنه اليوم ماذا يريد؟ لم يعد من شيء لأمنحه أو يمنحني، تمنيت لو أني لم أسأله، أو أنه لم يعترف لي، أن أعيش بجواره في وهم وداعته المصطنعة، وهم يشعرني بالسعادة، وهم بصاحب صحوب، ذكرياتي معه تخبرني أنه كان يعترف ليحقق بعده أمراً ما، فماذا يمكن أن يحقق في هذه القفار الموحشة؟ وماذا يمكنه أن يضرني؟ قد يكون اعترافاً مزعوماً، أو أنني بما أسمع واهم، وما حولي

وهم، ونحن من نخلع على تلك الأوهام معاني وجودها، نعيشها ونموت دون أن ندرك أننا عشنا أشياء غير موجودة، أوهام مركّبة، نرسم إزاءها مشاعرَ ونبني أحاسيسَ على واقع نتوهَّمه. أسأل نفسي: لمَ لا أعتبر ما سمعته وهماً؟ أن أظل في ثقتي ببراءته. لمَ لايكون قد اخترع تلك الحكاية لحاجته إليَّ؟ وحكايات مقتل أبيه ومقاومته لمولانا محض أكاذيب، وذلك المرافق له ادّعاء. لمَ لايكون كائناً يعاني، وقد يكون نقيض ما اعتقدته خبيثاً؟ مكث صامتاً، لم يعد ذلك الدويدار البريء بعد أن حكى لي. حاولت أن أتناسى ما سمعته.

قررت الانسحاب وحيداً، دفعت تلك الأحجار كي أخرج، لم يكن له أيّ رد فعل، تجاوزتُ الباب زاحفاً.

انطويت على نفسي، ألزم جحري معظم الأوقات، ألمح الدويدار وسط الجموع أمام باب الطعام، أتحاشاه، لحظات السَّمر حول النار، أختار مكاناً أرقب راكبي الصخور وقد تكاثروا يملأون الفضاء عويلاً، أُصاب بحيرة حين أفكر ببراءة ذلك الدويدار، يطيل النظر كلَّما رآني، أشعر بذعر فألوذ بالانسحاب.

أستعين بالصلوات والأذكار، أنام كثيراً، ليلاً أجلس بعيداً لأستأنس بما يدور حول لهب النار عالياً.

بعد أيام من مفارقته ظننت أني قد تخلَّصت من مشاعري تجاه الدويدار، لأكتشف أن جلَّ تفكيري يحوم حوله طوال الوقت، كان معي تحت تلك الصخرة، يحضر بقوة، أراه في أمسي بقصر السعادة، أتذكر الأيام الأخيرة، أحاول طرده من تفكيري لأتفرَّغ للتفكير بالفرار، لكنها نظراته تلك التي يطيلها لحظات الطعام، إحساس بأنه وشمٌ على قلبي تصعب إزالته. أسأل نفسي: «هل أنا بحاجة إليه؟ هو من أنقذني من الجنون في قصر السعادة، وهنا أخاف أن أقع في وهم العزلة، هل شفائي بين يديه؟»، لا شيء لديَّ هنا لإنجازه غير التفكير فيه وفي الهرب، لقد أمسى أكثر وسامةً رغم شعيرات وجهه، تصنُّعه الكاذب للخشونة، محاولته إخفاء رقَّة طبعه.

تتكرر الأسئلة بداخلي: هل يفكر بي كما أنا مشغولٌ به؟ هل ذلك الاعتراف كاذب؟! أم أنه أراد أن يتخلَّص مني باختراعه لما قال؟ بحثت عمَّا يشغلني عنه، اهتديت إلى تدريس من يرغب في أصول الدين، أمسى طلبتي المجموعة الثالثة بعد مجموعة النار ومجموعة الصخور، خلّصني التدريس من جنون كاد يفتك بي. طرأت لدى البعض توجُّسات من نارنا الصغيرة ومجموعتنا التي أخذت في التزايد، أعلنت للجميع أن نارنا ليست بديلة لأيِّ نار أو مجموعة. وضعت لنفسي مسارين: تحفيظ من لا يعرف الأحرف الهجائية، وتعليم من يودُّ بعض علوم الدين واللغة.

فوجئت بالدويدار ومرافقه بين طلبتي، فضَّلت الصمت ومعاملته كأيِّ دارس، ثم التحق بنا عدد من رسم الحبس.

في أحد الصباحات، حين رأيته ينتظر خروجي من مهجعي، كانت عيناه تحملان شجناً محبباً، فقط سألته عن أحواله كما لو أنه أحد الذين عرفتهم مؤخراً، كان كلامي ينصبُّ في العموميات. شعر بجفاف كلماتي ولا مبالاتي، استأذنني فلم ألحّ عليه البقاء، أتابعه يجرجر قيوده مبتعداً.

عاد في اليوم التالي، لم يتغير أسلوبي تجاهه، انصرف من حيث أتى، شعرتأنّ هناك خللاً ما، قلبي لا ينفكُّ من الشوق إلى مجالسته، حتماً هو كذلك وإلا لما انضمّ للدروس ولما أتى ينتظر خروجي مراراً. أقاوم رغبةً جارفة للبوح، لم أترك قلبي يتحدث، شفتاي تخوضان في أمور لا تهمني، بل وأودّعه منصرفاً وكأن الشوق لم يخلق في صدري. هو الآخر يتصنّع الجِدَّ والحديث عن الوطن وضرورة أن يقاوم الناس طغيان الإمام وأسرته.

كلماته أشعلت عاطفتي المكبوتة، أمسكت بكفه، قبّلتها، ليريني بثور الحمَّى على أطراف شفتيه. وجدته ينصت لحديث يتدفَّق بصدق، حدثته معاتباً، وحدثته عن عزمي على الفرار، قلت له:«أفضّل الموت على التعفُّن في هذا الجحر»، دعاني للعودة إلى دشمته، أخبرته أني لم أعد بحاجة إلى سقف يأويني، سأهرب:

– أو تريد أن تتركني وتهرب؟

قاطعني وقد اتسعت عيناه فزعاً.لم يكن يعرف أن صوت الفزع والخوف محا كلَّ ما تبقى من شكوك في قلبي.بالفعل سكنني ذلك الهاجس، كم يكون جميلاً لو اصطحبت الدويدار في رحلة نجرّب فيها الفرار معاً، نسير بعيداً عبر التلال البعيدة وأودية الحبس.

أخذت أحاول إقناع الدويدار الذي كان يتعمّد تأرجحه بين الممانعة والإيحاء بالرغبة، ليلة بعد أخرى.

عيون الجنّ

صليت كثيراً ليلة الفرار، قبيل الفجر حسب المتفق أن ننطلق سوياً من باب دشمته، سددت باب مغارتي بأحجارها، لم أجده في دشمته، وقفت محتاراً، الوقت يمر، خمَّنت أنه قد سبقني إلى منحدر النبع، تسحبت بقيودي نحو المنحدر، بقايا سنا قمر،أحاول الإسراع قبل أن يلحظني أحد. وهج الفجر يبعد عني الخوف، زقزقة العصافير لها وقع في نفسي، تمنيت لو لم تبزغ شمس ذلك الصباح، أصرخ بقوة: «أنا بخير، حر». فجأةً شعرت بحركة وسط أكمة أشجار،رأيت كما لو كانت قروداً أو رؤوساً آدمية، انقطعت أنفاسي وجمدت حركتي حين فاجأني عدد من رسم الحبس، قال أحدهم وأنا أنظر إليهم ببلاهة: «أتعبتنا يا هذا، كنا نظنك قد قطعت مسافة أكبر»، انهالوا عليَّ ضرباً، ربطوا معصمي بحبل، أدخلوا عصاتي الطويلة بين ساقي وذراعي، حملوني معلقاً ناظراً للسماء، انزاحت أطراف ثوبي تاركةً نصفي الأسفل عارياً، لم تمضِ غير لحظات حتى وصلوا بي أمام تجمع المحابيس، لم تكن المسافة التي قطعتها بعيدة، تجمعت عيون محابيس القفر، لم أرَ الدويدار، لم يعد يهمني أي شيء، دخلوا بي من باب الطعام، قاعة واسعة اصطفت عند أطرافها قدور نحاسية، صعدوا بي درجات عالية ثم باباً يفضي إلى تلك الحجرة التي استقبلتنا أول مرة، السجان جرامه يقف ممسكاً عصا قصيرة، برودة تتخلَّل عريي، أرى أخشاب السقف مشبعة بالقطران اللامع، سلاسل تدلَّت وجنازير وحلقات حديدية تغطي الحيطان.

– ماذا صنعت بنا؟ أتعرف ما عقوبة من يفكر بفعلتك؟ أتريد أن تزهق روحك؟!!

يذرع تلك الحجرة ثم يقف تحتي، يغمغم بكلمات غاضبة دون أن أراه. توقف صوته، ظننته انتهى، لكنني سمعته: «علِّقوه من أرجله إلى إحدى سلاسل السقف»، وضعوني أرضاً، أخرجوا العصا التي بين ساقيّ، أوصلوا قيدي بـ(شنكار) إحدى السلاسل المعلقة. سحبوني لتعلو قدماي نحو السقف، أتلوَّى كدودة معلقة بخيوط عنكبوت، أراهم من الأعلى يتأملون عريي وقد تقزَّمت قاماتهم، منظري يذكرهم بذبيحة الأضحى. لم أكن أعلم ما يفكر به جرامه وهو يذرع تلك الحجرة الكبيرة، حتى أني ظننت أنه لا يعرف ماذا بعد، حاولت نسيان عريي لكنها عيونهم، ملامح وجوههم الساخرة.

تركوني طوال الليل معلقاً، مخاط يتسرَّب من أنفي، شيء عفنٌ من فمي، صوت شهيقي وزفيري حاد، شعرت بانتفاخ وجهي، قطرات دم تسيل لتعبر جبهتي، صوت لا يشبه صوتي، شبيه بشخير كلب عجوز، أرى أجساماً دون ملامح تتحرك، أصواتاً ترتفع لتسكن، تغيّر شعوري، أو أنني فقدت وعيي، صراخ، أو أنه تراءى لي، تبعه آخر، أنزلوني، سحبوني على الأرض، تجمعوا حولي، بعد حين استعدت إيقاع أنفاسي، أصوات طرق وأيادٍ ترتفع وقامات تنحني، رويداً

رويداً أخذت أدرك ما يجري، وما يصنعون بي، طوق حديدي حول رقبتي، مغلقة تجمع ذراعي، وسلسلة موصلة بين قيود رجلي وطوق رقبتي. لا أستطيع فرد قامتيولا السير بعد أن أنقصوا حلقات قيد أرجلي، ضاقت المسافة بين رأسي وقدمي.

سراج معلّق تمتصه الجدران السوداء، وجوه مكفهرَّة، يتحدثون وكأنهم في حالة عراك، يجلس السجّان جرامه على رأس درجات تفضي إلى غرفة علوية:

– لو يعلم مولانا الناصر لفقدت رأسك، عليك أن تحمد الله أنك لا زلت حياً، هيا أخبرنا عمَّن دفعك للهلاك أو عمَّن أشار عليك بالموت شريداً؟

صمتُّ ولم أجبه، لكني أدركت تناقض كلماته بجنّ الإمام التي يرى ويسمع بحواسها، أردف: نحن نعلم منذ فجر هروبك!

حين نطق كلماته الأخيرة ذهب تفكيري إلى الدويدار:«هل هو من وشى بي؟». صمت جرامه ينتظر ردي، طال انتظاره، ابتعد يغمغم ويلعن كل شيء، مشيراً إلى أحد الرّسم بزيادة قيودي وإيصال قيود قدمي بأغلال ساعدي ورقبتي. كُبِّلت قامتي وأضحيت أسيرُ راكعاً، نهرني الرسمي أن أقف، حاولت فلم أستطع، أن أخطو جاثياً على أربع، أزحف خلف الرسمي عبر الباب الداخلي، هبطت ظلمة الدرجات أتبع صوت الرسمي: «هيا يا عاق، أسرع وإلا سحبتك كالكبش»، عمود قدور الطعام الضخمة في زاوية الحجرة، أتحسَّس أرضيتها المستوية بيدي، صفق الباب بعد أن أخرجني، صخب وأيادٍ حملتني عالياً، ساروا بي نحو الدشم، وجوههم فرحة، أصواتهم مرحة، وضعوني أرضاً، دودة تلتفُّ على نفسها، كتل الصخور من حولنا تبدو بأشكالها عدائية، الأشجار القريبة ميتة، أسئلتهم متداخلة وغريبة، أصواتهم طغت على كلِّ شيء، خرجت صرخة مدوية من جوفي، حاولت وضع كفي على أذني، نسيت مغلقة معصمي، صمت الجميع في ذهول، دمعت عيناي بغزارة وقد دسست رأسي بين المغلقة وساقي، أحسست بأكفهم على رأسي وظهري، ارتفعت أصواتهم بكلمات التشجيع، شعرت بأنهم يحسون بآلامي وجراح روحي. سمعت أحدهم: «جنّ مولانا تتعقب من يفر، بل إنها تعرف ما نفكر به وما ننوي عمله!»، وآخر:«الجن تراقبنا، ترانا ولا نراها، وهذا صاحبنا يغامر فتترصده جن مولانا».

ظللت بداخل مغارتي طوال أيامأرفض الاستجابة لمن يدعوني للخروج، لم أخرج رغم جوعي وعطشي، فضَّلت تحمل ما يحدث لي، أن أنفق ويتحلَّل جسدي في ذلك الجحر.

جاء من يسحبني عنوةً، قاومت، كانوا مجموعة، امتدت أياديهم، تبدَّد خوفي حين سمعت صوت أحدهم: «لن نتركك تنفق»، لا أعرف لماذا كنت أبحث عن صوت الدويدار بين تلك الأصوات. زاد صخبهم وهم يحملونني، ملامحهم يعكسها لهب مشاعلهم، نظرات لامعة، لم يكن وجه الدويدار بينهم، أنظر نجوماً تحتشد في السماء، تمتمت بصلواتي على النبي،قرأت المعوذتين وآية الكرسي وأنا على رؤوسهم يسيرون باتجاه ساحة اللهب المتوهج. دمعت عيناي حين أنزلوني

وسط ذلك الليل الذي أحبه معهم، أجلسوني أتكئ على حجر، أسمع أدعية من يناجون السماء على الصخور، بعضهم يلعن من يتحدى الجن! أترك أصواتهم لأتأمل ألسنة النار، أشعر أن لها روحاً مبهمة، صوت هسهستها، قال حدهم:إنها أصوات الجن وهم يستحمون بها.

***

قدموا لي الماء والطعام، ينتظرون حكايتي مع الجن بلهفة متوقدة، أرتّب كلماتي وأنا أمضغ الطعام، حكيت لهم عن شعوري وأنا أهبط وحيداً وسط سناء القمر وبرودة الليل، لم أنسَ شيئاً صادفته خلال محاولة هروبي، يقاطعني البعض بأسئلته عن الوحوش وكيف عدت سالماً؟ أصمت قليلاً، أطيل استحضار ما كان، يسألني آخر عن صراعي معها وهل رأيت جناً؟ أذكر كلّ ما صادفني، حكيت لهم على مدى ليالٍ، حكيت وحكيت، لكنهم كانوا يبحثون في حكاياتي عن جن مولانا.

بعد أيام دعوت من يودُّ مواصلة الدرس، لم أكن أتصور أن أتعوّد الحياة مكبَّلاً، أزحف راكعاً.

مضت شهور، تعودت أن أقطع تلك المسافات زاحفاً تارةً وأخرى محمولاً، مشاركاً من حولي الحياة: مشايخ، أناس، قضاة علم، عسكر، أناسٌ عاديون، وهكذا كل يوم أتعرف إلى آخرين. ظلت عيناي تبحثان عن ذلك الدويدار الذي لم أره منذ عودتي، إلى ذلك المساء حين اقترب مني بنظرات منكسرة: «قلقت لاختفائك من أن تأكلك الوحوش»، صوته وكلماته ودموعه تكرر لؤمه، رفضت الاستماع إليه، انصرف كسيراً، أراه بين الجموع حول النار الكبيرة، يطيل نظراته الثعلبية، ينعكس اللهب على ملامحه، صمَّمت على تجاهله حين انضم إلى حلقة دروسي مرة أخرى، سكنتني كآبة، لم يتركني بعد انقضاء درس أحد الليالي. قضى ليلته يعتذر لي مؤكداً حبه لي وإخلاصه، منكراً شكوكي، أبديت له أني لم أعد أطيق رؤيته ولا استمرار أذيته، احتضنني باكياًوظلّ لأيام يتبعني كظلي، يجلس بجواري كما يجب أن يجلس الطالب إلى معلمه.

لم أكن أعرف سرَّ مرافقته لي وصبره على كلماتي ورفضي له، وحين أسأله عن ذلك يردد:

- أنا خائف.

ناظراً إليَّ نظرات فزعة، تستعيد عيناه ابتسامتهما حين أغتصب ابتسامتي، يزداد صوته رقة. يتلعثم وهو يكرر: أنا خائف. لم أجد لذلك تفسيراً.

يراني أتمتم ليل نهار، أدعو الله أن يقنّع قلبي منه، أن يصرف عني مكائده، ثم أدعو له بالهداية، يسألني فأقول:

- أدعو الله لك بالهداية. فيقول متلهفاً:

- وماذا بعد؟

أتردد ثم أبوح:

- ويصرف مكائدك ويجعلك صادقاً مع نفسك.

يبكي وهو يردّد أغلظ الإيمان بأنه يحبني، فأردّ عليه:

- اتركني، مللت كذبك. لم أعد بحاجة إلى حب أحد.

دعاني السجان جرامه ذات عصاري يطلب مني ترك تلك الدروس بعد أن حدثته، على ما أوحى لي الجن، أني أحدث المحابيس بأن الله محبة، وأن الدين ليس غايته التعبد بقدر ما غايته صلاح الفرد، وأن غاية الله من العبادات الشعائرية صلاح العبد واستقامته. حاولت إفهامه عدم نيتي إفساد المحابيس. طلب مني شرح معنى تلك العبارات، وحين عجز عقله عن فهم واستيعاب شرحيهامسني: «وماذا بينك وبين ذلك الشيخ؟»، ثم يلتفت يمنةً ويسرة ليتأكد بأن لا أحد يسترق السمع: «يقال إنك تبيح لطلابك الفاحشة، وتقول إن الله لا يعاقب المضطر ولا يحاسب على هوى القلب!»، ينتظر ردي ثم يواصل همسه: «وأنك تقول إن الكل يمارس هواه دون مجاهرة! وأنا أنصحك بترك الحديث إلى المحابيس في تلك المواضيع، فلمولانا آذان ويعلم بما يدور!».استمعت إليه صامتاً، أبتسم، أهز رأسي بخجل، ليختتم برفع صوته وكأنه يُشهّد الرّسَم: هيا قع رجال واسمع كلامي، لا تغضب مولانا بترهاتك، فلست أهلاً لغضبه، هيا يا رسم أعيدوا هذا الشقي.

لم تمضِ سوى أيام حتى دعاني جرامه مرة أخرى: لقد تجاوزت حدودكولن أسمح لدروسك بالاستمرار، كنت في ما مضى تدرِّس الأبجدية وشيئاً من القرآن وعلوم الدين، واليوم لا تتحدث إلا في ما يدغدغ غرائزهم ويشغل عقولهم، كفّ وإلا!بل وأخذت تحدثهم عن سفه وجود جن لمولانا.

لم أكن أعلم من ينقل إليه ما أتحدث به إلى من حولي، أستعرضهم وجهاً وجهاً، ولم أكتشف أنه الدويدار إلا بعد أن فات الأوان، وأن تقربه لي مجرد حيلة، وكلامه حول طغيان مولانا الناصر واستبداد أسرة آل حميد الدين خدعة.

حتى تلك الليلة التي رأيته فيها وقد صعد بين من يصعدون الصخور ليلاً، وأخذوا يلعنون من يتسامرون حول النار، ليهبطوا من على صخورهم مرددين «الله أكبر، الله أكبر» ملوحين بعصيَّ غليظة، حمل من حمل مشاعل النار يصدّون عدوانهم، انزويت مع من معي نراقب الاشتباكات الدامية، استمر التهليل والتكبير مستبسلين في مواجهة المشاعل، أخذ البعض يفر، أوسعوا من حول النار ضرباً مبرحاً، لم تردعهم المشاعل، تطورت المواجهات ليُقذَف بالبعض وسط ألسنة اللهب، فرّ البعض وقد علقت النار بملابسه، والبعض التهمته النيران، ظلت النار تزمجر وقد خلا من كان حولها وظلَّ هابطو الصخور يصرخون مهلّلين يهوون بعصيهم على من تبقى. التفت أحدهم نحونا، صرخ مشيراً لتنهال عصيهم عليَّ وعلى من حولي،تكوَّمت على

نفسيوأنا أسمع صراخ البعض يسحبونهم إلى النار، ذقت حموضة الموت وأنا أزحف مبتعداً، سمعت صوت أحدهم ضاحكاً: «عليكم بالدودة التي تظن أن لها أجنحة»، لحقوا بي، صرخ آخر: «الدودة العفنة رأس الفتنة!!»، تعاونوا على سحبي باتجاه النار، وأنا أتمتم رعباً: «يا نار كوني برداً وسلاماً، يا نار...!»، حملوني وأنا أتخيَّلها تصهر عينيَّ ووجهي، تلتهم عظامي مع حديد قيودي وأغلالي. لم أكن أعرف أن ألطاف الله قد أرسلت رسم الحبس تلك اللحظة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، سمعت طلقاً نارياً، وأنا مستسلم لمصيري، لتهبط على ذاكرتي صور كثيرة مرت سريعاً: أمي، منظر بيتنا المهدم، بقايا الدخان المتصاعد، رائحة جارتنا، طريق الفجر، صنعاء حين رأيتها، رفاق المسجد، صاحب المعارف، زملاء الدرس، سيدي الضرير، دار السعادة، الشاوش عبدالله، امرأة القصر، ليلة الحمام، ابتسامة السيف، الدويدار، وصور كثيرة تزاحمت.

سريعاً ما تنازع الرّسَم أطرافي، التحموا في عراك مع راكبي الصخور، تغلبوا على الرّسَم ليقذفوا بي أطراف النار، آلام لم أذقها منذ قبل، غبت عن الوعي ولا أعرف أين أنا. فتحت عيني بالكاد أرى بجواري خمسة يئنون، لم أتذكر شيئاً من لحظات النار، غير أني عرفت أنهم قذفوا بي بعد أن تنازعتني أيادٍ عدة، أخبروني أن الرّسَم سحبوني بعد أن أُلقيت في أطراف النار، وأن النار لم تأتِ عليَّ لكنها بعض الحروق على أطرافي وكتفي والقليل على وجهي. كان حظي أفضل من غيري فقد التهمت النيران ثلاثة، واثنان توفيا بعد إنقاذهما، كنت السادس ممن استطاعوا إنقاذهم، ممددين في زاوية حجرة الاستقبال حيث عرين جرامه. أُزيلت قيودنا وأغلالنا لتجلّط الحروق على أجسامنا، لا أستطيع استخدام قدمي أو ذراعي، انتشرت فقاعات فوق جلدي العاري، تسلخت قدمي وأصابع يدي، استقدموا مداوياً من خارج الحبس وضع لنا فراشاً من أغصان (الشذاب) و(العنصيف) الطرية، وأغصان أشجار عطرية لا أعرف أسماءها، غطّى عرينا بورق أغصان لها رائحة نفاذة، لم تعد لي شهية في شيء ورائحة الشواء تفوح من أجسادنا. بعد أيام تغيرت الرائحة إلى عفن، نتبول في أماكننا، في البداية كنا نتحرج، يستبدلون الأغصان، يقلبنا ذلك المداوي برفق على أغصان يجددها، يشرح لنا حالتنا، يرشدنا إلى ما يجب وما لا ما يجب، صقيع الليل يزيد آلامنا، يقول لنا أن نتجلَّد فالبرد يساعد على التئام الحروق، ليال يسكنها الأنين والصراخ والبكاء لشدة الآلام، لفظ أحدهم أنفاسه، تلاه آخر، لم نبقَ غير أربعة، أقضي أوقاتي في ترديد صلوات إبراهيمية، أوراد تساعدني على تحمل آلامي، كنت أفضلهم، حروقي سريعاً ما استجابت للشفاء، أحدهم يسهرني نحيبه بعد انطفاء عينيه وتشوه وجهه، وآخر يتوعد من حاولوا إحراقه، يردد بأن الموت يأتي لمن يخشاه، يصرخ: أينكِ أيتها المنية لأصرعك؟ وتارةً يبكي، يثير الضحك.

***

قال جرامه إن من افتعلوا الشجار وقذفوا الناس في النار قد رفع بهم إلى مولانا الإمام وأنهم ينتظرون حكمه الذي جاء سريعاً،«نائبنا في حجة، إن ما وقع على المحابيس جزاء عصيانهم لله ولمولاهم، ومن كان السبب عليكم بزيادة أغلاله ولا يتصل به أحد حتى يصلك حكمي، أما من اعتدى على الرّسَم فيُعدم بالسيف قصاصاً»، مذيلاً توقيعه: أحمد الله تعالى.

لم يضف مولانا في أمره كلمة، وإن سمعت همس بعضهم حول عبارة «ومن كان السبب عليكم بزيادة أغلاله ولا يتصل به أحد حتى يصلك حكمي» بأنني المقصود، أرى وأستمع إلى ما يدور وأنا أفكر في ما سيكون بشأني. تذكرت استدعاء جرامه لي قبل الحريق، عاد التفكير بالهرب يراودني.

ليالٍ وأيام وجسدي تملؤه فقاعات الماء، ما أن تنفجر حتى ينتشر الألم والعفن، لم يكن لنا إلا أن نتقلب على فراش تلك الأغصان، تعفنت بعض الحروق ليذرَّ عليها المداوي رماداً لا أحد يعرف من أين يأتي به، يحدث لهيباً لا يحتمل، يصرخ بعضنا باكياً من شدة الألم، يعقبه شعور براحة كأنه الشفاء!

سعدت حين التأمت حروق كفي وقدميواستطعت أن أقف مستنداً على الجدار لأزور بيت الخلاء. كانت حالتي تتحسن، حروق وجهي التأمت وإن تركت آثاراً بلون فاقع، حروق ظهري. لكن عبارة مولانا الناصر «ومن كان السبب عليكم بزيادة أغلاله ولا يتصل به أحد حتى يصلكم حكمي» تدفعني لعدم الوقوف أو السير إلى (المطهار)، أرى السلاسل والأغلال المعلقة تنتظرني. أعدت التفكير، انطويت على نفسي، لم أعد أشتاق إلى العافية، أخاف الشفاء وأتمنى أن أظل بحروق جسدي، وكلما تحسنت حالتي ادّعيت المرض. مرت الأيام وأنا طريح الأغصان، أبكي بحرقة، وأصرخ من ألم لم يعد له وجود. مرت الأيام وما أكثر تلك الأفكار التي تزورني والأسئلة التي تشغلني ليل نهار: إلى متى أستطيع إخفاء تحسن جراحي؟ في ذلك اليوم وُضعت ساقا ذلك المحروق الذي كان يتوعّد من رموه في النار على مدقة القيود لتعاد إليه قيوده، كان فرحاً بعودته إلى القفر. أدركت أن عليَّ سرعة تدبير هروبي.

صارخاً بداخلي يستعجل أن أجد وسيلة، أتأمل الأبواب، الباب المفضي إلى عتمة الدرج الهابط إلى قاعة قدور طعام المحابيس. كنت بين خيارين للفرار: إما العودة حيث كنت في حبس القفرومن هناك أنطلق، أو التسلل عبر بوابة الحبس الرئيسة إلى الخارج. لليالٍ أرصد كلَّ شيء، البوابة الرئيسة تفتح نهاراً لتغلق ليلاً بقفل (غثيمي)، مفاتيحها تمسي في جيب جرامهحيث يتناوب الرّسَم على حراستها، عدد منهم يقضي ليله في مكامن الحراسة الخارجية، وقلة ينامون أمامها من الداخل، لها مغالق ومزالج أسمع قرقعاتها المقلقة حين تُفتح وتُغلق، الباب الداخلي أفضل الخيارين.

قدماي شُفيتا تماماً، تبقَّت بعض جراح ساقيَّ وذراعي، وعلى ظهري وأكتافي جروح متعفنة أتعمّد عدم غسل موطنها، تتأجَّج رائحتي، تجعل من حولي ينظر إليَّ ككائن عفن. أحلم ليلة بعد أخرى أن أرى موطن أقدامي، حين ينتصف الليل أهمُّ بالنهوض والسير في عتمة لا يُرى فيها شيء، أتردَّد مرتجفاً من الخوف، إلى الذي قدرت فيه مسافات زوايا الحجرة، الجدران، أماكن نوم الرّسَم، من تبقى من المرضى، ما على الجدران من سلاسل، المسافة إلى الباب المفضي إلى الدرج الهابط إلى قاعة دسوت الطعام، مزاليجه التي حفظتُ مواطنها من جسم الباب. قدَّرت أن يكون الليل في نصفه الثاني، أو هكذا يكون، استقمت عارياً تهزُّ بدني مشاعر الخوف والفرح، أحمل قدماً ببطء شديد، أحركها في الهواء أضعها على مهل، رائحة النوم، شخير البعض يخيفني، بعد وقت تجاوزت المسافة إلى الزاوية القريبة من الباب، ثم قطعت المسافة إلى الباب، استغرقت وقتاً مضاعفاً لكثرة السلاسل المعلقة على الجدران، لامست أصابعي أول مزاليجه، ارتجف بدني بشدة، حددت موطن المزلاج الثاني، سحبُ المزلاج أصدر صوتاً حاداً أقلقني، اتبعت سحبه على مراحل بطيئة، نجحت في سحبه، أخيراً فتحت الباب، هبطت الدرجات عارياً، أرضية حجرة دسوت الطبخ واسعة، تلمَّست شفاه القدور الكبيرة، خفق قلبي وأصابعي تبحث عن مكان الباب، مرَّ وقت حتى تلمَّست كلَّ شبر فيه، ثلاثة مزالج، الأول في أعلى الباب والثاني ينغرس في باطن الأرض، مغلقة خشبية تربط بين الضلفتين، كدت أبكي فرحاً وأنا أسحب المزلاج الأعلى، الأسفل، لم يحدث صوتاً، ثم المغلقة، كما هي المعجزات أو الأحلام حين لامست جسدي برودة الليل، لم أكن أتوقع أن أقف بداخل حبس القفر دون قيود، كتمت صرخة وأنا أرى وميض أحد النجوم كمن يبتسم، خطوت أولى خطواتي خارج الحبس، هبطت، زادت برودة الليل، رفعت رأسي أشاهد ذلك النجم الذي يضحك بوميضه، أشعر بسعادة لمرافقته لي، السماء مليئة بنجوم كثر، كتل الدشم، أشكال الصخور، الشجر، صرير من كل مكان، تلمست حكايات زملاء الحبس عن الجن، تمنيت أن يأتي أحدها يحملني بعيداً. تلمَّست قدماي الطريق هابطاً بخطوات

واسعة، عنفت قلبي حين ذكر ذلك الدويدار، ودّعت مغارتي، لم تعد صخور بابها كما تركتها، ابتعدت. انحدرت في طريق النبع الذي أحفظه، كم كانت دهشتي حين قطعت المنحدر في وقت قصير جداً، لامست أصابعي مياهه، للمرة الثانية يرتعش جسدي بشكل تلقائي، أحسست برعب مباغت وأنا أنظر في الأنحاء، غمست جسمي في بركة النبع، خوف رائحته توقظ حيوانات الشعاب، لم يكن رعبي كاذباً، تلك أشباح حيوانات تتقدم، وقع أضلافها يسكت نقيق الضفادع، تقدّمت نحو أطراف البركة، غطست رأسي بهدوء، أرقب تقدّمها، ثلاثة أشباح بضخامة الحمير، شربت ثم استدارت لتبتلعها العتمة. عاد صرير الجدجد ونقيق الضفادع، ركام النجوم، ظللت بداخل الماء أنتظر وهج الفجر، اختفت النجوم، بروق تضيء الكون، طغى هزيع الرعود على صرير الجدجد، لم تمر غير لحظات حتى زادت العتمة وانهمر مطر غزير، تدفقت السيول، دفعني رعب مبهم، خرجت خوف السيل، لم أعد أميز ما حولي، أتخبط دون رؤية، أبحث عن سبيل آمن، ارتفع هدير مزلزل، استنتجته سيول أعالي الجبال، وجدت الماء يعلو، يتدفق من كل اتجاه، طفوت، أصابعي تبحث عما تتشبث به، ارتطم جسدي بكتل صلبة، استدرت دون إرادة مني، اصطدمت بكتل أخرى، حاولت التشبث بها، وثالثة، نجحت في احتضانها، اكتشفتها شجرة ضخمة، منسوب الماء يرتفع، أصعد متسلقاً، لا شيء غير حب الحياة وسط هدير عتمة حالكة. مر وقت خلته لن ينتهي، متشبثاً بين اليأس والأمل، استعدت وعيي بالعتمة، بهدير الرعب، أحاول أن أكتشف بصيص ضوء، أن أميز ما يحيط بي، كأن الشجرة تتحرك بي، بدأت آخذ وضعاً على ساقها كما لو كنت على قارب، هدير طاغ، أشعر بالدوار وتلك الشجرة كأنها تطير، تشبثت أدعو الله النجاة. لم يدم ذلك الفيضان، أخذ سطح الماء ينخفض وتلك الساق تتهاوى، فقدت توازني، كل ما حولي يتبعثر، غبت عن الوعي أو هكذا كنت أغوص في نفق أسود، لم أصدّق عينيَّ حين رأيت ذلك الوهج، وزقزقة عصافير وأنا على أطراف مياه، وفي الأسفل سيل يتدفق بغزارة من جرف هابط في أخدود عميق، أشجار باسقة تحيط بمسطح الماء، هدير مساقط السيل، ضوء ينتشر رويداً رويداً. وقفت أتفقد جسمي وقد خطته الخدوش وبعضها جروح عميقة، جسد مهترئ، لم يكن ليهمني شيء غير أن أعرف أين أنا. نور الشمس يتدفق من قمم الجبال، شعاب متداخلة وهضاب عند أقدام الجبال. صعدت لأقف على جرف مجرى السيل المتدفق إلى أخدود عميق، خمنت أن يكون السيل قد جرفني في هبوطه بعيداً. سمعت ما يشبه صرخات آدمية، توجست خيفةً، اختبأت، قرود تهز فروع أشجار عند حواف مجرى السيل الأسفل، صرخ كبيرهم (قهل) حتى اعتقدت أنه يزأر، صاعداً باتجاهي، حاولت التحرك لم تستجب أطرافي، اقترب مني، فاحت رائحة جسدي خوفاً، هبطت بقية القرود لتقف على مبعدة، جمدت كجذع شجرة دون حركة، مد كفَّه لامس أصابع قدمي، نظر إلى وجهي بعينين عسليتين ذكرني وجهه بوجه الشاوش عبدالله، أتأمل وجهه بخوف، شعره النظيف تهتز خصلاته مع ريح تأتي، يمد يده

يداعب بأصابعه شعر عانتي، يبحث وسطها عن شيء لا يجده، يصوب سبابته إلى سرّتي، يطيل النظر في أشيائي، أرى وجهي في عينيه، يصفق ملتفتاً إلى بقية القرود، يطلق أصواتاً مرحة، تقترب مشكِّلةً نصف دائرة حولي، يلامس كتفي، وجهي، تتقدم قردة من بين صف القرود، تمد أصابعها تلامس شعر رأسي، تلتقط قملاً لتضعها في فمها. ابتعد القرد الكبير، وقفت، سرت مبتعداً عنهابحذر،رفع القرد الكبير (القهل) صوته ملوّحاً بيديه في الهواء، بقية القرود رفعت أذرعهاتصرخ بصراخ يشبه صراخ القطط في موسم التزاوج، أحاول استنتاج ما تفكر به، أتوقع شيئاً، استقام القرد الكبير على قائمتيه الخلفيتين رافعاً ذراعيه وقد كشَّر أنيابه صارخاً، اضطربت حركة القطيع، اصطخب صراخها،ابتعدت عنها مهرولاً،هبطت القرود مصدرةً أصواتاً أقرب إلى الهمس، سرت مرتجفاً بقدمين متعبتين، سار (القهل) على قائمتيه يقلدني، كانت الشمس تقترب من أفولها بعيداً، سرت بصعوبة في سفوح ترتفع جرداء إلا من أشجار متفرقةأبحث عن مأوى، القرود تتبعني، رأيت تجويفاً في أعلى جذع شجرة (طولق) تسلقتها لأقضي ليلتي بداخلها، تدور القرود تحوم حول الطولقة صاعدةً وهابطةً فروعها حتى عمّت العتمة وسكن كل شيء، هدير السيول المتساقطة من الجروف العالية يُسمع بوضوح.

***

صحوت قبيل بزوغ الشمس، استعاد جسدي بعض عافيته، رغم تلك الجراح، فكرت بالبحث عن طريقة أفارق بها القطيع،لم أكن أعرف كم قطع بي السيل بعيداً عننبع الماء، أتساءل: هل جرفني خارج حدود الحبس أم أني لا زلت داخل نطاقه؟! أنعش مسامعي تغريد منتظم يأتي من داخل الأجمة، صعدت سفوحاً عالية، فاجأتني القرود من جديد،يزأر كبير القرود تارةً وتارةً يتمتم بصوت مكرور «أووه أأوه...»، يتبعني ليتبعه أفراد القطيع. بدت أشجار مجرى السيل كثعبان يتلوّى منحدراً بعيداً، تحيطها جبال عالية، تعلوها سماء فيروزية زينتها خيوط السحب، طيور تشكِّل دائرة عالية. قمم بعيدة تعلوها قرى أو أنها بيوت كسراب البعد، أسير هابطاً على سفوح محاذية لمجرى السيل، قطيع القرود يتبعني أو أنني كنت أرافقه، أمضغ ما تمضغه من براعم وثمار. ظلّت أشكال القرى التي تراءت لي أعالي القمم تشغل تفكيري. بعد أيام فوجئت برؤية مجموعة أشخاص يهبطون من منحدرات جبل عالٍ، منظرهم بثّ الخوف في نفسي، داهمتني هلاوس: أيكونون ممن يتعقبون أثري؟ أم من سكان تلك قرى الجبال العالية؟ تخفيت أترصدهم من كهف إلى آخر، ومن مغارة إلى تالية أرقب حركتهم.

ظلت القرود تتصارخ هازَّةً فروع الأشجار وحركات أطرافها تتوالى، خرجت بحذر وأنا أراقب الأنحاء، التحقت بها، سلكت طريقاً نحو أعالي السفوحمبتعداً عن مجرى الوادي،طريقاً أراقب أشجار السايلة من جروف مرتفعة أسير مع تعرجاتها.

ظهر أولئك النفر مرة أخرى، لم يكونوا بعيدين،استطعت رؤيتهم وما يحملون. كانوا خمسة يحملون بنادقهم، يسيرون منحدرين ثم يتوقفون ليضع أحدهم على عينيه ناظوراً مقرباً، أربكني القلق والخوف حين رأيتهم يهبطون، تخفَّيت وسط شعاب كثيفة أرقب ما يدور، رأيتهم يقتربون يمسحون بمنظارهم الأنحاء، تأكّد لي أنهم من رَسَم الحبس! توقفوا للحظات ثم هبطوا متفرقين، عندها تيقنت من أنهم في أثري.

لم يكن لي من مكان أختفي فيه غير أن أهبط إلى مجرى الوادي حيث كثافة الأشجار، هرولت، توغَّلتُ وسط كثافتها، تسلقت شجرة أراقب ما يدور والخوف يسكنني، رددت الجبال صدى طلقات رصاص، تلتها أصوات أخرى كانت أقرب من الأولى، هبطت من شجرتي أحاول التخلص من القرود لكنها تتبعني هبوطاً، بين فينة وأخرى أسمع أصوات رصاص متفرقة. تيقنت بأني سأمسي صريع بنادقهم، كنت أتعجب كيف أمكنهم ترصد مساري؟ حتى خمنت أنهم يتبعون حركة القرود وصخبها؟ حاولت الفرار منها، أجري وأجري قرب حواف السيل بين الأشجار. كانت أسرع مني، تلحق بي بسهولة، جريت كثيراً على حواف المجرى هابطاً حتى وجدت نفسي أمام بحيرة واسعة تتجمَّع بها السيول، أسرعت الخطى، قفزت، ارتميت في أعماقها أغوص بعيداً محاولاً التخفي منها، كتمت أنفاسي كثيراً، أخرجت رأسي أراقب، ما أن رأتني القرود حتى ارتفع صراخها وازدادت حركتها المرحة وكأنها تتابع مشهد ساحر، غطست من جديد، كتمت أنفاسي أكثر، متخيلاً بأنها ستتفرق بين الأشجار باحثةً عني، كدت أختنق لطول بقائي تحت الماء، أخرجت رأسي لأتنفس، يا لعذابي، كانت تطوق البحيرة وتقوم بحركات راقصة، في تلك اللحظة ظهر أحدهم بين الأشجار يتفرس حوله. لم يلحظ وجودي وقد شغلته حركة القرود، غمرت رأسي بهدوء، لكني لم أحتمل كتم نفسي أكثر، أخرجت رأسي لأرى القرود تمرح بصراخها وحركاتها، رأيت من يطاردونني وقد أصبحوا ثلاثة، أشار أحدهم: «ها هو ذاك وسط البركة،انظر هناك هناك»، آخر يصوِّب بندقه نحوي،ليتبعه بقية المطاردين ببنادقهم: «هيا اخرج بسرعة قبل أن تصطادك رصاص بنادقنا». فكرت متردداً ثم أخذت أسبح خارجاً باتجاه أبعد طرف للبحيرة، خرجت عارياً لأكتشف جرفاً يطلُّ على هاوية سحيقة تتدفق منه مياه البركة الكبيرة ليتطاير رذاذه في الفضاء السحيق ذرات باردة. الوقت يمر وعقلي منشغل بالبحث عن منفذ. تفرقوا يسيرون حول البركة باتجاهي، أمامي بحيرة وخلفي هاوية سحيقة، فكرت أن أغوص وأختفي وسط مياه البركة، كانوا يقتربون مني من الجهتين، لم يكن يهمني عريي، فوهات بنادقهم تقترب، رفعت يدي وأنا أتراجع نحو الهاوية، يصرخ أحدهم مناجياً لي دون أن أتبيَّن كلماته، سمعت أحدهم وقد اقترب كثيراً: «أظننت أنك قرد؟ حتى لو مُسختَ قرداً لن تفلت منا»، يضحك ضحكة المنتصر، لم يعد بيني وبينه سوى خطوات، تصارخت القرود فارةً في كل اتجاه، اقترب مني وقد أنزل بندقيته بينما البقية يشهرون بنادقهم، مادّاً يده، وقبل أن يمسك بمعصمي تملكتني جرأة لأخطو

نحو هاوية الجرف السحيق، قفزت في الفراغ، فارداً ذراعيَّ، هويت كثيراً، ألتفت ولم أعد أرى غير سماء وحَيْد صخري عالٍ، سابحاً في فضاء تملؤه ذرات ماء وخوف، عهنٌ منفوشٌ يتصاعد لاسعاً جسدي بفعل الريح، أغمض عينيَّ متخيلاً صخوراً تحتضنني، أهوي وأهوي لكأنني أسبح في فضاء دون قرار، لم يطل بي المقام محلقاً، ارتطمت بقوة، خيِّل لي أنني أحلم، أنزلق في لذة لم آلفها من قبل، أغوص وسط فقاعات كبيرة، لم يكن حلماً، بركة من فقاعات تشكلها مياه الأعالي لحظات ارتطامها، صرخت حين شعرت بأني أطفو، سبحتُ خارجاً إلى أطراف بركة وجهها رغوة بيضاء.خيِّل لي صدى أصوات رصاص يتغلب عليه هدير الشلال، أفحص جسدي باحثاً عمَّا يؤلمني، لا أعرف على أي جهة سقطت، لا شيء، أنظر إلى الأعلى فلا أرى غير جدار صخري عالٍ جداً، بياض ذرات المياه تتطاير لتشكل سحباً بيضاء، حبال المياه الهابطة مضفورة في خيوط من نور.

كائنات الرمل

خرجت بعريي باتجاه أشجار كثيفة، ألتفت إلى الأعلى، أشعر أني طرت، حائط مصقول يصل الأرض بالسماء، نصل خرافي قطعه بتلك الحدة، أسفله مغارات، أسير بمحاذاة الأشجار، مجرى ماء غزير يسيل من البركة يخترق تلك الغويبة، اخترقتها ليظهر لي بعدها أفق صحراء قاحلة، يخفّ مجرى المياه لتضمحل وتختفي في أرض رملية، أفق أجدب إلا من شجيرات شوكية. صعدت أحد الكثبان، سهول رملية تلعب الزوابع بذراتها لتشكل أعمدة راقصة، بحر واسع من السراب، لا أثر لطريق أو لحياة. عدت أسير بمحاذاة الجرف شمالاً أبحث عن أمل. أسفل جذور الحيد بالاتجاه الآخر تجاوزت البركة جنوباً، حيْد أملس دون ثغرة،كما لو كانت بركة مساقط الشلال وقوس الأشجار شركاً. دنت الشمس من شفة بحر الرمال، عدت أحوم حول البركة، دخلت كهفاً يشرف على بركة الماء خلف شلال الماء، اتخذته مأوى، صمت وسكينة إلا من هدير الشلال واصطدام الريح بالحيْد العالي.

خيّم الليل باشتعال النجوم، شظايا ملتهبة تغطي السماء، استعر هدير الماء إلى خوف موحشبداخلي، أستعجل قدوم الفجر كي أفرّ من صمت يسكنني، تضاعف خوفي حين خيِّل إليَّ بأني أسمع أنيناً، أصخت السمع، ارتفع الأنين رغم هدير الماء، صوت رقيق وحاد آتياً من اتجاه الصحراء، اقترب حتى خلته ينبعث من جواري، لحظات حام حول الماء، ثم أخذ بالابتعاد والتلاشي حتى انتهى. لم أنم ليلتها، أسامر صدى ذلك الصوت، أستحضر أمسي، رسم الحبس، جبال القرود، السيول وقد جرفتني بعيداً، تذهب بي ذاكرتي إلى ماضي أيامي أستعرضها. أنظر في عريي، شلال الماء، الواحة المحيطة بي، ضوء الفجر، شمس تصبغ سهولاً كثبانية بلون الذهب، تحيل أفقاً بعيداً إلى شفرة سيف. هبطت أبحث عن مصدر أنين البارحة، ذهلت لمنظر السحالي التي تتجمع حول بركة الماء، أيكون صوتها؟ تساءلت وأنا أراها تفرّ لشعورها بوجودي مخلفةً أصوات قربعة، طيور تحلق عالياً، عصافير لا تهدأ حركتها بين أغصان الشجر، حشرات تطير في أسراب، زواحف ملونة على صخور وجلاميد. أما أراه وهم؟ صوت البارحة يتردد في مسامعي: أهو الآخر وهم؟

عدت أبحث عن سبيل يقودني إلى طريق آمنة، تجاوزت حزام الأشجار، وقفت على كثيب عال، لا أثر لأي بشر، أعمدة الزوابع تتالى، سرت مبتعداً علّي أرى شيئاً مختلفاً، كثبان تتناسخ، لا شيء مختلف هنا، ألتفت لأرى ما ابتعدت عنه: واحة خضراء تلتصق بأقدام حيد يرتفع في خيلاء وزهو يمتد شمالاً وجنوباً يحتضنه بحر الرمال من كل اتجاه، أبتعد أكثر علّي أرى شيئاً مختلفاً: لا شيء، بحر ذهبي، أفق مستوٍ. شعرت بالعطش، حاولت المكابرة متعمقاً بين تلك الكثبان، قرص الشمس يهوي منهك القوى بعد رحلة يومه، استلقيت فوق ربوة رملية عالية،

السماء تزدحم بالنجوم، أيقظ مسامعي أنين حاد شبيه بصوت البارحة، خيِّل إليَّ أن النجوم تدنو، أو أن أحدها هو الذي يئنّ، تقترب،فجأةً ينبعث ذلك الأنين، يقترب، أسمعه من سقف النجوم، باطن الرمال، يتحول الأنين إلى صوت حزين، يقترب، يمرّ الصوت بموازاة ربوتي، يتماهى بعيداً باتجاه واحة الشلال، يصمت كل شيء إلا من وميض النجوم، مر وقت ليعود الأنين الحاد يصدح بموازاة موقعي، تتراءى لي أشباح، تبتعد، يبتعد الأنين حتى يذوي وينتهي. مكثت أراقب النجوم التي أخذت تتلاشى، أفق فضي ينتشر يغرق الصحراء، ضوء الشمس، زادني عطشي خوفاً، عدت باتجاه واحة الحيد، الجبل يقف متطاولاً يسند سحباً معلقة، الواحة نقطة قاتمة عند أقدام حيد عالٍ، يدفعني العطش للإسراع، أقترب من الأشجار أعبر تحت أفرعها، بركة الشلال، الشلال، الجرف المهول، لم يتغير شيء، غطست فرحاً، لا خيار لي إلا أن أرتوي، لا يوجد ما أفعله سوى اكتشاف المزيد من المغارات، انتظار هبوط النجوم. مرّ شطر من الليل ليتهادى ذلك الأنين من جديد، يقترب،يتحوَّل إلى صوت رقيق، يتماهى من جديد حتى يذوي، لم يعد وهماً، فكرت بالهبوط، أن أترصد عودته، أن أهبط لانتظاره، تخفَّيت خلف صخرة على حافة الماء. في الليلة التالية أنين قادم من اتجاه الصحراء، وسط الأشجار. كتمت أنفاسي دون حركة، لم أعد أسمع هدير الشلال أو صفير الريح، لم يكن وهماً، صداه تردده الجروف الصماء، تراءت لي أشباح تقترب من أطراف البركة، لم أميِّز غير أشكالها، نباح كلب، يصمت صوت الغناء على غير عادته، يرتفع نباح الكلب، يعود الصوت حاداً ورقيقاً، يغادرني، ليطغى هدير الماء عالياً.

شغلني ذلك الصوت، أنتظر قدومه كل ليلة، يغادرني حتى أعود لانتظار عودته، ليلة بعد ليلة أمسى عالمي، أختبئ أحاول معرفة ملامح تلك الأشباح، صاحب الصوت، تحجب الظلمة كل شيء. حتى تلك الليلة حين تزامن صعود البدر، ليلوِّن سناه الفضي محيطي، وجه الماء، الصخور المحيطة، الأشجار الكثيفة، ذرات الشلال، صفحة الحيد العالي، كل شيء يخفق بلونه الفضي حتى قلبي. أستعجل الصوت، أرهف السمع، يتهادى من عمق الصحراء، يقترب، يعبر أجمة الأشجار، تظهر الأشباح متجهةً لمصبّ الشلال، بعير على سنامه، كائن يلتحف ألحفة داكنةتتبعه ثلاث دواب، كلب بلون الليل يهرول حول السيقان، الصوت أكثر وضوحاً، هبط الصوت من على البعير،أخذ بخلع ألحفته، حوَّل صوته إلى ترنيمة، كتمت شهقتي حين رأيت شبح امرأة ببياض لبنيهالة السناء زادته بهاءً، ركعت تداعب الماء بكفيها، قفزت بخفة لتغوص هنيهات وصوتها من تحت الماء يسافر فيَّ، بخفة خرجت وقد ارتفع صوتها بالغناء، ملأت عدة قرب على ظهور الدواب لتصعد البعير عارية، رفعت عقيرتها بالغناء مخترقةً أجمة الشجر نحو الصحراء.

***

وقفت محتاراً أفكر بعد مغادرتي البركة، أجمة الأشجار، أتبع صوتها، أسير حاملاً حيرة مؤلمة، لا ألوي على شيء، فقط أتبع صوتها. أشباح، رمال باردة تدغدغ أقدامي، أسير خلف قافلتها الصغيرة، صوتها يتمدد، سرت كثيراً حتى أشرقت الشمس، وقفت على سنام البعير عارية، أذهلني منظر جسدها اللبني، ارتدت أرديتها على مهل، صعد الكلب حضنها، تغني، صوتها يقودني كالسحر. ألتفت، لم أعد أرى تلك الواحة ولا الشلال، أضحت الجبال نقطة باهتة أو أن صحراء ابتلعتها.

ظهرت بعد حين ربوة رملية كبيرة، نباح عدة كلاب، قفز الكلب من حضنها يردد نباحاً عالياً، صمت صوتها، عيناي تتسعان، شجيرات صحراوية شوكية، عدة أكواخ قش، كلاب وصبيان عراة يحومون حول البعير والبهائم، غنيمات بين العشش، رجال ونساء أخذوا بفك قرب الماء من على الدواب. انزلق الصوت عن بعيره، تماهت بين الأكواخ. كان عليَّ أن أتقدم، خجلت من عريي، حاصرتني دائرة الكلاب، رجال ونساء دون عيون، خرج من بينهم رجل مسن نصف عار يهشُّها بعصاه، صبيان يقفون على مبعدة، تفرقت الكلاب وخبا نباحها، أمسك الرجل المسن بمعصمي يتأمل عريي بعيون غائرة دون حواجب ووجه خالٍ من الشعر، سار بي يتبعه صبية ونساء دون عيون، أدخلني باب عشة واسعة، وضع مئزراً حول خصري، أجلسني على سرير من حبال وخشب، على الجانب الآخر نساء يرضعن بصدور مكشوفة، أفواههن فاغرة، أعدت النظر إلى وجوههن بلا عيون، لا أعرف ما يفكرن به، شعور باطمئنان عجيب، أفواههن توحي بالأمان، صمتهن يحيرني، الشمس حارة، صمت معتم، صخب بداخلي جعل تفكيري ينشغل في ما أنا فيه.سألني:

– من أين أتيت؟

– تائه.

–وما أصاب وجهك؟

–حروق.

عمَّ الظلام، سراجٌ واهٍ معلّق على عمود الساق، امتلأت العشة بالنساء والأطفال. أكوِّم جسدي الذي انهار، الجميع بأفواه فاغرة، الرجل ذو الوجه الخالي من الشعر يسألني عما أعانيه، دمعت عيناي بعد شعوري باستيقاظ آلام جسدي، أشار على امرأة تقاربه في العمر، تقدمت، نظرت في عيني، مررت أصابعها على رقبتي، أذرعي ظهري حتى أصابع قدمي، في كل موطن تضغط، أتأوه وتارةً أصرخ لشدة الألم، تضع على بقعة دهناً، تدلِّك أعصابي وعضلات ساقي حتى أتت على جميع مفاصلي، عرق غزير رغم اعتدال الجو. في تلك اللحظة أحسست بوجود أمي وأبي إلى جواري، أو أنها الحمى،لا أعرف إلَّا أن النوم احتواني، نوم كالغيبوبة. صحوت على ضوء الشمس المتسلِّل من باب العشة، تحسنت قواي،انتظرت علَّ أحدهم يدخل عليَّ، مر

الوقت، لا أحد، خرجت، تلفتُّ أبحث حولي، لا أحد، عشَّتان إلى جوار عشتي، شمس تلوّن الكثبان بالذهب، شجيرات وحيدة وسط هجير مفتوح، سياج من الأعشاب، أطللت في العشة الأولى، لا أحد، الثانية خالية، أذلك وهم؟ النساء، الكلاب، الصبيان، الغنم، الحمير أو البعير، انقبض قلبي، حتى ذو العينين الغائرتين والوجه الأملس، أتأمل ما حولي، أفق دائري يتساوى في ملامحه دون تمييز، شعور من علق في متاهة، عدت أبحث داخل العشش غير مصدق ما أنا فيه، لم يتركوا شيئاً، عدا قُلَّة ماء خلف باب إحدى العشش، ارتجفت خوف الموت، دمعت عيناي، هويت أرضاً، تمرغت صارخاً كطفل فقد أمه، رفعت رأسي ناظراً إلى السماء، دفعتني نفسي للصلاة، استقمت تحت شمس حارقة دون أن أعرف اتجاه الكعبة، صليت لمن ترك قلَّة الماء، واصلت صلاتي أحاور نفسيأطمئنها بقرب الفرج، أراهم وقد عادوا إلى أكواخهم، يرعون غنيماتهم في الجوار. صوت آخر ينكر ما أتخيَّله، يذكرني بأرض الموت، لا أمان ولا اتجاهات، أنظر وسط الصلاة أبحث عن آثار على صفحة الرمل، لم تهبّ الزوابع بعد، قطعت صلاتي الطويلة. عرفت أني أنتظر الموت في ذلك المكان، كنت دوماً أثق بعقلي وما يفكر فيه، أخاف أن أفقد ثقتي به. هرولت أطوف العشش، أبحث عمَّا يدل،سرت في دائرة واسعة علِّي أرى آثار أقدام، ثم أوسع، لا يوجد أثر طريق أو أي أثر آخر، لا أعرف لماذا لم أفكر بالآثار منذ صحوت، قليل من آثار الأقدام في اتجاهين، نظرت إلى السماء، الشمس في منتصف رحلتها.

***

خوفاً على عقلي تحاورت معه، وافقت على تسليمهه المقود، تيارات رياح لطيفة تهبُّ، دعاني عقلي إلى اختيار أحد الاتجاهين، كنت مرتبكاً أي الأثرين أقتفي؟ ارتبكت، لجأت لصلاة الاستخارة، كررت فلم تساعدني، مالت الشمس عن سرة السماء، أقف محتاراً،ازدادت حرارة الشمس.

إحباط سيطر عليَّ طوال الليل، لم أجد ما أتناوله، أشرب جرعات قليلة خوف الموت عطشاً. لعدة أيامتناقص ماء القلّة، أصطاد سحالي وحشرات، أجمع زهيرات، أوراقاً دبوسية لشجيرات شوكية، لحاء نباتات وجذوراً. لم يتبقَّ غير جرعات قليلة في قعر القلّة، لم يعد النوم يزورني، شعرت أن عقلي بدأ يهوي، وأن بشرتي جفت، وجفت بقايا الحروق وجروح السيل. ألامس شفتي فأجدها جافة وضامرة، أدركت أنه الموت ينخر أوصالي، شيء في أعماقي يصرخ يذكّرني بذلك المحبوس الذي كان ينهض بين حروقه يناجي الموت أن يأتيه ليصرعه. قررت أن أبحث عن الموت، أن أواجهه، ألَّا أنتظره حتى يأتي.

مع وهج الصباح حملت تلك القلَّة، وقفت بين العصيتين، لاحظت آثار أقدام جِمال لم ألحظها بالأمس، مضيت مخلّفاً تلك العشش، سرت أتتبعها، انتصف النهار لتظهر غلالة داكنة لجبال بعيدة، تراقص قلبي، ركعت لله فرحاً، أسير بهمّة وأمل، وكلما سرت خيِّل إليَّ أنها تبتعد،

أظلم الكون وهي لا تزال بعيدة، لم أتوقف عن السير طوال الليل. وهج فجر اليوم التالي أضاء لأكتشف بأني نقطة وسط صحراء واسعة،كل شيء يتشابه بل ويتناسخ،خشيت أن تخونني مفاصلي، أرتمي أرضاً وشفتاي تتمتمان بأوردة وأدعية حمد وشكر. مع قرب غروب الشمس تيقنت بأني نافق، جثمت وقد أنهكني التعب، فضّلت البقاء في مكاني حتى طلوع الفجر.

كما لو كنت في حلم،سمعت ذلك الأنين،اقترب ليتحول إلى غناء يملأ روحي بهاءً، نباح الكلب، وقفت كالمسحور أتبع صوتها، تتماهى وسط ظلمة حالكة، أستدل بصوتها، أنحرف حين ينحرف الصوت، حلم أقرب إلى الوهم، تبعت ذلك الصوت، استغرقت أتبع الصوت بقية الليل، لم يكن ما يدل على حقيقة ما أشعر به إلا نباح كلاب. نار مشتعلة، وهج أفق الغسق، نباح الكلاب يتكاثر، سرت فرحاً لم أعد أبالي بشيء. اقترب النباح، أسير نحوها مرتعشاً، لمحت عيونها تلمع وأشباح رجال خلفها، لم يكن لي من فعل غير التلويح، سقطت أرضاً مغمىً عليَّ، لم أشعر بما يدور، فقط هي أنفاس وأيادٍ وأصوات، لم يكن لي إلا الاستسلام، حُملت ليضعوني أرضاً تحت أفرع شجرة، العينان دون حواجب معلقتان تنظران إليَّ، وجه الرجل المسنّ، المرأة المسنة إلى جواره. لا زال نباح الكلاب يأتي من بعيد، عدة وجوه دون عيون معلقة فوق وجهي، ساقي لُفَّت بخرق، أحسست بألم شديد حين حاولت تحريكها، أمسك بكتفي وقد ابتسمت عيناه الغائرتان:

– لماذا تتبعنا؟

سؤال هزَّ روحي.هززت رأسي بأن لا شيء.

– وما حاجتك؟

حاولت أن أرد على سؤاله فلم أستطع، حينها رأى دمعة تختطّ صفحة وجهي، نظرت في عينيه، نطق فمي بصعوبة:

– أنا تائه وأخاف الموت.

–كيف وصلت هذا المكان؟

وجوه دون عيون حولي، تحلَّقوا يستمعون إلى ما أقوله. لم يعد لديَّ ما أخافه.

– فررت من حبس الإمام، هناك حيث الجبال العالية.

ران صمت، تبادلوا حركات رؤوسهم فاغري الأفواه، ابتعدوا يتهامسون،كنت في حيرة من حركاتهم.

أعراس السماء

صباح اليوم التالي شدوا الرحال، منهم من يحمل سحاليهم على أكتافهم، ومنهم من يزمّ الغنيمات، وآخرون يقودون البهائم، اصطحبوني معهم، قطعنا مسافة استغرقت النهار والليل ليحطوا الرحال في منخفض مقعَّر وسط بحر من الرمال تفرقت فيه أشجار غريبة شوكية، ست عشش، لا يشبه الموقع السابق.

مضت أيام استعدت فيها عافيتي والتأمت جراحي، رجوته دامع العينين أن يدلني على طريق آمن، نظر إليَّ كمن يريد إنهاء موضوع يشغله: «من يأتي لا يعود»، ثم صمت ليتركني أتصور شقائي القادم، أقارن بين متاهة مفتوحة وشقاء حبس لا يشبه أي حبس، أو أن كلاً منهم يكمِّل الآخر، متخيلاً نفسي تقضي بقية حياتها في متاهة لا تعرف مداها.

وجوهٌ حولي فاغرةٌ أفواهها، لا عيون عداه وزوجته المسنة، صبيان وصبايا، لم أرَ فتاة الصوت الجميل، أو قد تكون أحد الوجوه عديمة العيون، الكلاب لا تفارقهم، يحتضنونها بحنان، كلٌّ له عمله: منهم من يرعى السحالي التي يبدو أنهم استأنسوها، وآخرون يرعون الغنيمات، وجمع الحطب، والبعض يجمعون جذور نباتات (فقع) لطبخها.لم يوكل إليَّ أيُّ عمل، فقط جوار ذي العينين الغائرتين، لا يغادر محيط العشش ولا يقوم بأيِّ عمل سوى مراقبة الجميع.

أشعر أني وقعت في أسر العينين الغائرتين، أخاف الموت جوعاً وعطشاً إن غامرت بالابتعاد عنهم، يوماً بعد يوم يتأكد لي أنه يعرف مسارب تلك الصحراء، يداعبني الأمل بأن يرق قلبه. أستغلّ صمته، أحدثه عن حنيني لأمي وأبي، جارتنا الطيبة، مساجد صنعاء، مدرستي، قصر السعادة، ودوماً شعور يلاحقني بأن أبي ليس بعيداً.

أكرر حكاياتي أمامهم، يكررون صمتهم وهمسهم الذي لا أفهم منه شيئاً، غموض ملامحهم، أحاول أن أفسره، لم أسمع من أحدهم أي كلمة، من يتحدث إليَّ هو ذو العينين فقط أو زوجته، البقية يكتفون بالهمس في ما بينهم. أحاول أن أميّز فتاة البركة بين وجوه متشابهة، حتى أني ترصدت لذلك الصوت الذي ينطلق رقيقاً ثم يذوي أنيناً ليعود بنفس التراتب، ظننت في بادئ الأمر أن جميع الفتيات يتناوبن على جلب الماء.

منذ أن عرفتهم اندمجت بتلك الجماعة، أو أني اعتبرت ما أعيشه اندماجاً، وإن ظل الجميع لا يتحدث إليَّ، فقط من يحدثني هو الرجل الكبير. ألتقي بهم أثناء تناول عصيدة جذور (الفقع) بلحم السحالي التي تشوى على حطب الأراك، هي وجبتان يومياً، تلحُّ عليَّ الأسئلة: من أين أتوا؟ ولماذا يعيشون في أرض جدباء بعيداً عن أي إنسان؟ أين ذهبت عيونهم، وتلك الكلاب؟ لا أجد لما يدور في خلدي جواباً، أفكر في طرح أسئلتي عليهم أثناء تحلُّقنا حول قصع

الطعام، يصدمني صمتهم، لا أسمع غير أصوات المضغ أو صراخ الصغار يتهامسون بعيداً عني.

في إحدى الليال شجّعني صوت ذي العينين وهو يتغنى بزاملٍ شجيّ، تبينت بعض كلماته الحزينة، تشجعت:

– إلى متى أظل عبئاً عليكم؟

– هل ضايقك أحد؟ أنت أصبحت منا وفينا.

– لكني ضقت من نفسي، من بقائي هكذا دون معنى!

– لن تظل بيننا دون معنى، فقط ننتظر مواسم التزاوج، لقد أحببناك وأنت اليوم واحد منا.

– تزاوج؟

– نعم أنت رجل ولا يجوز أن تظل دون زوجة.

– لكني لا أريد أن أظل هنا، أشعر بأني حبيس، وأشعر بأنك تخفي عني الكثير، لقد حكيت لكم كلَّ ما يتعلق بحياتي وكلَّ ما أنوي عمله، شرحت لكم ما أفكر فيه، فقط أتمنى مساعدتي على المضي في طريق الأمان، فأنا لا أعرف أي جهة أسلكها وأخاف أن أموت تائهاً بين كثبان الرمل، لا أريد أن أظل في هذه المتاهة.

***

تماسكت ونفسي تدفعني للبكاء، تلوَّنت عتمة العشة بالصمت، لم أكن أدرك أن من في العشة المجاورة يسمعون النقاش إلا في اليوم التالي حين اقترب صوت أنين من العشة المجاورة، هي ببشرتها اللبنية، وقفت أمامي:

– من أنت؟

«لا ترفع صوتك، يكفي أن تفكر لأسمعك!».

أحسست بصوت يتدفق من أعماقي: «ألم تتذكرني؟ سمعت كلامك بالأمس!».

ذهلت، التفتُّ إلى وجهها مرتبكاً، نطقت:

– أهي أنت؟

«أنسيت بركة الماء؟».

– المغنية!

«لست مغنية، فالجميع هنا يغني، أنا جالبة الماء، وما يهمني أن ألتقيك لأعرف إن كنت أستطيع مساعدتك».

– أن توصليني إلى طريق أستطيع أعود منها أعالي الجبال.

«إن كنت تبحث عن الأمان والسعادة فلن تجد أماناً حقيقياً إلا هنا».

– الجوع، العطش، الضياع، لا، لا أريد هذه المتاهة.

«لن تجوع أو تضيع ما دمت بيننا، ولن تخاف أو تشقى».

- لكني أعيش الشقاء والجوع والخوف بينكم!!

«يعتمد ذلك على مفهومك للأشياء وقناعتك لما تعيشه».

- أنت عمياء، تكدحين في جلب الماء، تصارعين رمال الصحراء. فأي سعادة تعيشين؟

«هي السعادة بعينها ما تراه شقاء. لست عمياء وإلا كيف أراك؟».

- هل عرفت مدينة صنعاء؟

«لا، لكنه يحدثنا عنها!».

- من؟

«ذلك الذي يرعانا».

- أليس والدك؟

«لا توجد له ذرية، ضمّني وأمسيت من جماعته، لم تمضِ أشهرحتى زوّجني لكائن من كائنات الريح، لأزفّ دون عينين في اليوم التالي كعروس لكائن الريح! أتفهمني؟ وأنت ستُزفّ أيضاً، بعدها ستكون هذه المفازات عالمك وسعادتك».

- لا أريد سعادة، لا أريد زواجاً، فقط أريد مغادرة هذا المكان.

«سمعتك تحكي حكاية تشردك، ظلم الإمام، حبوسه، عن خوفك، هنا لن تجد ما يخيفكأو يحبسك».

- لا أتصور أني سأكون سعيداً بعد أن أفقد عينيَّ.

«هناك ما هو أثمن من العيون...».

- أفضِّل شقاءً أعيشه على نعيمٍ في علم الغيب، إن كنت تريدين مساعدتي دلِّيني فقط على طريق يخرجني من هنا.

«كنت أود أن تسمعني أكمل ما عندي».

- لا أريد أن تكملي. فقط أخرجيني من هنا.

«إذاً اسمعني، بعد أسابيع ستبدأ أيام الزواج، ترى تباشيرها في الليالي غير المقمرة، حينها تقترب بعض النجوم أو يخيَّل للناظر أنها تتلامس، لحظتها يبدأ موسم قران الأوادم بكائنات الريح، تهبّ زوابع تملأ هذه المفازات، تستمر أعمدة تلك الزوابع سبعة أيام. تلك الزوابع هي مظاهر احتفالات الأعراس. في ليلة زفافك سيربط الصحراوي ساقيك ومعصميك بخيط صوف، سيدهن جسدك بزيت له رائحة زكية، وتُخضَّب أطرافك بالحناء، وقبيل بزوغ الشمس ستشعل النار وسيذبح لك ضباً كبيراً تسقي عينيك من دم ذيله قطرات. سنشارك في إشعال النار رغم شدة الريح، لا أريدك أن تظل إلى أن يقطر دم الضبّ في عينيك،عليك أن تنسلّ خارجاً، سر مجدّاً باتجاه شروق الشمس، سترى ما لا تتصوره».

- وماذا؟

«ستجدني أمامك لأمضي بك بعيداً».

كان لكلامها وقع اليقين في نفسي، لم يحدثني غير ذي العيون منذ التحقت بهم، لم أميزها يوماً بين تلك الوجوه العمياء، كنت ألحظ الجميع يقومون بما يُعهد إليهم من أعمال كما لو كانوا يرون، لكنها جعلتني في حيرة أتساءل: كيف تستدلُّ على طريقها؟ تملأ القرب، تعرف بوجودي في ليلة الشلال؟ خرجت أتأمل تلك الآفاق، منظر مخيف في اتساعه ووحشته.

***

توالت الأيام وأنا أنتظر أن يعاود صوتها من العشة المجاورة، أن تخبرني المزيد، أرصد الأفق علَّه ينبئني قرب ذلك اليوم، أرقب نجوم السماء، أتمنى معرفة حكاية ذلك الشيخ وعلاقته بهبوب العواصف. لم أكن في حياتي أمام مثل ما أخبرتني به من تجربة، كنت أشك في حدوثه، لم أسمع يوماً عن ذلك التزاوج بين بني آدم وكائنات الريح، قد تكون أرواحاً أو شياطين، لكن إيماني في هذا الاتجاه ضعيف. في تلك الليلة اقترب مني ذو العينين الغائرتين وأنا أتأمل السماء، قال:

- سيبدأ موسم التزاوج بعد أيام.

لم أتفوَّه، استمررتُ بمراقبة السماء. في الليلة التالية خيِّل لي أن أحد النجوم يتضخم،اقترب ليلامس نجماً آخر،اندمجا ليتضاعف بهاؤهما، حينها تبدّد شكي بما وصفته لي، كانت مشاعري تتشتت، خوف ممزوج بالفرح، تمنيت أن أسمع صوتها، أن أقول لها إني رأيت النجوم في قران.

قبيل شروق الشمس خيِّل لي أني أسمع دوياً شبيهاً بدويِّ الرعود البعيدة، أو أنه دويٌّ ممزوج بأزيز حاد. خرجت من العشة، السماء بلون عسلي غريب، الآفاق بلون بنِّي مصفرّ أقرب إلى لون الذهب، هزيع رياح عاتية تهز الأشجار والعشش، تئن وترعد شبيهة بأصوات القصف. أتابع ما حولي وصدى صوت العمياء يتردد على مسامعي، رأيت ما يشبه الزوابع الوليدة في أفق بعيد، للحظات تناسخت الزوابع، ذرات الرمال تتحرك تسفع كلَّ شيء، لا أحد حول العشش.

سمعت صوتاً شبيهاً بصوت الشيخ، أمسك بمعصمي، جرّني بقوة مفاجئة، لم أكن أعلم أن الجميع يتجمعون في إحدى العشش، يتمتم الشيخ بكلمات غير واضحة، همس الجميع أو أنهم يرددون صلوات لا أفهمها، الكلاب تربض بين أقدامهم رافعة عيونها، السحالي تتجمع في ألفة. ليومين لم يبرح أحدنا مكانه. أحاول تحديد وجه تلك الفتاة بين وجوه تساوت. فجر اليوم الثالث رفع الشيخ أصابعه يمسح رأسي، ينظر إليَّ مبتسماً:

- اليوم تُزفّ، سيصبح لك معنى بيننا.

فضّلت ألّا أنطق بأي كلمة. نظرت إلى عينيه الغائرتين كمن ينتظر قدره، أشار إليَّ أن أتمدد، تحيّرني عيون الكلاب التي رفعت رؤوسها. عقد الشيخ ساقي ومعصمي بخيط أسود رقيق، ثم بدأ يدهن جسمي بزيت برائحة الريحان، يغمس أصابعه في وعاء ثم يرسم بخليط له رائحة الحنّاء جسمي، يقلّبني لتستمرَّ أصابعه برسم تلك الخطوط، شعرت بأصبع إحداهن تفكّ عقد تلك الخيوط الصوفية، بينما هو منشغل بخضاب خطوط الحناء على رقبتي. رفع الشيخ صوته آمراً: هيا أشعلوا نار الوليمة، وأنا سأذبح الفدو، أعدّوا أوعية الطبخ. كنت بين اليقظة والحلم، تغلّفني أحاسيس أقرب إلى الخدر، أرى قش السقف بعيون ساهمة، لم يكن من حولي أحد، غير أني سمعت صوتها: آن وقت الخروج، هيا تخلَّص من لذة الخدر.

استقمت استجابةً لندائها، ضوء الباب مغبَّش بحبات الرمل، خرجت وسط رذاذ الرمل، كلمات الفتاة تتردد تدفعني كالمسحور، تمتمت بما أحفظ من أدعية، دفعت ساقيَّ للهرولة باتجاه وهج يتَّقد، أرفع رأسي لأرى أعمدة ترابية تتراقص وتتمايل لتنثني كعقد خرافي يمتدُّ إلى السماء يحجب الضوء، لا أعرف اتجاه شروق الشمس، غير أني أتبع وهجاً قوياً خلته منبت الشمس، ألتَفِتُ خلفي، لا أحد عدا حوائط من الدومات المتقاربة، أسرعت خطاي، ازداد نقر الرمال بوجهي وصدري وأذرعي، أذناي ملأهما الطنين، أفتح عينيَّ فتمتلآن بالتراب، أظلم كلُّ شيء من حولي، وهنت خطاي، هويت أرضاً وصدى كلماتها يستحثني، ذرات الرمال تنهال عليَّ، تنسكب كما ينسكب شلال السماء، أيقنت بالهلاك، استعرضت ذاكرتي أطياف الماضي، صوراً كالماء تتلاحق، صوتاً يأتي من داخلي: «انهض، لا تستسلم للموت، انفضه، الكائن الذي يريد الحياة عليه ألا يستجيب لنداء الموت»، زلزلت كياني كلمة الموت، اختلط صوت أعماقي بنباح كلب وأزيز العواصف، أو هكذا خيّل لي أني أسمع كل ذلك، لا أعرف إلّا أن كفاً تسحبني صرخت:

– من أنت؟

«ألم أنبهك ألّا ترفع صوتك!».

عاد صوتها يأتي من داخلي، أو هكذا خيّل لي. في البدء ظننته ملك الموت يخاطبني، بالكاد فتحت عينيَّ غير مصدق أنها هي، احتضنتها وقد انهرت باكياً، نباح الكلب يتردد بصوان أذني،صوت يأتي من أعماقي:

«تجلَّد، انهض، تخلَّص مما علق بك، اصعد خلفي على سنام البعير».

كنت أفكر أن أسألها:«لماذا تغامرين في إنقاذي؟». تردّ على أفكار لم أنطق بها:

«أسمعك، تلك هي رغبتك».

– ألا تخافين بطش راعيك؟

«لا!»

– ولمَ لا نفرّ معاً؟

«سعادتي هنا، أنا زوجة، ولا أتحمّل ذلك الشقاء».

– زوجة؟

«نعم متزوجة، وأعيش ملكةً متوجة».

– لاسعادة مع العمى!

«أنا أرى!».

– ترين؟ لم أفهم!

«أترى رفيقي؟».

– الكلب!

«زوجي».

– زوجك؟

«هو ليس كما تراه. أراك وأرى كل شيء بعيونه!!».

– هل هذه هي كائنات الريح؟

«هو ليس كلباً وإن رأيته كذلك، هكذا كائنات الريح تُرى، آه لو رأيته كما أراه».

– كيف ترينه؟

«كأجمل ما يكون الكمال لكائن سماوي».

– والشيخ؟

«هو كما هو منذ عرفته».

– ما حكايته؟ ولمَ يفضِّل هذه الحياة المخيفة في هذه المجاهل؟

«أعرف القليل من حكايته».

– ما حكايته؟

استمر البعير ينهب الأرض وسط عواصف مرعبة، وأنا أطوِّق خصرها متشبّثاً أسمع صوتها:

«كان يوماً من أخلص المقرّبين لإمام صنعاء، عيَّنه نائباً له على جبال حجة، سنوات من التواصل ثم انقطعت صلاته بإمام صنعاء، بعد أن أعلن نفسه حاكماً على تلك الجبال. غادرت أخباره إلى إمام صنعاء، وحين أعيته الحيلة جيَّش عليه جيوشاً من الجن، دارت المعارك ولم يكن لحاكم صنعاء جنود يرون، أو هكذا اعتقد الشيخ، ليباد مناصروه، وتمّإلقاء القبض عليه،لكنه ينجح بالفرار إلى غب الصحراء.

***

بعد سنوات من التخفي التقى بأحد بدو الفلا، أخذ عنه بعض الأسرار، فتح له صندوق رقوق اجتهد في فكّ معاني حروفها،زادت مداركه بكائنات أعماق الواحات، تعرف إلى أسرار

حبات الرمال، ليعاشر كائنات عوالم أخرى، اصطحبته إلى أعماق سحيقة تحت الرمال السفلية،سار في مدن من كانوا يعيشون قبله، تعاظمت حدود نفوذه السفلية، زاره كائن في أردية امرأة كان القمر بدراً، قرأ عليه لوحاً، ليغيِّر الشيخ من أسلوب حياته، لم يعد يقتل من يصادفه، قيل إن ذلك اللوح مهَّد له طريقاً إلى السماء، وأن السماء أنبأته بأن تزويج كائنات الأرض بكائنات رياح السماء ينتج مخلوقاً جديداً يحمل من الصفات السماوية الكثير، منها الخلود، لتنتشر بعدها سلالة تفرد على الأرض السلام. ومن يومها يلتقط من يصادف في طريق تنقّله من التائهين والهاربين من ظلم البشر، وممّن يفرون من ظلم حاكم صنعاء ليزوجهم بكائنات الريح السماوية. ومنذ ذلك الزمن ينتظر المعجزة، يبشّر بمولد كائن يتناصف خصائص كائن الريح السماوي وخصائص البشر، يملأون الصحراء بالحياة الأبدية. وأن هبوب الريح والعواصف الرملية مواسم للزواج بين الأرض والسماء، يزيل ناظري من يُعدّ للقران، وبعد القران يعيش القرينان ضمن جماعة غُبّ الصحراء. وما تراه اليوم من زوابع إنما هو موسم لتلك الطقوس. أنت لا ترى كائنات الريح السماوية، يأتون هابطين من السماء ليصعدوا متمِّمين طقوس القران في ملكوت لا يمكن تخيُّله، ثم يعودون لتتمة رسالتهم بالحياة في هذه البيداء، ينتظرون تحقيق المعجزة، وتبشر حجر الرمل بأن الكائنات البشرية ستفنى ليعمر الأرض ويسكنها الجنس الجديد الذي لا يدير الحروبولا يعادي الطبيعة، بل يبحث عن السعادة الأبدية متعايشاً مع مكونات الأرض.

وها أنت ذا ترانا، فمن رأيتهم عمياناً ليسوا عمياناً،يرى كلٌّ منهم بعيون نصفه السماوي، الكلُّ ينتظر من سيكون صاحب الحظ السعيد، نحمل البشارة منذ سنوات، يتمنى كلُّ زوج أن يحمل شرف أول ذرية مختلطة بين الأرض والسماء، ننتظر بفارغ الصبر، وأنا من المنتظرات. صمتَت لأرفع صوتي حتى تسمعني وسط ذلك الهول:

- ألم تفكري بالفرار؟

«لا ترفع صوتك، لو مكثت بيننا لتعودت ألَّا ترفع صوتك،ألم أقل لك أنا أعرف ما تفكر به، ولذلك كيف أفرّ من السعادة، فأنا صاحبة رسالة في الحياة؟».

- رسالة؟

«نعم، أن نأتي بكائنات جديدة، وأنت ما هي رسالتك؟».

- أن أعيش فحسب، وألَّا أتزوج كلبة.

«تراه كلباً وأراه أجمل كائن، قد لا يشبه وجهه وجهك، هو ليس كما تراه، أهيم به حباً وهو أقرب إليَّ من شريانيوأوفى من قلبي، وكم أتوق يوماً أن تمتلئ هذه السهول بذريتنا ليعيش أبنائي مخلّدين. أرأيت قطيع الكلاب التي تستقبل من يقترب من عشش الشيخ، وتلك الوجوه التي

دون عيون، تلك نواة سكان الأرض القادمين، حين ينبحن لا يدافعن عن الشيخ، لكنه الوفاء الذي لم أرَ مثيله لأزواجهن وزوجاتهم، فكيف أفكر بالفرار من جنة أنت تريد حرمان نفسك منها».

– ألا تحقدين على الشيخ؟

«ولِمَ أحقد، هو أوصلني إلى الحلقة بين الفناء والخلود، حياة السكينة والأمان».

– أي حلقة؟

«هناك ثلاث مراتب للكائنات الحسية، وما بعد الحسية، ثم مرتبة اللاحسي».

– لا أفهم!

«ستعودون إلى التراب، ولذلك لن تفهموا».

– وأنت؟

«أنا في طريقي إلى عالمٍ لا تراه، ليس فيه موت، ولا مادة محسوسة، هناك في سماوات من النقاء والسلام».

– وتريدين أن أفقد ناظري!

«سترى بعدها عوالم لا تراها بعيونك».

– شيء أعرفه أفضل من شيء لا أعرفه.

«ها أنا ذا أحاورك وأدعوك إلى نعيم، ها أنا ذا أطرح عليك ما نحن فيه، ولك الخيار».

–ولو خُيِّرتِ أنتِ؟

«قبل أن أعيش النعيم حتماً سأختار الشقاء، لكني بعد أن تذوقته تمنيت أن يعيش جميع البشر نعيم ما أعيشه».

– والشيخ وزوجته لماذا يعيشان في الشقاء؟

«رسالتهما هكذا، أن يرعيا تحقيق المعجزة».

–هل بمقدوري أن أعيش ما تعيشين، وإن لم أعُد إلى ما أنا عليه؟

«هو خيار لا رجعه فيه».

–فكيف أتأكد؟

«لا مجال».

– إذاً سعادتي فيما أعرفه.

«أدعوك إلى حياة النعيم، إن لم تطعني ستندم طوال حياتك، ستبحث عني ولن تجدني. هي فرصة أن تختار طريقاً لا عذاب فيه، لا ندم، فلا تخترْ طريقاً تظل عمرك نادماً».

– نعيمي في واقعي.

«ستتذكر دوماً أنك رفضت السعادة واخترت طريق الشقاء، وداعاً،هيا انطلق بكلِّ قوتك باتجاه أول دوامة تقترب منها، اقفز في قلبها، دعها تصعد بك باتجاه توجهها، تذكر دوماً أن

تقفز إلى غيرها إذا وجدت نفسك خارجها، هيا انطلق إلى حياة الشقاء، اِضمر المكان الذي تريد الوصول إليه، لا تنسَ ذلك وإلَّا ضعت».

صمتت، لحظتها شعرت بخوف ورهبة مما أنا فيه، رددت آية الكرسي، سحبت أصابعي من بين أصابعها، فتحت عينيَّ غير مبالٍ بحبات الرمل، أسرعت الخطى بعريي، قفزت إلى قلب دوامة كبيرة، سريعاً ما دار جسمي، لم أعد أرى أو أسمع إلا دوياً هائلاً وأجساماً تلفّ وتلفّ، كدت أختنق لتأتيني تلك الصور التي كثيراً ما تزورني: صور الحبس، رائحة أمي، قريتنا، قصر السعادة، المدرسة، طرق عدة، حبس حجة، شلال الجرف الكبير. تذكرت كلماتها: «عليك أن تقفز إلى غيرها إذا فلتت منك»، تشتتت أفكاري، أسير مع الريح وصور الأمكنة تتوالى، صور الماضي، شعرت بجسدي يعلو ويعلو، فتحت عينيَّ لا أعرف أين أنا، دويٌّ يفتِّت رأسي، أجساد عارية، كتل مائية هائلة، كلاب، شجرة مزهرة، فراش عملاق، طيور، دخان،تراب، صخور، تلال، أهلَّة، كائنات لم أرها من قبل تدور صاعدة، روائح مبهمة لم أميزها، تتداخل تلك الأعمدة، أجري في فراغ هائل متذكراً نصيحتها:«اِضمر المكان الذي تريد الوصول إليه»، أرى كائنات لم أشاهد مثيلها في حياتي، أراها لأول مرة، لا أعرف كم قضيت من الوقت تحملني أعاصير رملية، ظننت أني سأقضي معلقاً على تلك الدوامات الرملية، لأجدني وحيداً على سفح جبل، في البدء شككتُ مما أنا فيه، لكنه كان سفحاً حقيقياً تخيّلتُه وأنا وسط الزوبعة، جبال عالية وأودية غائرة، شعرت برعب شديد أن تكون زوابع الرمل قد أعادتني إلى سجن القفر، صمت وهدوء، كل شيء اختفى.

أجراس صغيرة

سرت في وادٍ هابطاً، نهير تخرخر مياههلتنفرج بعدها الجبال، سكينة مبهمة يرتجف لها قلبي، رياح بطيئة تحرك أغصان شجيرات وزهور تلك السفوح، هرولت، أقبض على اللحظة خوف أن يتحول ما أراه إلى وهم، أخذت أصعد سفوح جبال عالية، أهبط، أصعد أخرى، قمم تتوالى على الجانبين طَرَّز قمَمَها بياضُ قرى بعيدة، لم يكن ما أراه وهماً، تماهى خوفي وسط سكينة مربكة.

تأكد لي بأني خارج متاهة تلك الصحارى، صدى صوتها يتردد: «ظننتك ستختار طريق النعيم بعد أن هتكتُ لك ستره– صمتت كمن يؤنب نفسه– عاهدني ألا تبوح بما حدثتك به لأحد».

فجأةً خيِّل إليَّ بأني أسمع صدى صلصلة وقعقعة كأنها صليل ملايين القيود، انقبض قلبي من جديد، بحثت كيف أواري عريي، أبحث عن مصدر تلك الأصوات، رددت الجبال المحيطة صدى تلك الأصوات، صعدت مرتفعات، غبار يتصاعد خلف تلال قريبة، سحب سوداء كثيفة، هرولت في خوف وحذر لأرى ما يدور، عربات كبيرة مليئة عسكراً، بيارق، مدافع كبيرة تجرّها عربات، مدرعات، دبابات، مصفحات تنفث دخانها الأسود، قافلة طويلة من الضجيج المتواصل، طريق يتلوى كالأفعى، (سوارية) على خيولهم ينهرون من يقترب مستخدمين سياطاً ملساء، عسكر آخرون يسيرون راجلين،أناس تجمعوا على السفوح القريبة، أسطح منازل قرى محاذية امتلأت بالنساء والأطفال. لم أكن أعرف أين أنا؟ ولا ما يدور؟ بحثت عمَّا يستر عورتي، تقدمت بحذر وتوجُّس أبحث عمَّن يجيب عن دهشتي. أحدهم قال لي منشغلاً بمتابعة ذلك الصخب: «هذا وادي صعفان»، لم أكن قد سمعت بذلك الاسم، كررت عليه: »وهذه الآلات؟...»، لم أكمل حين التفتَ يتأمل بطني وصدري العاري، قطَّب حاجبيه: «ألا تعلم أن هذه الطريق تأتي من البحر، وهذه قوات السيف ولي العهد الجديدة صاعدةً صنعاء!»، حينها لذتُ بصمتي، تأكد لي أني لا أحلم وأني بعيد عن تلك المتاهة الرملية. صخب الحياة يجعلني في حلم صدى كلماتها: «أدعوك لحياة النعيم، إن لم تطعني ستندم طوال حياتك، ستبحث عني ولن تجدني».

تفرّ الطيور عالياً، حيوانات وزواحف أفزعها هدير زلزل أوكارها، يهرع الكثير من الرجال إلى التلال صامتين. سرت مع السائرين حتى ملتقى سائلتين، على عرصة واسعة بدأ تجمع قافلة الحديد، تجمّع مشائخ المناطق المحيطة الذين قدموا يحملون جفن الطعام، اصطف ضاربو الدفوف إلى جوار قارعي الطبول وعازفي المزامير و(الدواشين)، ترقص الجموع ابتهاجاً، عُلِّقت ذبائح البقر، وأُشعلت النيران تحت الدسوت الكبيرة، انتشرت روائح الطعام.

الكل مبهور بما يشاهد، سألت أحد المعمَّمين، رفع صوته ليتغلب على صوت قعقعة الجنازير: «ربنا ينصر مولانا حامي الدين، ويخذل أعداءه أعداء الدين»، لم تكن كلماته إجابة، كمن يحدث الناس كلهم، أو أنه أخرس، أسمع الناس يلهجون بالدعاء لمولانا الإمام، أناس يحمدون الله أن سخر لمولانا دول البحر الخارجي، داعين الله منتحبين لنصرة مولانا، وآخرون يرددون بصوت جماعي: «طاعت لسيدي عصمرة وأرض الحجاز»، الكل يلهج بما يعني طاعة مولانا الناصر.

مدَّاحون ينقرون دفوفهم، رافعين أصواتهم وسط صرير الجنازير يتضرعون، نهرني أحدهم ناصحاً: «اِلهج لمولانا وهلِّل، الوادي مليء بالجن، هيا لا تكن (مدبر) بدل ما أنت (مُبصّم) هكذا!»، شدتني كلماته، دفعني إلى لثم يده شاكراً، مستغلاً حماسه رجوته أن يقبَلني مساعداً له، عضَّ على شفتيه فاحصاً هيئتي،هزّ رأسه بالرفض، طلبت منه أن يسمع صوتي، اقترب بفمه صارخاً: «هيا أسمعني ما لديك»، رددت على مسامعه ما أحفظه من ابتهالات، صمتَ للحظات، أعاد ناظريه يتأمل وجهي المبهق، كمن يرى شيئاً غريباً، ارتسمت على ملامحه علامات الرضا، مدَّ بدُفِّه: «هيا تغنَّى»، استغربت لتغيره، لم أكن قد أمسكتُ بدف، رفعت صوتي: «عليك بالضرب وعليَّ الإنشاد». هزَّ رأسه بالرضا، هلَّلت عيوني بالفرحة لنقضي ليلنا بالإنشاد، يعلمني الإمساك بالدف والنقر عليه.

اليوم الثاني منحني دفاً صغيراً عُلِّقت على حوافه أجراس صغيرة، ينشد ضارباً بدفه، أتبعه بالنقر على ذي الأجراس. كانت المحطة التالية لتجمّع قوات مولاي (مناخة)، هرع السكان من قراهم مهللين، ارتفعت زغاريد النساء، صفوف الزوامل والأهازيج ملأت ميدان دار الحكومة، اصطفّ خلقٌ كثير، وقد تقدَّم مشايخ القبائل وعامل الإمام لاستقبال القافلة، تصاعد الدخان من نوافذ دور المدينة، وقفنا بين دائرة واسعة من المداحين، احتل قارعو الطبول مكان الأطراف، تبارى الشعراء والمنشدون، ولم يكن لأحد أن يهتم بأحد، الكل مشغول بما يدور، صوته يرتفع ليخفت متيحاً لصوتي ترديد اللازمة، وبدوري أساير نقر دفه لأضرب ذا الأجراس، أدركت من استدارة رؤوس من حولنا بأن لي صوتاً جميلاً، وأن ذلك المخزون من الأوراد والأدعية قد جعلني مدّاحاً يلفت الأسماع، ما زاد ثقتي بنفسي تجمُّع الناس حولنا في دائرة عظيمة.

هوت الشمس إلى مخدعها، تعالت ألسنة اللهب على أسطح دور مناخة (بالتنصير) حتى قمم جبال (مسار) و(لهَابْ)، ودور قرى (الهجرة) و(مناخة).

لم تأتِ شمس الصباح حتى كنا قد غادرنا مناخة، تفرّ أشجار المنحدرات من حولنا مسرعةً، سفوح الجبال، تهبط بنا العربة على شفا طريق ضيقة، تتبعنا بقية العربات والمصفحات بسرعتها البطيئة، طريق ازدحمت بعابري السبيل وقوافل الجمال المحمّلة والبهائم و(البوابير)

وخيول (السوارية). امتلأت ساحات سوق الخميس بعد أن تقاطرت القوات من عربات ومصفحات ودبابات في أطراف الساحة، ولم يرتفع أذان الظهيرة حتى اكتمل وصول أرتال الحديد.

سألني المدّاح ونحن على مائدة بقايا جِفن العصيد إن كنت من خدم مولانا الناصر. صمتٌّ مرتبكاً ليرمقني بنظرة لم أفسّر معناها، تماسكت، ليبين لي بأنه من خدمه، وتلك الجموع من المداحين الذين يكتفون ببقايا الأطعمة ورضا الله وينتشرون في بقاع اليمن هم جنّ مولانا، يرى بعيونهم ويسمع بأسماعهم، ناصحاً لي أن أنضمّ إلى خدمة مولانا،مشيداً بحسن صوتي وروائع مدائحي.

أخذ التوجّس مني مأخذه، بطول الطريق صعوداً في بلاد (الحيمة) حتى محطة (متنة)، سفوح جبل (النبي شعيب)، وهو يعدني بأيام خضر، يتحدث إليَّ وقد مات لديَّ دافع الحديث، أبحث عن سبب لترك العربة التي تحملنا، لم تعد المسافة بعيدة إلى صنعاء، يكرّر المداح أسئلته عمّا يشغلني، أردّد عليه: «أبداً، أبداً»، أنكر عليه انشغالي، لكنه يهمس بخبث: «أجزم بأن وراءك أسراراً»، زاد من حشريته واستثارته لشرودي وصمتي، أهرب من نظراته بالنقر على ذي الأجراس الصغير، أدندن.

عبرنا قاع (بني مطر) مع بزوغ شمس (عيبان). أطللنا على صنعاء بعد (الصُّباحة)، ابتهج قلبي وأنا أرى ذلك البياض المسجّى على سفوح (نقم) و(جبوب النعيم، والقطيع)، أمواج الجبال العالية، حوائط عالية على جانبي صنعاء،عبرنا أرضاً سهلية، عبرنا أطراف صنعاء، تجمّع خلق كثير أمام عرضي مدفعية(الإسكي)، لم أكن أتصور أني سأكون أمام السيف ولي العهد الذي وقف على رأس سيوف الإسلام وأمراء الجيش مستقبلاً، مرت من أمامه صفوف القبائل مزوملين، وجهاء صنعاء وتجارها، كتحية للسيف ولي العهد، المداحون و(الدواشين) صف طويل يتمايلون رافعين دفوفهم شاهرين أصواتهم. لحظة مروري أمام السيف التقت عيوننا لتصطكَّ مفاصلي، اعتقدت أنها نهايتي، كادت مفاصلي تخور، غير أن أحد (الدواشين) لفت انتباهه بحركاته المضحكة، تشكيلة من العسكر البرانيين وأخرى من الدفاعيين والعكفة، عينا السيف ونظراته عبرت لتستقر في أعماقي، ظلَّ سؤال: هل عرفني، أم أن بياض آثار الحريق قد غيّر من وجهي؟

***

استأذنت المدَّاح للحظات، انسللت بذي الأجراس من بين الصفوف، ركام الناس،لم يعد يهمني غير النجاة، خرجت إلى أطراف الصخب، وكلمات العمياء تتردد «أدعوك إلى حياة النعيم، سيرافقك الندم طوال حياتك»، أسير متفادياً عيون الناس، غير مصدق بأني في صنعاء مرة أخرى، دخلت باب اليمن، موازياً باب مسجد (الرضوان) صاعداً وسط زحام الناس،واجهات الدور المتلاصقة، مررت أمام سمسرة النحاس ثم الجامع المقدس، العيون تنظر إليَّ، أو هكذا

كان إحساسي، حتى خفت أن يمسك بي أحدهم، سرت بحذر عبر أزقةٍ ألفتُها، هبطت مجرى السايلة، خرجت إلى باب السبحة، سرت بحذر حتى أطراف ميدان شرارة، رأيت قصر البشائر، تأملت مبنى مدرستي ثم اتجهت شمالاً نحو قبة المتوكل، دار الشكر، بوابة قصر السعادة، حبس الرادع، وحشة وخوف يدفعانني كأني أبحث عن نفسي، هربت بخطى متعثرة نحو أزقة الأحياء العتيقة لصنعاء، عن مكان يأويني، أشعر بكل العيون والأماكن تترصدني أو هكذا يخاف قلبي، لم أجد مأوىً آمناً، كل المساجد مسكونة بعيون طلابها وفقهائها، كنت أرى العسكر في كل مكان، الحبس يلاحقني.

عاد شوقي للبحث عن أبي وأمي، لم تعد صنعاء الرحيمة تلك التي وصفتها لي جارة أمي، كلُّ الأزقة والمساجد موحشة، ذو الأجراس الصغيرة أمسى منقذي، أطوف به أطراف المدينة في زحام الأسواق رافعاً صوتي بمديح الرسول، وسريعاً ما يجذب الناس حولي، تتَّسع الدائرة بتكاثر الناس،أمعن بين ملامحهم علّي ألمح وجه أبي، أسمع بعضهم يقول: «ظننتها فتاة بشعرها الطويل ووجهها الممعوط»، ما جعل غموضاً بداخلي يدفعني للمزيد، تحملني نشوة عيونهم، أتمادى في استعراض صوتي، أُمغنِجه بكلمات طربة، حتى أنني كنت أطرب له، تعمَّقت العلاقة بين روحي وصوتي وتلك الكلمات التي أنشد للنبي، تنسال دموعي، أسمع تعليقات من حولي بنشوة.

انسجمت مع مهنتي الجديدة، أمسيت في رضا، متجنباً وسط المدينة حتى لا يلحظني أحد معارفيمن طلاب المدرسة أو المدرسين أو العسكر.

تميُّزي جعلني موطن تجاذب بين المدّاحين من (الحسنيين) وأنصار السيف البدر، كلُّ من أصادفه يتقرَّب مني بهدف سبر أغواري، وحين يكتشف أني لست في جانب أحدهم يجدُّ في استقطابي، محاصراً لي بالترغيب والترهيب، وما أن أفلت منه حتى يظهر آخر لنبدأ نفس اللعبة ممنيّاً إياي بحياة هانئة وجاه رفيع،ولا يعرفون أني من اكتوى بنار المناصرة وأني فارّ منها.

في تلك الأيام انتشرت أخبار وصول مولانا الناصر من (روما) إلى الحديدة بعد رحلة علاجية طويلة، شاهراً سيفه، مهدداً ومتوعداً كلَّ من تسوِّل له نفسه معارضته في حكم اليمن صارخاً:«هذا فرسي وهذا الميدان ومن كذّب جرّب»، مهدداً ومتوعداً، ليفرّ من صنعاء من كان يفكر بالتغيير.

في الوقت الذي كانت صنعاء تغلي بمجمرة صراعات القصور الملكية، ليفرز ذلك الصراع شرخاً عميقاً بين سيوف (آل حميد الدين) لينقسم الخاصة والعامة إلى معسكرين، مؤيدي السيف الحسن شقيق الإمام وآخرين في صف السيف البدر. شريحة المداحين هي الجهاز السري لبثِّ الشائعات وتغيير قناعات العامة، وهم عيون حكام القصور، أو بالأصح جنّ الإمام.

***

احتدم الصراع ليمتدَّ من التشكيك والإشاعات إلى إشعال النيران في مخازن الأسلحة، ومخازن حبوب الدولة(الشونة)، لتتم ملاحقة العشرات وزجِّهم في السجون، وإعدام عدد ممن اشتهروا بمعارضتهم للبدر كإمام قادم. أتوارى في أطراف المدينة، أمارس مهنتي بحذر.

إلى تلك الليلة التي دُعيت فيها لإحياء حفل ختان صبي أحد الوجهاء، لأفاجأ بظهور زميلي مدَّاح طريق مناخة، ملوِّحاً بابتسامة أربكت تفكيري، تصنَّعت السعادة بلقياه، أستبق التفكير بالخلاص.

أغمضت عينيَّ منشداً، سابحاً بعيداً بعيداً إلى تلك العمياء التي تلاحقني بصدى صوتها: «ستتذكر أنك رفضت السعادة، واخترت طريق الشقاء»، دمعت عيناي،ليهلِّل من حولي ظناً منهم أني أدمع خشوعاً ووجداً.

شعرت بأنها تشارك شقائي، وكان لها ألا تساعدني على الخلاص من متاهة الرمال، خوف يأتي من عالم الغيب، يتعاظم حتى لكأني أشعر بأن الدنيا والأقدار تتآمر عليَّ، تخيَّلت ذلك المداح شيطاناً رجيماً يتربص بي، يبحث عن سبب ليسحبني إلى الجحيم، وأن الشيطان الذي يعتقدونه غير موجود إلى أن يكون كلٌّ منا في لحظة فارقة. لم أرَ يوماً شياطينَ غير من أعيش بينهم، وأجزم بأننا من نتزيَّن كي نكون ذلك الجبَّار بجبروته وطغيانه. يقولون إن الأمان أن تكون وسط الناس، وتقول لي العمياء إنه الشقاء بعينه، كلماتها تلاحقني، يتربَّص بي المجهول، وسط أضلع من حولي وفي تلافيف عقولهم، لماذا ساعدتني كي أعود للشقاء؟ ما ضرها لو أنها صمتت كما صمت الجميع، أم أنها حواء وكلماتها ثمار الشجرة المحرمة؟ أحدث نفسي: عناداً لك لن أندم كما توعَّدتِ، حتى لو غُمست في سعير يذيب الحجار.

يسافر صوتي، يعانق صوتها، أنسى من حولي، وذلك الشيطان الذي يلاحقني، لا أشعر ببُعدها بل أحسُّ بكفها تلامس رأسي، وأنفاسها تلفح وجهي، أسافر لأمنحها صوتي وابتهالاتي، مغمض العينين حتى لا تفارقني، أتلفظ بكشف سرها فأحنث بوعدي.

زادت نشوتي مع مضغ أوراق القات ومصّ عصارتها، دارت المباخر بين الصفوف المتكئة على الجدار. ابتهلت تلك الليلة هروباً وخلاصاً كما لم أبتهل يوماً.

نام الجميع، وأنا أحاصر أسئلة زميلي بصمتي، ليساعدني مؤذن مسجد مجاور يرفع تسابيح ثلث الليل الأخير، لم يكن يعرف بأني مصمِّم على الصمود وأن محاولاته تزيدني إصراراً على وأد ما يريد تلصُّصه: لمَ انسللت بعد وصولنا صنعاء وهربت مني؟ حدثني عن نفسك بصدق؟ من أنت؟ ما هي قصتك؟ من أيِّ البلاد أنت؟ أنا على يقين من أنك هارب من شيء تخشاه، سأعلمه يوماً.

صمتَ حتى ظننتُ بأن بئر أسئلته قد نضب، ليعود صوته: سنكون ثنائياً ناجحاً، أنت بصوتك وأنا بضربي على الدُّفّ، سأدخلك إلى دور لم تعرفها من قبل، ستتعرف إلى سادة القوم، ومنهم إمامنا القادم سيف الإسلام ولي العهد.

بعد أن استطعت التخلص منه فررت إلى أطراف أبعد من الأولى،أسابيع من التنقل بين تلك الأحياء، وأمنية أن أجد ولو أحد أبوي، لم أتوقع أن نلتقي بتلك السرعة، بنفس الابتسامة تبادلنا النظرات، سعدت حين وجدته وقد انشغل بنفسه، يحكي لي عن بلاده البعيدة، عن زوجته وأطفاله الصغار، أرد عليه بكلمات محددة، يحاول أن يشدني إلى الحديث عن نفسي، أناغيه بكلمات مقتضبة، يسترسل من جديد بالحديث عن تجاربه، دهشت حين استأذنني بالانصراف إلى حال سبيله، بعد تكرار دعوتي لتكوين فريق إنشادي، وانضمامي لخدمة مولانا.

كنت أستغرب من قدرته على تتبُّعي، أفرُّ إلى أحياء أخرى وسريعاً ما أرى ابتسامته بين الحضور، خرجت أمارس مديحي في القرى المحيطة بصنعاء، واعتقدت أني في منجى من تعقُّبه، لأرى ابتسامته بين المعزين في أحد المآتم، ليلتها سألته:

– ماذا تريد مني؟

فاجأني بصراحته دون مواربة، أخذ نفساً عميقاً بعد أن نفث دخان (النارجيلة) وقال:

– فات الأوان، لا تستغرب، أينما تذهب تصلنا أخبارك، طالما يراك مدّاح بوجهك الأملس المميز. لا علينا من هذا، أود أن تسمعني، قد ينهار كل شيء في أي لحظة، مولانا يحتضر منذ عودته من روما، ممدداً في قصر (صالة) بتعز لا يعي ما حوله، حكماء (طلاينة) يهدئون أوجاعه بالمخدرات، وهذه ليست الكارثة، لكنها الصراع بين السيفين، ما يشجع المتربصين على هدم المعبد فوق رؤوس الجميع.

شعرت بقلبي ينقبض، وذاكرتي تعود بي إلى حبس القفر، وطعم يختمر تحت باطن لساني. فضَّلت السكوت بينما واصل حديثه: لا يهم إن كنت هارباً من شيء لا تريد إخباري به، أو تخفي شيئاً لا تريد لأحد معرفته، كن ما تكن لا يهمني اليوم، قد تقول إني أهذي، وأن من الصعب أن يتحدث المرء إليك بهذا الوضوح، بل وأزيدك ارتباكاً بأن أطلب منك مشورتي في ما عليَّ فعله. يوماً بعد يوم يتكشَّف للجميع بأن السيف ولي العهد يظهر اللِّين والمرونة، بينما يقال إنه يلعب دور شخصيتين، لعبة تماهي الاثنين في واحد، ولذلك يقال إن معظم أوامر الملاحقات وإيداع العشرات في السجون، بل والأمر بقطع الرقاب التي تظهر بتوقيع الإمام الناصر إنما هي من السيف.

بالأمس كنت أجدُّ في انضمامك إلينا لخدمة مولانا الإمام الناصر، وأن يكون السيف ولي العهد هو الإمام القادم، واليوم اهتزت قناعتي، وأمسيت أفكر بأن الأصلح هو السيف الحسن، فماذا تشير عليَّ؟

لا أعرف لماذا طغى صوت تلك العمياء على صوته: «إن ما تعتقده نعيماً ليس إلا شقاء بالنسبة لما ستعيشه بعد فقدانك لناظريك واقترانك بإحدى أرواح السماء». أدركت أن عليَّ أن أصده عن النقاش في هذا الجانب، دون أن أثير نزعته الحشرية من جديد، أوضحت له أن ذلك الصراع لا يهمني ذلك.

***

كنت في رعب من أن يكون نسخة أخرى من ذلك الدويدار، وأن أقع من جديد تحت رحمة ناصب فِخاخ، فضّلت الصمت حتى إذا ما اعتقد أن سكوتي يعني القبول انتقل إلى حديث آخر: «ألن تصارحني في صف من أنت؟»، وأمام ابتسامتي يواصل: أريد أن أكون معك صريحاً، سبق أن أخبرتك يوم التقينا بأني من خُدَّام مولانا الناصر، لكن السيف محمد لا ينفع لأن يكون إماماً بعد أن قيل عنه ما يقال، هو متقلّب لا يثبت على شيء، شخصيته ضعيفة، والأجدر بها عمه الحسن، أخبرتك أن الناصر لم يعد يعي من الأمر شيئاً، والسيف البدر يسيِّره بقايا الدستوريين وأعوان أعداء الله.

وهكذا وجد من صمتي مبرراً ليسرد ما عليَّ سماعه، استمر صوته يصفر راسماً لما سيكون عليه الغد إذا ما حكم الحسن اليمن، محذراً من أي عاطفة تجاه البدر الذي يستحق رعاية عمه، وأن الحسن...

حقيقة الأمر لا أعرف لماذا كان يحدثني بمثل تلك المواضيع، كنت أظن أنه يهذر، شعرت تجاهه بالشفقة، صوته المنكسر جعل ضميري يلين، أهزُّ رأسي مردداً: «آه،آه»، بين جملة وأخرى، موحياً بمتابعتي واهتمامي لما يقول. حين خلد للنوم ساحت بي الأفكار وكأني كنت تحت تأثير نبراته، أخذت أقلِّب أفكاراً وأفكاراً: ماذا لو أنه صادق، ولا ينصب لي فخاً؟ أفكر وقد بدأت رائحة الشك تخفّ، خفَّت حموضة فمي، شعرت بحيرة تلوبُ بي في مكاني، حاولت أن أفكر بما عليَّ فعله، أن لا أقع في الحبس من جديد وقد أفقد حياتي، سأهرب منه، لا، لا بل سأخنقه ثم أهرب، أو من الأفضل أن أتظاهر بتصديق ما يقول، أن أتصنَّع سذاجة ليست من سجاياي، أتابع كلَّ ما يقوله حتى أتيقن من صدق ظنونيوأكون متحفزاً لأي خديعة. مع إيغال تلك الأفكار أخذت ألحظ تغير مزاجي بسرعة، لم أكن أدري أن تزاحم تلك الأفكار المتناقضة في رأسي يحيلني إلى إنسان مرتبك ومتردد، خفت من أن أتخذ القرار الخطأ.

أصبحت أسمع حديثاً لا يتوقف، أتابع تعابير وجهه، نظراته، حركة كفيه، لم يعد ذلك المدّاح الساذج.

أدارت ملامح الدهشة وجهي، وعيناه تتأملانني مستغرباً.

الحبس هزَّ ثوابت أعماقي، لم أعد أثق بأحد، وها هو يصرِّح لي بعدم إخلاصه للإمام الناصر ولا للسيف ولي العهد، وإن ظل يتحدث عنهما بإجلال مردّداً عند ذكر أسمائهما صفاتاً

وألقاباً كنت أنا أرددها في ما مضى. تركني في ذلك اليوم مهموماً، وليلتها مزّقتُ طاري الصغير ذا الأجراس الصغيرة، تخلصت من مهنة كانت توصلهم إليَّ. تمنيت أن لا يستدل عليَّ مرة أخرى، لكننا التقينا بعد عدة أشهر في أحد المساجد في حلقة ذكر رمضانية، همس في أذني: «لا تستطيع أن تغيب عن عيوننا»، كان متغيراً بعض الشيء، لم يعد يحمل دفاً، لم يرد على ابتسامتي، تجاورنا مساءً، لم يعد حديثه مترابطاً كما كان، ما أثار دهشتي سماعه يهامسني بأنه أعجب بأسلوبي في تجنب الناس.

تلك الليلة لم ينم،ظل ينتقل في همسه من موضوع إلى آخر، مرعوباً بعد أن أبلغ عنه أحدهم بميله لمناصرة الحسن، وأنهم يرسلون من يتتبع أخباره، يتوهَّم بسعيهم حول مكان تواجده، وأنهم يسعون ليقتلوه أو يقتادوه إلى أحد السجون البعيدة. صمت قليلاً ثم وجه إليَّ اتهاماً بتعاوني معهم، وأني أترصده وأنقل إليهم أخباره، مستشهداً بجملة لم أقلها له ذات يوم، وعبارة أسمعها منه بعد أن يلوي عنقها مؤكداً خيانتي له.

اختفى مرة أخرى لعدة أشهر، ثم فوجئت برؤيته ذات مساء في باب اليمن وقد ساءت حالته، لم يتركني، قال إنه مشتاق للكلام معي، أمسى يتحدث عن أشخاص لا أعرفهم يعدّون العدّة لقتل الإمام، يحدثني عن قرب انقضاضهم على المملكة وذبح الجميع من آل حميد الدين، أخبار لم أسمع بها، وعن أشياء يعدّها أسراراً.

انقطعت أخباره عني، حتى رأيت وجهه ذات نهار على عتبة أحد مساجد الأطراف، حافي القدمين، مهلهل الملابس، مددت يدي لمصافحته، تجاهلني، ليمضي مبتعداً، أتساءل: ألم يعرفني؟ أم أنه عرفني ومضى، ضاق صدري لحالته، شردت من عيني دمعة،وصوت تلك العمياء يصمُّ مسامعي: «هناك مراتب للكائنات، أردت أن أساعدك كي تتجاوز مرتبة من حولك إلى مرتبة ما قبل الارتقاء الكامل إلى كائنات الريحلكنك شقي، وستظل حتى تعود للتراب».

خنثى ٦٢

مضت الأيام وأخبار صراع أجنحة بيت الإمام تستعر، إحساسي بالأمان يزداد وأنا أتابع انشغالهم بأنفسهم، أقترب من شوارع وساحات كنت أخاف الاقتراب منها، أطوف أحياء صنعاء، ميدان شرارة، باب المدرسة، وعند بوابة قصر البشائر رأيت – ويا للعجب! – الشاوش عبدالله على عربة صغيرة، إلى جوار سائق بملابس عسكرية فخمة، وجهه ممتلئ،جسمه مكتنز، خرجت العربة مسرعةً تثير غباراً وصوت محركها يفرقع، سألت لأعرف بأنّ السيف ولي العهد قد عيَّنه قائداً لـ(عكفته) الحرس الخاص، وأضحى متنفذاً على أهمِّ مخازن الأسلحة في صنعاء، وفوج عسكري مدرب. تردَّدت أتلصَّص على قائد العكفة الذي تضحكني ذكرياتي معه، أتوارى بحذر باتجاه شرارة، أمرّ على مدرستي، دار الشكر، وتلك بوابة السعادة التي عبرتها مراراً، شعرت بالزهو، استعدت ثقتي بصنعاء، ولسان حالي يستعرض كلمات فتاة الرمال.

انتشرت شائعات عن وفاة الإمام الناصر، أكدت الخبر (الروادي) وقد تجمَّع الناس حولها في بعض المقاهي والحوانيت، ليتوافد الخاصة والعامة إلى القصور الإمامية للعزاء ومبايعة الإمام الجديد محمد المنصور – السيف البدر – كما فتح نواب وعمال الإمام دواوينهم في النواحي والقضوات لاستقبال المعزين والمبايعين في جميع أنحاء البلاد.

ازدادت حدة الخلاف بين الحسنيين وأنصار الإمام الجديد، توقَّع الناس وقوع حوادث مفجعة بين الفريقين، عمَّت مشاعر الترقب، انتشرت شائعات عن قرب قدوم السيف الحسن من الخارج، وشائعات أخرى عن نجاة المنصور من محاولات اغتياله، أخبار وأخبار. الخوف دفع المواطنين للتهافت على شراء وتخزين المواد التموينية خوف نشوب حرب بين الإمام الجديد وعمه الحسن الذي يستعد أنصاره لوصوله من أميركا، أخذ كلُّ فريق يستعد لمعركة الحسم.

أقف قرب بوابة مدرستيأراقب خلسةً الداخلين والخارجين، شوق يدفعني لدخولها، وخوف من المجهول، لمحت أحد زملاء الدرس، ترصَّدت خروجه ودخوله يوماً بعد يوم، الوقت بعد مغيب الشمس، دفعني صارخ بداخلي، لحقت به، لامست كتفه هامساً باسمه، التفت إليَّ مذعورا متعجباً، يتأمل وجهي، لم يتعرف عليَّ بادئ الأمر، أفصحت له عمَّن أكون، تراجع مرعوباً،ثم تأمل ملامحي متصنِّعاً الهدوء، همس مبتسماً:

– لكن ماذا جرى لوجهك؟

– سأشرح لاحقاً.

قال إن أخباري تصلهم، وأن العسكر ترددوا مراراً على المدرسة، ثم ضحك قائلاً: «كان هذا منذ شهور بعيدة ، أما الآن فهم منشغلون بما ينخرهم»، دعاني للدخول معه المدرسة، قال لي:«لن يعرف وجهك أحد حتى لو كان أقرب المقربين»، رأى في عينيَّ تردداً،أقسم بأغلظ

الإيمان على عدم خيانتي، ثم قال: «اطمئن فلا أحد يكترث لأحد هنا»، كلماته أدخلت على نفسي بعض الطمأنينة، تبعته عبر البوابة وخوفٌ يلامس أطرافي، استأذنته أن نطوفها، صادفنا بعض المدرسين والطلبة في ساحة المدرسة، وعلى الدرجات، ممراتها، لا أحد يكترث لأحد،أسمع بعض التعليقات، تأملت آخر مكان وقفت فيه قبل اقتيادي، تلك النوافذ، باب الإدارة، تلمَّست جدرانها، المنامات وقد ازدحمت بسكانها، صور تتوالى على ذاكرتي، حينها فاضت عيناي وترقرق صوتي، تذكرته إلى جواري هامساً: ألا ترى، لا أحد يهتم!

وهكذا لأيام أترقب عودته قبيل مغيب الشمس، أو أنه انتظم في مواعيده من أجلي، نمسي سوياً، يشاركنا بعض المدرسين، لم أكن قد تصورت تغيُّرَ وجهي إلى تلك الدرجة، نتحدث في كل شيء– حين ننفرد–، أسأله عن مدير المدرسة، يبتعد إلى مواضيع أخرى. ألححت عليه مرة، صمت للحظات،نظر في عينيَّ بنظرات شفقة، عاد صوته:

– لا أريد أن نتحدث حول مدير المدرسة، لكنك تلح بسؤالك.

– لماذا؟

– أنا من يريد أن يسألك؟

– ولمَ لا؟

– ستجيبني بصراحة؟

– بصراحة.

– يقال الكثير حول علاقتك الغريبة به.

– لابد أن يقال!

– وأنت من لديك الحقيقة.

– أي حقيقة؟

–علاقتك به.

لم يفد عتابي لنفسي، لم يكن هو من وضعني في تلك الزاوية أبحث عن منفذ، أخرج من حشرتي، أن أغلق ذلك الباب الذي فتحته على نفسي، أدرك صمتي باحثاً عن مخرج:

– أقصد أخباره في فترة غيابي.

– لا تغالط نفسك، الجميع يتحدث بأنه من كان وراء حبسك.

– حبسي؟

أربكتني كلماته، شعرت بجسدي يتعرَّق بشكل مخيف، تلبَّك لساني، أتمتم: كيف أني لم أفكر لحظة في ذلك؟ انشغلت بحنقي من السيف.

– لكن لماذا؟

– أنت أدرى بخصوصية علاقتك به.

- أمر حبسي جاء من قصر صالة بتعز.

- بعد اقتيادك تغيرت طبيعته، أصبح قليل الكلام، لم يعد له صديق، قيل إنه تزوج، فوجئنا بتغيبه ثم تم إعفاؤه ولم نعد نراه.

- مع أن المعطيات كانت تشير إليه، ما الذي أعمى بصيرتي؟

أدرك صاحبي ما أردّده فلاذ بالصمت يبحث عن النوم، وتركني لسهادي.

***

منذ عودتي تغيّر مفهومي نحو أشياء كثيرة: الإمام المنصور، سيدنا مدير المدرسة. ظل قلبي مشدوداً إلى قصر السعادة، أن أرى تلك الشريفة، أعتذر لها، لرائحتها، أتسلَّل بحذر أمام الشارع الفاصل بين الرادع والسعادة، أحس بألفة تجاه تلك البوابة، أتصور وقد دخلت من فرخها الصغير، أقف على الفسحة الحجرية تحت مشربية الدور الثالث، أحدثها عن ذلك الحبس الأبيض، فتاة متاهة الرمل، حب دويدارها، أعود من سرحاني حين يرتفع صوت عكفة بوابة القصر وهم يفتحون البوابة، أتوارى باتجاه صنعاء العتيقة.

أمسى شغل الناس الشاغل أخبار صراع أجنحة بيت حميد الدين، الكلُّ يتوقع وصول السيف الحسن ليعلن دعوته، المنصور محمد البدر يستعد للمواجهة.

إلى تلك الليلة حين اصطحبني زميلي إلى سكنه الداخلي،امتدت بنا المنادمة حتى ارتفعت تسابيح الثلث الأخير من الليل،شعرت برجفة شديدة، تساءل كلٌّ منا «الأرض تهتز تحتنا؟!»، مرت لحظات حتى سمعنا أصواتاً من الممرات ومخارج المباني، أصواتاً فزعة، للحظات اهتزَّ المبنى مرة أخرى هزات متتالية، أصوات شبيهة بأصوات رعود، خرجنا إلى الساحة، الكلُّ يتحدث عن رجفان الأرض، والبعض يؤكد أنها هزات أرضية، لكن تحولت أصواتنا إلى صرخات حين ارتفع دويٌّ قويّ، صاحبه اهتزازات عنيفة كادت تسقط سقوف المباني، خرج من تبقى من الطلبة والمعلمين من المنامات لتزدحم ساحة المدرسة بالأسئلة والاستنتاجات، مع بزوغ الشمس أدرك الجميع أنها قذائف تأتي من ميدان شرارة باتجاه قصر البشائر القريب. انتشرت استنتاجات بأن بيت حميد الدين يحتربون، وأن الحسنيين هم من بدأ بالحرب.

حاول البعض الهروب من بوابة المدرسة ليرتد صارخاً: «دبابات، دبابات ومدافع»، استرق بعضنا النظر إلى ساحة الميدان ليتأكد للجميع أننا محاصرون، وأن الدبابات تملأ الميدان والشوارع المحيطة. غامت السماء بغبار أسود، ذكَّرني ذلك المنظر وتلك الأصوات المرعبة بأيام أعاصير الرمال، حجبت زرقة السماء، مر وقت من الخوف لنرى شرفات قصر البشائر تشتعل بالنيران وأجزاء من جدران الجهة الشرقية تنهار، دويٌّ متواصل، سحب دخان وغبار تحيل نهار المدينة إلى ليل.

نتوقع انهيار مباني المدرسة، كلٌّ محيطنا يهتز، عويل المدافع يتواصل، لا يوجد غير منفذ بوابة المدرسة على ميدان الجحيم، طلبة يتجمَّعون بموازاة السور الطيني الشمالي، ما لبث عدد منهم أن امتطوا السور، تدافعت الصرخات باتجاه ذلك السور متدافعين عبره، صعدتُ مع الصاعدين لنهبط الشارع الخلفي، سرنا في خوف وترقُّب مما حولنا، قادتنا الأزقة إلى الشارع الخلفي لأسوار قصر السعادة، أصوات مميتة وصرخات تخترق دويَّ المدافع وقهقهة الرصاص، أشرفنا على الشارع الأمامي لحبس الرادع، عربات مسلحة، عسكر وقد حطَّموا بوابة الحبس لتتدفَّق جموع هياكل بشرية.

تسرّبنا بعيداً عن الدبابات عبر أزقة حارة (الكدس)، وجدت قلبي يتعثَّر، أسمع صوتاً يدعوني لرؤية قصر السعادة القريب، طلبت من أحدهم مرافقتي، فرَّ هارباً، تركتهم متَّجهين في زقاق يقودهم إلى السايلة، تراجعتُ عبر زقاق بستان اليهودي لأرى قصر السعادة تحيطه المصفَّحات وعربات تحمل جنوداً مسلحين تحتشد أمام أسوار السعادة، عسكر يتمرسون ببنادقهم فوق عرباتهم، بوابة أسوار القصر مغلقة، نوافذه مغلقة، تلك المشربية في الدور الثالث مغلقة، يطلُّ القصر بجمال وبهاء لم ألحظه من قبل، شعور بأن روحاً تتأمَّل فوهات المدافع والبنادق المصوَّبة نحوه، دبابة تتقدم، تبقرُ سورَ حدائقه كدودة ضخمة، مصفَّحة تدكُّ بوابته، ظهر القصر عارياً من ردائه، تهتز أفرع الأشجار العالية وقد فارقتها العصافير وحطَّ الغبار على أوراقها، أضع عيني على نافذة مشربية الدور الثالث، أتوقع أن أرى شيئاً يتحرك، نوافذ الأدوار صامتة، أحد الجنود يصرخ بمكبر صوت: «إنذار لمن بداخل القصر، عليكم بسرعة الخروج دون أمتعة رافعين أياديكم، من يقاوم أو يتحصَّن سنهدم الجدران والسقوف فوق رأسه، هذا إنذار، من يريد السلامة عليه بالخروج فوراً»، انطلقت عدة طلقات خجلاً من سطح القصر، أخرى من نوافذه السفلية، ليردّ عليها صوت رشاش هشَّم صفوف النوافذ والمشربيات، حطَّم القمريات، شوَّهت واجهة القصر بثورٌ سوداء، ردد مكبر الصوت: «هذا إنذار أخير وقد أعذر من أنذر: عشرون، تسعة عشر، ثمانية عشر، سبعة عشر... استمر ذلك الصوت حتى أخذ يمطُّ في تلاوة الأرقام: خمسسسسة، أررررربعة، ثلاثثثثثثة، اثنااااااان، بوووم قعققق بيم، سريعاً ما تصاعدت ألسنة اللهب من نوافذ الدور العلوي، تصاعد غبار كثيف، دخان أسود، حالت رؤية واجهة القصر. خيِّل إليَّ رؤية كتل تتحرك وسط أتربة تتساقط أمام بوابة القصر، فكرت أن أقترب، لكنه الموت، لم يكن خيالاً بل مجموعة من النساء والأطفال يشيرون بأكفهم لتحصدهم الرصاص.

***

أرتعش بخوف وقلبي يختنق، أشخاص آخرون يلوِّحون من نوافذ سفلية، لم يعد من صوت غير الرصاص، ولا ألوان غير فضاء أسود لأدخنة تغطي كلَّ شيء. رويداً رويداً قلَّت أصوات الرصاص، أخذ صراخ البشر يتصاعد من جديد، خرج الجنود من عرباتهم، اخترقوا

مهرولين ركام الغبار، دخلوا القصر من عدة جهات، ليظهر أعلى القصر مجموعة منهم يثبّتون علماً مُقَلّماً وهم يصرخون: «تحيا الثورة والجمهورية». تحرّكت المصفَّحات باتجاه ميدان شرارة وبقي قلَّةٌ من العسكر، لم تمر ساعات حتى امتلأت الشوارع بجموع يرددون: «عاشت الثورة والجمهورية، تحيا الثورة»، اقتحموا القصر، خرجوا يحملون صناديق ومفارش وأكياس القمح، ملابس وأواني الطبخ والطعام، بعضهم يحمل نوافذ وأبواباً، وآخرون يسوقون مواشيَ وبهائم، موجات من البشر تردِّد هتافات لتجتاح القصر موجة بعد أخرى، لتخرج محمَّلةً بما تبقّى من أخشاب السقوف وأغصان شجر الفاكهة. نهضت متجهاً بخوف بعد أن خفَّ الزحام، روائح الموت والتراب تزكم الأنفاس، الضوء يدخل من فتحات ونوافذ وأبواب هرمت قبل الأوان، أبحث بين وجوه عارية، وجوه شُوِّهت وأخرى غطّاها الركام، اقتربت بوجهي، لم أجدها بينهم، أو قد تكون، عدت خارجاً، ركام الأقدام هرس تلك الأجساد منزوعة الملابس، شدّني شذى عطر من بين ركام التراب، بحثت بين الأشلاء، دمعت عيناي، أجساد يتصاعد شذاها، بحثت، لم يعد من وجه، فقط تلك الروائح الزكية، أخذتُ بقايا حصيرة خوص وضعتها فوق الأشلاء، خمس نساء وأربعة أطفال، ظللت أبحث عن بقايا حصير أغطيها، ينخلع قلبي وأنا أرى من يتوافدون، يزيلون تلك البقايا بحثاً عن غنائم ثم يمضون، يأتي البعض يسألني عن كنوزتم يمضون ليأتي آخرون. مضيت هارباً من هول ما اكتنزه عقلي في ذلك اليوم البشع.

خرجت أهيمُ في شوارع قلقة، روائح الموت والبارود تمتزج بظلام وأنين المدينة، لم يعد يهمّني شيء، أسير، تتهاطل أصوات قذائف متفرقة، أفكر في كلِّ ما حصل، وصوت تلك العمياء يتردَّد: «تلك الزوابع والدوّامات ستقودك إلى طريق الشقاء، هناك حيث الزحام لن تجد السعادة،اذهب، ستتمنى لو لم تذهب». سرت أهيم كثيراً غير مستوعب ما يدور، حتى دنا ليل يضيئَه هديرُ الرصاص وروائح الحريق، أدور دون وعيٍ لأجد نفسي مع صباح اليوم التالي أعود إلى ميدان شرارة، منعني العسكر من التقدم، مصفحات، عسكر، عربات، بوابة مدرستي فاغرة، قصر البشائر هُدِّمت أجزاؤه العلوية، مبانٍ محيطة ظهر عليها الدمار، تتصاعد أعمدة الدخان من اتجاهات متفرقة من المدينة، ظل مخيف.

تدفَّقت جموع القبائل من كلِّ حدب وصوب، عربات عسكرية تلاحق أسماءَ بعينها، يتجمَّع الناس في المقاهي لسماع ما تبثُّه الإذاعة، صخب الشوارع، جموع تهتف: «جمهورية جمهورية لا ملكية ولا استعمار». لأيام يغصُّ ميدان التحرير- كان اسمه بالأمس ميدان شرارة- بقبائل مغبرّة متربة تبحث عمَّا تنهبه وتسلبه. اقتحمت الجماهير قصر البشائر وعدة قصور في أنحاء متفرقة من صنعاء، ليفرّغوها من أثاث غرف النوم وأواني المطابخ، فراش وستائر، ملابس، قوارير ونحاسيات، كتب، أسلحة قديمة وبنادق، أبواب، نوافذ، أخشاب السقوف.

في اليوم الثالث انتشرت أخبار عن هروب الإمام المنصور على ظهر مصفَّحة أحد الثوار، ليهرِّبه أحد المشايخ إلى جبال حجة. شائعة تغطي فضيحة المصفَّحة تفيد أن الإمام تنكَّر بين نسائه. إذاعة لندن في نشرتها تفيد أن الإمام المنصور يحشد القبائل المناصرة له في جبال حجة لاستعادة صنعاء.

ازداد العنف،وأُتخمت الكلاب الهزيلة بجثث تُلقى ليلاً في الشوارع وأطراف المدينة، تغيرت أحوال بعض الأسر بعد انتشار نهب المتاجر والمنازل، بل إن بعضهم امتهن هدم الدور المهجورة وبيع أحجارها وأخشابها، وآخرون تخصصوا في قطع أشجار البساتين وبيعها حطباً. ازدادت الملاحقات لتكتظ السجون، تدفق سكان الأرياف إلى صنعاء لتزداد وتيرة النهب والسلب والمسيرات الشعبية.

***

ردّدت الإذاعة أخبار الثورة ليُعلن الشاوش عبدالله رئيس مجلس قيادة الثورة! أتردد يوماً بعد يوم، أقف بعيداً متأملاً قصر السعادة، برج الحراسة الذي كان، بقايا البوابة، غرفة حبس النظارة، أتذكر الشاوش بقيد الطاعة ولحظاتي معه، بحقّ فرحت له وخشيت عليه. سرحت ذاكرتي للدويدار، سيدنا مدير المدرسة، أصدقاء زملاء المدرسة، الحبس الأبيض سجن القفر. كنت أحدث نفسي وأنا أستعرض تلك الأيام:«لم يبق إلا أنا، لكن هل سيتذكرونني؟».

صمت وقد علت وجهه مسحة إشراق، التفت ناظراً إلى وجه وردة يهامسها بصوتٍ عطوف ممسكاً بكفها:

– نسيتُ أنك بجواري، شعرت بأنين روحي تسترجع تلك الأيام، أو أني أتحدث إلى نفسي،أترين أنه لايوجد لديَّ ما أخفيه، هذا أنا أمامك بكل أيامي الماضية.

قطبت بين حاجبيها وهي تردد:

– يا للمسكين! أكل هذا الشقاء عاشك؟

وضعت يدها الأخرى فوق كفّه تغالب دموعها.

الساعة السليمانية

لأكثر من ثلاثة أشهر ظلَّ طريحَ الفراش، لا يخرج إلا لكي يعود مسرعاً. ملَّ رائحته، صلواته، بكاءه، حكيه المتواصل لوردة، سماع الرصاص المدوي المتقطع، ملَّ طغيان أمسه، ضاقت الخلوة به، صمَّم على الخروج، أن يفرّ من غربة تسكنه. مع سكون الليل خرج إلى السطح، نسمات باردة، هبط الدرج، أنعشته رائحة التنباك ودفء المواقد، منظر رواد الدكاك والمساطب، الحوائط الداكنة، الخالة وردة المنشغلة خلف صف مواقد الجمر ولهب التنور، الحاج وردة في متّكئه المعتاد، مشرب النارجيلة المتصل بفمه. ترك لحواسِّه إعادة اكتشاف ما يعرفه، خطواته الكسولة، ملامح وجهه. لوَّحت له الخالة رافعةً صوت كلماتها للحاج:

– هذا نزيل الخلوة يا حاج يسلّم عليك.

استدار في مجلسه، أفسح له حيزاً بجواره:

– وينك يا ولدي؟

اقترب منه، قبَّل رأسه، جلس بجواره صامتاً. أردف الحاج: كيف تشعر الآن؟

– أحسن، أريد أن أخرج قليلاً أغيّر هواء.

– الأخبار سيئة، ألا تسمع الدويَّ؟

– كله بيد الله.

– انتبه لنفسك.

بدت الساحة الأمامية فارغة وباردة،عدا أكوام متفرقة، ليل قارس، عبرها، قدماه تقودانه باتجاه أزقة حارة طلحة،يشعر برهبة صفوف الدور العالية، ذهنه مشتت يراقب أطراف الأزقة التي يمرّ منها، واجهات الدور غائمة، قلَّة يعبرون مسرعين، أطلَّ على مجرى السايلة ليراه عميقاً، هبط أخدودها، الدور على جانبي عتمة غور السايلة، رياح خفيفة محمَّلة بروائح البارود. صعد يسير بشارع السبحة، يشعر بسعادة وهو يقترب من باب سمسرة أبو عامر، تنفس الدفء أثناء عبوره مدخلها، خطوات كسولة، عيناه تمسحان المساطب، وجوه قليلة تبقّت في الزوايا، قعقعة النارجيلات. رآه عامل السمسرة، سارع باتجاهه، أخذ يسوّي متكئاً له.

بينما يبحث في الأنحاء، رأى شاعر الثورة منكفئاً يحشو فمه بأوراق القات، يمضغ بتؤدة، يشفط أدخنة نارجيلته مغمض العينين، يفتح فمه عن آخره يراقب سحابة صغيرة ينفخها فمه. ما أن التقت عيونهما حتى نفض الشاعر ما بين يديه،فرد ساعديه يحتضنه مصدراً أصواته المميزة، مشيراً باتجاه الحمام. كان العظمي قادماً، راسماً ابتسامته:

– أينك يارجلكل هذه الشهور؟ اعتقدناك قُتلت!لن تصدق، قرأنا على روحك الفاتحة عدة مرات! أين كنت؟

– لمَ لمْ تفكرا بأني مسافرأو مريض؟

– في هذه البلاد يا قاتل يا مقتول، هيا اجلس، لمَ لا تدلُّنا على مسكنك حتى نزورك إن مرضت؟!

– جئتك عدة مرات، والشاهد عليَّ صديقنا–مشيراً نحو عامل السمسرة الذي هزَّ رأسه قائلاً:

– كان ذلك منذ أسابيع.

طبطب على ظهره مبتسماً.

– قاتلت وشاعر الثورة في جبل عيال يزيد، وكنا نتمناك معنا، فالأعداء يتكالبون على ثورتنا. هذا سبب غيابنا فماحكايتك؟

– لن أحدثك إلَّا إذا عدت لتشاركني قاتي.

– هذه عادتك تبدأ حين ينتهي الآخرون!

– تعجبني نشوة الساعة السليمانية.

– إن كان قاتك (عال)فسأشاركك، وأسمع منك سبب غيابك.

– في شوق لسماع حياتك في عدن.

–أولاً تحدثنا عن أخبارك؟

–بل أنت من ستكمل ما بدأته، وتجيب عن بقاء عذرية تلك الصحراوية!

– ذكّرتني، الأمر بسيط فقد وجد الطبيب خيوط جلد رقيقة رُتق بها شفرا المسكينة عند طفولتها. سأتذكر قصة امرأة أخرى. يبدو أنك مثلي تحب حكايات النساء.

– ومن لا يحب ذلك؟

– قصة أخرى، قصة أخرى، تذكرت.في إحدى زياراتي لها جلست دون مبالاة تحت نظرات جاراتها وتلصصهن،أخذت تحكي لي حكاية إحدى الجبليات.قالت:«التقيتها قبل سنوات في شعب العيدروس، كان ذلك اليوم هو يوم الزيارة السنوية لمرقد الولي العيدروس، أناشيد وطبول ورايات ورقص وبخور وكعك، أتابع مع النسوة زفّة المريدين وحاملي كسوته صاعدين بموازاة المقبرة الكبيرة وسط زغاريد النساء وأهازيج الذِّكْر، تلمع وجوههم عرقاً ودموعاً، غبار الأقدام يتصاعد، حرارة الشمس قوية، سواعد الفتية تهزُّ سواري البيارق الخضراء، حفيد الولي بعمامته الخضراء وسترته المزخرفة محمول على الأعناق، دوائر المنشدين تحركها الطبول والطيران.

فجأةً رأيت إحداهن تسقط أرضاً، تعالت صرخات النساء المتَّشحات بالسواد، وجدت نفسي أنسى ما حولي من حناجر صادحة وأجساد يهزها الوجد تحت الرايات. ساعدتُ أخرياتعلى حملها إلى زاوية ظليلة، تفرقت النسوة ولم يبقَ غيري إلى جوارها، تأملت وجهها الأبيض،

ملامحها الجميلة، فكرت بأنها رزق ساقه الله لي، لم ألحق بجموع الولي العيدروس حيث ستوزع الصدقات والأطعمة.

أفاقت تنظر ما حولها بوجه لا يخلو من حسن غامض، غير قادرة على النطق، شفتاها جافتان، عيناها مغبشتان. حملتها إلى بيتي القريب لأكتشف أنها قادمة من بلاد بعيدة، أدركت حينها أنها رزق.

يفـرس

ما أن تآلفت نفوسنا حتى عرفت أنها جاءت إلى عدن منذ سنوات هاربة. قالت إنها جاءت إلى عدن منذ سنوات هاربة من جبال الموت البعيدة، تبحث عن زوجها الذي كان يغيب ليعود بأرزاق أسرته ثم يغيب من جديد، وحين لم يعد اتهمها سكان القرية بقتلة وإخفائه: ضيّقوا الخناق عليَّ بعده، يرسلون من يرهبني ليلاً، يفتعلون المشاجرات، ألّبوا عليَّ سكان القرية متهمين إياي بالفجور، وأولئك الذين لا يتوقف تحرشهم ليلاً،إلى تلك الليلة التي قررت فيها الفرار هرباً من حياة لا تطاق وقوم لا يرحمون. فارقت القرية خلسةً،لا أدري بأي اتجاه أتجه ولا ما عليَّ فعله، سرت في طريق لا أتبيَّن معالمه وسط عتمةٍ حالكة، فقط هي نجوم تومض، ترافقنا، كان الليل هادئاً صامتاً عكس ما يعتمل بداخلي، وعند شروق الشمس اخترت طريقي باتجاه الجنوب. كان زوجي قد حدثنا عن بلاد بعيدة، وكان كثيراً ما يحدثني عن بندرعدن،حينها قررت أن أسال من أصادف عن طريقها،أن أبحث عنه لنعيش بعيداً. سافرت من بلاد إلى بلاد، لم يعد يهمني الليل ولا ضواريه، ولا ما يصنع بي الرجال، أبكي شيئاً ما ضاع مني، شيئاً أفارقه، لا أدري إلا أن إحساسي حزين، مشتتة بين الطرق وزوج لا أعرف طريقه، وأحايين يحدثني قلبي أنه سيعود ولا يجدني!

قالت لي إنها تعذبت في الطريق، سافرت في بلاد لا تعرفها فلا تملك مالاً أو زاداً، عدا الملابس التي تستر عريها، تتسوَّل من قرية إلى أخرى، لا تعرف إلى أين تقودها تلك الطرق، ولكثرة تجوالها اعتقدت أنها ستقضي حياتها في ترحال. لم تكن تفصح لأحد عن مأساتها، تجيب من يسألها عن نذر لولي سمعت عن بركاته في (يفرس)، تبحث عن الطريق إلى ضريحه. مع مرور الوقت صدَّقت ما ترده حتى قادها سؤالها إلى أبواب ضريحه (ابن علوان)، شعور غريب غشِيَها حين حطَّت في فناء المسجد، تزاحَمَ المريدون باتجاه حجرة مرقده، روائح المجامر، أناشيد الدعاة، بكت كثيراً حين لامست كسوته، لم تأبه لبكاء من حولها، سعادة تسكنها لأصواتهم الفزعة ودموعهم السخية، صلَّت في حضرته، اغتسلت. لم تغب شمس ذلك النهار حتى تخلَّلت روحها حمَّى شديدة، وهن صوتها وزادت دموعها، سكنت جسدها رعشةٌ باردة، لم تنم ليلتها. عند الفجر جاء من يحتضنها، لتغشاها رعشة لذيذة تمنّت لو تحتفظ بها، تناجي الضريح وتشتمُّه واضعةً رأسها على جداره، ليأتي القائم على خدمته يتبعه صف من المجاذيب ينتزعون كسوتها، أشعلوا المباخر، داروا به حول الحضرة، يناجونه بأعذب كلمات العشق، تدور معهم، يزداد صخب الدفوف، تنتظم خطواتهم، تترنّم أصواتهم لتصدح بصوت واحد: (يَس. والقران الحكيم. إنك لمن المرسلين، على صراطٍ مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم...)، يشعُّ نورٌ أخاذ، صوت يصمت له الجميع:«يا أمَة الله، لقد أوفيت بنذرك ولذلك أبارك ما تحمُلين»، ولم يكمل، كانت كلمة أو جملة

مبتورة، تبحث بحواسها عن مصدر ذلك الصوت فلا ترى غير ضوء أخذ يتلاشى، تحدث نفسها: «بارك ماذا؟». كان كل من حولها رجال ببشرة غامقة، وضعوها أرضاً، حلَّقوا في دائرة يحملون عيداناً تنتهي بمقارع جلدية تتدلى من أطرافها خيوط وخرز ملوَّن، يضربونها لتصطدم الخرز بجلدها، يهتز المكان لرقص أقدامهم، يتمايلون بعنف، يتصبَّبون عرقاً غزيراً، يحملون فؤوساً، يهوون بها على جباههم، تنغرس نصال الفؤوس في عظام جباههم دون قطرة دم، يهزون مشاجب رؤوسهم مترنمين بمولاهم ابن علوان، تتسع الدائرة، تتوالى ضربات الفؤوس على الجباه وهم يترنمون في نشوة، يلفونها بقماش أخضر قصّوه من كسوة الضريح، يتركونها وقد بدأ ضوء الفجر يتسلل.خرجت غير مستوعبة، عتمة الليل بدأت بالذوبان، تنزل منحدراً غطت أشجاره أنفاس الضوء، شمس كسولة تظهر خلف جبال عالية، التفتت إلى جبل الضريح الأبيض، خُيِّل إليها سماع صدى أصواتهم تردّدها الجبال المحيطة، إيقاع دفوفهم، وقع أقدامهم، وصوت واضح يتردد: «بورك ما تحملين». عبرت ودياناً كالهاربة، حتى شارفت على بلاد يقال لها تعز.

غيَّرت من إجابتها حين تُسأل في أي اتجاه تسير. تسأل من تصادف عن زوجها الذي غادر البيت يوماً ولم يعُد. مع مرور الأيام تلبَّسها البحث عنه، لم يكن لها بعد ابن علوان وجهة، تدور في أحياء تعز.

سوق (باب موسى) وروائحه تذكرها بروائح زوجها حين يعود إليها، يأتيها ليلاً محمّلاً بروائح تؤجّج شبقها، يتنفس جسدها شوقاً إليه، تعبر مسام روحها. تدور في أسواق المدينة، تصادف أناساً يشبهونه، يزداد الأمل بلقياه، يحدثها قلبها بأنه في مكان ما قريب وأنها ستلتقيه دون موعد، سيحتضنها بملامحه العطوفة. تتفرَّس الوجوه أينما ذهبت، شهور في أسواق المدينة وبطنها تتكوَّر، صادفت وجوهاً كثيرة لكنها لم تجد وجه زوجها، أخذت تصف لمن تصادف أوصافه، تقافز قلبها حين أخبرها أحدهم بأنه عرف رجلاً له مثل تلك الأوصاف في عدن.

***

يزورها زوجها في أحلامها ليلة بعد أخرى، تراه كما عرفته بذلك الوجه الضحوك، وتلك الرائحة، نظراته، تسمع صوته، وكأنه لم يغب عنها يوماً، تصحو لتكتشف وهم الرؤيا.وضعت ما ببطنها في ليلة حالكة السواد، طفلة ببياض الحليب.

شدّت خُطاها بعد عدة أسابيع شرقاً من (الجحملية) إلى أطراف (صالة)، ومن قرية إلى أخرى، حتى (الراهدة)، ومن الراهدة رافقت قافلة تاجر متجه إلى عدن، لم تكن عدن قريبة كما قيل لها. في الطريق سمع التاجر حكاية بحثها عن زوجها، وحين أوصلها كريتر أوصى بها تاجراً عدنياً من أصل هندي لتعمل في خدمة أسرته.

مرّت الشهور وكرَّت السنوات وهي في خدمة تلك الأسرة، كبرت الطفلة وأمست صبية جميلة. لم تكن ربة البيت تعاملها كخادمة،اعتقدت أن الزمن قد ابتسم لها، وأن الله قد عوَّضها

عن شقاء ما فات. تخرج سراً علَّها تجد زوجها، تبحث في أمكنة تجمّع الجبالية، يزداد اليقين حين تسمع أحدهم يجيبها عن مصادفته شخصاً بنفس أوصافه، وآخر يؤكّد لها أنه عايش رجلاً له نفس الاسم. تتخيَّل وقد التقته، تحدّثه عمّا عانت وعن قسوة تلك الليلة التي هربت فيها وسط ألسنة اللهب، عن مرض ابنها، موت عينيه الجميلتين، همودِه كعصفور في حضنها، هروبها من نداء ابن علوان، لتهرب بعيداً بعيداً باحثةً عنه، وذلك الصوت يتردد: «لقد اخترتك»، عن طيبة ربة البيت الذي تعمل لديهم. ستقنعه بأن يسكنا عدن بعيداً عن ظلم قريتهم، وأنها ستحدث ربة البيت كي يعمل لدى زوجها. تتخيَّله وقد اجتمعا في بيت واحد، صحن واحد، يذهبان البحر سوياً، الأسواق. يعاودها البكاء حين تكتشفها مجرد أحلام، تمس قلبها حرقة لاهبة، تدعو الله أن يحقق أمنيتها.

بلغت ابنتها العاشرة، تلاحظها بقلق وقد بدت كفتاة في الرابعة عشرة: فتنة ابتسامة وجهها المدور، قوامها الممشوق، صدرها النافر. من يراها لأول مرة يتساءل «ابنة من تكون؟»، وحين يعرفون أنها ابنة الخادمة يعلّقون بكلمات إشفاق.

حين تختليان تحدّث ابنتها عن أملها بأن تكون من نصيب من يحميها، تقول لها: «عندها سأكون إلى جوارك لتربية أبنائك، لن أخدم في بيوت الناس». تبتسم البنت وقد حلَّقت بها كلمات أمها، لم تكن الأم تعرف أن ابنتها تلتقي ابن مخدومتها المراهق، يحدثها بكلام يستعيره من أفلام السينما، يحتضنها، يحدثها عن اليوم الذي ستزفُّ له، تبتسم في وجه أمها بسعادة، تهمُّ أن تخبرها عن سر تخفيه، ثم تتراجع، تريد أن تفاجئها يوماً وقد انزوت بها ربة البيت جانباً تهامسها بطلبها يد ابنتها.

يعدها بأنه سيخبر أمه، تسمع ربة البيت تدلِّلها:«كيف عروستنا الحلوة» أو «صباح الخير عروستنا الجميلة»، تعتقد أن الأم تعرف ما بينها وولدها البكر. يوماً بعد يوم يغرقها بمعسول الكلام، بمداعبات تثير شبق جسدها، إلى أن لاحظت والدتها ذات يوم صمتها وشرودها على غير عادتها، دارت شكوك رأسها، راقبت الفتاة لتكتشف أن ابنتها الصغيرة حامل، كادت تُجنّ، ممَّن وهي التي لا تغفل عنها لحظة؟ أين يخلو بها ومتى؟

أيقنت أنّ هناك قدراً غبياً يترصّدها دون غيرها، ظلَّ أمل ضعيف يداعب رجاءها، ربة البيت تعزها، تشعر بالأمان بوجودها، كثيراً ما يتحدثان كامرأتين عن تفاصيل حياتهما،آمالهما. اختارت الوقت الذي يكون فيه مزاجها رائقاً، صباحاً على فنجان شاي، دارت الكلمات بداخلها، بالكاد حدثتها بكل شيء، وعن أملها بإصلاح ما حصل بالزواج.

انتفضت ربة البيت وقد تغيرت ملامح صوتها:

- لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام.

صمتت تاركةً لها مساحة من النحيب، ثم عادت وانحنت عليها، احتضنتها:

- سنتدبّر الأمر.

استدارت تلهج بالدعاء:

- ربنا يستر عرضك، مالي غيرك.

- ربنا يختار ما فيه الخير.

قضت ليلتها تدعو الله، قبيل شروق الشمس زارتها ربة البيت، احتضنتها مبتسمةً:

- أخبرت زوجي، وقال إن علينا معالجة الأمر، جهزي البنت لزيارة الطبيب!

- ولمَ الطبيب؟

- طبيب العائلة لمزيد من الاطمئنان.

كانت تودّ الرفض لكنها خنقت صوتها.

لم تكن تعلم أن الأب قد رتَّب الأمر مع طبيب يعرفه، طال انتظارها معهم خارج غرفة الطبيب، بعد خروجها لاحظت ذبولاً وإرهاقاً على وجه ابنتها، احتوتها الشكوك، عرفت بعدئذٍ أن ما في بطنها قد تمّ التخلص منه، اضطرب تفكيرها، لا تعرف ما عليها فعله، لتفاجئها ربة البيت:

- اسمعي، تعرفين مقدار محبتنا لك وعطفنا على ابنتك، ولذلك آمل أن تقدِّري الأسرة التي آوتك كلَّ هذه السنين.

صمتت قليلاً ثم تابعت:

- لقد خلّصنا ابنتك من عارٍ كان يمكن أن يلحق بها، وأثبتت الفحوصات أن الفاعل رجل وليس صبياً صغيراً، ولذلك لا يمكن أن تظل هي في بيتي بعد اليوم، أتمنى أن تقدِّري عشرتنا.

شعرت بحصاة تسدُّ منافذ تنفسها، وأن عينيها غشيهما الغبار، لم تستطع نطق كلمة، خافت أن تخونها مفاصلها، استدارت ربة البيت لتتركها دون أن تنظر في وجهها.

***

حاولت أن ترى وجه ربة البيت قبل أن تخرج، أن تسمعها، أن تضمّها إلى صدرها، حزمت صرتها، تحركت غير مصدقة أنها تفارق البيت الذي سكنت فيه سنين، سمعت صوتها وهي تعبر الممر المتجه إلى الباب الخارجي، تبعثرت مشاعرها، حاولت أن تكتم ألمها، انفجر قلبها منتحباً، تعالى نحيب ربة البيت الذي تعرفه جيداً، قاومت ولم تستدر ممسكةً بمعصم ابنتها، تسير في شوارع لا تعرف إلى أين تقودها.

عيون شوارع حافة حسينتربك خطواتها، نظرات الشحري صاحب الدكان، بائع البانيس(الماء البارد)، مصلح الدراجات.

بعد عدة أشهر تقرّب منها شاب يعمل حمّالاً في سوق الشيخ، يزورها، يناديها «أمي»، عرفت أنه من الجبال البعيدة، رأت فيذلك الشاب سنداً محتملاً، لاحظت تقرّبه من ابنتها، تمنته

عريساً لها، تحدثت إلى ابنتها بشأنه، واصلت إقناعها حتى زوجتها له، سكن معهم، في بداية الأمور مشت الحياة كما كانت تودّ الأم، تخرج في بحثها ويخرج لعمله، تبقى البنت تنتظر عودتهم، لا تخرج من البيت أو هكذا اعتقدت الأم والجبالي، حتى ذلك النهار الذي عاد فيه مبكراً ولم يجدها، لم يخبر أحداً بذلك، داوم على مراقبتها، ليتأكد بأنها تخرج مرتين في الأسبوع لمقابلة شاب لم يره من قبل.

لم تكن الأم تدرك ما يدور، إلى ذلك اليوم الذي عادت فيه إلى بيتها لتجد ابنتها غارقةً بدمائها، حضرت الشرطة ليتضح أن الجبالي هوالفاعل، حاول إثناءها عمَّا هي فيه دون أن يخبر أمها، أفضت له بأنها تحب ذلك الشاب الذي رآه معها ولا يمكن أن تستغني عنهوأنها تزوجته إرضاءً لأمها. صدمته صراحتها، ترجّاها تغيير موقفها، توسّل إليها، زادت من قسوة كلماتها، تشاجرا، انهال عليها ضرباً، تركها وهرب ظانّاً بأنها قد فارقت الحياة.

أخذت تسرح في الشوارع وحيدةً باحثةً عن زوجها، إلى تلك الظهيرة حين جذبتها زفة الولي العيدروس، في البدء ظنتها زفة عروس، سارت طمعاً بوجبة طعام، وفي لحظة سقوطها أرضاً بدأت حكايتي معها، لأصطحبها إلى شكلة شارع السيسبان.

من حينها كنا نمسي نتسامر سوياً،أصغي إليها وتصغي إليَّ، ولذلك أحببت طريقتها في الإنصاتوأسلوبها في سرد عذاباتها. قبل أن أعرفها كنت أعتقد أني امرأة غيرسوية، إلى أن سمعت حكاياتها لأجد حياتي أشبه بحياتها بل إن كثيراً من الطبائع والنزعات والغرائز تتطابق مع طبائعها، لأعرف متأخرةًأني لستُ المرأة الغلط، ولذلك أحسست بمعاناتها وأحببتها، لا نفترق، نتناول وجباتنا معاً، نضحك ونبكي معاً، حين تحكي يضيء صوتها نسائم ليلي، تغنّي أنيناً على بلادي التي أراها في صوتها جبالاً خضراء وأودية غزيرة المياه، تلمع دموعها وقد تغيَّرت نبرتها لتبكي، لحظتها أحتضنها، أهدهدها حتى تصمت، أبدأ أغني لها، تتدحرج دموعي بصوت يسبقها، تحتضنني لنبكي سوياً.

مع الأيام شغلها بحثها عن زوجها، تذهب صباحاً تدور في الشوارع، أدمنت البحث حتى أنها لم تعد تهتم بشغلها في الشكلة، المهم أن تخرج، إلى يومٍ جاءت تخبرني بأنها ستشتغل خارج الشكلة، ومن يومها نتواصل بعيداً قريباً.

سكت للحظات متفرساً في عينيّ الملثم،باحثاً عن كلمة ثناء أو إعجاب، لا يعرف بأنه منشغل بحضور أمه طيلة حكاية تلك المرأة، يتمنى مواصلة حكايات كل النساء،عله يجد أمه، يشعر بنداء يدعوه لزيارة ذلك البندر.

زاد في صمته حين أحس أنّ صاحبه في نوبة وجوم، ظل صامتاً بشكل لم يلحظه من قبل. فجأةً نهض يسير خارجاً،عبر باب السمسرة إلىتلك الأزقة، يرافقه صوت العظمي، يفكر في

تفاصيل تلك الحكاية، يتنامى بداخله إحساس بأن أمه هناكفي عدن، وأن عليه تحفيزهلسردالمزيد من تلك الحكايات، قد تصادف إحداهن حكاية أمه.

منذ تلك الليلة أضحى عنده دافع يدعوه لمغادرة صنعاء،يسير حزيناً،تدمع عيناه وسط عتمة الأزقة، صوت إحساسه يعاتبه: كيف مكثت هذه السنوات دون أن أبحث عن أبي وأمي خارج هذه المدينة؟ قد يكون أبي مات في أحد سجون الإمام، لكن أمي هناك تنتظرني. أحس أن الوقت قد حان للخروج من صنعاء، صوت جارة أمه يتكرر: «أمك سارت في الطريق الشرقي للقرية، عليك أن تبحث عنها حتى تجدها، عدني بذلك». قضى ليلته في صلوات باكية، تدمع عيناه شوقاً لأمه وأبيه، كثيراً ما زاره أبوه في منامه، يتمنى أن يحلم بهما معاً.

صباح اليوم التالي صعدت إليه وردة كعادتها كل صباح، لاحظت مرايا عيونه باهتة، جلست بين صمتها وبينه، تكرر محاولتها مستخدمةً عينيها، شفتيها، يديها، تداعب أصابعه، وتارةً تمشّط شعره الطويل:

– ما الذي يشغلك؟ تلك الكلمات كثيراً ما تكررها، هو يعرف أنها تقصد امرأة، داهمه الخجل، دون شعور احتضن خاصرتها، لم يكن يقصد لكنه أراد أن يعتذر عن عذابها معه، أضاءت ابتسامة وجهها، سحب معصمه كمن تذكَّر شيئاً، ساءها ذلك، حاولت إبقاء كفّه بين كفيها برعشات ضلوعها، تتسوَّل قربه:

– أحبك؟ نطقتها بصوت قادم من مسافات بعيدة. يحاول أن ينسحب بعد أن أدرك خطأ ما صنع، يبتعد، يزيل أصابعها التي تعبث بشعره.

–أنا متعب، لا أقصد أذيتك، فقط اتركيني، اتركيني.

لم يقف ذهنها عند حدود كلماته، مجرد سماعها صوته أطربها، استبشرت، فتحت عينيها، تمنت لو أنها تقبّل عينيه، أن يخاصرها مرة أخرى، يرتعش كفها وهي تهمُّ باحتضان وجهه، تشعر بارتباك قلبها، تراجع كمُقدِمٍ على قفزة الموت، أفاقت، سحبت مؤخرتها مبتعدةً قليلاً من جواره، استعادت تماسكها، سكنها الخجل وهي تتأمل شروده.

– أمي دوماً تسألني عنك وتتمنى رؤيتك!

– أمك؟ من أين لها أن تعرفني؟

– حاولتُ إخفاءك لكنها تراك في ملامحي، صوتي، عينيَّ، تصرفاتي. هه، متى تزورها؟

قناطر عالية

لا يخرج من السمسرة نهاراً إلا في ما ندر. رمقته الخالة وردة من خلف مواقدها وقد ضاقت عيناها بابتسامة تعجب، ذاب تعجّبها حين اقتربت وردة تهامسها، شيَّعتهما بنظراتها خارجين معاً، لم يخرج صوتها كما هي عادتها حين تنبِّه الحاج عن قدوم أو خروج أحدهم. يعبران ساحة البقر، صمت يتراءى له ضوء الشمس مختلفاً، نسمات الأزقة، وجوه المارة، واجهات الدور السامقة، يمعن في اكتشاف ما حوله، هكذا كان يهرب من أحاسيس تدفعه إليها، يتحاشى الالتفات إلى عينيها، يسمع وقع أقدامها تجاور أقدامه بتناغم، تتسلَّل بأصابعها، تتشابك بأصابعه، تتمنى أن يراها كل الناس إلى جواره، تشعر بدويٍّ في عروقها، تلتفت علَّها ترى عينيه، تتمنى أن تسمع صوته، أن تعرف ما يفكر به، هي المرة الأولى التي يسيران فيها معاً، تبحث في عيون من حولها، تتخيَّل همسهم، الشارع الذي تسير فيه ذهاباً وإياباً كلَّ يوم، لكنها تراه اللحظة مختلفاً، ألوانه، روائحه، ملامح ناسه، تشعر أن قدميها ترتفعان عن الأرض، لم يعد من إحساس يشغلها إلا هو.

مع نهاية أحد الأزقة أشارت إلى دار عالية: «هي تلك دارنا»، رآها ساحة تحيطها دور متشابهة. أردفت: «نسكن في الدور الأخير من جهة السماء»، أدهشه أن يرى قنطرة تصل أعلى دارهم بالدار المجاورة. تبعها في باب الدار، صعد سُلَّماً معتمَ الرائحة لخمسة أدوار، ليخرجا إلى سطح مشمس تحيطه أعمدة قصيرة تعلوها سلسلة عقود ،يشرف على أسطح المنازل وواجهات الدور المحيطة، أفقٌ مليءٌ بالجبال وزرقة السماء.

دخلا باباً بطرف السطح، حجرة مستطيلة تنتهي بستارة تحجب جدارها الداخلي، إلى اليمين باب غرفة، صوت قادم: «أهلاً بك»، ابتسم وهو ينظر لامرأة يقارب سنها سن الخالة وردة، طويلة، وجهها المستطيل ممتلئ، عينان نؤومتان، ملابس ملونة. أشارت إليه وردة:

– هذا من كلَّمتكِ عنه. تساءل: ترى ماذا كلَّمتها عني؟ ثم أشارت إلى أمها: هذه أمي.

أشارت عليه أم وردة دون أن تتفوّه بكلمة إلى باب الغرفة،دخلا، ثلاث نوافذ واسعة تطلُّ على الجهة الغربية لصنعاء، يغمر ضوءُها كلَّ شيء، جدران بيضاء، مساند مزركشة تحاذي الجدران، متكآت مكتنزة، مفرشة، صندوق كبير من الخشب في الزاوية قرب الباب، (معشرة) نحاس تتوسطها نارجيلة مزخرفة حولها فناجين وأواني القهوة. أخذت مكانها في الزاوية الداخلية، جلس بجوار النافذة الثانية، دخلت وردة بابتسامة فمها الهلالي، تنظر إليهما صامتة، على ملامحها مسحة من انكسار. توزِّع نظراتها بين أمها ونافذته بفرح طفولي. صمتٌ محرج، يحدث نفسه: «هي من طلبتني لزيارتها وعليَّ أن أنتظر صوتها!» ثم يذهب تفكيره إلى وردة التي شعر

نحوها بشفقة وهي تبدو كخادمة أمام سيدتها. صمت ينظر من النافذة، قناطر معلقة تصل بين دور متجاورة تصل داراً بالأخرى، جسور معلقة. الأم لاحظت انشغاله بتلك القناطر:

- أراك منشغلاً خارج النافذة.

- أتعجَّب من تلك الممرات المعلقة بين الدور!

- هي ممرات للنساء.

- نساء؟

- تتزاور الجارات، أو لطلب شيء، خطوات وتنتقل من دارها إلى الأخرى بدلاً من الهبوط والصعود.

صمتت إلَّا من صوت ارتشاف القهوة، عادت نظراته تتابع تلك الممرات المعلقة.

- حدثني عن نفسك؟

ابتسم يفكر في طلبها:

- ربنا يسلمك.

- يا أهلاً وسهلاً،كلمتني عنك بنتي.

- خير.

- هل أنت متزوج؟

رد مرتبكاً:

- متى، أقصد لا أستطيع، فأنا إنسان أبحث عن الاستقرار.

- ما هو عملك؟

صمت، نظر تجاه وردة غير متوقع تلك الأسئلة، ثم إلى زاوية الأم التي تنتظر صوته:

- موظف، ومفصول منذ حين.

- لماذا فصلوك؟

للمرة التالية ينظر إلى عيني وردة التي تعتذر لها بنظراتها، يفكر في طريق ثالث يسلكه:

- أتيت للسلام عليك، والكلام يطول حول حالتي، سأزورك إن كنت تريدين في مرات لاحقة. صمت كمن يحمل ثقلاً ثم واصل: أرجو أن تسمحي لي بالانصراف.

- كما تحب.

التفتت إلى عيني وردة ولم تنظر إليه حين نهض، كان يودُّ أن يرى ابنة وردة، قطع عليهم صخب أطفال ظهروا تباعاً من خلف ستارة طرف الحجرة، ثم تبعتهم امرأة، رفعت وردة صوتها:

- هذه جارتنا تريدك.

- دعيها تدخل.

وقف وسط ضوء بياض الشمس على السطح، على وجهها علامات الضيق:

- لمَ العجلة، كنت سأعدّ غداءً يعجبك.

- الجيَّات كثر.

-طبع أمي هكذا، لا تظن...

لم يدعها تكمل:

- امرأة طيبة.

ابتسم لجملته المحايدة بينما شعر تجاهها بأسى شديد، أحسَّ بأنها امرأة تعيش في وهم زائف، تألّم لانكسار وردة أمامها وتعجّب لعدم وجود أي شبه بينهما في شيء وقد ركعت بجوار المعشرة في طاعة غريبة. خجل أن يسألها إن كانت أمها حقاً! مدّ يده لمصافحتها.

- سأتبعك إلى الأسفل.

- ولماذا؟

- أودّعك!

تمنّى لو يسألها أسئلة صغيرة:

- لا أحب أن يشيّعني أحد، عودي وسنتحدث لاحقاً.

أفرحها كلامه، وأفرحها أن صحّته تعود إليه، تركت كفه ليمضي هابطاً وصدى وقع أقدامه يتردد في مسامعها بلذة خاصة، صخبٌ بعثر عتمة درجات الدار. خرج، وقف وسط ساحة بين مجموعة الدور، سَحَرَه منظر القناطر المتصلة من دار إلى دار، بعضها لها نوافذ صغيرة والبعض دون نوافذ، سار في أزقة متابعاً تلك القناطر تصل الدور ببعضها.

***

قبيل غروب الشمس كان متردداً: أيقضي وقته في خلوته أم يمضي إلى شوق حكايات العظمي؟ يشعر أنه لا يستطيع أن يعيش دون سماع حكايات. عبر أزقة أسواق الحَبّ والملح، لاحظ قلة حركة المارة، سمع البعض يتحدث عن هجوم مرتقبعلى صنعاء للقبائل المناصرة للملكية، سار ودويّ المدافع يُسمع بوضوح، يتساءل: هل الحرب لعبة واتفاق بين الأطراف؟ كلَّما تغلب طرف تراجع ليتيح للآخر التقدم، فها هم الناس يتحدثون عن تقدم القبائل وغداً يتقهقرون، ليأتي دور الجمهوريين: لعبة يجيدها حتى الصغار.

فضَّل قضاء أوقاته منكفئاً على صلاته، يرتّل القرآن الكريم في خلوته، حتى زوال خطر المعارك التي تقترب من صنعاء، يفكّر في الخروج من صنعاء والبحث عن أبيه وأمه.

استقام يصلّي بفكر مشتت، ينتقل بين لحظات زيارته لتلك المرأة المتعجرفة وبؤس وردة، صوت العظمي وحكايات عدن، أمه التي يشعر بحضورها دوماً.

لعدة أيام لم يخرج، تصعد إليه وردة، تنتظر أن يسألها عن أمها، عمَّا أثاره أو لاحظه عند زيارته لدارهم، يتشرنق بصمته، تجلس بجواره بعد مراقصتها للحمام، تُدحرج عدة كلمات، تراه يداعبها بنظرات غير واضحة، تكتفي بمراقبة وجهه تارةً وأخرى تلك المخلوقات التي تملأ السطح.

في ذلك المساء لم يستطع مغالبة شوقه إلى حكايات نساء عدن، قطع صلواته، لفَّ شاله حول وجهه، نزل رغم سماعه دويّ القذائف التي تطال بعض الشوارع والمنشآت من الجبال المحيطة بصنعاء، أزقة خالية، سلك أقصرها حتى كان أمام بائع قات باب السبحة الذي وجده على وشك الإغلاق، ابتاع ربطة قات وتوجه ليندغم بعتمة سمسرة أبي عامر:

– حدثني إحساسي بأنك ستأتي اليوم، أين غبت أيامك الأخيرة؟همس العظمي وهو يصافحه، ثم نظر في عينيه وقال: ألا تسمع عواء المدافع، إنها تدعونا للقتال يا صديقي، يبدو أنهم يخططون لاقتحام صنعاء هذه المرة!

تأمله ليرى وجهاًيزداد إنهاكاً، هز رأسه:

– هي لعبة، لا تكترث لعواء المدافع، فلا الملكيون سيدخلون صنعاء ولا الجمهوريون سيدحرونهم عن جبالهم إلا باتفاق مسبق. تجارة، الكل كاسب باستمرارها.

– لكنّ الضحايا من الناس كثر!

– الحروب وقودها الدَّهماء والسذّج...

–أمرك يثير العجب!

– لن تنتهي الحرب إلا إذا كان الجميع كاسباً!

– لا أريد مثل هذا الكلام.

– أتيت شوقاً لأسمع تلك القصص،ما لي وللحرب...

قاطعه:

– عليك الدور في المنادمة الليلة.

قاطع حديثهم صوت شاعر الثورة يبربر ملوِّحاً بيديه، ملتفتاً إلى من تبقّى على مصاطب مضغ القات. تحلَّق البعض يشدُّهم الفضول، سأل أحدهم فردّ رافعاً صوته عالياً:

– يا رفاق، زميلنا قادم من خط المواجهة، يقول اسمعوا الراديوييثّ دعوة القائد العام لكلَّ أبناء الشعب اليمني أن يتوجهوا للانضمام فوراً إلى لجان المقاومة الشعبية والقوات المسلحة للدفاع عن صنعاء، وأنهم يذبحون الناس دون تمييز، فهل ننتظر حتى يصلوا إلينا؟

تداخلت أصوات من في السمسرة، ارتبك الجميع،ارتقى العظمي إحدى المصاطب ملوِّحاً بكفه:

–أيها الرفاق، إنا خارجون للقتال فمن أراد أن يأتي معنا فليأتِ، الثورة والجمهورية تدعونا، العزة والكرامة تستنجد بنا.

ضجّ الجميع بصوتٍ واحد: «سنخرج، سنخرج». لم تمرّ لحظات حتى لبس العظمي زيَّه العسكري الذي يحتفظ به على مشجب جدار السمسرة، لا يعرف الملثّم ما عليه فعله، وجد نفسه يتبعه خارج السمسرة، يسير منقاداً عكس قناعته. خرجوا من شارع السبحة، سوق المطيط، هبطوا عتمة السايلة، يسيرون في مجراها صعوداً، يرتفع وقع أقدامهم على حصىالسايلة، يبربر شاعر الثورة ليردّ عليه العظمي، يسير مسلوب الإرادة، كانوا خمسة عشر شاباً، يتمنى الملثم لو أن فمه يرفض، أن يفر بعيداً.

كمن يشعر بما يدور في نفسه،يقبض العظمي بكفّه وصوته يرتفع وسط الظلام: ألا يسمع النائمون نداء الوطن؟ كيف ينامون وأعداء الجمهورية يتسلَّلون إلى مخادعهم؟ سيذبحونهم كالدجاج ويستحلون أعراضهم وينهبون ممتلكاتهم، كيف يضاجعون نساءهم والدم ينزف على كل جبل؟

اقتربوا من جسر العرضي، أضواء العربات تعلو وتنخفض، أنين المحركات من حولهم ترتفع كلما اقتربوا، أصوات ترتفع هنا وهناك، عبروا تحت الجسر، رأى نفسه يخطو باتجاه ملك الموت، يقتربون من جموع أناس كثر.

أمام البوابة تقاطروا بعد أن عرّف بهم الصبري ليلحقوا به، ساحة تعجُّ بطوابير الجند، عربات تخرج محملةً وأخرى تدخل من الباب الغربي، صفوف هنا وهناك، غبار يحجب الأضواء، أفراد يُحملون على عربات وآخرون يفرغون بعضها، مكبرات الصوت. انتظموا في صف أمام ضابط مكلَّف، جسد الملثم يتفصَّد عرقاً كلما اقترب دوره.

مردّداً (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون)، وقف أمام الضابط المكلف:

– اسمك؟

تلعثم، رفع الضابط صوته: هل لديك هوية؟ لم يجب: هيا أزل لثام وجهك! وقف الضابط مادَّاً يده. تراجع إلى الوراء، تمنى لو أنه أمره بخلع ملابسه على لثامه، سريعاً ما أشار الضابط إلى أحد الجنود بإبقائه جانباً، تهاطل رعب قلبه، استكان يتمتم بأدعية وتعاويذ، يدعو الله أن يخارجه كما خارج سيدنا يوسف، ما هوَّن عليه أن العظمي وشاعر الثورة كانا قد انتظما في طابور قريب، وضع في دماغه ما عليه قوله وهو يرى من في الطابور يتناقصون، استعاد هدوءه يردّد كلمات مرتبة. أكمل الضابط استكمال بيانات الطابور، أشار إلى الجندي باستعادة الملثم، انكفأ مزيلاً لثامه، متذرّعاً بحمَّى تنخر جسمه، مستعيراً ذلك الاسم (شيزان)، أكمل الاسم الرباعي كيفما اتفق، نافياً أن تكون لديه بطاقة شخصية، موضحاً أنه لايعرف كيف يصوِّب فوهة البندقية وأنه لم يحمل سلاحاً يوماً، وأنه جاء تلبيةً لواجب يمليه عليه ضميره تجاه وطنه. ابتسم الضابط

بعد أن أكمل تدوين البيانات المطلوبة ثم صافحه مشجّعاً، آمراً الجندي بمرافقته لاستكمال توزيعه على شُعبة الفرق المساندة.

بيت بوس

يقلِّبُ بطاقةً بين يديه سُجِّل عليها شيزان، رقم، وصِفَة جندي بشُعبة الفرق المساندة. عرف أن من جاء معهم قد تم توزيعهم حسب مهاراتهم، فهناك من لديه دراية بحمل السلاح، وآخر وزّع مع فرق الإسعاف، وآخرون لنقل المؤن والذخيرة، هو وزِّع ضمن فرق حفاري الخنادق والقبور الجماعية. خلال لحظات كان وعدد من أفراد المقاومة الشعبية على ظهر عربة نقل عسكرية محمّلة بصناديق الذخيرة خرجت تتبع عدة عربات، ليلٌ عاصف بأصوات القذائف،حاذت العربة مقبرة خزيمة جنوباً باتجاه حدَّة، تجاوزت العربات أطراف صنعاء، يرى أفقاً يبرق ويومض، تقترب العربات أكثر، تزداد روائح البارود مع ارتفاع دوي القذائف، عربات تسرع في الاتجاه المعاكس تحمل جرحى، لم يكن إلا أن أطفأت العربات أنوارهاوخففت من سرعتها، تعالت أصوات الفزع، اقتربوا من تجمعات سكانية سُمع بعضهم يهمس بأنها قرية (بيت معياد)، ترى أشكال المباني القريبة.

أخيراً وصلت العربات إلى الموقع المحدد بين (بيت بوس) و(حَمِلْ) و(إرتل)، أفرغوا حمولة العربات في خط التموين المحدد بداخل تجمعات خيام، عربات مصفحة، حركة جنود، صعدوا بهم ربوة عالية كانت أحد مواقع الدفاع المستهدفة من قبل المهاجمين، تهتز الأرض من تحت أقدامهم وتضيء انفجارات قذائف الربوة ومحيطها، تبادلهم قوات الجمهوريين إطلاق نار كثيف ليُضاء الليل باللهب ويتعطربروائح البارود.

لم يشعشع وهج الفجر حتى كانوا قد نقلوا شيزان ومجموعة من المتطوعين لصدِّ هجوم من جبل (براش)، وهكذا يتنقلون محمِّلين العربات بالذخيرة والبنادق وتارةً بقذائف المدفعيةلأكثر من ست جبهات ملتهبة. يحاول المرتزقة قيادة القبائل للهجوم المكثف لدخول صنعاء، وقد أعانهم أعوانهم وجواسيسهم من داخل صنعاء بتحديد المواقع الحيوية لقصفها، مراهنين على اجتياح المدينة من عدة اتجاهات. اشتدت المعارك ليسيطروا على عدة قرى في ضواحي صنعاء (أرتِلْ) و(حَمِلْ) و(شعسان)حتى جبال النهدين و(حدَّة) و(عَصِرْ). خلال الأيام اللاحقة تكاثرت التجمُّعات القبلية الموالية للملكية وزاد عنف الهجوم من الجبال والسفوح الجنوبية والغربية، لتتراجع القوات الجمهورية المدافعة إلى أرض سهلية مكشوفة، وأضحت الجبهة لا تهدأ ليلاً ونهاراً. تكاثرت أعداد المتطوعين من أفراد الشعب وأخذت مجاميع كبيرة بحفر خنادق دفاعية طويلة وبناء السواتر الصخرية والترابية. شيزان ضُمَّ إلى تلك الفرق، وأمسى لصيق المواقع ليل نهار ليلتقي بشاعر الثورة في إحدى الجبهات، ويعرف أن العظمي في موقع إلى الغرب باتجاه (غيل حدَّة). تقرَّر الهجوم الكبير لصدِّ فلول الملكيين بإشراك الطيران الذي ساهم بإنزالٍ مظليٍّ خلف خطوط القبائل المهاجمة، كما قصفت مواقعهم المتقدمة في السفوح والتلال. كانت الخطة ناجحة،

إذ أن قواتٍ جمهورية تقدَّمت من سفوح (عيبان) و(حدَّة) لتدعم القوات الزاحفة على التلال وسفوح مواقعهم. ثلاثة أيام من القتال الشرس، شوهد بعضهم يفرُّ مخلِّفاً عتاده وجرحاه في مواقعهم، قصفت الطائرات تلك المواقع في قمم جبال عيبان إلى الجبال الجنوبية لصنعاء ليطبق المظليون من خطوطهم الخلفية على خطوط إمداداتهم، في الوقت الذي كانت القوات المدافعة تستولي على مواقعهم المتقدمة موقعاً بعد آخر، لتتساقط وتُرى أعلام الجمهورية ترفرف أعلى قمم الجبال. سارع الجميع للصعود، الأنين يملأ الأنحاء، فرق الإسعاف تحمل من لم يلفظ أنفاسه، جثثٌ تغطي المنحدر. صعد شيزان ضمن فرق الحفر: رشاشات إنجليزية على قواعدها، مدافع أميركية في مرابضها، عدة صناديق ذخيرة متنوعة، صناديق قنابل يدوية، صناديق عليها العلم الأميركي لم تُفتح، صناديق أخرى مفتوحة تبرز محتوياتها من بنادق رشاشة ومواد معلبة. بدأ شيزان ومن معه بحفر القبور الجماعية، يجمعون ما يصادفهم من جثث وأشلاء متناثرة، لا يفرّقون بين قتلى المهاجمين أو المدافعين، يجمعونهم من السفوح والمواقع المدمّرة، يتسابقون على تفتيش بقايا ملابس جثث المهاجمين ليجمعوا ما يجدون من جنيهات ذهبية تلمع.

يصرخ شيزان فجأةً وهو يحمل رأس أحدهم، لم يكن غير رأس شاعر الثورة وقد خرمته الشظايا، لم يستدل على بقية أشلائه بين أشلاء غطَّت المنحدرات.

تراجع المهاجمون إلى مواقع خلفية وأخذوا يعدُّون العدة لهجوم جديد، بينما خضع شيزان وأعضاء المقاومة الشعبية ممن لا يجيدون استخدام السلاح لتدريبات مكثفة على استعمال الأسلحة الخفيفة والقنابل الهجومية. سكن الحزن قلب شيزان باحثاً عن العظمي.

***

بعد عدة أيام وصلته أخبار، أخبروه أنه أصيب في المواجهاتوأنه نُقل بين المصابين إلى أحد المستشفيات، لم يصطبر البقاء، ما أن أذنوا له بإجازة حتى حمل ما حصل عليه من جُعب رصاص، عائداً باتجاه السمسرة. قادته قدماه عبر أزقة صنعاء المعتمة، ساحة سوق البقر، لم يأبه بصوت وردة تقول لزوجها: «هذا ساكن الخلوة وقد عاد»، ولم يتحرك الحاج في متكئه، روائح (الضفع) وأدخنة المواقد، صعد صامتاً يحمل حزناً ثقيلاً.

صباحاً صحا على همس، لمس على خدّه، ضوء يتدفق من بابه المفتوح، يتساءل: كيف احتواه ملاك النوم؟ ينظر إلى عينيها:

– كان الباب مفتوحاً!

استغرب كيف ترك الباب مفتوحاً!! عادت مناظر جبهات القتال، رأس الشاعر، تلك الأشلاء، روائح الموت يتنفَّسها جلده. اعتدل في جلسته زائغ البصر، منكس النظر، رمق السطح من فتحة الباب ولم يرَ الحمام كعادته على السطح، شعر بالضيق، حاول أن يبدو طبيعياً، يسألها: كيف يكون الإنسان إنساناً دون سماعه لغيره؟ ما نحن إن لم نسمع ما يعتمل حولنا؟ أن

تفقد صديقاًمعناه أن تفقد طعم الحياة، ما طعم الحياة دون حكايات؟ لم تعِ ما يرمي إليه، أشار لها بالجلوس، ناظراً في عينيها، قطَّبت بين حاجبيها:

- كعادتك لا تود أن تفهمني...!

قاطعها:

- بل أريد وأريد، وأن أسمعك أنت أيضاً.

-أين كنت؟ ولمَ نظراتك فجعانة؟ كفاك مجرَّحتان، ساقاك. لا تراوغ!

- ألم تسمعي بالهجوم الكبير من المرتزقة؟ كنت هناك.

- أين بندقيتك؟

- سلاحي المعول، أنا لا أجيد استخدام الرصاص، نحفر للموتى وخنادق للأحياء، نجمع الجثث المبعثرةأشلاءً ومُضغاً على الصخور وسيقان الأشجار وتراب المنحدرات. بأصابعي كنت ألتقط شظايا العظام، أحمل بقايا أقدام، صدوراً، أكفاً، قطعَ لحمٍ محروق مشبع بالبارود. صمت قليلاً ثم واصل: رأس أحدهم أتعبني، لم يبقَ منه إلا القليل، نخرته الشظايا، مزقت شطراً منه، حملته مرعوباً أن أرى الكلاب والقطط في الأيام التالية تتشمَّم الأحجار، تلعق الصخر، بعضها فاز بقطع لحم وكسر عظام، حواسها قادتها للوصول إلى تلك البقايا الآدمية، حتى الزواحف خرجت تبحث عن بقايانا. حزين لأنه قُتل دون أن أفهم صوته، وأكثر حزني أنّ مَن يسقطون هم من يدفعون الثمن بأرواحهم، وغيرهم من اللاعبين الكبار يجنون الأرباح.

- الحمد لله على سلامتك يا بطل.

- «يا بطل» كلمة يردّدها الساسة ويدفع ثمنها العوام، أرجو ألَّا تكوني كذلك!

- أمرك اليوم مختلف، توقعتُك كعادتك ستأتي مفضّلاً الصمت، أو مريضاً وحزيناً، لكنك تعود اليوم متَّقداً بالحزن.

- ماذا تريدين من شخص جالَسَ الموت، شاهد سفوحاً تغطيها بقايا آدمية، التقطت أصابعه شظايا ومُضغاً، اشتمّت أنفه روائح البارود وطعم الموت؟

- لا أريد منك شيئاً، وأحمد الله أنك تشاركني، وأنّ لك نفساً للحياة والحديث إليَّ.

تركته لخلوته، حمد الله كثيراً أن روحه لم تنهَر لتلك المناظر التي عاشها، مردداً: «لقد تجاوزت ضعفي، لم يعد يرهبني شيء»، قضى نهاره يصلي حمداً لله على ما هو فيه، محاولاً ترتيب أفكاره، أن يخرج باحثاً عن العظمي. عادت عدة أصوات تتجاذبه، أن يذهب لمقابلة القاضي يوضح له ما هو فيه، أو الخروج من صنعاء باحثاً عن أبيه وأمه،أو أن يتقصَّ من ذلك الأعمش، كل ذلك يلح عليه إنجازه، يشعر أن عليه إنجاز عدة أعمال في وقت واحد، أن يكون في أكثر من مكان، أن يكون أكثر من ذات. قهقه عالياً لتلك التخيُّلات، خاف أن ينزلق في الجنون.

أثنى على الرسول بالصلاة في سرّه وقرر البحث عن صديقه، يدعو الله أن يكون على قيد الحياة ثم بعدها يقرر ما عليه فعله، تمنى أن يكون خبر إصابته إشاعة، تصوَّره في مُتَّكئه بسمسرة أبي عامر، فضَّل أن يعرِّج على السمسرة أولاً، طوال الطريق يتمنَّى أن يجده يمضغ القات. وصل باب السمسرة، كرَّر أدعيته، دخل تسابقه عيناه إلى المتكئات، صخبُ ماضغي القات (المخزنين)، أحاديثهم حول الهجوم الأخير على صنعاء، دور المساعدات العربية، صناديق الذهب السعودي، وتلك الأسلحة التي خلّفها المهاجمون. ظلَّ يمسح منتظراً أن يرى صديقه قادماً.

خرج صامتاً كما دخل، لم يتحدث أو يسأل أحداً، منظر رأس شاعر الثورة المخرَّم يلاحقه، توجّه إلى المستشفى الجمهوري، يسأل من يصادف،خشي أن يسمع أحدهم يعلن موته. حمد الله أنه سمع: «لا يوجد مصاب بهذا الاسم، قد يكون في مستشفى الثورة».

* * *

عنبر العناية المركّزة،أنين الأسرّة يصمّ الآذان،سرير أسقطت عليه خيمة شاش واسعة، أشار عليه شاب يلبس البياض: «ذاك من تبحث عنه!». تقدّم وسط رائحة تحتلّ أنفه منذ دخل بوابة مستشفى الثورة، عفن ممزوج بروائح اليود، صراع أبدي مع روائح الموت، يخاف أن يكون غيره، تردَّد في التقدم. صفُّوف أسرَّة ممتلئة، البعض تكدس أنينه بين الأسرَّة، قبل أن يستدل على سريره كان اليأس قد بلغ به مبلغاً وهو يطوف من عنبر إلى آخر: الباطنية، العظام، الجراحة. كلٌّ ينصحه بالذهاب إلى آخر.

أمام البوابة الخارجية تزاحمت عربات الإسعاف، الساحات الداخلية تعجُّ بالجرحى، ضجيج يتلف الأعصاب، ممرات، طواريد.

وكر عزرائيل

أشرقت عيناه بابتسامة وهو يرى وجه صاحبه، لم تكن تهمه أربطة الشاش المبقَّع بدم جاف حول رأسه وساقيه وأذرعه، بل كل جسمه، ولم يتبقَّ غير وجهه المتورم وصدره وأجزاء من ساعديه. سمع أنينه الخافت، ما لبث أن طغت عليه أصوات وأنين الأسرَّة المجاورة.

سأل الممرض:

– ما هي طبيعة إصابة صاحبي؟

أوضح له:

– شظايا قنبلة عنقودية مزّقت جسمه، الآن حالته أفضل مما كان، فقط ننتظر التئام جراحه.

بلهفة سأله شيزان:

– أيتعرَّف إلى من يزوره؟

– أهو قريبك؟

– زميله في الدفاع عن صنعاء.

– بالطبع يتعرَّف إلى المتحدث إليه.

– هل زاره أحد؟

– لا!

سمعه يهذي بكلمات غير واضحةثم يصمت ليعاود كما لو كان في جدلٍ محتدم، يتأمله، يهامس نفسه وقد أمسك بكفه: أرجو ألّا تموت. حرّك رأسه المضمّد ينظر من مغارتي عينيه، تشبّث بأصابع شيزان، حاول النهوض، دوَّت صرخة ألم وهو يتهاوى على السرير مستنجداً بكفه، نظر إلى عينيه وقد تغيرت ملامحه:

– إلى اليوم تتركني وحيداً يا ابن القحبة! سيأتي يوم تعرف من أنا، أأتيت متشفِّياً؟

صدمته تلك الكلمات!

– ...

– لا أريد نظرات الشفقة من أحد، أخرج من هنا.

– أنا صديقك! كيف تقول هذا؟

– هيا اتركوني!

أجهش باكياً.

– أبحث عنك منذ أيام، كيف تتفوَّه بتلك الحماقات؟

فاضت عيناه الغائرتان، تمتم بكلمات غير واضحة يلثم يديه، ساد صمت يحفّه أنين الأسرة. شدّ كفه صارخاً: أرجوك لا تتركني، الآلام تقطعني، أنقذني إن كنت صديقي،لماذا أنا دون سائر الناس؟ أقسم أني لا أخشى الموت،لكني لا أريد أن أعيش بقية حياتي عاجزاً.

– ماذا تريدني أن أفعل؟

– لعن أبوك، ابن كلب، أشكي لك آلامي ترد عليَّ بكلام مدري وشهو.

أدرك شيزان حالته الصعبة وقد عاد لنحيبه، فضَّل الصمت، عاد يمسك بيده:

– أرجوك لا تتركني، ألم تقل إنك صديقي، أخرجني من هذا الجحيم، جسمي يتعفن، الموت يتخلَّل أطرافي، لا تتركني، لا أحد لي.

انخرط في عويل وصراخ متواصل، لو لم يتعرف على وجهه لأنكر أن يكون هو من يتفوَّه بتلك الكلمات النابيةوذلك الاستجداء، رقَّ قلبه:

– أرجوك انظر إلى أسفل ظهري، أشعر أنه يتحلل، هيا أزل ذلك الشاش المتعفن.

طلب شيزان من الممرض أن يساعده فيما هو فيه، تقدّم بحقنة تحت صراخٍ مدوٍّ، انخفض نحيبه تدريجياً، سرت في عروقه مادةالتخدير ليصمت فمه وتتراخى قبضته، انسحب وسط ضجيج صراخ وأنين الأسرَّة.

خرج هارباً وسط روائح الموت، ركام الأجساد على جانبي الممر المؤدي إلى البوابة، نظرات حزينة ممّن يصادف، خرج وكلمات الصبري تلاحقه: «أرجوك لا تتركني، الآلام تقطعني». صوت الفتاة العمياء يأتيه من الماضي: «لن يفيد الندم بعد أن ترحل، تذكّر أنك رفضت السعادة واخترت طريق الشقاء». أصوات من الماضي تتداخل.

***

ما أن دخل خلوته حتى انخرط في صلاة يدعو ربه أن يدلّه على الطريق الصحيح، ليسمع أنين صديقه يأتيه ساجداً.ثلاثة أيام قضاها دون أن يخرج، تصعد إليه وردة صباحاً، يسمعها تثرثر حكايات وحكايات، يبادلها بحكايات من ماضي أيامه، تنصرف سعيدة، يعود لوحدته يسأل نفسه: إلى متى سأظل أدور في هذه الدَّوامة؟ لماذا أنتظر؟ ألم يقل الخالق الباري: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ * قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا، فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرا)؟ لمَ لا أفرَّ من واقعي، لماذا لا أغامر بالذهاب لمقابلة القاضي؟ أن أوضح له مقدار المعاناة التي لقيتها نتيجة إيماني به، سأوضح له الأمر الذي وصل إلى حد إعدامي!

قرَّر أن يُجدولَ ما عليه إنجازه، صَرَفَ النظر عن التواصل بالقاضي خوف الوقوع بين أيدي القتلة. صوت العظمي يستغيث: «لا تتركني للعذاب، ما لي أحد»، يسمع صوته يلاحقه،

قرر زيارته في طريقه لمغادرة صنعاء، وبدلاً من أن تكون الزيارة الثانية والأخيرة وجد نفسه يقرر البقاء إلى جواره حتى يشفى.

قبيل غروب الشمس تجاوز زحام البوابة، الممر الأول والثاني، فناء مزيج الروائح المقززة، أكوام المرضى، دخل عنبر العناية المركزة، ابتسم له ممرض العنبر، سأله عن حالة مريضه، هزَّ كفّه كمن يقول:«نص نص»، تقدَّم بخطى مرتبكة، وقف أمام سرير صديقه، لبرهة ظن أنها لن تنتهي ركّز عينيه، ملامحه جامدة، نظراته مخيفة، مدَّ له بكيس الفاكهة، مدَّ يده ليقذف به أرضاً وهو يصرخ:

– أيها الملعون، لا أريد فاكهتك، من قال إني أريد عطاياك؟ اغرب عن وجهي!!

صمت أنين العنبر، تحوّل كل شيء إلى عيون وآذان، بالفعل كان يريد أن يغرب. هرع الممرض يجمع ما تناثر تحت الأسرَّة، وقف يربِّت على كتف شيزان في صمت، ليتغير صوت العظمي إلى نحيب مكتوم ثم يعاود تأنيب شيزان:

– لم أتوقع أن تكون قاسياً هكذا، أن تغيب أياماً، رجوتك ألَّا تتركني، لا أريد أن تجلب معك شيئاً، فقط تعال، أريدك أن تكون بجواري، أن تأتي دون فاكهة، لا تحمّل نفسك شيئاً، أرجوك، جسدي يأكله الدود، أزل تلك الضمادات الملعونة، فُكَّ أربطتي سترى بعينيك، أحسها تخربش أسفل ظهري، آلام لا تطاق، أرجوك أنقذني، أرجوك.

لا يعرف إلَّا أنه أحسّ أمام نبرة صوته الباكي بالخزي، تلك الكلمات جعلته يشعر بالمسؤولية تجاهه، حينها قرر أن يظلَّ إلى جواره، وطلب من الممرض فكّ أربطته، ليصرخ:يالفظاعة الجراح! وجدا جرحاً غائراً أسفل الظهر، كوَّةً موحلةً بسوائل أقرب إلى المخاط، أو أنه صديد، روائح لا تطاق. نظر إلى الممرض:

– وماذا عن بقية جسده؟

– يلزمنا الكثير من المطهِّرات والشاش والقطن وسلفا وحقن البانسلين.

– هذا ما عليكم فعله!

– من أين يا صاحبي، ألا ترى الأعداد المتدفقة، جرحى الحرب يستهلكون كل شيء.

– ما العمل؟

– أن تتدبّر الأمر.

– كيف؟

– تشتري ما يحتاجه صاحبك من صيدلية خارجية.

– صيدلية! ألا تعرف أنه ضابط، وأنه من جرحى الهجوم على صنعاء؟!

– ولهذا أمروا بأن يكون في أفضل عنبر، عنبر العناية المركزة.

– أفضل عنبر!! كم نحتاج؟

- سأكتب المطلوب في ورقة.

-لا يوجد لديَّ مال! لكن لديَّ رصاص!

- رصاص،رصاص! هات وأنا أتدبّر الأمر.

عضلات فخذه الأيمن ممزقة، جبيرة جبس حول فخذه الأيسر، عدة جراح غائرة خلف رقبته. قام الممرض بتنظيف عفن أسفل ظهره حتى استعاد لونه الأحمر (المجغور) بالدم، خيِّل إليه ظهور بعض العظام، طهَّره ووضع مسحوق (سلفا) ثم انتقل إلى جرح آخر، استمر بتنظيف جراحه وتطهيرها ولفها بشاش، آخر ساعة ونصف لم يأبهوا لكلماته النابية وهو يصرخ شاتماً.

***

قبيل مغيب شمس اليوم الثاني كان يقف أمام سرير صديقه، ما أن رآه حتى تأطرت عيناه الغائرتان بابتسامة مريحة، نظرات خجلى.

- أهلاً بصديقي الصدوق، كان صوته حزيناً وخفيضاً أدهش شيزان.

- سعيد بعودة صوتك الذي أعرفه،كيف تشعر الآن؟

- هل ستظل واقفاً؟ اجلس هيا، لا يوجد هنا غير الأنين والصراخ كما ترى، أشعر بأننا في وكر عزرائيل، فلا تبخل عليَّ ببعض الوقت.أشعر بجسدي خفيفاً، وتلك الآلام التي كادت تفقدني عقلي قد خفتت، وهذا لا يعني أن تحضر لتنصرف، أنت لا تعرف أين يذهب عقلي طيلة الوقت، أشعر بملك الموت يدخل عبر الجدران، يحوم فوق الأسرَّة، يهبط يبحلق فيَّ، أرى روحي في عينيه، تلفحني أنفاسه، وأجزم أن العنبر مقرّه ونحن الوافدون عليه، يصطبح بأحدنا ويتغدّى بآخر، وأحياناً كثيرة لا يكتفي بواحد، أتوقع في كلِّ وقت أن يدخل كفّه حلقومي، أن يسحب أنفاسي التي ما أن يقترب حتى ترتفع وتيرة زفيري وشهيقي، وأحايين أزفر ولا أصدق أنني سأستعيد شهيقي.

لم يكمل حديثه حتى ارتفع نحيب مُتحلِّقين حول سرير مجاور، للحظات ثم دخل عمَّال النظافة ليحملوا المتوفَّى على محفّة مهرولين به خارجاً. واصل حديثه لشيزان دامع العينين:

- أرى نفسي وقد حملني عمال النظافة على محفتهم،ألا ترى؟ نحن هنا في قبضته، منذ دخولي لم أرَ أحداً عاد إلى بيته، جميعهم يُحملون على محفات النظافة.

أن أرى وجه صنعاء نقياً من أدخنة الحروب، أن يتوقف الاقتتالوتنتصر الثورة وتستقر الجمهورية.

صمت برهةً ثم التفت كمن تذكّر شيئاً يسأله:

- ألم تصادف صديقي شاعر الثورة، أو سمعت أخباره؟! أكيد هو لا يعرف أني مصاب وإلا لكان قد أتى مرابطاً بجواري!

لم يعرف ما يقول بعد أن خنقت العبرة حلقه، يتأمله صامتاً، تماسك قبل أن ينطق:

– صديقنا الشاعر أعطاك عمره...

– ماذا تعني...؟ صمت يتأمل عيني شيزان الذي هز رأسه:

–لقد استشهد!

–استشهد؟ ليرتفع نواحهما، اقترب الممرض، تبعه آخر، استقرت عيون العنبر عليهما، واصل العظمي نحيبه محاولاً النهوض، فقد سيطرته، أخذ يحاول الهبوط عن سريره وكأنه فقد وعيه، تعاون الممرض وشيزان على تهدئته،لاحظا تشرُّب أربطة أطرافه بلون الدم، استنجد بالممرض، نجحا في حقنه ليتراخى جسده ويتهاوى صوته وهو يهذي: يا أبناء الزانية قتلتوه! سأنتقم يوماً، أنتم لا تعرفون من أنا...

مرّت الأيام وقد استقرت حالتهوأضحى الممرِّض يغيِّر أربطته مقابل حفنة رصاص لكل مرة، وانتظمت زيارة شيزان، يحمل أغصان القات، يمدّ الممرض ببعضٍ منها. في إحدى مسامراتهما تحدّث إلى شيزان حول شاعر الثورة:

– قد تتساءل حول سبب حزني على فقد ذلك الشاعر،سأحكي لك ما يضيء بداية صداقتي به:

عرفته ثائراً يحلم دوماً بعلم واحد يرفرف فوق أصقاع شبه جزيرة العرب، يرسم خارطته من العربي إلى الأحمر، ومن أطراف الخصيب إلى بحر العرب.

قدِمَ إلى صنعاء متطوعاً للدفاع عن الثورة مع جموع قدمت من جبال الضالع والشعيب ويافع والصبيحة وأبين، لم يعُد مع من عادوا، ظلَّ يقاتل في سبيل انتصار الثورة والجمهورية ويبشّر دوماً بقيام دولة تشمل أطراف الجزيرة، لم أكن أعي والكثيرون تلك الرؤى التي كان يدعو لها من قبل ودوماً ما يردّد: نحن شعب واحد، وتلك الحدود الوهمية هي حدود حكَّام تسيّرهم مصالح استخبارات الشرق والغرب! نحن أمة واحدة، ومن يعملون عكس قيام دولة عربية هم أصحاب المصالح، ولذلك سيستمر التخلف فينا والضعف ما دامت تلك الحدود الوهمية.

أول معرفتي به لحظات سماعنا أخبار إذاعة الثورة باستشهاد الثائر علي عبدالمغني، كنا في(حرف سفيان)، لفت انتباهي أول مرة صوته الجهوري وهو يلقي قصيدة عن الثورة والحرية والعدالة، ومرة أخرى ألقى فيها خطاباً في أحد الاحتفالات بانتصار جيش الثورة في إحدى المعارك شرق خولان. حين يصعد المنبر يأسر الحضور بأسلوبه الرائع وكلماته المعبرة، ولذلك أُطلق عليه صفة (شاعر الثورة) ويوم أعلنت إذاعة الثورة نبأ استشهاد القائد علي عبدالمغني خطب خطبة كان مطلعها: اليوم استشهد أبرز ثوار الجزيرة العربية على أيدي قوى التآمر وأعوان الرجعية العربية، لنعرف لاحقاً أنه لم يسقط في معركة بل بخدعة من مشايخ (الطيال) الذين خططوا مع ثوار صنعاء للتخلص منه. استدرجوه إلى مناطقهم تحت مبرر إقناع القبائل في تلك المناطق بالانضمام لتأييد الثورة، ولم يكن علي عبدالمغني إلا العقل المدبّر والمنظم لقيام الثورة،

ولذلك أرادت دوائر التآمر أن تصل إلى القلب بدفع المشايخ لخيانته بالذهب والمال والسلاح، ظناً منها أنّ باغتياله ستنتهي الثورة.

لتتوجه قوات الثورة تآزرها قوات عربية (مصرية) عقب استشهاده إلى مناطق تلك القبائل لإخضاعهم وتأمين مناطقهم، لتأتي الأخبار بأن معظم تلك القوات أُبيدت ولم ينجُ منها إلا القليل، وهي محاصرة في منطقة (صروَاح). أضحت تلك المنطقة التي استشهد فيها الثائر علي عبدالمغني مثلثاً مخيفاً ومرعباً، وقبل الإقدام على إرسال قوات أخرى أخذوا يدرسون سبب توالي تلك الهزائم، فاتضح أن رجال القبائل تجيد استغلال تضاريس مناطقهم، كما تستغل عدم خبرة القوات العربية وغيرها في حروب الجبال، وأنّ نقيل (الوتدة) أمسى يمثل مقبرة لقوات الثورة. في تلك الأيام التحقت بفرقة تكوَّنت حديثاً سميت (فدائيي الثورة)، تمّ اختيار عناصرها من الراغبين في الانضمام إليها من أفراد الجيش والأمن والمقاومة الشعبية، وكان الجنوبي صاحب فكرة إنشائها وأصبح القائد لها. التحقت إعجاباً بذلك القائد الفذ الذي دوماً ما يثير إعجاب من يستمع إليه وبآرائه في الحرية والعدالة، وكانت أول عملية أشترك أنا بها أثناء تنفيذ مهمة مشتركة مع الجيش العربي لتأمين تلك المناطق التي ذاع صيتها بعدائها للثورة، لتتحرك من صنعاء فرقة مدرّعات مدعّمة، متجهة شرق صنعاء، شاقةً طريقها من (دار سلم) إلى (جحانة) من (خولان) لتتمركز طلائعها على جبل عالٍ وعدة هضاب تطلُّ على مسطّحات صخرية شرقاً. لم تكن من مقاومة تذكر أثناء تقدم الجيش العربي أو تجمعات مسلحة بطول الطريق. بعد تمركز تلك القوات أرسلت قوة رمزية مكوَّنة من دبابتين وثلاث عربات مصفحة وعربتي نقل جنود ومواد تموينية. كانت مجموعتنا الفدائية مكونة من واحد وعشرين عنصراً، سرنا على أرض صخرية مستوية، مررنا بعدة قرى، خرجت النساء والأطفال على سطوح المنازل، و(هقرت) الكلاب حتى أطراف تلك القرى، هبطنا بين جبال شاهقة لنتوغَّل في منحدرات نقيل (العرقوب) دون صعوبة أو أي مقاومة. اقترب النهار من نهايته وقد أضحى مجرى السيل في أضيق حالاته في مضيق (الوتدة) لتصطف حولنا جبال عالية، أرض خالية، وجروف عالية، تردد تلك الجبال صدى محركات عرباتنا، وما أن وصلنا إلى أضيق مسافة بين جبلين فجأةً تدوِّي عدة طلقات ويتردد صدى انفجار قوي. لم نرَ أي تحركات، فقط منحدرات صخرية، أشجار تهزها الريح، قمم عالية، ودويّ رصاص منهمر، ردّت مدافعنا ورشاشاتنا بقذائفها للمجهول لينهمر رصاصهم أكثر، وقع عدد من الجنود بين قتيل وجريح ممن كانوا على ظهور العربات، شبَّ حريق في عربة محمّلة بالتموين، هبطنا نحتمي تحت عرباتنا لتصدر الأوامر بخروجنا والاحتماء بالصخور وجذوع الأشجار، على أن يبقى من بداخل المدرعات. حددنا إطلاق النار في ثلاثة مستويات: قمة الجبل الأيمن وموقعين في سفوحه. أظلم الليل، هبطنا لنتشاور على خطة، وفي جنح الظلام كان على المجموعة الفدائية أن تنقسم إلى ثلاث مجموعات، إحداها تصعد ملتفّةً حتى موقع القمة، والثانية

والثالثة تلتفّان من طريقين مختلفين لتشكّلا كماشة على موقعي السفوح، لتتمركز الجماعات الثلاث في مواقع تختارها حتى شروق الشمس، وبقية الجنود يتمترسون أسفل السفوح، على أن تبقى مجموعة فوق العربات لرفع أعلام الاستسلام.

ذلك الجنوبي كان خبيراً بالتعامل مع عتمة الليل، كنت أنا وهو ضمن مجموعة الالتفاف على موقع القمة، لم ينتشر ضوء الفجر الفضي إلا وقد أخذنا مواقعنا بالقرب من موقع به مدفعان وعدة رشاشات يشرف على ذلك الأخدود اللعين، نراهم يصلّون، يتحركون في دعة، قرى قريبة يخرج سكانها بمواشيهم، دخان المنازل يتصاعد.

***

وضعنا مسارين لمجموعتنا بعد أن انقسمنا إلى مجموعتين، الأولى اتجهت لتتخفى خلف صخور من جهة مختلفة، والمجموعة الثانية تفاجئهم من الخلف بعد اشتباكهم مع المجموعة الأولى، ولا يتم البدء إلا بعد أن يكون من عليهم رفع رايات الاستسلام في الأسفل، وبالفعل رأينا تلك الأعلام ترتفع خجولةً من فتحات المدرّعات، يلوّحون بها وقد وقفوا على عرباتنا. في البداية لم يستجيبوا أو أنهم ينتظرون أمراً ما. بعد وقت انطلت عليهم الحيلة، خرجوا من خلف متاريس صخورهم وبقي قلة يتحصنون، نراهم من الأعلى يهبطون بحذر، لم يكونوا قلة، اقتربوا من العربات مشرعين بنادقهم، لم تكن مفاجأة حين صبُّوا نيرانهم على حاملي الرايات ليفاجأوا بسرعة لهيب رصاص المجموعتين تحصد أرواحهم من جهتين، حاول المتمترسون الهروب، لكن الرصاص لاحقهم ليرتفع دوي قذائف موقع القمة، رددت جروف الجبال المحيطة صدى الانفجارات بصبّ نيرانهم لإعانة قبائلهم في الأسفل، لتربكهم نيران مجموعتنا الأولى، حوَّلوا فوهات رشاشاتهم وأعطونا ظهورهم، لنزحف بزاوية حادَّة، حتى إذا ما اقتربنا قذفنا بعدة رمانات غطّى دويُّ انفجاراتها على صرخات الموت، تصاعدت سحب الدخان وشبّ حريق، انقضضنا بسرعة مباغتة على بقايا الموقع لتدور معركة ضارية مع من تبقّى، استشهد منا واحد وجرح اثنان، كان من بينهما الجنوبي شاعر الثورة الذي أُصيب بشظية مزقَّت فكَّه وقصبته الهوائية، هبط منا من يحملون جرحانا، وكنت أنا من حمل الجنوبي ليصعد من تبقى من فرقتي السفوح، وتمت السيطرة على موقع كان يهيمن على المنفذ الوحيد، فرضة (الوتدة)، وخلال ساعتين صعدت مجموعة من الجنود لاستلام الموقع بما تبقى من مدافعه ورشاشاته، وكذلك مخزون أسلحة وذخيرة في كهوف ومغارات تم اكتشافها أثناء تمشيط الجبل الأبيض، ونفذت بقية القوات لتصل إلى (صروَاح) وتفك الحصار عن المحاصرين هناك.

ومن تلك اللحظات فقد الشاعر قدرته على الكلام نتيجة كسر فكه وتمزق حباله الصوتية، كنت مرافقاً له طيلة فترة رقوده في المستشفى، خلال تلك الأيام استطعت فهم معظم ما يتفوَّه به، زادت صداقتنا من خلال فهم ما يريد إيصاله من أصوات، كان ما يشدني إليه تلك

العزيمة التي لا تلين، فلم يتأثر يوماً بتعليقات البعض أو سخريتهم من ذلك الصوت الذي يصدره أثناء محاولته الحديث، ودوماً تحركه روح الفداء والإيثار، فتراه يتقدم دوماً في أي هجوم، وتراه يبشّر بيوم النصر الكبير.

بعد خروجه من المستشفى نجلس معاً، يُسمعني جديده بعد أن فقد القدرة على الكلام الواضح، يخبرني بكلِّ ما يفكّر به، لتتجذَّر علاقتنا حتى كنت أشعر باندماجنا روحياً– صمت العظمي قليلاً لتفيض عيناه بالدموع وتضيء وجهه ابتسامة– حتى أننا كنا نفكر بنسق واحد ونحلم بنفس الأحلام– عاود صمته للحظات،ثم التفت: «هل أقيمت له جنازة تليق بمكانته كمقاتل عظيم؟». تجمَّدت الأحرف في حلق شيزان وهو يستعيد مشاهد الأموات، محاولاً ضبط نفسه:

– لم نفرّق بين جثث وأشلاء قتلانا وقتلاهم، لنهيل عليها التراب في حفرة جماعية، حتى رأس صديقنا وقد خرمته الشظايا، فكّه المحطّم.

– ها هو يبذر بروحه تربة وطنه لتنمو غداً أشجاراً ظليلة، نسمِّدها بأجسادنا ونرويها بدمائنا ليخضرَّ فجرٌ جديد، دون أن يُعرف لنا قبر، تنتظرنا أمهاتنا بما تبقى لهن من حياة، ينسج أقراننا قصصاً وحكايات حول أعمالنا، تنتظرنا مرابعنا فلا نعود حتى تعود الريح بالخبر، ولا تعود عيوننا ترى ما أحببناه صغاراً... – حينها تبلَّد صوته وانشغل يمسح دموعه ومخاطه، ليشاركه شيزان نوبة بكاء جماعية سريعاً ما عمَّت أفواه أسرة العنبر، ينتشر العدوى إلى من في الممرات.

ظنَّ شيزان أن الليل لا يزال مبكراً، أحسَّ بأنه قد قام بواجبه تجاه صديقه، استمع إليه كما يجب للصديق أن يستمع، شاركه النحيب كما يكون النحيب، تفوَّه بكلمات الوداع حتى سنَّ الصبري رماحَ كلماته المقذعة ليطلقها دون أي اعتبار، نوبات ألم أمسى شيزان يتوقعها، ولذلك أشار للممرض بسرعة القدوم ليتعاونوا على تثبيته وحقنه بحقنة نام بعدها كجذع هامد.

باب اليمن

خرج من بوابة المستشفى وقد علِقت به روائحُ وأصواتٌ ومناظرُ تدمي قلبه، عربتان ومجموعة من العسكر تزدحم أمام البوابة، لم يعر ضجيجهم أي انتباه، تجاوز الليل منتصفه والعتمة تحتلُّ كلَّ شيء، يفكّر في طريق يسلكها بعيداً عن عيون العسس، شارع باب السلام، الساحة الأمامية لباب اليمن، كان يسمع ضجيج تلك المعارك، أنوار عربات الجيش تمر مسرعةً، يختار أطراف الشارع.

- الليل ومن؟

جفَّ ريقه، تعثرت خطواته، وقف علَّه يحدّد مصدر الصوت، أن يتفاداه، وقع أقدام: أأصمّ؟ رد عليَّ، الليل ومن؟

- أنا قادم من المستشفى...
- أتعمل هناك؟
- كنت في زيارة لزميل أصيب أثناء الدفاع...
- دعنا نرَ.

تسرَّبت أصابع تفتّش جيوبه، لا يحرك ساكناً، جعبة يحملها: وهذا الرصاص؟

-لشراء شاش وأربطة لزميلي.

- ألديك مال؟
- قليل جداً.
- هاته، أين تعمل؟
- بالمقاومة الشعبية.
- أنت تعرف أنّ التسكُّع في هذا الوقت ممنوع وفي هذه الأمكنة بالذات، ثم ما يدرينا بأنك لست متسلّلاً رجعياً؟
- لديَّ بطاقة...
- وهذا الرصاص هل هو رصاص ثورة أم رصاص المرتزقة؟
- ...

-سنحتفظ به لنتأكد، إن أردت استعادته عد إلينا غداً، أين تسكن؟

- بداخل صنعاء.
- هيا اذهب، إياك مرة أخرى أن تتسكع في مثل هذا الوقت، قد تقع في أيدي عيَّارين لا يرحمون.
- ...!

- يمكنك أن تسير وسط ظلام السوق،لا عليك، هذه المرة سنؤمِّن لك الطريق.

يخطو بخوف يسكنه، صراخ أحد الحراس من أعلى السور: أوااا أوووه! يكررها بإتقان ليجيبه آخر من عمق السوق: أونانانا أوووووه، وثالث: أو قاقاقا أوووووه، وهكذا ظلت تلك الصرخات تتصاعد من جهات مختلفة. سار بقلب مرتجف، يخرج من ظلمة السوق ليجد من يعترضه، عدة أسئلة ثم يصرخ بنفس نغمة حراس الليل، يسمع أصواتاً تردّ عليه من عمق السوق: أونانانا أوووووه، وثالث: بنفس النغمة، أزقة تتداخل وأصوات ترتفع حتى شارف على أطراف ساحة سوق البقر. مضى يهمّ بقرع باب السمسرة، وقف متردِّداً، جلس على عتبة الباب ثم تمدَّد ينتظر الصباح، داهمه نعاس سريع، سمع صوتاً قريباً، وشيء يداعب شعر رأسه الطويل، فتح عينيه، جرو صغير يتعلَّم العواء، ضمَّه إليه وواصل إغفاءته.

- هذا أنت، لمَ لمْ تطرق الباب؟ هيا انهض قبل أن تدهسك أظلاف المواشي. رفعت صوتها لتُسمع الحاج وردة: هذا نزيل الخلوة بات على حجر الباب!

نهض شيزان، تحاشى رؤوس مواشٍ تخرج إلى الساحة، الحاج وردة ممدد تحت أغطيته، روائح النوم وروث المواشي يتصاعدان، توقع أن ينفض الحاج أغطيته كما هي عادته، أن يستوي على دكَّته، أن يشير عليه بالجلوس ليهامسه متسائلاً عن سبب غيابه دون أن ينتظر ردّه، أن يأخذ بنصائحه مشجعاً إياه كعادته على أن يعيش حياته قبل ذبول شبابه، صعد درجاته، لم يدخل الخلوة، جلس قبالة السطح ينتظر ضوء الشمس، يفكر في تفاصيل ليلة البارحة، يحاور نفسه: ماذا لو أن عسس الأمس احتجزوني؟ لن أذهب كما طُلب مني، سأترك البطاقة والرصاص وتلك البقش القليلة، أو أنهم أرادوها رشوة!

ينتظر وردة أن تصعد، يتساءل: ترى من اخترع الحكي؟ ماذا لو أن الناس لم يتعلموا أصواتهم؟ كيف ستكون الحياة؟! أو أن الجميع يهجرون أصواتهم أو يفقدونها، ما جدوى العيش بدون صوت؟!

بياض ضوء الشمس يتدفَّق، تعكسه قباب وواجهات الدور المحيطة، ابتسم حين أطلَّت وردة، لم تكن حاملةًأواني القهوة أو طبق الكعك، جلست صامتة، لاحظ فكَّها مرتخياً يتأهب للبكاء، أمسك بيدها:

- اليوم أنا من يسألك، أين صوتك؟

التفتت إليه، نظرات عينيها الصغيرتين ذابلة، أبعدت أصابعه عن كفها، تنظر في عينيه فزعة:

- الحاج وردة مريض!

تذكَّر أنه لاحظ مكانه البارحة على غير عادته.

- ممَّ يشكو؟

– لم ينهض من فراشه، لتجده خالتي يئن ولا يستطيع النطق!

– يالطيف! لا يستطيع النطق!

وقف كالملدوغ، هبط درجات السلم درجتين درجتين، رآه ممدَّداً على دكة قريبة من الباب وقد وقف البعض حوله، يتنفس بصعوبة حتى أن تنفس شهيقه وزفيره تحول إلى حشرجة، يسعل لكأن السعال سيسحب روحه، يبصق سوائل داكنة، جلست زوجته خلفه وقد أدخلت ذراعيها تحت إبطيه، يئن لتعاوده نوبات السعال.

– هيا نتعاون لنقله إلى أقرب حكيم.

نظرت إليه الخالة وردة بعينين دامعتين، مشيرةً برأسها علامة الرفض.

– لقد أرسلنا في طلب مداوٍ يعرفه.

– قد يتأخر فتسوء حالته.

– هو جارٌ لنا ليس ببعيد.

لم يأتِ مساء ذلك النهار إلَّا وقد صعدت روح الحاج وردة إلى بارئها. لم يستوعب شيزان ما حصل، كان المداوي قد أمر بجمر المواقد، احمرَّ سيخٌ مسنَّن لتتصاعد روائح الشواء، راسماً شكل الصليب فوق (سنة كبده) وسط صدره، ثم بآخر وسط ظهره، وميسم ثالث أعلى جبهته، ساعدوه على تقليب الحاج وهو يدهن جسمه بمرهم (الفِكس) من بين أدواته، اختتم زيارته بتلاوة سورة الكهف والمعوذتين بصوتٍ عالٍ، نصحهم بتغطيته وتركه يستعيد عافيته، أوصى بإعطائه منقوع ورق النعناع وماء الحبة السوداء بعد غليها، طمأنهم بأنها أزمة سعال وستزول ووعدهم بتكرار زيارته عند المساء.

***

في ذهولٍ يتساءل: لماذا أبكيه؟ لا يدري مَنْ يواسي مَنْ؟! امتلأت السمسرة بمن يعرفون الحاج وردة، زوجته انزوت بحزنها، وردة لا تفارق الخالة وردة، وجدَ شيزان نفسه في صدارة السمسرة يستقبل المعزِّين، كان يشعر بغرابة الأمر بعض الشيء، يتساءل: أيعقل أنه لا يوجد أقرباء للحاج وردة أو زوجته وردة، وردة وأمها،حتى أنا دون أقارب...!

ثلاثة أيام ازدحمت السمسرة بالمعزين من أصحاب المواشي والبهائم والحوانيت في سوق البقر، لأيام ثم أخذوا يقلون.

لُقِّبت زوجة الحاج وردة بالحَجّة وردة، هكذا يُنعت كلُّ صاحب سمسرة أو متجر، عادت تقف خلف مواقدها، تلوب حولها وردة كعادتها، لم تفارق الدمعة عيني الحَجّة وردة وهي ترى مكان الحاج خالياً، ولذلك أزيلت تلك المراتب والمداكي المهترئة.

بعد نصف شهر لم يفارق فيها السمسرة فكّر شيزان بزيارة صديقه،متصوراً حنقه من غيابه، أزال التوتُّر والتردُّد، حسم أمره قبيل مغيب شمس ذلك النهار.

خفق قلبه خوفاً وهو يرى وجهاً آخر على نفس سرير صديقه، تصوَّر عمال النظافة بمحفتهم، التفت يبحث عمَّن يفيده، عيون الأسرَّة، أفواهها، لا يريد صوتاً يبكيه فقدان صديقه، وقف محتاراً.

– أتبحث عن أحد؟

رأى وجه أحد الأسرَّة المجاورة لم يكن قد رآه من قبل، مرّر نظره على صفّي الأسرّة المجاورة، بل جميعها لم يرَها من قبل، يسأل نفسه: لكني دخلت نفس العنبر، لن يموت، من المؤكد أنهم نقلوه. كرَّر الصوت:

– يمكنك سؤال ذلك المريض فهو الأقدم، وأشار إلى سرير في الصف الآخر، كان هو وجه صديقه، كاد يصرخ من الفرحة، انكفأ يحتضنه، يقبِّل وجهه.

– كدت أفقد صوابي حين وجدت غيرك، لماذا نُقلت إلى هذا السرير؟!

رفع رأسه ليرى عينين جامدتين وقد زاد عمق محجريهما، بشرة وجهه داكنة، عظام وجهه أكثر بروزاً، شفتان جافتان،دار حوله محتاراً،أربطته ملوثة، روائح عفن تفوح، أمسك شيزان بكفه، حاول استثارة حواسه، لا يعي ما يدور حوله، قدِمَ الممرِّض للتوّ.

– لماذا عزلتموه في الزاوية القصية؟

– ساءت حالته.

– لكن...

– أين غبت عنه؟!

– نعم، الحق عليَّ، كم مضى على تغيير ضماداته؟

– يقارب العشرة أيام.

– ألا تشمّ رائحة عفن جراحه؟

–ما عساي فعله؟

استغرب شيزان قدرة جسم صديقه على البقاء، رغم جراحه الملتهبة، بل أضحت حُفراً متحللة، يقلِّب الممرّض جسده، يزيل المتحلِّل من جراحه، فقط يهذي بصوت حزين، يوزع نظرات بلهاء، أزيلت طبقات متحللة من على جراحه.

جلس يطعمه بأصابعه عصيدة ذرة وقليلاً من البطاطا المهروسة، دموعه قريبة وهو يشعر بهيكله العظمي يزداد بروزاً، عينان في قعري جُبّ، كلماته التي تخرج مبعثرة وكأنه يخابر أرواحاً لا تُرى.

لثلاثة أيام لم يفارق العنبر إلا ليجلب أطعمة من محيط المستشفى، ينام جالساً على صفيح مقعد متهالك، يقضي بقية أوقاته في الحديث إلى مريضه، حدَّثه عن أشياء كان حريصاً على إخفائها في أعماقه.

يتأمله يحتضر، لحظتها أجهش باكياً وقد انكفأ يقبّل وجهه، أخذ يعتذر له عن غيابه. حزيناًاستمر يثرثر له بعض همومه، ينفّس ممَّا يختزنه، لم يخشّ أن يأتي يوم يستخدم ما سمع ضده، ينظر إلى وجهه العظمي، عينيه الغائرتين، يرى عمال النظافة يتردَّدون على العنبر، يبحثون بين الأسرَّة، يحملون جثثاً تحلَّل بعضها، يحلُّ آخرون ينتظرون آجالهم، يكتئب محدثاً نفسه: لا محالة سيحمله عمال النظافة عاجلاً أم آجلاً، ها هو في مرحلة من مراحل الاحتضار لا يعي ما يدور حوله أو يميِّز شيئاً،فلمَ أخاف منه؟

***

وجدنفسه يبجث طوال الليل عمّا يحكي له: حدّثه عن موت الحاج وردة، وأنه وجد نفسه يتقبَّل العزاء، ثم قصّ عي عليه قصة ليلة هروبه من خزيمة، وكيف نفذ من فكِّ ملك الموتبعد أن حبسوه بتهمة تعاطفه مع الملكيين، وبتهمة معارضته لوجود الجيش المصري وتسلّطهم على كل شيء، بل وذهب بهم الأمر إلى اتهامه بأنه ضمن كتلة لها صلات بالسعودية، وأنه دوماً ما يعلن رفضه لاستمرار الحرب، ويحلم بحلِّ الصراع بعيداً عن السلاح.

حكى له عن تخطيطه لقتل من كانوا سبب شقائه، وهكذا ظلَّ يفضفض عمَّا يخفيه من أسرار لم يبُح بها لأحد غيره.

بعد أيام، هابَه أن رأى دمعاً يتجمَّع في محجري عينيه، ثم شبح ابتسامة على جلد وجهه الباهت، نظرات غامضة اخترقت دواخله، ودَّعه مذعوراً.

الموت بالتقسيط

لم يعد لي من رجل، عشت طفولتي يتيمة، لكني لم أطعم اليُتم إلا بعد رحيله، أمسي الليل قلقةً خائفةً، من لي اليوم في مدينة تعيش حرباً ورعباً، حياتي معه كانت آمنة، لم أدرك خطورة تلك الحروب إلا بعد أن فقدته، أسمع عنها فحسب، أرى من أصيبوا بعاهات منها، ومن تشرَّدوا، من افتقروا وأضحوا يتسوَّلون قوتهم، صحيح هو رجل ضرير، لكنه ذلك الكائن العطوف الذي لا تشعر في حضرته إلّا بالأمان.

أحدِّثك وأنا أجهل عنك كلَّ شيء، بل أنت رجلٌ متقلِّبٌ غريبُ الأطوار، تردَّدتُ ثم قررتُ أن أفاتحك، فلا مناص لك من أن تسمعني، واعلم لو أن أبنائي لم يخطفهم ملِك الموت لكان أوسطهم في عمرك، لكنها مشيئة الله الذي أخذ لي في شهر واحد ثلاثة، بنتاً وولدين، بمرض الجدري، ولا أعلم لمَ لمْ يرزقنا الله بعدهم؟

سأكون معك صريحة وأبوح بما تمنَّيته منك، أن تقبل بي أمّاً لك، وحينها لي حق الأم في الأمر والنهي، ومنك الطاعة، وأن أعاملك كابن، أريد أن أعيد تكيَّة المرحوم، أن تجلس عليها أنت بعد أن تزيل لثامك هذا، أو أن تظلَّ معنا، ستسقط عنك أجرة السكن وقيمة الطعام، بل وستكون هنا الآمر الناهي، أعرف ما بينك وبين ابنتي وردة، ووجهك الجميل لا تخجل من لونه، وخطوط آثار الحروق البارزة، كلُّ ذلك يميِّزك كرجل، أنت رجل، والرجال حمَّالة عيوبها، وما في وجهك ليس عيباً، وأريد أن أخبرك بأمر، إن قبلت بي أماً سأزوجك بابنتي وردة، نعم وستكون هذه السمسرة لكما.

لا أريدك أن تردّ عليَّ الآن، أترك لك مجالاً لتفكر، لكن لو استشرتني لنصحتك بأن تتزوجها. أمر آخر، ينبغي عند موافقتك أن تحدثني عنك حديث الابن لأمه، بالنسبة لي لا يوجد ما أخفيه، سلني عن حياتي أو عن حياة المرحوم، وأنت أرجو حين توافق ألَّا تخفي عني شيئاً، وأنا كأمٍّ سأتقبَّلك كيفما أنت أو كيفما تكون أعمالك.

لم يأتِ على ذهنه يوماً ما طرحته عليه الحَجة وردة، أن يكون حاجاً ويجلس على تلك التكيَّة ليدير السمسرة،يشعر إزاءها بعاطفة البنوَّة، أن تكون له وردة زوجة تلك التي تستميت في إرضائه، لكن، هي تبحث عمَّن يحميها، وهو يتساءل: من بحاجة إلى حماية الآخر؟ظلَّ يقلِّب الأمر في رأسه، لجأ لصلاة طويلة علَّ الله ينير له طريقاً يختاره، دون جدوى، يحرِّكه القلق.

خرج باتجاه سرير صديقه المحتضر، أمسك بيده، تلك الابتسامة الغامضة تومض من جديد وهو يحكي ما عرضت عليه الحاجة وردة، يستشيره، ارتجف فؤاده حين لاحظه يهزُّ رأسه، كرَّر ما قاله ثم رفع صوته وقد اقترب بوجهه: هل تفهمني؟ هل تسمع ما أحكيه لك؟ لم يرد عليه

بأية إشارة، تمتم: هي أوهامي، كيف لمحتضر أن يعي ما يقال! لم يطُل البقاء، قلق يضطرم بداخله، خرج عائداً إلى خلوته.

يشغل تفكيره ما طرحته عليه الحَجة، اهتزاز رأس العظمي، شبح ابتسامته، يتمتم: أيعقل أنه يعي؟ قشعريرة تسكن عظامه، عبقت رائحة الخوف من ثنايا جسده، مردِّداً: لا، لا، حواسه معطلة!

بعملية جراحية تمّ بتر ساقه إنقاذاً لحياته، كما لوكان بحاجة إلى ذلك البتر حتى يستعيد بعض وعيه. بعد أيام يسأل عن ساقه ببلاهة، يبحث عنها بين طيَّات فراشه، ينتحب دون أن يستطيع ترتيب كلامه، تدمع عينا شيزان شفقةً عليه، يوماً بعد يوم تحسَّنت حالته، استعاد تمييز كلماته، رويداً رويداً يفهم ما يسمع، كلمات تدور حول السؤال عن ساقه، تدريجياً استطاع أن يركِّب الجُمل ويحاور من حوله.

- أوشكت الرحيل عنا، خشينا أن تأخذك الغيبوبة، ساقك تعفنت.
- لكن ماذا صنعتم بساقي؟
- ساقك ماتت، بترها الحكيم ليعيش باقي جسدك.
- أعيدوا لي ساقي! أشعر بأنها هنا أوهناك، لم تمت ولمتبتر، ها أنا أشعر بأصابعي.
- أُذكر الله.
- أرجوك لا تقل لي أخذها عمال النظافة.
- ...!
- لا تقنعني بأنني أموت بالتقسيط!

***

فتح عينيه بعد إحساسه بأصابع على وجهه، رأى وجهها، تتركه ممدداً على فراشه، تتكئ على حلق الباب تمعن النظر فيه، يستوي في جلسته، دموع على وجنتيها، نظراتها المنكسرة، تخيَّلها وقد دخلت خلوته، تأملته ممدداً، تركع بجواره، تتأمل وجهه المبهق بآثار الحروق، تمد أصابعها تلامس وجهه، فتح عينيه، رأى وجهها، ابتعدت، ينتظر أن تبتدره بالحديث، يتسوَّل بنظراته، يشعر بكائن آخر يسكنه يدفعه عكس رغبته، يسأل نفسه: هل تعاني مثلي؟ تريد أن تتحدث أم أنها تنتظر مبادرتي؟

يرى دموعها، تذكّر مقولة قديمة،«الإنسان حين يبكي يعبر عن رغبته بامتلاك شيء عبر دموعه»، وها هي تدمع ناظرةً إليه، أشعرته بالخجل من نفسه، ومن أحاسيسه، شعر بحزن شديد، نظراتها تعريه، تفضح ما يخفيه.

نهض مرتبكاً، تقدَّم، جثمت ممسكةً بساقيه، أزيز بكائها يشتت أحاسيسه:

- لماذا تعاملني هكذا؟ كلما ظننت أنني قد فهمتك أكتشف عجزي وضعفي أمام عتوك ونفورك، أمي الأخرى تنصحني بالابتعاد عنك، خالتي وردة عرضت عليك خيارات كنت أنا بينها... لم تكمل، خرجت وقد علا صوت نحيبها.

نهض للحاق بها، حاول أن يتفوَّه بكلمات تناسب الموقف، ركع على فراشه يفكر في ما دار، صدى كلماتها يعاود الاصطدام بجدران الخلوة، تتساقط على رأسه، يفصل كلماتها، نبرة بكائها. أحسَّ أن عليه التريُّث في اتخاذ أي قرار، يتمتم بأدعية محاولاً إزالة الألم عن قلبه، يجد كلماتها تحتلُّ وعيه، صوتها، مشاعره التي تعتمل بداخله،«سيأتي الوقت الذي أحدثها بكلِّ صدق»،تمتم وهو يشعر بألم قلبه يتضخَّم. مع مغيب الشمس هبط دون أن يرفع نظره إلى من حوله من نزلاء السمسرة، عبَر أمام منصة المواقد، الروائح تلتصق بأنفه، شوق لزيارة صديقه،أن يسمعه، أن يسير بعيداً. سمع صوت الحَجة وردة:

- أفكرت فيما طرحته عليك!

- حتماً لن أخذلك.

عدن

لحظات وصوله باب المستشفى كان ينتظره ممرض العنبر، ظن في بداية الأمر أن صديقه المريض احتوته محفات النظافة، وقف أمامه مرتبكاً:

- فُرّ الآن، لا تدخل المستشفى.

- لماذا؟

- هناك من يتربَّص بك!

- يتربّص بي؟!

- عسكر ينتظرون دخولك العنبر.

- كيف عرفت أنهم أتوا بقصد البحث عني؟

- سألوني عن شخص ملثم يتردَّد على عنبر العناية المركزة.

نزع لثام وجهه، أحسّنّ جسده يغرق متنفساً رائحة الرعب، أزال عصابة رأسه تاركاً لشعره الارتخاء حتى ظهره وصدره، يشعر بعريٍّ لم يألفه من قبل، اختلطت عليه الشوارع، المباني، وجوه الناس، تشعَّب تفكيره، قلبه يفرّ خوفاً، لاحظ الليل أكثر عتمةً، ابتاع رزمة من أغصان القات، دخل سمسرة أبي عامر، لم يتعرف عليه عامل السمسرة، انزوى مع نفسه يلوك تلك البراعم بنَهم، يأمل أن يستعيد صفاء عقله، مَضَغَ ومضَغ أغصاناً كثيرة، أحس بشوق إلى من ينادمه، يمسح وجوه من حوله، عامل السمسرة الذي يراقبه بوجل، أحسَّ شيزان بنشوة، يعتصر بين أسنانه المزيد من براعم وأوراق القات، هذه المرة لم يشعر بخدر ونشوة، امتلأ فمه بمهروس القات وتكورت وجنتاه، لم يدرِ كم من الوقت مضى، خرج من سراج السمسرة إلى ظلام الشوارع والأزقة رافعاً رأسه، أحسَّ بثقل أنفاسه، وصل ساحة سوق البقر، باب السمسرة، نظرت إليه الحاجة وردة تسأله عن عري وجهه.

- سلام عليكم.

رسم ابتسامة مشوَّشة، خرجت من خلف صفّ مواقدها، ركّزت في عينيه، أخذت بيده وصعدت الدرج تهامسه:

- هناك من يسأل عنك!

أحس بقلبه يتوقف عن الخفقان:

- أينهم؟

- على المصاطب ينتظرون قدوم الملثم،لقد شعرت أنهم ينوون بك شراً.

- وماذا قلتِ لهم!

– لم أقل شيئاً،كنت قلقة وإذا بك تعود متنكراً!قالوا إنهم من أهلك، وإنهم جاؤوا من البلاد لرؤيتك، راودتني شكوك حين أخذوا يتهامسون، وها أنت تمرّ من أمامهم!

–حدسك في محله، هم عسكر أتوا ليقتادوني، أنا لا أعرفهم!

–وما العمل؟

– سأفرّ من لحظتي، صندوقي ذاك أمانتك،انزلي الآن، لا تتحدثي بشيء، اتركيهم، وحين ترينني أمرُّ من أمامك لا تعيريني اهتماماً.

وبلهفة لم يعهدها قالت:

– فرّ...

– أنا في خطر– ارتبك صوته وهو يحدِّثها– إن سألوك قولي لمْ يأتِ! قولي لهم إنه يخرج، وكثيراً ما يبيت خارج السمسرة.

–نفسي أعرف من أنت؟

– لا وقت لديَّ، هيا ساعديني، كوني طبيعية حين تعودين.

خرج إلى السطح مضطرباً، عتمة حالكة، طاف بأطراف السطح، هبط الدرجات الحجرية، ارتعدت فرائص الحجة وردة وهي تلحظ عيونهم تتفحَّصه عابراً من أمامهم، مرَّ بوجهه المحمرّ وشعره الغزير، عبَرَ الباب خارجاً،سار مضطرباً وسط ساحة معتمة، عبر أزقةً معبّأةً بالوحشة، هارباً من نفسه. تلك الليلة لجأ إلى مسجد النهرين المحاذي لأخدود السايلة، يعرف من أين يدخله، صرحه، باب بيت الصلاة، سكون، روائح بخور حلقات الذكر، زاوية قصيَّة يعرف دفئها.تكوَّم يردِّد صلواته الإبراهيمية، أوراده، يطرد من جسده شعور خوف مؤلم، أصوات جارة أمه:«أنت قاري كتاب الله وحافظ ياسين وآية الكرسي، وأمك كانت تعتز بك، حين تغادر قريتنا اتلُ ما حفظته في سرك حتى لا ينالك مكروه، ردِّد آيات كتاب الله لتُفتح لك الأبواب المغلقة وتلين لك القلوب القاسية والرقاب العاصية»؛صوت عمياء زوابع الريح: «تسير إلى مواطن الشقاء، ستبحث عني ولن تجد إليَّ طريقاً، هي فرصة أن تختار طريقاً لا عذاب فيه، لا ندم، فلا تختر طريقاً تظلُّ عمرك نادماً عليه»؛ صوت سيدنا يتداخل: «أن تطيعني يعني أن تنعم بحياة ومكانة بين القوم، أن تعصيني فقد جنيت على نفسك». لم ينم ليلته وتلك الأصوات تتعاقب على مسامعه، لم تشفع له الصلوات، حاول أن ينأى بعقله عن التفكير.

***

أدّى صلاة الفجر في آخر الصفوف، خرج متحاشياً النظر إلى تلك الدوائر التي التأمت للدرس، سار حتى زقاق (بحر رجرج)،قصد باب اليمن، عربات نقل سلع، عربات مكشوفة لنقل الأشخاص. سأل أحدهم فنصحه أن يسلك طريق (جحانة) من قبائل خولان إلى (زراجة) ومنها إلى (رصابة) و(ذمار)، محذّراً من طريق (نقيل يسلح) مقطوع!

عربة لاندروفر إنكليزية امتلأت بأكياس الخيش وكراتين رُصَّت فوق صفائح القاز، عدة أنفار متشبثين فوق تلك السلع، خرجت عبر أراضٍ جافة جرداء، ابتعدت بهم باتجاه أرض مفتوحة إلى الجنوب من صنعاء، دخلت بهم بين آكام وتلال ثم جبال قرى (سنحان)، يصادفون عربات في الاتجاه المعاكس تحمل مسلحين، وآخرين يتجمعون ببنادق وأشرطة الرصاص على أكتافهم وحول خواصرهم، يعترضون اللاندروفر، يبحثون عن أشخاص، ثم يتركونها بعد إتاوة، تثير الغبار من جديد مبتعدةً لتصادف عدة نقاط لمسلحين قبليين، يسألون، يقبضونإتاواتهم، لتبتعد من جديد وسط وادٍ يتجه شرق أراضي قبيلة (خولان) حتى (جحانة) محطة تجمُّع قبائل وأمراء الحرب، أعمار صغيرة تحمل السلاح، من كلِّ اتجاه تجمَّعوا لنصرة من يدفع أكثر ومن يوزع سلاحاً. عبرت العربة قرى الكميم ثم (زراجة) من قبائل (الحدا)، الجميع محمل بالسلاح، الجميع يسأل عن مناطق الحرب بحثاً عن غنائم. ومن زراجة استخدموا الدوابَّ إلى وادي جهران قرية (رصابة)، بعدها لاحت لهم مدينة ذمار بسهلها الأخضر. تهلَّلت أسارير شيزان وخفق قلبه وتلك الأيام تعود بذكرياتها، سأل عن مقهاية (شمهان)، يبحث عن تلك المرأة التي لا تزال رائحتها تحتل أنفه، كلماتها: «تمنيت أن يكون لي ابن بشجاعتك، رفضت أن تبقى معنا لتذهب باحثاً عنها، لا أملك إلا أن أدعو لك في صلواتي، هيا لا تقفوا هكذا كالأنعام، جهزوا (سبار) ولدي الذي يسافر وحيداً، ألا تسمعونني؟ انظروا ابني ما أجمله يسافر باحثاً عن أمه، زوّدوه بما يعينه على رحلته»، انهمرت دموعه، وصوتها يتدفق من داخله.

خفق قلبه أكثر حين وقف أمام المقهاية التي يحفظ شكلها، تجاوز الباب وقد اتقدت حواسه يبحث عن وجهها، يرهف السمع علَّه يسمع صوتها، صخب أفواه متداخل، فضَّل أن يأخذ مكاناً على مصطبة تشرف على المكان. مرّ الوقت ولم يرَ غير شابين وثلاث نساء إحداهن تشبهها، سكب الليل غلالته، تهلَّلت أساريره وهو يتابع تلك المرأة، تجرّأ وسألها:

– أسأل عن امرأة أنت تشبهينها؟

– من أنت، ولمَ تسأل؟

أعاده سؤالها إلى ماضٍ بعيد، ردّ باعتزاز:

– اسمي قمر، صادفت صغيراً في هذه السمسرة امرأة طيبة. كان ذلك قبل سنوات كثيرة.

– هي أمي، ربنا يرحمنا جميعاً، أعطتك عمرها منذ سنوات، هل من شيء أوفِّره لك؟

لمحت ملامحه وقد كساها الحزن، صمت لحيرته، قضى ليلته دون حديث مع أحد، يشعر بروحها تحلِّق، صوتها يتردَّد: «هذا ابني يا مياس أمانة في عنقك إلى صنعاء، سأسألك حين تعود عنه، استودعتك رباً لا يخيِّب داعياً»،، أمسى يصلي لها.

من ساحة ميدان الحكومة بذمار خرج حزيناً مع خيوط الصبح على عربة روسية امتلأت كعلبة ساردين، تتجه جنوباً، يصادفهم مرور ناقلات جند، عربات مدرعة. تجاوزوا تلالاً صخرية،

في(يريم)، لم تتوقف العربة كثيراً، يرمق تلك البقاع كما هي بذاكرته، قرى تحتمي بأطراف الجبال، أراضٍ زراعية مهملة، بحث عن تلك المقاهي التي كان قد نزلها صبياً، لم يستدل على مواقعها. قاع الحقل لم يعد أخضرَ بعد أن انشغل الناس ليذهبوا للحرب، نقيل سمارة تغطي قممه السُّحب كما تركه يوم صَعَده، يتوقف في مطرح (حليل)، مجاميع مسلحة على ظهور عربات نقل كبيرة يهتفون بحياة الثورة والجمهورية، قادمين من مناطق إب وتعز والجنوب باتجاه صنعاء.

بطول الطريق يبحث عن رائحة أمه، يرى ما حوله من قرى ووديان لم تعد كما كانت يوم غادرها، بقايا محجّة المسافرين هنا وهناك، جبال حبيش ببياض قراها وقد غمرتها الخضرة. حاول تمييز قريته، في سوق (السويق) سأل بعض المتسوقين- دون أن يفصح عن شخصيته- أن يدلوه على الطريق إلى قرية (المنضاح)، من أحاديثهم عرف أن الشيخ يسكن مدينة إب في (المغربة) بعد أن اتَّسع نطاق تسلطهوأصابه ثراء الحرب وأضحى من مناضلي الثورة، يوفر المقاتلين وينقلهم إلى جبهات القتال.

***

مكث ثلاثة أيام في نُزُل بوسط إب متردداً على (المغربة) حتى استدل على قصر الشيخ الذي اتَّسع نفوذه وأملاكه وارتفعت مكانته.

قرر الانتقام، أن يزور دار الشيخ، بحث عن صفة يقدِّم نفسه بها: مروعي، مقذي، غريب ديار، جلَّاب بهايم... سار يفكر.

منزل يجاور (جبل ربي)، اقترب بعيون قلقة، الوقت بعيد صلاة العصر، بوابة سور فاغرة أوصالها، أشجار تتمايل لهبوب الريح، باب الدار يفضي إلى طرقة مستطيلة، تكدَّست الأحذية، سمع صوت أحد الأطفال وقد سبقه بالدخول: «ضيف ياشيخ، ضيف». وقف يخفي رعبه حين عبر باب ديوان مستطيل اكتظ بماضغي القات المتجاورين على متكآت ومساند متقاربة، أدخنة التنباك زادت من عتمة المكان.

- سلام يا وجيه الخير.

التفت كلٌّ من في الديون نحو الصوت القادم. ردّ عليه رجل سبعيني التحية ليهدر الجميع بالسلام بعده، أشار أحدهم أن يصافح السبعيني، تفادى صف النارجيلات، قبَّله على رأسه ثم أجلسوه، أخذ مكانه بينهم يسترق النظر إلى ملامحهم، لم يتعرف على ملامح أحد، يصيخ السمع، يهدرون في قضايا عدة، عرف مما سمع أن السبعيني هو الشيخ الذي يشكو من أمراض الشيخوخة، ومنها ضعف النظر، وأن وصفات حكماء إب وتعز لم تفده بشيء، لمعت فكرة في رأسه، فكرة أن يكون حكيماً!!

ثلاثة أيام في ضيافة الشيخ، الكلُّ يحتفي بالحكيم، يبحث عن وسيلة للانتقام، خيط حذاء،لكنهم لا يفارقونه لحظة، لمرات عديدة يشعر بشفقته عليه كرجل مسن، يرقُّ قلبه سماع

شكواه، تستفزه صور الأمس، والده ومصيره المجهول، والدته وإخوته الذين لايعرف إليهم طريقاً، يقسم متوعداً: هو ذا من غيَّب والديَّ، منشردنا جميعاً، من أحرق بيتنا ورجم أمي بالعيبة وأراد قتلها، من نهب كلَّ شيء، لن يلين قلبي ولن يفلت من العقاب.

في الليلة السابعة صلّى كثيراً يستخير الله، شعر في السجدة الثانية بكفٍّ باردة تلامس رقبته، أنفاس حرَّى تلفح وجهه، أكمل صلاته، رأى نفسه يعدُّ عصارة نباتالشوذب، يمزجها على نار هادئة بالحرمل، يضيف إليها قطرات من سائل الصبَّار، تكثف السائل، أعدَّ ذلك المستحضر في قنينة صغيرة وأشار على الشيخ أن يخضع للعلاج وأن يذبح ثوراً أبيض ويستحمَّ بدمه. كان يوماً مشهوداً، وقد دعي معدمون من خدم وفقراء، وفقهاء ليرتلوا «ياسين والقرآن الحكيم...» بينما شيزان يصبُّ مرهمه الشافي في عيني الشيخ قارئاً من قصار السور، رابطاً تلك العيون بقماش أسود،ومن فوقه:

– ستشعر بحرقان ووجع، تجلَّد فالدواء النافع مرٌّ وموجع.

– يهمني الشفاء.

– سيعود إليك بصرك بإذن الله خلال أيام، سأكون إلى جوارك متى استدعيتني، ثم أخذ يردِّد: «تباركت ياذا الشأن، ياذا المنَّة والسلطان، يا من تقول للشيء كن فيكون، يا حنَّان يا منَّان»،خرج يردِّد ذلك في سرِّه. بعدها تسلَّل ليصل مدينة (تعز)،تاركاً الشيخ ضريراً، يحمد الله أن وفّقه للاقتصاص، شعورٌ لا يضاهيه شعور وقد أنجز ما عليه إنجازه، يصلي لله أن وضع ذلك المتجبِّر في طريقه.

سفوح جبل صبر، قرى معلّقة عالياً، يحضره العظمي ممدداً على سرير المرض،يتمنى لو يعرف موقع قريته.

لأيام يبحث عن طريق تقوده إلى عدن، يتنقل بين ضواحي الجحملية وبير باشا وباب موسى حيث تتجمع العربات.

دار سعد

اقتادوه مع عدد من المتظاهرين بعد أن غمرت الشوارع جماهير غاضبة لم ترَ لها عدن مثيلاً، ألقوا به فيلاندروفر مكشوفة، اقتادوه إلى معتقل مع عشرات المعتقلين: نوافذ علوية، تتسلَّل أصوات صاخبة، تخفت لتتعالى بعد حين، شاب منزوٍ بإحدى زوايا حجرة السجن يطيل النظر إليه، يسأله، عرف أن قوات الاحتلال اقتادته بتهمة توزيع منشورات تحرِّض الناس على مقاومة الاحتلال، همس:

– بالفعل سنقاومهم وسنلاحقهم حتى نخرجهم من بلادنا...

– ألا تخاف على حياتك؟

– المحتل من يخاف، لسنا وحدنا، الشعب كلُّه يقاوممعه الأمة العربية، والسجن ليست أول مرة أسجن، هذا السجن مليء بالأحرار، وفي كلِّ مرة نخرج منه أقوى، سأخرج آجلاً أم عاجلاً لأواصل توزيع المنشورات.

ارتفعت معنويات قمر وهو يسمع من ذلك الشاب تلك الكلمات الملتهبة، سأله:

– ما اسمك؟

– اسمي قمر.

– من أي بلاد أنت؟ أخمِّن بأنك من تعز!

– أنا من صنعاء، أتيت للبحث عن صديق.

– صديق!

– أكثر دقة، أبحث عن أمي.

– أمك؟

– نعم أمي.

– ولمَ أنت في السجن؟

– أأنت من عدن؟

– نعم، والأصل أن أبي قَدِم من تعز وتزوَّج بحضرمية، ومنذ قَدِمَ لا نعرف غير ذلك. قل لي ما حكايتك؟

– حكاية مملة لابن يبحث عن أمه منذ سنوات.

– شوَّقتني، هيا أسمعني.

– أنا يا أخي لا أعرف أحداً هنا، وهي المرة الأولى التي أنزل عدن فيها، تعذَّبت في الطريق حتى وصلت عدن بعد أن سلكت مع مهربين طرقاً متشعِّبة من تعز عبر وادي ورزان، ثم واديعقان ومنه عبر جبال الحواشب ووديان ردفان، قرى لحجية، حتى وصلت إلى الشيخ عثمان.

- ولمَ لم تسلك طريق الناس؟

- في تعز يقال إن الإنجليز يمنعون دخول سكان المناطق الشمالية، وأن سلاطين العبادل والحواشب قد وضعوا نقاط تفتيش تنفيذاً لأوامر الاحتلال، وأن عساكرهم يتعبَّثون بالمسافرين وقاصدي عدن، تعرفت على مجموعة تشتغل في تهريب السلاح ومن يرغب الوصول إلى عدن لمقاومة الإنجليز.

- كيف هي أحوال تعز؟

- بهرتني تعز، مدينة لا تصمت، جدل ثوري متقد، صور ناصر في كلِّ مكان، على جدران المقاهي، في متاجرهم، على سياراتهم. ترى الجموع تهتف: «لا رجعية ولا استعمار»، لتردّ عليها جموع أخرى: «برَّع برَّع يا استعمار، من أرض الأحرار»، الأفواه والعيون معلَّقة بصنعاء وعدن، ساحات وميادين تعز مواقع لتجمع الثوار، عربات نقل كبيرة تكتظُّ بالشباب تتجه شمالاً نحو صنعاء، وجموع تحمل التبرعات والسلاح لتعبر بها عدة مسالك حتى عدن، حينها عرفت أن الطريق إلى عدن ليست طريقاً واحدة.

اقتربنا من الجبل المحاط بالبحر من كل جانب، تراءت لنا مباني دار سعد ومنارة الهاشمي، لنتفرق مجموعات مجموعات نسير وسط كثبان ونباتات حرشية حتى أطراف أحياء دار سعد. شوارع متربة، ومبانٍ متهالكة، أناس تبدو عليهم العجلة، (بالات) التمباك والمنسوجات وبراميل الكاز وسلع أخرى على الأرصفة، زحام عربات صغيرة وكبيرة وعربات تجرها الجمال، منازل صغيرة مهترئة من الصفيح والطابون، أطفال عراة، نساء متَّشحات بالسواد، ساحات واسعة تملؤها أحراش وأشجار تتمدَّد على الأرض السبخة.

من هناك بدأت أبحث عن أمي، أمي التي فرّت يوماً من الموت، ومن يومها وأنا مهموم بالبحث عنها، ولهذا تركت من جئت معهم لأسأل عن شارع السيسبان.

- الشكلة؟

- نعم،باحثاً عن امرأة تملك جميع حكاياتهن.

هو ليس شارعاً مستطيلاً كما صوَّره لي العظمي، بل منازل متداخلة، وجوه تطلُّ من أبواب، تتفرَّس المارة، نساء بملامح مستهلكة، ما أن رأينني حتى أخذت كلٌّ منهن تستعرض فنونها، تبرز مفاتنها بأشكال فاضحة،وجوه تقنَّعت بابتسامات ميتة، تهت لأيام لأخرج بعيداً نحو (الشيخ عثمان)، هناك حول جامع النور والهاشمي، قضيت أياماً أتردد علِّي أجد من تمتلك حكاياتهن.

***

دخلت عدن من نقطة رقم ستة بعد أن أدخلوني غرفة في مبنى ملئت جدرانه بصور كثيرة لمطلوبين، أسئلة، وبصمتُ على صفحات مُلئت ببياناتي، كان الأمر معقَّداً بعض الشيء، عبرتُ مخلّفاً كثيراً من العربات وأكوام البشر تحت حرارة شمس لا تطاق.

مدينة عجيبة هي عدن، تحرسها الجبال ويغسلها البحر، هي لا تشبه أي مدينة عرفتها، عنقود مدن لؤلؤية، لم أكن أتصور كثافة دوريات الإنجليز، مشاة يسيرون وقد أعطى كلُّ فرد ظهره للآخر، موجّهين فوهات بنادقهم للمارة، كريتر بشوارعها وجبالها المحيطة، حافة حسين والطويلة، هي كما حدثني عنها صاحبي. صليت في العيدروس، أدعوه أن يعينني في غربتي وتشردي، ركعتُ باكياً ثم دخلت مربع الضريح، شذى روائح البخور ملأ نفسي سكينةً وأماناً، تلمَّست كسوته الخضراء، قلَّدت المحيطين بمولانا أبي بكر في إغماض عينيَّ متمتماً بأمانيَ أرجو تحقيقها، ثم ودَّعت حضرته. خرجت بمحاذاة مقبرة القطيع، خشيت أن تكون قد ضمَّت بين ترابها من أبحث عنهم، سألت امرأة سمراء (مشيدرة)، لم أصدّق حين رأيت أصابعها تشير إلى وسط صف من الأكواخ: «هناك بيت الحَجّة...»، الشمس تقترب أكثر من مثواها، أكاد أختنق وأنا أقف أمام بقايا سور من قش وكراتين وصفيح، تحلَّق صغارٌ أنصاف عراة، في البدء ظننته وجهي الذي يلفت أنظارهم بآثار الحروق ولونه الفاتح، لكنّ أحدهم سألني: «أنت رجَّال؟»، عرفت أنه شعري الطويل الذي يقدّمني دوماً للآخر.

اقتربت امرأة تهشُّ الصغار بذراع معروقة، كبرقٍ صعقني لرؤيتها، تمنيت أن تكون خازنة الحكايات، وجه صغير لقامة نحيلة متماسكة، عينان لامعتان، نظرت إليَّ وقد اكتسى وجهها بالغضب:

- وأنت، هيا اذهب في حال سبيلك.

- سبيلي أنت.

تغيّرت ملامحها،اعوجَّ فمها الصغير بابتسامة لتزداد طيَّات تجاعيده:

- ماذا تعني؟

كان صوتها عدائياً،حاولت أن يكون صوتي هادئاً:

- دلَّني عليك صديق!

- أي صديق؟

تفكيري يهرول، يبحث عن طريقة لكسب تعاطفها، خائفاً من أي كلمة قد تصدر عني لتجعلها تتركني وتمضي،لكنها أعفتني من الإجابة: يبدو أنك غريب، ماذا تريد؟ هدأ صوتها وتغيرت ملامح وجهها: اقترب، ما اسمك ومن أنت؟

أحسست بأن الله يرعاني وأن تمسُّحي بكسوة العيدروس المطرزة قد باركني. صمتُّ أفكر في كلماتٍ أحدثها بها:

–أنا من جبال بعيدة، صلَّيت في العيدروس ودعوت لك!

ابتسمت لكلماتي:

– دعوت لي!! من أين تعرفني حتى...؟

– من صديقي الذي كان يستمع لحكاياتك ذات يوم.

زاد تجمُّع الأطفال حولنا، نسوة الجوار، مارة، زعقت بكل ما أوتيت من صوت: «هيا وإلَّا أهشّكم بالعصية؟»، تراجعوا قليلاً ليزداد عددهم، فاجأتني بشدِّي من ذراعي نحو الداخل: «ناس ما يستحوا». ساحة غير مستوية، منحدر صخري على أطرافه مساحة رملية حول كوخ كرتوني، عريشة متهالكة كما وصفها ذلك العظمي. أجلستني، وجوه تتابعنا من خارج السور:

– ما عليك من (أمَّاتيهم)، هاذي طبيعة ما يقدروا يتركونها، هيا ماذا تريد؟

إلى تلك اللحظة كانت كلماتي تبحث عن موطئ قدم، تخشى الانزلاق، حاولت أن أبدو بابتسامة عطوفة، قسمات وجهها بدت مألوفة:

– أولاً، خذي هذه الدراهم المرسلة لك ممن حدثني عن طيبتك، قال لي إنكما كنتما تتناولان الإفطار معاً، يأتي إليك كلَّ جمعة تحكي له حكاياتك.

أحدِّثها بصوتٍ هامس مسيطراً على ابتسامتي، بينما أخذ وجهها يتأطَّر بابتسامة باهتة، وفكُّها الأسفل يتراخى، عيناها تشعَّان بفرح غريب وهي تنظر في عيني، فاجأتني فاتحةً ذراعيها لتضمني إليها وهي تبكي ضاحكة:

– إذاً أنت تعرف ذلك العاصي، صدقت، لقد فقدته منذ سنوات، أهو بخير؟

– بخير.

– أين يسكن؟

– هناك في الجبال العالية، ويسلِّم عليك.

– الحمد لله، الحمد لله، لكن ماذا تريد أنت؟

– لا شيء، غير أني أبحث عن امرأة، هي أمي.

– أمك؟

أخذت أشرح لها صفاتها، وصفات إخوتي. صمتت قليلاً ثم قالت:

–إن كانت قد مرت من شارع السيسبانستتعب حتى تعثر عليها.اسمع هناك امرأة تشابه صفاتها صفات من ذكرت، هي هنا حولنا في عدن لكني لم أرَها منذ مدة طويلة، الإنجليز يدوِّروا بعدها، ولذلك تتخفَّى مع من يتخفَّون خوفاً من السجن، أنا أعرف من اشتغلن معها قبل سنوات، قد يد... قطعت حديثها لتعاودها حالة الشك: لكن كيف تتقبلها وهي...؟

– هي أمي.

–أمتأكد من أنك لا تنوي بها شراً؟

- قطعاً.
- وإن وجدتها أمك...؟
- أكون قد انتهيت من همِّ البحث عنها.
- وإن لم تكن هي؟
- يظلُّ همّها يثقل كاهلي.
- سأساعدك إذاً، لكن بشرط.
- ما هو؟
- ألّا تذكرني لأيٍّ كان.

نساء الشكلة

في اليوم التالي ذهبت بي إلى (المعلا)، عربات مسلحة وراجلة تجوب الشوارع،دخلت شقة بإحدى العمارات، لتخرج متهللة الملامح،حاولت أن أفهم منها شيئاً فلم توضح. كانت وجهتنا الثانية (التواهي)، بمشقة أوصلتنا عربة أجرة بعد أن أقفلت قوات الاحتلال الشارع الرئيسي بحثاً عن مقاومين قيل إنهم ألقوا بقنبلة على إحدى دورياتها.

منزل في حضن جبل، امرأة ذات ملامح هندية تجاوزت العقد الثالث تتحدَّث إلينا بحذر، وعلى الفور عادت بي ذات الملامح الهندية إلى الميدان بكريتر، ومن هناك استقللنا عربة، طلبت من السائق التوجه إلى الشيخ عثمان وبالتحديد أمام جامع النور، عربات مسلحة تجوب الشوارع، وأمام مسجد النور تركتني ليقلَّني ثلاثة شباب بابتسامات عريضة على عربة أجرة أخرى،عُصبت عينيَّ بالقوة ليقتادوني إلى أحد المنازل التي خمَّنتُ أن تكون في أطراف الشيخ أو أبعد قليلاً.

منزل بحوش كبير، ذكور وإناث، جوّ أسري تقليدي، وضعوني تحت حراسة شابين في غرفة منعزلة، جاء من يحقق معي، سألني عن تلك التشوُّهات التي بوجهي، أسباب بحثي عن تلك المرأة، صلاتي بالإنجليز، بالجبهة القومية. لم يتغير كلامي طيلة سبعة أيام ليفاجئني في اليوم الثامن حضور امرأة نحيلة وطويلة، لها عينان ذابلتان، شعر متهدِّل على كتفيها، بيضاء البشرة، في البداية لم أفهم الأمر حتى قال لي:

– هذه من تبحث عنها.

انعقد لساني، منقِّلاً نظري بين عينيه وذاتها، قلت له متلعثماً:

– هذه أصغر من أن تكون أمي.

ابتسمت ناظرةً إليَّ بخفر أنثى، معتبرةً ما قلته غزلاً!

ألقى عليَّ محاضرة عن الوطن وعن حاجته لنضالنا في سبيل تحريره من الاستعمار وأعوانهم، اعتذر لي وطلب مني التفكير بالانضمام إلى صفوفهم (الجبهة القومية).

خلال أيام شُلَّت حركة المواصلات وأُقفلت المتاجر، وبصعوبة عُدت أتنقل بين الشيخ وعدن. واجهتني بشتائم صارخة حين زرتها، شاركتها جاراتها وقد خرجن بالعصيِّ يلاحقنني، لجأت إلى مسجد العيدروس، يكاد قلبي ينفجر، أناجيه، أتضرَّع ألَّا يتخلَّى عني، هبطت فكرة أن أغامر وأذهب إلى امرأة التواهي.

حين أطلَّت من بابها صفقته بقوة:«سأدعو البوليس إن عدت مرة أخرى»، زدت بلادةً، كنت على يقين من أن الله قد تخلّى عني، سرت راجلاً تحت سوط شمس الظهيرة، لم تعد تهمني نفسي أو نظرات الجنود الإنجليز من على دورياتهم أو سواترهم على نواصي الشوارع ومن أسطح بعض المباني، أعبر نقاط التفتيش المنتشرة حتى صعدت باب عدن (العقبة)، هبطت مرة أخرى

كريتر، صليت كثيراً في مسجد (باذان) أرجو الله أن يرعاني ويرشدني، خرجت يائساً أسير في أزقة سوق الطويلة، تواريت حين رأيت الحَجّة تتسوَّل أصحاب الحوانيت، لم أكن أتوقع أن أراها تتسول، ترصَّدتها حتى ابتعدت قليلاً، تبعتها إلى شارع فرعي، لم يكن إلا أن أركع أمامها راجياً أستعطفها، ويا لحظي الجميل حين رفعت وجهي بين كفيهاثم همست: هيا ابتعد الآن حتى لا يرانا أحد معاً، اسبقني إلى ضريح العيدروس سألقاك هناك، هيا قبل أن يلحظنا أحد.

لم أدَّخر وقتاً، اتجهت من لحظتي، رابطت حول الضريح، نساء بصغارهن، رجال، الكل يتمسَّح برجاء قضاء الحاجة، يتوسَّلون، البعض يبكي بحرقة،وجدت نفسي أبكي.

كفٌّ تطبطب على كتفي، تنحينا جانباً، أجلستني بجوارها كما لو كنا ابناً وأمه، وضعت بيننا جريدة قديمة عليها أقراص خمير، همست:

- كان عليَّ أن أطردك بالأمس من أمام بيتي.

- لماذا؟

- سأكون معك صريحة، أنا أعمل معهم.

- مع من؟

- معالجبهة القومية.

- لكن صديقي قال لي إنك تعملين في الشكلة مع الإنجليز!

- كان هذا زمان.

- والآن شحاتة!

- ضرورات العمل؟

- ...!

- تلك المرأة ليست هي من كنت أقصد أن تراها!

-لماذا لم يأتوني بأخرى؟

-المرأة التي أظنها أمك من الصعب الوصل إليها، فهي اليوم مطاردة ومطلوبة من سلطات الاحتلال، مكثت قبل سنوات في سجن المنصورة بعد أن ضبطها البوليس تمارس الدعارة خارج حدود القانون، إلا أنها أطلقت بعد أشهر لتُعدَّ ضمن مناضلي الثورة ضد الاحتلال، فكثير من كانوا في سجون الاحتلال عُدُّوا من الثوار. ولذلك ما إن أطلق سراحها حتى احتوتها خلايا المقاومة وأضحت بعد خروجها أكثر حركةً مع الثوار. ولذلك هي في حماية الجبهة القومية وأحد عناصرها الهامة.

-وتلك الهندية طردتني.

- أعلم بما حصل.

- ما الذي يجري؟

– صراع بين القومية وجبهة التحرير.

– صراع؟

– صراع مميت لفرض وجود.

–وأنت...؟

– أنا قومية عدنية لم أعد صومالية، وامرأة التواهي عدنية، والبدو والجبالية عدنية، كلُّ من يعيش في عدن عدني.

– ما حكايتك؟

– أي حكاية؟

– من يراك...

– شحاتة، عديمة الحيلة.

– وقومية...

– وأنت لمَ لا تنضمَّ إلينا؟

– حدّثني ذلك الصديق أنك تعملين مع الإنجليز.

– هي حكاية لا بأس أن أهامسك ببعضها، فالفضل يعود لذلك الصديقالذي حكى لك حكاياتي، وأظنه لم يكمل، ولم يحكِ لك أنه كان السبب بما أنا فيه الآن، هو من أقنعني أن ألتحق بالمقاومة، نساء يلتقطونهن من الشكلة،ينتشلونهن من الشوارع، متسولات، مشردات من كل مكان، لم يكن في ذلك الوقت جبهات تتقاتل فيما بينها كما هو الآن، فقط جمعيات ونقابات وأندية متضمنة، هو كان في إحداها. رفضت يومها فكرته بحجة «لكني كبيرة»، ضحك كثيراً وقال لي: «أنا أعرف جوهرك، أنت فتاة شابة تحت جلد مستهلك، تعالي اسمعي ثم لك الخيار»، ومن يومها أمسيت ضمن جماعات كبيرة. حين تكوَّنت جبهات المقاومة أمرونا بترك ممارسة الدعارة، أن نتسوَّل أو نبيع بعض الكماليات، وأقرُّوا لنا إعانات شهرية، وتسألني كيف؟– صمتت قليلاً ليكتسي وجهها بملامح جادة– لكن لماذا عليَّ أن أحكي ذلك؟ صديقك يمكنه أن يحكي لك، كنت أشعر بأننا وإياه في سنٍّ متقاربة رغم أنه في سن أولادي لو كان لي أولاد، ومع ذلك علّمني الكثير، عشت معه أياماً جميلة بجمال روحه، جعلني أميل للجبالية، أعيش بكرامة عدنيتي، ولذلك تراني امرأة غريبة في كلِّ شيء.

في ذلك اليوم تركت الحجة وخرجت من مسجد العيدروس بعد أن أعطتني عناوين عدة نساء، شارطةً عليَّ ألا أذكر اسمها تحت أي ظرف، طرقت أبواب: أثيوبيات، جيبوتيات،جباليات، حضرميات، عدنيات، عُمانيات وهنديات في أحياء ومدن وضواحي عدن، أعود لألتقي بها بعد أن أضحى ضريح العيدروس ملتقانا.

تدلّني على عنوان امرأة جديدة، تكرر نفس الشرط ألّا أذكر اسمها تحت أي ظرف، وهكذا لأشهر أنتقل من امرأة إلى أخرى. خلال بحثي عرفت أن عدن متاهة بتكوينها، وأنها عدنات وليست عدن واحدة. أحببتها واستقر عشقي لها، لم أعد أفكر في الرحيل منها، أخذت أفكر بالجبهة القومية، أن أقبل ذلك العرض، وفي طريقي إلى بيت الحَجّة اندلعت مظاهرة لم أرَ مثيلها في شوارع كريتر في حياتي، وتمّ حصار المدينة، ولحظات كنت أهمُّ بعبور ميدان الساعة بكريتر، لحظتها تدفقت الجماهير إلى الشوارع من جديد وارتفعت ألسنة اللهب وزوابع الدخان، زخات الرصاص، لأجد نفسي دون سابق تخطيط وسط تلك الحشود أبدأ نضالي الذي وُئد، لا أعرف إلّا أني من عدن وسأناضل ضد الاحتلال الإنجليزي وأكمل بقية حياتي فيها، وها أنذا كما ترى في زنزانة. بعد أن حاصرت المدرعات وعربات الاحتلال وقطعت الشوارع رأيت العشرات يتساقطون قتلى وجرحى، والمئات يقتادهم جنود الاحتلال إلى المعتقلات وأماكن التحقيق.

ذلك الشاب أطال النظر في قمر حين صمت، ابتسم:

– هيئتك بهذا الشعر المسترسل، بوجهك الأحمر المليء بالخطوط، يوحي بأنك غريب عن هذه المدينة، ولم أستغرب أنك وقعت في حبها، لكن الاحتلال جعل الحياة فيها جحيماً.

– هي مدينة مدهشة وتستحق أن يقاتل الإنسان من أجل حريتها، لكن ياصاحبي الإنجليز، لا علينا أن ننكر أن الإنجليز هم من أسهموا...

لم يتركه يكمل، فجأةً صرخ ذلك الشاب وقد وثب ممسكاً بخناقه:

– لم يبقَ إلا أنصاف الرجال يمجِّدون الاحتلال، يروِّجون لفضيلة العبودي...

تدخَّل بعض المعتقلين لفضِّ الاشتباك، هرع البوليس بعد أن أخذ بعضهم يدقون بأكفهم صفيح وقضبان الباب.

اقتيد الاثنان خارج الزنزانة، حققوا معهما، أخفى كلٌّ منهما ما تفوَّه به ثم أُخذت صور لهما، مُلئت الأوراق بأقوالهما، بصمات على أوراق التحقيق وتعهدات بعدم العودة إلى عدن، ليُفصلا في زنزانتين مختلفتين، لمح قمر على وجه ذلك الشاب ابتسامة مبهمة ونظرة غامضة وهم يقتادونه بعيداً عن زنازين الاعتقال.

صبيحة اليوم التالي أخرجوه مع مئات المعتقلين إلى ساحة السجن، صُفُّوا في طوابير، لم يصدق أنه سيخرج من السجن، بحث بين مئات وجوه الطوابير عن ذلك الشاب الذي تشاجر معه ليهمس أحد من كان في زنزانته في أذنه: «ذلك لا يفارق السجن، هو من المتعاونين، يظلُّ يتنقل من زنزانة إلى أخرى ومن عنبر إلى غيره»، نخرت تلك الكلمات بدنه، يلتفت شمالاً ويميناً فلا يرى إلا طوابير المبعدين ودائرة من جنود الاحتلال تصوِّب بنادقها، وتلك الأبراج.

أصعدوهم عربات نقل كبيرة، خرجت في قافلة طويلة تحفُّهم عربات مسلحة، عبرت بهم شوارع المنصورة والشيخ عثمان ثم أراضي العقربي وصبر حتى الحوطة غرباً إلى آخر نقطة،

أنذروهم بعدم العودة إلى عدن، ملوّحين بسجن مؤبد لمن يعاود الكرَّة. شغلته ملامح ذلك الشاب طيلة الوقت، يحاول جمع أجزاء من وجهه فيتبعثر المشهد، مردِّداً: «متعاون»، يتذكر تلك الحكاية التي سردها له عن الصومالية وأشخاص آخرين، صرخ: يا لبلادتي! لقد كشفت كلَّ شيء!

مشاعر متناقضة احتلت نفسه وقد أُبعد من عدن، رآها حلماً يتوارى بعيداً، غادر أكثرهم إلى مناطقهم بينما قمر فقد إحساسه باختيار أي اتجاه، مستعرضاً حالته: في القرية ظلم الشيخ ينتظره، صنعاء العسكر يترصدون ظهوره، وعدن تطرده!

تشاور مع قلَّة تبقّوا في النقطة أن يسلكوا العودة إلى عدن، كان متحمساً ليغيِّر رأيه في اللحظات الأخيرة، رفع صوته: وداعة الله، وصمت قليلاً ثم رفعه مرة أخرى: تركت لكم جزءاً من قلبي هناك، حسّكم عليه.

***

طوال أيام السفر إلى صنعاء سكنته عدة أرواح، إحداها تشتاق إلى صنعاء، وأخرى لا تود العودة إليها، وثالثة في حزن لضياع الحلم، وروح تتوق إلى مكانٍ بعيدتبدأ فيه من جديد. تتردد صدى كلمات فتاة الريح: «ستندم يوماً حين يعذبك الشقاء ولن تجد إلى السعادة طريقاً»، يقف موقف المذهول من تنازع روحه، يشعر بالضياع ولا يستطيع إلَّا أن يمضي.

وصل إلى ذمار، حتى سلك طريقاً غير تلك التي غادرها فيها صنعاء، انحرف من قرية رصابة شمالاً (معبر) فغرباً مدينة (ضوران)، سلك (قاع بكيل)، جاور عدة قرى ووديانا حتى (حمام جارف) شمالاً ومنه صعد مرتفعات حتى هضبة (بني مطر)، إلى الغرب من صنعاء جاور جبل النبي شعيب وعيبان. أثناء عبوره ذلك الطريق كان يقدِّم نفسه لبعض القبائل كملكيٍّ وأخرى كجمهوري، حسب توجه كلِّ منطقة، حتى هبط طريق منحدرات عَصُرْ تحت حرارة شمس الظهيرة. لم تعد أصوات الانفجارات وقعقعة الرصاص تعني له شيئاً، ففي كلِّ منطقة عبرها تدار معارك وتتجمع قبائلوتوقَّع صفقات، والرايات المرفوعة هي الجمهورية والملكية، فترى ألوان الولاء تتغير حسب من يدفع أكثر، لترى تلك القبائل تقاتل اليوم من قمة جبل لتنتقل اليوم الثاني إلى قمة الجبل المقابل.

دفعته إحدى أرواحه لشراء ثياب نسائية مزركشة، أدخلته مسجداً في ضواحي صنعاء، توارى بأحد (المطاهير) شعر بقشعريرة لملامس ثوبه الجديد، اشتعل بأحاسيس مختلفة، طعم برائحة الهيل. خرج يتسربل بقوامه اللَّدن وطرحته السوداء، قاده قلبه لزيارة سرير صديقه، بحذر تسلَّل، تلك الأصوات والروائح زادت حدَّتها، كان في شوق لأن يحكي لصديقه حكاية عدن، الحَجّة وشوقها إليه، فتيات الهوى، قتال جبهات التحرير والقومية، السجون، المتعاونون، المبعدون، لكنه لم يجد له أثراً. خرج حزيناً يتابع سيره تحت وابل أصوات أذان العصر يردد

الفاتحة على روح صديقه، يدعو له بالمغفرة، قادته روحه حتى سوق باب السبحة، دخل سمسرة أبو عامر، يتمنى رؤيته، تدور عيناه، خيِّل له كلُّ وجوه المتكآت، وجه صديقه، همسه، نظراته. بدَّد صوت عامل السمسرة تهيؤاته:

–إلى أينيا امرأة؟

هزّ رأسه علامة للنفي وعيناه تمسحان وجوه المتكآت، ثم التفت راسماً ابتسامة عذبة هامساً:

– أرجو مساعدتي.

– فيمَ؟

– أبحث عن شخص يتردد على هذه السمسرة.

– كُثُرٌ من يترددون، لكن ما اسمه؟

– الصبري، كان له صديق أنخم و...

– أووووه. مضت شهور وشهور لم أرَ فيها أحداً.

– كيف أعثر عليه؟

– ربنا المعين.

سمع صوت انقطاع آخر شعرة أمل، غادر سمسرة أبوعامر، سماء تكسوها ذرات دخان، عاد يجرّ كآبته عبر أزقة كثيرة دون تمييز منه، عبر سوق العرج، وصل أطراف سوق البقر، عبر وسط أكوام العلف والبهائم، تلفَّت علَّه يرى شبح الحاج، تقدم باتجاه باب السمسرة، تأملت الحَجّة وردة وجهاً تعرفه، أطالت النظر، رفع صوته: «ها أنذا أعود». قطبت الحَجّة حاجبيها مرتبكةً، رائحة نظراتها تسربت إلى أعماقه، دفء عينيها. ابتسم حين خرجت من خلف مواقدها، احتضنته، بكى على صدرها تحت دهشة عيون السمسرة، لم تخدعها ملابسه النسائية، عيون المصاطب تتابع ما يدور، همسات الرواد، ماضغو القات، عيناه تخترقان غبش دخان المواقد والنارجيلات. أشارت عليه رافعةً صوتها:

– اصعدي لترتاحي والصباح رباح!

– الصندوق؟

ابتسمت:

– محفوظ.

– أقاربي؟

– صار لهم أشهر لم يعاودوا.

عبرت تلك الروائح روحه، صعد ووجه الفتاة وردة يملأ عينيه، صوتها، يستعجل الصباح، كلُّ شيء في خلوته كما تركه آخر مرة، الأشياء في مواضعها.

استقام يصلي، تغلَّب شوقه إلى وردة على كلِّ تفكير،وجهها المثلث المقلوب، الفم الهلالي، صوتها، جلساتها، مراقصتها للحمام، عتابها، كلماتها. صلّى كثيراً ينتظرها. تسرَّب الضوء، أرهف السمع علَّه يسمع نقر الباب، زاد الضوء من شروخ الباب، النافذة، لا أحد. خرج إلى السطح، كلُّ شيء صامت إلَّا من صوت ضوء ينسكب ليغمر الأنحاء، سماء صافية، الحمام هجر شرفات الدور العالية،فتحات المنارات. ممسكاً بخيوط الأمل ينتظر، مضت الشمس في صعودها، انتصف النهار دون أن يطلَّ وجهها.

متاهة حريم

رفع صوته:«ربي، ماذا عليَّ لأرضيك حتى تستقر حياتي وتتَّضح طريقي؟!»، كل شيء خراب!.

هبط يتسربل بثيابه المزركشة يبحث عن وجهها، لمحها في عمق السمسرة، التقت عيناهما، لم تطل، تجاوزته لتنشغل بترتيب مساطب النزلاء، لاحظ ابتسامة عيني الحَجة وردة وهي تتابع ما يدور، ابتسمت، اتخذ من مكان المرحوم متكئاً له.

– قهوتي!

هرعت الحَجة بأواني القهوة، طبق كعك، ثم جلبت نارجيلة طويلة، جلست بجوارهشافطةً فم المشربيتلذُّذ ثم ناولته.

– فاجأتني البارحة– خفضت صوتها– سألت نفسي وأنا أرى وجهاً معروفاً لكنه وجه امرأة، كنت أسأل نفسي حتى سمعت كلماتك،رويداً رويداًتذكرت وجهك المميز– صمتت قليلاً وهي تتأمله– سأخاطبك بابنتي، تنفيذاً لما طرحته عليك قبل رحيلك، لكن لماذا ذلك الحذاء العسكري لا يفارق قدميك حتى وأنت تلبس هذا الثوب الجميل؟

–سأجيبك بعد أن تخبريني: لماذا وردة ليست هي؟

ابتسمت مرسلةً عينيها باتجاهها:

– أنت أدرى!

– لا أعرف سبباً!

– أمتأكد؟

– أراها لا تعيرني اهتماماً.

– وماذا تريد منها؟

– ما تقصدين؟

– أي مشاعر صحيحة تنتهي بتآلف وتزاوج.

– صدقت، لكني...

– لكنك ماذا؟

–دع الأمور تسير وسيحل الله كلَّ معقَّد.

–لك هذا، وهذا لها.

مدّ لها بقارورتي عطر ،ابتسمت.

– هكذا يتصالح المحبون.

صعد بشعورٍ مبعثر، تمدّد ناظراً إلى السقف، أحسَّ بأن حياته لم يعد لها معنى وأن عقله ضاق به، يفكر أنّ عليه أن يتخلص من حياته، لعن وهو يرى وجه مدرّسه الأعمش يتماهى على خشب السقف.

يحمل قلقه هابطاً من خلوته، يعتصر قلبه الألم حين لا يجد غير الحَجّة وردة تلتفت إليه، يقف أمام مواقدها مرتبكاً، تقترب منه هامسةً وقد علت وجهها ابتسامة:

- إلى متى تتسربلين بهذه الملابس؟
- أشعر براحة وأنا هكذا.
- الله يعلم ما حكايتك. ألا يحق لي أن أعرف ما قصتك؟
- أنا على يقين من أن وردة قد حدثتك عني.
- حدثتني عن أمور كثيرة، لكن موضوع ملاحقة العسكر لك تشغلني!
- حين أقرر أن أكون ابناً لك وأجلس على هذه المسطبة طوال الوقت سأحدثك وأجيب على كل سؤال.

يعود صاعداً في قلق ورعب، إحساسه يتعاظم أنه يتحرك داخل مصيدة، يريد أن يسمع حكايات ترحل به بعيداً، يعود وجه وردة يحاصره، يحاول أن يتخلص من التفكير فيها، أن يخطط لفعل يبعده بعيداً بعيداً.

* * *

دسَّ روحه في ثنايا ملابسه المزركشة يستحضر مدرّسه الأعمش، الأماكن التي يمكن أن يجده فيها: المدرسة، المسجد، منزله! يهلوس: أيجوز أنه عاد المدرسة؟ يتصور مداخلها وزواياها، شعور يدفعه لسرعة تنفيذ ما عليه تنفيذه، ليفرّ مما يجثم على قلبه، يحاول أن يفكر بعقلية قاتل ذي قلب بارد، أن يباشر خطواته بذهن صافٍ.

زار المدرسة، جلس يتسوَّل على درجات بابها، ينتظر قدومه أو خروجه، يومان من الترصد، لا أحد. سأل حارس المبنى فقال له إنه ترك المدرسة منذ حين.

اتجه إلى شارع تلك الدار التي كان يتردد عليها يوماً، لاحظ خروج أطفال ونساء منها، دخول أناس غرباء، ذاب الوقت بين يديه، اضطر للسؤال ليأتيه الجواب برحيله من الدار منذ مدة طويلة.

***

تسكَّع وحيرته من زقاق إلى آخر، خرج إلى ميدان التحرير، بوابة مبنى الداخلية، كشك الحراسة هو نفسه، جنود يدخلون ويخرجون، يقترب متحدياً، شبق نظرات عسكر المبنى، يبتسم محدثاً نفسه: لو يعرفون من أكون؟! يبتعد صاعداً في شارع العروض (جمال) تلاحقه نظرات

المارة، ينعطف قلبه، يمرّ من أمام بوابة قصر البشائر،ما زالت آثار القذائف والحرائق في أركانه العلوية، وجوه عسكر هزيلة أمام البوابة، اقترب منهمتدفعه نفسه للسخرية منهم:

- سلام عليكم.

- وعليش السلام.

- ربنا يحميكم، اسمحوا لي بالدخول لحريم القصر؟

- ابتعدي، هيا،لم يعد من قصر ولا هناك حريم، هو سجن، هيا.

- سجن؟

- بلا لكاعة حريم، ابتعدي سجن أو غيره!

خرج قبيل شروق شمس اليوم الثاني، تعجبه نظرات العابرين، بدأ بمسجد النهرين، انكفأ في زاوية عتبة بابه، مادّاً يده ينافس عدداً من العجزة، نال أضعاف ما نالوه من صدقات وكلمات مثيرة.

انتقل صبيحة اليوم التالي إلى عتبة باب قبة المهدي عباس، لم يطُل انتظاره، لمحه خارجاً وسط طلبته، التقت نظراتهما بشكل عشوائي، كرّر الأعمش النظر ثم مضى دون رفيق، كم أرعبته تلك النظرات، ذلك الوجه الذي ازداد تغضناً وشحوباً! نهض يتبعه محافظاً على مسافة البُعد بينهما، تفوح رائحة الخوف من جذور عانته، عَبَر خلفه أزقة حارة الخراز ثم جمال الدين حتى ظن أنه يقصد سمسرة وردة، دخل زقاقاً خالياً من المارّة، خشي أن يُسمع وقع حذائه الثقيل، روح تدفعه أن يستغل فرصة الفراغ، هدَّأ روحه التواقة للقتل، خفف الخطو، عادت روحه تدفعه بقوة، ارتبكت خطواته، ازدادت رائحته.

يبعده خوفه أن تشي به رائحته، تجاوز ارتباكه لينعطف مع أول تفرُّع، تركه يبتعد في طريقه ثم استمر يتعقبه بعيداً بعيداً حتى دخل أزقة حارة سبأ.

وقف أمام باب منزل من دورين، طرقات ثلاث بإيقاعٍ مميز، اعتقدها مصادفة، يأتيه صوت امرأة أو قد يكون صوت صبي من فتحات مشربية حجرية بالطابق الثاني:

- ماان؟

لا يردّ على السؤال، يفتح الباب من الداخل، يتوارى. يتساءل في حيرة حول ذلك الصوت: ترى من يفتح الباب من الداخل، هل تزوج، أم أنه...؟!

يسوّي من طرحته، يبحث عن زاوية يكمن فيها لمعرفة المزيد، زقاق طويل تصطف الدور على جانبيه، سكينة وهدوء.

لعدة صباحات يترصده، يلاحظ طرقاته بإيقاع واحد كتوقيع يعرفه من بالداخل. بعد أيام كان قمر قد سبق مدرّسه بوقت قصير يقرع الباب بعد أن حفظ تنغيمة طرق المدقة،استغرب فلم

يفتح الباب رغم إتقانه عدد وإيقاع طرقاته، كرر دون فائدة، رفع رأسه إلى فتحات المشربية الحجرية، كما لو أنه لمح عينين.

انزوى يرقب ظهور الأعمش، يتمتم بصلوات وأدعية، لم يطل الانتظار، سريعاً ما ظهر الأعمش،ارتفع صوتالإيقاع المميز، اضطرب تفكير قمر، خرج مندفعاً، انشغل المدرّس بتكرار طرق الباب، اقترب قمر يسأله:

– أبحث عمَّن يساعدني.

– فيمَ؟

– يقرأ لي خطاباً.

ضاقت عيناه العمشتان وهو يدقق في وجه قمر،استثارته رائحته، لم يأبه المدرس لفتح الباب،مد يلتقط قرطاساً من يد قمر، ليرتفع صوتٌ رقيق من فتحات مشربية تطل من أعلى الباب: هيا عتدخلوا؟ ردّ عليها بصوت زاجر: تمام ولي! فرد القرطاس، من أول كلمات القرطاس تراخى فكّه الأسفل مستغرباً، في الوقت الذي انثنى المزركش ساحباً خيط حذاء بيادته بخفة، وبحركة سريعة لفَّه حول عنق مدرّسه. باندهاش حاول الأعمش المقاومةمردّداً:

– سبقتك رائحتك النتنة، أيها الخنثى الحقير، يا جاحد المعروف!

تزايد صوته ويداه تجدّفان في الهواء لشدة ضغط الخيط على حلقه، حاول الاستدارة ليفقد توازنه ويسقط أرضاً بعنف،تعالى صوت استغاثته، جثم قمر على ظهره شاداً بكل قوته خيط الحذاء، ارتفع صراخ من أعلى المشربية الحجرية، انقطع صوت المدرّس ليغوص الخيط في لحم رقبته، أحس قمر بغضاريف حنجرة يتهشم،ارتعش هنيهات لتتوقف أنفاسه، للحظات همدت حركة أطرافه، تأكد له أنه لفظ أنفاسه، تزايد الصراخ يتبعه ضجيج من خلف باب البيت، لتفرَّ خطى قمر في الاتجاه البعيد، تعالت أصوات استغاثة امرأة، تبعتها أصوات نحيب حزين، لم يلتفت إليه، أطلق ساقيه، سريعاً ما سمع وقع أقدام خلفه ثم ارتفعت أصوات: أمسكوها، قاتلة، قاتلة هاربة، يا ناس، يا مسلمين! يتوقع أكفًّا تتشبث به، يسرع الخطى ملوّحاً بخيط حذائه، سلك أزقة دون نهاية وهو يسمع أصواتاً: أمسكوها، قاتلة قاتلة يا مؤمنين، زاد وقع الأقدام خلفه وزادت الصرخات، وجد نفسه يعبر ساحة سوق البقر، يدخل السمسرة شاهراً خيطه، تموج السمسرة بحركة من بداخلها، يقذف بخيط حذائه:هذه أمانتك، تحاول الحَجّة وردة سؤاله في ذعر:

– ماذا جرى...؟

لم يسمع الحَجّة وهو يصعد درجات السطح، صخب الجموع يمزّقه، استشعرت الفتاة وردة خطراً داهماً، تكاثف الناس: «القاتلة، القاتلة، أخرجوا القاتلة»، سحبت جذعاً مشتعلاً من فوهة بيت النار، استدارت ملوَّحة في وجوههم:

–تراجعوا،أقسم بالله من يتقدم خطوة لأشوينه.

– القاتلة، القاتلة!

تأكّد لها أنهم يقصدون قمر. نظرت إلى وجه الحَجة بملامح تائهة.

– لا تتحركوا، سأعود بها.

صعدت بأنفاس لاهثة، وجدته يلوب في أطراف السطح، رأت في عيونه الذعر والفجيعة، صرخت بأعلى نبراتها، أمسكت بمعصمه:

– اتبعني.

قفزت به في فضاء بستان خلفي تابع للمسجد المجاور، سعيدة لمشاعر غشيتها بامتلاكه،أحست بالحظ يبتسم وأنها الآن تصحبه بعيداً، أن تخبئه.

تذكّر في تلك اللحظة وجوهاً: جارة أمه أثناء وداعه، مقهوية ذمار، قصر السعادة، فتاة الزوابع، نساء عدن، وجوهاً عدة، وهو يقفز متشبثاً بكفها نحو الاتجاه الآخر خلف السمسرة. تعفرت ملابسهما بالتراب وبعض خدوش فروع الأشجار بعد اصطدامهما بالأرض، تسللت به بين جذوع ظليلة، صوت امرأة من نافذة إحدى الدور المحيطةيحثّهما على سرعة الهرب،وأنّ عدداً من الملاحقين على سطح السمسرة.

اقتربا من المسجد، عبرا وسط دهشة المصلين، تقافز بعض من كان على سطح السمسرة في أثرهما، جموع أخرى التفَّت عبر الأزقة المحيطة.

وردة ممسكة بمعصمه تخرج من المسجد إلى نهرالشارع، تجاهد وردة قطع الأزقة المتبقية في اتجاه دارهم، تقصد شوارع وأزقة فرعية، ازداد صخب الملاحقين، تحثه وردة على الإسراع،رعب يقترب منهما، رفع وجهه إلى السماء، رأى قناطر السماء، تشدّه وردة أكثر باتجاه باب دارهم.

صعدا درجات معتمة، هدير وقع أقدام تتبعهما، وجوه تطلّ متسائلةً، شدته أكثر، وصلا الفسحة المشمسة أعلى دارهم، الحجرة المتوسطة، أزاحت ستارة مهترئة، عبرت القنطرة الموصلة بالدار المجاورة، عيون نساء وأفواه تبتسم لهما، ترحّب بهما، هرولت متخطيَّةًتلك الدار إلى قنطرة أخرى، نساء يتحلَّقن في دعة، عيون تتساءل، أفواه تدعوهم للجلوس، أكفٌّ تصفّق، شفاه تبتسم وهمسات تتوالى. مضت به عبر دور وقناطر عدة حتى سطح عالٍيشرف على آفاق بعيدة، وقفا يلهثان، تتأمل عينيه اللتين اغرورقتا بالدموع.

أشعة الشمس تلوِّن الآفاق، أسطح متراصة، منارات متباعدة، صفوف دور متداخلة، سكون بهي إلا من سحب سوداء، صدى دويّ يأتي من الأطراف الشرقية للمدينة.

– أين نحن؟

– نحن في أمانة الحريم!

جال بنظره مرة أخرى: جبال نقم إلى الشرق، عيبان إلى الغرب، وادٍ يمتد بعيداً، أعمدة الدخان، دور صنعاء تتجاور وتتداخل، مناراتها، أزقتها العميقة.حاول أن يبتسم متلفتاً إليها:

– تلك منارات الجامع المقدس، وتلك دار بيت العمري، نحن في حارة القطيع بجوار جبوب النعيم وتلك قبة البكيرية.

صمت منشغلاً بضجيج نفسه ينتظر صوتها، نسائم باردة تهب،قال لها:

– أريد أن أتخلّص من ملابسي.

نظرت إليه تحاور نفسها، لا تريد أن تفقده، أن يحس بإخلاصها له، تريد أن تسأله عمّا حصل، لماذا يلاحقونه، وهل قتل أحداً بالفعل. تخاف أن تفقده، لا تريد أن تتركه يذهب في مداراته بعيداً. قالت له:

– نحن هنا في مأمن فلا تفكر إلا أن تكون هكذا، عبرنا كل تلك الدور وما يربطها من قناطر معلقة في أمان، ونستطيع أن ننتقل في دور صنعاء مادمنا حريم.

***

غابت شمس ذلك اليوم، توزعت العتمة أنوار خجولة، بين فينة وأخرى يتصاعد وميض زخات رصاص في الأفق البعيد، وهج انفجار. رويداً رويداً تزايدت نجوم السماء واقترب بعضها ليدنو من دور صنعاء، تشجعت تكسر الصمت الذي طالت حيرته، أمسكت بكفه:

– نحن في أمان مادمنا في الأعالي، يتطلب منك التصرف كامرأة ما دمت هنا.لا تنسَ ذلك لحظة، خاصةً عندما نكون في حضرتهن.

لم يرد على صوتها العطوف، أحسَّ بأن ذلك الثوب أمسى جزءاً من كيانه، تشغله أفكاره أكثر من أي وقت مضى، وأن ذلك الشبح الذي إلى جواره ليس وردة المنكسرة، تلك الفتاة التي لا تجيد التصرف، يشعر أنها أقوى مما كان يعتقد، وأنها كائن آخر:

– من أين لك كل تلك الجرأة؟

– أيّ جرأة؟!

– كل ما قمت به أدهشني! لا أصدّق أنك وردة التي أعرفها!

– لا أعرف إلا أنك في خطر. في البداية لم أميز ما يدور، ليداهمني شعور قوي ولم أعد أعرف ما اعتراني، لم أتصورك قاتلاً وهم يصرخون! لكني حين رأيت عينيك أدركت أنك في مأزق. نسيت كل شيء، كل قسوتك، تجاهلك لمشاعري، ونسيت ما كنت قد أضمرته في الأيام الماضية، وكأننا أبناء الأحداث الكبيرة،وما ينفع الإنسان هي أمور تضعه على شفير هاوية. كنت قد قررت أن أتركك بعد أن تركت صنعاء وغبت أشهراً طوالاً، لكني وجدت نفسي أنسى كل شيء.

سكتت لينسج الصمت شكوكاً وريبة، رفضت أن ترضخ لذلك الشعور، ليعود صوتها من جديد:

- أصدِقني، وأعدك مهما يكن الأمر قاسياً فسأكون معك.

حاصره سؤالها ليعيده إلى أول أيام معرفته بها، لحظات تأمّلها هيئته وهي تمدّ له مفتاح الخلوة، صعودها صباح اليوم التالي، رعبه منها،بعد إصرارها التقرب إليه خوف أن تشي به، رفضه، تنامي مشاعرها تجاهه، توجسه من تلك العاطفة، من لحظات ضعفه، عتابها وبكاؤها الحزين مرة تلو أخرى،زيارته لأمها، لحظات صعودها قبل أيام من هروبه إلى عدن، صدودها بعد عودته.

لم يتخيّلها لحظةً بهذه القوة، إحساسه بصدق عاطفتها وأنها لن تخذله، دافعٌ يدعوه للبوح إليها، أن يعترف لها بكل ما يخفيه، أحس بروح تمنعه البوح، قرر أن يرجئ بوحه بما يشقيه، تنتظر صوته وقد تقوقعت بجواره، أراد أن يهرب من سؤالها:

- كيف أعود إلى الشارع؟

- تعود؟

- سأتنكَّر.

- أكثر مما أنت متنكِّر؟ إن كنت لم ترتكب جرماً فعُد دون تنكُّر، وإن كنت ملاحقاً لدم أو عرض أو مال فأخبرني، لمَ تخشاني؟

- أنا مرتبك، لا أعرف ما عليَّ فعله، لا أريد أن أكون مقيّداً بهذه الملابس وفي هذه المتاهات. أتوق لحياة دون خوف، حياة آمنة.

- غريب أمرك، أحدثك شرقاً فتجيب عليَّ غرباً!

- الحكاية تطول.

- هي كلمة، هل أنت قاتل؟

- أنا مقتول، وما غيابي الطويل في الفترة الماضية...

قاطعته:

- أين كنت؟

وجدها فرصة للهروب من حصارها، أن يذهب بها بعيداً عن حمَّى أحداث اليوم، أمسك بكفها، اقتربت تلتصق به، أخذ يحكي عن طريقه إلى عدن، تطرَّق إلى تفاصيل صغيرة، لكنه لم يذكر ما صنع بشيخ قريتهم. تستمع إليه وقد اتكأت على صدره، تعانق أصابعها أصابعه، يسرد بتمهُّل، منغِّماً صوته أثناء حكاية بقائه في تعز لأيام، رحيله مع سلاح مهرب عبر طرق ريفية فوق البهائم إلى عدن، لقائه بالحَجّة الصومالية وأيام من البحث والسجن، تفاصيل ينثرها، يحكي ويحكي.

انقطع صوته،تلحُّ أن يخبرها عمَّن قتل، استقر بداخلها أمر، تمنّت بدل صمته ومراوغته أن يخبرها بأنه كان يدافع عن نفسه أو أن الأمر قتلٌ بالخطأ. وجد نفسه يقصّ عليها ما حدث، يذكّرها بذلك المدرّس الذي حكى قصته لها منذ حين، وأنه بالأمس قد اقتصَّ منه. توقع أن تمطره بأسئلة أخرى حول ما حدث كيف وأين؟ لكنها صمتتولم تعد تسأله منذ ذلك اليوم حول ذلك الموضوع.

سعيدة بإحساس أنها تتملكهوأنه إلى جوارها ليل نهار.

قال لها:

- اسمي قمر.

ضحكت وهي تردد:

- اسم يناسب أن نقدّمه لمعشر الحريم!

صمت يتأمل عتمةًتحيط بهما، سألها:

- هل سنبقى على هذا السطح البارد؟

- كل ما عبرته من دور لنا، وتلك الدور التي لم نصلها.

لم تقل له وردة إنّ ذلك المحيط من الدور المتصلة بتلك القناطر المعلقة وبالذات ما هو مخصص للحريم، فكثيراً ما عبرت تلك القناطر كما تعبر كل النساء ليلا ونهاراً، يمارسن خصوصياتهن ونزواتهن بعيداً عن أعين الرجال، ولذلك قادتها قدماها إلى تلك المتاهة البعيدة عن أعين الرجال.

لجأت لصاحبة الدار التي رحبت بهما، وأفردت لها ولصديقتها (مفرج) في دور الحريم يطلّ على أزقة وشوارع عميقة.

تزورهن النساء وقد اختلقن حكاية زوجة الأب الشريرة، يسردنها لكل متسائلة، يضيف قمر دموعه الصامتة أثناء الحكي،يستدرّ عاطفتهن، تشاركهن ثرثراتهن، حتى تحول ذلك المفرج بعد عدة أيام إلى مقيل القات والثرثرة التي لا تنتهي، ينقسمن إلى جمهوريات وملكيات، يتصاعد الخلاف ثم يفتر ليتحول إلى همس في مواضيع تخص أنوثتهن وتفاصيل علاقاتهن، ثم ولوجهن بالحديث حول أسرار الفراش وكيف تصنع كلٌّ منهن ممن تحب فحلاً مطيعاً، لتتحدث إحداهن عمَّا يعجب الرجال فيها وما يعجبها في الرجال. ينصت قمر بالعاً ريقه للذة ما يسمع،تبسط إحداهن صفحة مجلة مصرية وقد امتلأت بصور الفنانين وصفحات لنساء بملابس السهرة وأخرى بملابس البحر،تتحبس الأنفاس حين تبسط إحداهن صورة لفتاة وشاب في وضع حميمي شاهق، تتحول الأصوات إلى فحيح، يشاركن قمر أسرارهن الشهية.أمسى ذلك (المفرج) ملتقى الحريم، يغنين ويرقصن، ليكتشفن حلاوة صوت قمر وحلاوة رقص وردة. تأتي إحداهن بدفّ، يذهلهنّ قمر ببراعة نقره، تندهش وردة لقدرته تلك، ينهل من مخزون ما يحفظ من قصائد الغزل

والابتهالات، وأخرى في مديح الرسول، تنتظم الأماسي، تشاركه صبية بالغناء والرقص، يتحرك شيطان الغيرة في صدر وردة، تحرص على ألّا تتركه للمتقربات، تبتدر الرقص دوماً، تذهل الجميع برقصة الحمام، يصفقن لها ثم يلحقن بها، ودوماً ما تراقب عيون من حوله، تعليقاتهن، تعنِّفه حين يهامس إحداهن.

***

خلال أسابيع شاعت قدرة ساكنات ذلك (المفرج) على نشر البهجة والفرح، ليزداد تهافت صبايا الدور البعيدة وعاشقات الأنس والطرب. تهمسه وردة: تلك الشابة أرملة، قتل الثوار زوجها بتهمة مخابرته القوات الملكية، وقد تركها وحيدة مع طفلة صغيرة، تعيش في بحبوحة. وتلك بنت قاضٍ كبير، وهذه امرأة ثرية تحب مجالس الأنس، وتلك زوجها ضابط يعمل مع القوات العربية، تأتينا بالمجلات وتلك الصور المثيرة، وتلك زوجها تاجر يعمل في تهريب السلاح، والأخرى بنت شيخ متنفِّذ، وهكذا تأخذ في مهامسته كلما دخلت أحداهن.

لم تمضِ أيام حتى تحولت وردة إلى متربّصة، تحذّره من الاقتراب من هذه وتلك، تثير حفيظتها تصرفات بعضهن إزاءه، تحثه على صدّ كل تصرف مشبوه. ينظر إلى كلماتها متعجباً، يتمنى لو أنها تصدقه، وأن ابتذال بعضهن لا يثيره، وأن ما يشغله هو خوفه من أن ينكشف أمره.

زادت غيرة وردة، تحاول كبْتها وهي ترصد تهافتهن على صداقته والتقرب منه. إلى ذلك المساء حين فاجأت الجميع بصراخها عقب احتضان إحداهن له أثناء رقصة جماعية، أمرت الجميع غاضبةً بالانصراف ليخيِّم صمت بطعم الرماد.

صامتاً ينظر يراقب حالتها، فاجأها بلمس كتفها، أرادت صدَّ ملامسته، سالت دموعها، ليخرج صوته خجولاً:

– بدأت أخاف منك!

– لماذا تتعمد إغاظتي، تتقبَّل بمتعة مداعباتهن؟

– لكنهن يتصرفن مع قمر الحرمة، وعلى هذا الأساس أتصرف، أتتذكرين أنك من نبهني في أول مساء لنا في هذه المتاهة، بل وحذرتِني ألَّا أنسى للحظة بأني امرأة، أنا حزين لتصرفاتك، فهل أترصد لك ما تقومين به مع بعضهن؟ هن يتعاملن مع قمر.

– لكنك لست قمر!

– بل قمر...

تصالحا بعد أن وعدها بأن يحاول بما لا يثير حفيظتهن، لكنها ظلت تحاصره بعتابها، تعدد ما لاحظته بعد كل سمر، تذكّره كيف كانت يداه تعتصر كفّإحداهن، نظراته إلى أخرى،احتضان ثالثة، قبلة أخرى على خده، وسريعاً ما يتحول العتاب إلى شجار. ينكفئ مرتدياً عتمة خوفه، يعاتب نفسه، يشعر بأنها تزداد تسلّطاً ليلة بعد أخرى، يحلم بأن يفر، أن يتخلص

من تلك المتاهة التي علق بها، يفرح حين تُطيل الصمت، يظنها تفكر فيما ترتكب من تصرفاتوأنها تراجع نفسها، يحلم بأن تكف عن تسلُّطها وغيرتها.

لم يكن ينفر ممّن يعاملنه كامرأة، يشعر بارتياح من مجاملاتهن وتودُّدهن بل وملامساتهن، بل إنه يشعر يوماً بعد يوم أن قربهن منه يحرك أحاسيس امرأة تختبئ بداخله، تتوق إلى أحضانهن وأنفاسهن لحظات أن تقبّله إحداهن أو تطيل التحديق في عينيه مبتسمةً وقد لفَّت ذراعيها على خاصرتها، يشعر بودّ يفتقده، لحظتها ينسى ترصُّد عيني وردة وما سيلقاه بعد ذلك من عتاب وتحذير يتطور إلى شجار،لتُسمعه:

- أرى بريق عينيها حين تنظر إليك، فرح وجهها.
- من هي؟
- تلك الأرملة اللعوب!
- هي مثل كل النساء.
- أنا امرأة وأعرف ما لا تعرف!
- وماذا عليَّ صنعه؟
- ألا ترى كيف تطيل احتضانك؟ وتلك العينان اللتان لا تفارقانك!
- هل أتصرف معهن كرجل؟
- بل كامرأة، فقط أن تترك الابتذال!

لم يبُح لها بإحساسه تجاه من ذكرتها(الأرملة الصغيرة)، بفارغ الصبر ينتظر طلّتها، تذيبه نظراتها، لمساتها، صوتها، أنفاسها حين تقترب من وجهه، رائحتها التي لاتشبهها رائحة، ملامح وجهها الصبياني، قبلتها التي تعمد أن تضعها قبيل الخروج على إحدى عينيه.

لم يكن يعلم أنها تحمل تجاهه نفس المشاعر، تعدّ اللحظات حتى تنفرد إلى جواره، إلى ذلك اليوم حين دعته لإحياء ذكرى رحيل زوجها، لم يكن ذلك إلا عذراً،وهي المرة الأولى التي يُدعى فيها قمر لمشاركة مناسبة إحداهن. أرسلت من يعبر بهما تلك القناطر، رآها على مراتب عالية وقد أُلبست طبقات من الملابس، ومن خلفها سجادة للحرمين، أواني الريحان حولها، جميع المدعوات ملأن أرضية، ديوان طويل، يمضغن القات وقد عبقت روائح البخور وأدخنة النارجيلات. أخذ قمر يستعيذ من الشيطان الرجيم، مصلّياً على سيد الرسل، قرأ الفاتحة وسورة يس، رفع دفّه الصغير منشداً «طلع البدر علينا» بصوتٍ شجي لم يسمعن رقَّته من قبل،ناظراً إلى وجه الأرملة التي أمتعتها نظراته، البعض دمعت عيناها وأخريات يبتهلن ويهلِّلن، ينخفض صوت قمر للحظات ليختم نشيده، ثم يبدأ في توشيح آخر يتغزل برب العباد، ناظراً في عيني الأرملة المرتفعة على مراتب عالية. ترتفع أصوات النساء، تنهض الأرملة، تسير وسط صفوف

الحاضرات المترنمات على إيقاع الدف، توزع إحداهن أغصان القات وقطع سكر نبات، وأخرى أواني الماء المبخر.

مع قدوم المساء انتهت الطقوس،تناقصت النساء، لتقترب الأرملة هامسةً في أذن قمر تدعوها للبقاء في ضيافتها.

- ووردة؟ لا يدري لمَ ذكر اسم وردة بفزع.

- ستبقى معنا.

طيرمانة

صعدت بهما سلّماً ملتوياً، ممسكةً بكفّ قمر، ناظرةً إلى عينيه هامسةً بوله: هذا المكان ينتظركِ منذ حين، أدعوكِ كلَّما أردت أن تأتي إلى (طيرمانة)، غرفة عالية ووحيدة، نوافذها تطل على اتجاهات صنعاء الأربعة.

تربَّعت امرأة تجاوزت الأربعين ومجموعة من الفتيات بإحدى جهات الغرفة الصغيرة، وجه ممتلئ وعينان أعياهما الكحل. رفعتالأرملة صوتها: «هذه قمر من طلبتم مسامرتها سيدتي»، أشارت باسمةً لقمر بالجلوس بجوارها. نظر في عيني وردة متسائلاً فأجابت نظراتها بمزيد من التعجب. أغصان القات موزعة في مناديل، نارجيلة هندية بمشربين تتوسط معشرة نحاسية.

سريعاً ما أطلّت النجوم بلمعانها من نوافذ (الطيرمانة)، مخلفةً غلالة شفافة على دور المدينة ومآذنها. الأرملة الصغيرة تمضغ القات، تكرر الترحيب بتلك الشريفة التي بادرت قمر:

– أيعجبك منظر موت الشمسوتكاثر النجوم؟

انتزعه صوتها من لحظته.

– لحظات تأسر روحي.

– كلنا بحاجة إلى تقليدها.

– أتموت فعلاً؟

– ليس بالمعنى،لكنها بذلك تتجدد!

– صدقت!

التبس على قمر فهم تلك الشريفة وأدرك أنها امرأة مختلفة عن كل النساء.

مع ازدياد العتمة تماهت ملامحهن، دور المدينة تحت سناء بارد يبعث على التأمل، صوت قرقرة النارجيلة أضفى غموضاً على صمتهن. عاود صوت المرأة: هلَّا بدَّدتِ الصمت بصوتِك؟ لقد سمعت عن براعتك.

– دون سراج؟

ردّت عليه:

– الساعة السليمانية أكثر نشوةً دون سراج.

أخذ يستحلب عصارة ما بفمه من قات، رفع دُفّه، بدأ بنقرات هادئة، ارتفعت شخللة حلقات حوافه المعدنية، ارتفع النقر، تسارع ثم تباطأ، أغمض عينيه ليرتفع صوته بقصيدة (البُردة) يردّد أبياتها بإحساس حزين، نسي من حوله، اندغم مع نفسه، لم يدرِ كم مضى من الوقت وهو يتنقل من قصيدة إلى أخرى. حين توقف صمتَ كلُّ شيء، ظن أنهم قد رحلوا، مدَّ كفه ليجد وردة إلى جواره، ثم توالت أصواتهن بالصلاة على النبي.

– مديحك حزين؟

ميَّز صوت الشريفة، لم يعلّق، سناء الأنجم يتخلَّل زجاج النوافذ.

بدت له ملامحهن مضطربة بعد أن أشعلت إحداهن السراج، يتأمل وجه الشريفة الممتلئ، كفها المتنقل بين مشرب النارجيلة وأغصان القات، ابتسمت له،استرق نظره إلى عيني الأرملة وقال:

– سأختار قصيدة طروبة.

لاحظ ملامح وردة تشجّعه، منح الدُف إيقاعاً راقصاً يدفعها للنهوض، زاد من توتر إيقاعه، نظر إلى عيني وردة مشجعاً، لم تخذله، أزاحت معشرة النارجيلة قليلاً، خلعت طرحتها لينثال شعرها شلالاً متدفقاً، هي تلك الرقصة التي تُسكر الحمَام، تسارع إيقاع أصابعه، اعتدلت الشريفة في جلستها تتابع، تشجعت فتياتها، نهضت واحدة تلو أخرى، صخب، تبعتهن الأرملة باسمة وقد تكوَّرت وجنتها بأوراق القات، مدّت يدها تدعوه للرقص، نهض قمر متغنِّجاً، ممسكاً الدفّ، يرفع صوته جذلاً، أحست الشريفة أن (الطيرمانة) تهتز من تحتها، تخففت من غطاء رأسها، رفعت ذراعيها كفرخ يهمُّ بالطيران، تهتز في مكانها. عرف لاحقاً أن تلك الشريفة من مطلَّقات الإمام وقد فضلت البقاء بعد هروبه، ويقال إنها مسكونة بجني يعشق الرقص، يهتز فيهزها كلما أطربه صوت.

لم ينم قمر رغم إرهاقه، ظل يتأمل سحر ليل صنعاء من تلك النوافذ العالية، خيِّل إليه أن النجوم تلتصق بالنوافذ أكثر، تدنو حتى لكأنها تود دخول الطيرمانة. تلك الليلة اقتربت الأرملة منه لتهامسه بكلمات وجد.

* * *

منذ ليلة (الطيرمانة) أمسى يُدعى لإحياء جلسات أنس، لتتقاطر الدعوات لحضور أعراس وموالد وأمسيات طرب. تشعّبت طرقه إلى دور متباعدة، ويوماً بعد يوم تدهش براعته وعذوبة صوته وجوهاً جديدة.

تحرص وردة على ابتداع الرقص حتى يكون لها وجود لافت، وتدير شجاراً مع نهاية كل مناسبة. في ليلة لا ينساها قمر، شارك ووردة إحياء زفة ربيبة تلك الشريفة، امتلأت فسحة الحمام الداخلي بالنساء والصبايا اللواتي يتباهين بملابسهن وحسنهن، هي المرة الأولى التي يشارك فيها نساءً دخول الحمام، لم يكن يعرف ما هي طقوسهن. حين بدأن يتصرفن على سجاياهن دنا بنظره إلى الأرض، رافعاً صوته بالغناء لتتحلَّق النساء حوله في دائرة كبيرة،يتمايلن في رقصة جماعية، تسير خلف الدائرة حاملات المباخر، تسحب اثنتان العروس إلى قلب الدائرة، ترتفع الأكف بالتصفيق مع نقر الدف، ثم تبدآن بتحريرها من ملابسها استعداداً للاستحمام. أخذت وردة

تراقب عينيه وقد ارتعش جسده لما يرى، تحررت إحدى الصبايا من ملابسها، وردة تحاول التماسك، يرتبك قمر حين تلتقي نظراته بنظراتها، تتعرى صبية أخرى، تتبعها أخريات حتى لم يتبقَّ غير وردة وبعض كبار السن، تراقبه ورده وعيناه تتابعاناهتزاز تلك النهود الصغيرة والكبيرة، يرفع قمر صوته عذباً، يشعر أنّ قلبه سيتوقف. يرقص الجميع قبل ولوج باب الحمام، صدور مترهلة، بطون مندلقة، أعجاز ضخمة، تتداخل الأجساد فيما بينها، يفاجئه صوت الأرملة عارية، تحتضنه،تهامسه: «هيا قمر ورِّينا كنوزِك!»، كاد يختل توازنه وعيناه تبحثان عن وردة، تبلَّدت حواسه وقد أخذت بنزع ثيابها،و...لتقف وردة هي الأخرى عارية بين الجموع، لم يكن يشغلها غيره، رأى دهشته في عينيها، تلوَّن صوته وقد أخذ ينشد قصيدة تتغزل في حب الرسول، عرف كيف يهدئ غيرتها بالنظر إلى تقاطيع جسدها. امتدت أصابع الأرملة أزالت طرحته لينثال ضوءٌ فاحم هو شعره.

يستحضر ما يمكن أن يحدث، يتخيَّل عيونهن وقد تركزت في مواطن بعينها. صرخ صرخةً تجمّد الجميع لهول قوتها، سقط أرضاً يتلوى ممسكاً بأسفل بطنه، مواصلاً صراخاً مؤلماً، تحلقن حوله فزعات، تدلّت الصدور بما حملت.

* * *

عاد إلى مهجعه تلاحقه تلك المشاهد، باذرةً في أعماقه أحاسيس لم يكن يشعر بها، تمنّى لو تعرى بينهن: مفاتن، مؤخرات رجراجة، فجوجٌ ذكَّرته بماضٍ اعتقد أنّ الأيام قد طمرته، كلمات كانت تشعل حرائق غامضة، – بدأ من تلك الليلة يكتشف نوازعه.

تلك الأرملة لم تتركه، أخذت تتردد عليه حاملةً هداياها من ألبسة وأطعمة، تتغزل بلطافته ورشاقة قامته: أتمنى لقياكِ، أن انادم لطف مشاعركِ، متى؟ لا أريد أحداً يشاركنا. ظلت تقتنص الفرص لزيارتها للهمس، إلى تلك الليلة التي غابت فيها وردة لمرض ابنتها، لتصطحبه الأرملة عبر مسالك القناطر والدور إلى (طيرمانتها). قضيا وقتاً في مضغ أغصان القات، رائحة بخور شذي، صوت النارجيلة ثالثهما، ما أجّج الأحاسيس،تدفق سناء القمر في ليلته الرابعة عشرة، أمسكت الأرملة بوجهه بين راحتيها، فاجأته بقبلة على شفتيه،هامسته: هيا قمريتي نغني، نرقص، أمسكي دفَّك، ناجيني بسحر كلماتك، صوتك المتّحد مع روحي.

التقط قمر دفه، نقر برشاقة أصابعه، غنّى قصيدة أبي فراس «أراك عصي الدمع»، لتنهض ممسكةً بيده، راقصته وسط عتمة لا يشاركهما عدا سناء متسلل. مضى بعض الوقت، لم يشعر بأنها تخلَّصت من ملابسها وأنها تقف عارية، ارتبك قمر ،جثا أرضاً وهي تهامسه:فلنرتوِ، نصلِّي لقلبينا.

تصاعدت رائحته، أصابعها تداعب شعره، ووجهها يلثم رقبته، تملّس صدره، همست بشبق:أشتهي الصدور الملساء! ثم أخذت بلثم سرّته، أردفت: لكِ رائحة مثيرة! ارتعش كالمحموم

لكلماتها، جاست أصابعها ظهره، مسحت على مؤخرته، ضمّ فخذية محاولاً صدَّ أصابعها، تحسّست عانته، قبضت عضواً ذابلاً، ملَّسته مضطربةً، هبطت تمسك خصيتين، تجمَّدت حركتها للحظات، صرخت: لكِ ذنب يا قمر؟ زاد ثقل الصمتوقد تكوَّم جسد قمر يرتجف، همست كالمواء: من أنت يا قمر؟ ظلّ ممدداً دون إرادة، أشعلت سراجاً، أخفى وجهه بين كفيه: لا تخفِ وجهك، واجهني، هيا قل لي من أنت؟ إن كنت رجلاً فأين ما للرجال؟ وذلك الشيء يشبه لساناً مقطوعاً.

- أريدك كما أردتني. خرج صوت قمر ذليلاً.
- اشتهيتك امرأة!
- لي تلك الأحاسيس!
- وذلك الشيء الميت؟
- لا يعنيني!

حين عادت وردة شعر بشيء قد تغيَّر فيها، وجهها شاحب، لم تتحدث إلي، يخاف صمتها، يخشى ثورتها، تمنى ألَّا تتحدث إليه، ولا عن ليلة التعري في الحمّام، متذكّراً جسمها الطفولي، مؤخرتها التي نافست حشود المؤخرات، لا يتذكر أنه رأى لها نهوداً. فاجأه صوتها وقد بدا هامساً:

- لم تسألني عن حالة ابنتي؟
- نعم، ممَّ كانت تعاني؟
- لم تعد تعاني.
- كيف؟
- أحمده على قضائه وقدره.
- ماتت؟
- ارتاحت واستراحت.

وجد نفسه يحتضنها، تدمع عيناه لا يدري على ما. لأيامٍ وليالي بات الصمت هو المهيمن على أوقاتهما، يعتذران لكل زائرة، أحس أنه السبب في كل ما جرى لها، وأنّ عليه أن يصارحها بكلِّ شيء، أن يخفف عنها شقاء مشاعرها.

مرّت الأسابيع وقد استعادت وردة طبيعتها، لتفاتحه في إحدى الليالي بما يشغلها:

- لمَ لا نتزوج؟

صمت قليلاً.

- هذا عمل يجب أن يكون!
- ألا أعجبك؟

ابتسم بخجل، رأى في عينيها دوائر الشقاء، سارع بالإيضاح:

– ما يدريك أني كنت أفكر في نفس الموضوع؟

– أشعر بالضياع؟

– ...

– آه لو أعرف ما بداخلك!

– لا شيء!

– أنت تعرف بأنك عزائي، فلا تخدع مشاعري!

وخزته كلماتها كمخرزٍ صدئ، لم يدر بمَ يجيب، ولا لمَ ليلة الطيرمانة تسيطر على تفكيره، أجساد زفّة الحمّام، جسد وردة الصغير، موت ابنتها، ليجد أن لا شيء يثيره مثل تلك الأرملة.

– أشعر أنني وحيدة في مواجهة هذه الحياة! وأنّ عليك أن تكون رجلاً.

– أنسيتِ أني امرأة.

– لم أنسَ، لكنها نظراتك، وتلك الحية تطاردك، وكأنها تريد انتزاعك مني،لم يبقَ لي سواك!

– لن تصدقي إن قلت لك اطمئني، فلا يثيرني أي جسد.

– وجسمي؟

– أنت غير.

– إذاً لماذا تتصرف معي هكذا؟

– أحب أن أتصرف كامرأة؟

– أريدك امرأة مع غيري!

– هو ما أقوم به.

تهامسه وقد تمددت بجواره، احتضنته تزيل ملابسه، تقبِّل رقبته. تمنى لو أنه يستطيع أن يكون كما تريد، ترك لها أن تكتشفه،حاول أن يتجاوز قدراته، أن يكون رجلاً فحلاً للحظات. جاسته يداها وشفتاهابخبرةٍ منقوصة، بكت وقد تصببت عرقاً:

– أمنحك كل شيء، أفقد كل شيء، أبيح كل شيء، أيوجد عذاب أكثر مما أنا فيه؟

حاول أن يواسيها:

– الحب له طرق عدة.

–أي طريق تريد؟

– ستفهمينها مع الأيام.

– ولمَ تتركني للأيام؟ هذه أنا بين يديك، أم أنها قد سحرتك؟

ظلّ يظهر التماسك، يحاول أن يداري الآمه،ألَّا تشعربما يعتمل بداخله. تلك الليلة كانت من أصعب لحظات حياته، بكى بحرقة دون أن يفصح عن حقيقته، بينما وردة تجزم بأنها لاتثيره وأن في حياته نساء يهيم عشقاً بهن، تلك الأرملة إحداهن. تمنّى لو مدّت يدها تواسيه،تحتضنه، كانت هي الأخرى تتمنى أن يمسح دمعتها بكلمات تعبّر عن حبه لها، يعلل ذلك البرود بخوفه من ملاحقيه، أن يعدد مفاتنها وأنها ليست قبيحة. بادرت هيَ، أو هكذا عليها أن تكون دائماًالمبادرة، اقتربت منه مرة أخرى، أمسكت بذراعه:

– لن نذهب بعد الليلة للغناء والرقص!

لم يفهم ما تعنيه:

– وماذا نصنع؟

– ألا ترى أن معاشرتك النساء غيَّرت في طبيعتك كرجل! أخاف عليك بعد أن أمسيت معروفاً للجميع أن تشي بك إحداهن!

كان يعرف ما ترمي إليه، قال لها متعجباً:

– لكن من أين نعتاش؟

– لا أعرف، المهم نبتعد عن هذه الطريق، وعلينا أن نرحل، فأمامي مخبأ لا يخص أحداً.

نهضت وردة، أحرقت ذلك الدُفّ، حملت معها القليل من الثياب،خرجت به كطفل لا يملك من أمره شيئاً، عبرت به عدة قناطر وعشرات الدور، حتى وصلا داراً مهجورة، اتخذا من إحدى غرف دورها الأخير مخبأً لهما. تزورهما بعض نسوة الجوار سائلات وردة عن رفيقتهاوعن سبب تركها لأمها، تراوغ في محاولة تحاشي تكرار زيارتهن.

***

الطقس شتوي قارس، غرف ذلك الدار تمخرها الريح، غرفتهما تعشش في نوافذها الحمام،وأسراب العصافير تشاركهما تلك السقوف.أخذ قمر يسدّ تلك الفتحات، يعمل على ملاط ما اعتور من جدران غرفتهما، يعجن الطين والقش وتبييضها بالنورة، ثم عمل على جمع بقايا حطام زجاج ليصنع ألواحاً منها ومن الجص لسد فتحات القمريات.اندهشت وردة لجمال تلك الألواح الجصية المعشَّقة ببقايا قطع زجاج ملونة، ساعدته على تشذيب حوافها، مستخدماً قطع حجر خشن لذلك. قمريتان ملونتان تعبر أشعة الشمس عبر زجاجهما الملون، تتأمل وردة مسحورةً ألوان ضوء الشمس القمريات.

– من أين لك هذه البراعة؟

– أنت تبالغين!

– ألا ترى كم هي متقنة؟

- هي قمريات مثل أي قمرية!
- لكنّ ما صنعت أكثر فتنة.

الأرملة الصغيرة

لم تمضِ أيام حتى طلبت إحدى جاراتهم أن يساعداها في ترميم قمريات ديوانها، كان الأمر سهلاً لتوفر قطع الزجاج المطلوبة، تأتي جاراتها يتأملن تلك الألواح الجصية المعشقة بالزجاج الملون، أحالت الأضواء الملونة جدران ذلك الديوان إلى مزار مبهج لعيون جاراتها، عبرت النساء من دور مجاورة طالبات من قمر ووردة تزيين غرفهن.

لم تكن وردة تعلم أن خبر ما يصنعه قمر يسافر عبر القناطر إلى دور بعيدة، إلى ذلك اليوم الذي فاجأتهما فيه أرملة (الطيرمانة) بحضورها.أخفى قمر بهجته، بينما عقدت الحيرة لسان وردة.

– أنتِ وصديقتك وردة من تتحدث النساء عنكما؟! يا لأقدارنا الغريبة، لن تصدقي إن قلت لك إني أبحث عنكما منذ أيام، بعد أن رأت الشريفةألوان ونمنمة قمريات إحدى قريباتها! قمريات تدهش وتسحر،الجميع يود أن يكون لغرفه مثل تلك القمريات.

ابتسم قمر ابتسامةً لم ترها وردة منذ شهور، بادلته بنظرة ملؤها الغيظ. تابعت الأرملة وصفها مبتسمةً:

– كلّفتني الشريفة أن أبحث عمَّن يصنع تلك الألواح، وها أنذا أجد صويحباتي الجميلات هن من يصنعن مثل ذلك الإغواء.

صمتت قليلاً:

– لكن لماذا اختفيتما فجأةً؟ هل أزعجناكما أو أسأنا في شيء؟!

ردّ عليها قمر بصوت عذب:

– لا أبداً، فقط أن يجدد الإنسان حياته حتى لا يصيبه الملل.

– ألن نسمع مرة أخرى ذلك الصوت وتلك النقرات، رقصة العزيزة وردة؟ وها أنتن فنانات في عمل آخر! والله أعلم ما تُخبئان.

أخذت وردة تراقب ملامح قمر بروح الأنثى، محاولاً إخفاء سعادته. قالت بصوتٍ ضاحك:

– جئت ولا أعرف بأني سأجدكما، أردت نقل رغبة الشريفة بتزيين (مفرجها) الخاص، حين تقابلانها ستشرح لكُما ما تريد صنعه، ستجزل لكما الأجر، هي لا تريد قمريات فقط بل تزيين جدران المفرج بالزجاج.

بعد انصرافها ظلت وردة في حيرة، بينما انتابت قمر أحاسيس متناقضة، في الوقت الذي تمنى لو أنها لم تظهر.

- ها هي تلاحقك! لا يهمني ما في نيَّتها، ما يهمني هو أنت، هل أنت مرحِّب بتواصلها؟

- مثلها مثل غيرها.

- أتعلم مقدار المسافة التي تبعدنا عن دارها؟

- أظنها كبيرة.

- في الأمر شيء، ليست مصادفة وعلينا بالحذر.

- وماذا في الأمر؟

لم تردّ عليه.

لأيام ظل التعامل بينهما فاتراً، يلتصقان عراة عندما ينامان، يحسّ بدموعها، يدمع هو الآخر صامتاً، يتوقع أن تنفجر في أي وقت، لكنه ملاك النوم يصحبها بصمته الرحيم. يقرر أن يشرح لها الأمر، أن يصارحها بعاطفته نحوها، يقف في علاقته بها على شفة هاوية، يتمنى أن يستطيع تجاوز تلك المسافةوأن يعترف لها، ليتعاملا بمشاعر جديدة، ألَّا تترصّد له كذكر!

بعد أيام اصطحبتهما الأرملة لزيارة الشريفة،تقتنص السانحة لتعبر له عن شوق (طيرمانتها)، تشعر أنه يخشى وردة حين يبتعد عنها، ليلتصق بوردة.

في غضون أيام أكمل تزيين جدران ذلك المفرج بقطع الزجاج الملون وتلك القمريات بألواح الجص المعشق.

أجزلت الشريفة لهما العطاء ليعودا إلى مخبئهما، ظلت الأرملة تلحُّ عليه بزيارة طيرمانتها، أن يختلس ليلة بأي عذر، وعندما لم تفلح في استدراج قمر دعتهما للعمل على تزيين طيرمانتها.

كانت تحاول إطالة العمل، طلبت تغطية جدران الطيرمانة بقطع المرايا، لتستمرا ما يقرب من شهر ونصف من العمل المتواصل، حوّلا (طيرمانتها) إلى بهجة، عادت وردة وقمر إلى مخبئهما بعد إنجاز تلك الطيرمانة.

- ماذا ينقصنا الآن؟

- لم أفهم ما تعنينه!

- ينقصنا أن نتزوج؟

- يبدو أن هذا الهم طغى على تفكيرك!

- وأي همٍّ أهمَّ من هذا؟

- تمام، كيف نتزوج؟ نحن في نظرهن امرأتان؟!

-سنذهب إلى أمي، وهناك نلتقي خالتي وردة ويتم العقد بين رجل وامرأة.

لم يتوقع ترتيبها ذاك، أحس أنها قد أعدّت كل شيء، همَّ بأن يصارحها، أن... أغمض عينيه عاجزاً عن النطق ليسرح خياله وقد علا صوتها، نبشت شعرها، مزّقت ثوبها، أراد أن يصرخ حين تخيَّلها قافزةً من النافذة تهوي عدة طوابق حتى تصل الأرض.

فتح عينيه، وجد نفسه يحتضنها، لا تعرف لماذا؟ داهمها شعور بأنه يحبها، وأنها أكثر النساء جمالاً، وأنه يشعر بحب كبير لها لكنه يخفيه.

قمر بالفعل كان يشعر بعاطفة تجاهها، لكنها من نوع آخر. أمسك رأسها بين كفيه وقد استسلمت له، أو أنها اعتقدت أنه سيعلن موافقته للزواج.

– فقط نتجاوز ما نحن فيه، وبعدها يمكننا النقاش.

– وما يمنعنا اليوم؟

– سنناقش الأمر لاحقاً.

–دوماً ما يتردد بداخلي سؤال يحيرني: ألا أثيرك؟ نعيش منذ شهور معاً، ننام ملتصقين، أتوقعك في كلِّ لحظة تداهمني، أن تفاجئني، وفي كل ليلة تبالغ في رفضك لي! هل أنا قبيحة في نظرك إلى هذا الحد؟

– ذهبت بأفكارك بعيداً.

– كيف وأنا أرى وجهك يشرق كلَّما رأيتَ تلك الحية، وعيناك تبرقان، وشفتاك تبتسمان، فكيف لو عشت معها كما نعيش معاً، كيف ستكون حياتكما؟

– سيأتي يوم تعرفين فيه كلَّ شيء، وتعرفين أني أحبك بالفعل.

– تحبني، هل تسخر مني؟

– أحبك بصدق، أنت من فرضتِ عليَّ حبك.

– فرضت عليك؟

– أقصد بإخلاصك وتفانيك ومواقفك.

– ليس كأنثى؟

– لكل شيء، كل شيء!

– أحياناً أجزم أني أعرفك منذ طفولتي، وأفرح لإحساسي بأنك أقرب الناس إليَّ، ومرات لا أفهمك، بل وأستغرب لماذا يشدني رجل لا أفهمه، رجل لا أعرف ما يفكر فيه، حتى وأنا هاربة معك لا أعرف نهاية لهروبي معك. صحيح أنك حكيت عن مدرّس استغلك لكني أشعر بأنك غامض كثيراً.في زيارتي الأخيرة لأمي تقول إنها سمعت عن امرأة خنقت رجلاً عند باب بيته بخيط حذاء، وتقول إن زوجته سمعته يقول أثناء عراكه مع القاتلة: «سبقتك رائحتك النتنة أيها الحاقد الحقير، لن تفلت من عقابي يا جاحد المعروف!!».

خيط بيادة

مع مرور الأيام تكرر ذهاب وردة لزيارةأمها،زاد الخناق على قمر من الأرملة حتى استطاعت إقناعه بزيارة الطيرمانة بين ليلة وأخرى، أمست وردة تزور أمها كل ليلة جمعة، أو أنها تنصب كميناً لتتأكد من إخلاص قمر، أسابيع تتبع أسابيع وقد انتظمت ليالي قمر.

فجأةً ينفجر كلُّ شيء، تعود وردة حانقةً بعد شجار مع أمها سمعته نساء الطوابق المجاورة، رفعت أمها صوتها بأن ابنتها تتستَّر على قاتل منذ شهور في ثوب امرأة،وأنها مسحورة به. انتشرالهمس في الطوابق العلوية لدور صنعاء، كل الحريم يتحدثن عن وردة وصديقتها، تلك الغريبة التي رافقت وردة ذات يوم وما زالت ترافقها. سارعت وردة بخطاها تسبق الهمس لتحذير قمر، لكنها لم تجده في مهجعهما، خرجت تبحث عنه، حتى إذا ما وصلت إلى الدور المجاورة لدار الأرملة سمعت من يجيب على سؤالها عنه: دوماً ما تكون في ضيافة الأرملة الصغيرة مساء كل جمعة.

تتغير مشاعرها، يهرول بها الغضب صاعدةً درجات الطيرمانة، قمر يمسك بين يديه بدُفٍّ صغيرٍ مغمض العينين، منسجماً يغنّي أغنيةً شجية. ارتبكت عينا الأرملة حين أطلت وردة، للحظات ظلَّ قمر لا يعي ما يدور حوله، ما أن فتح عينيه حتى تلعثمت نقراته ووهن صوته. ابتسم ببلاهة:

- هيا ادخلي شاركينا، جئتِ في وقتك.

نهضت الأرملة تفسح لها مكاناً.لم يدعها الغيظ تجلس، ترى تلك الطيرمانة التي بالكاد تستوعب فرحتهما ببعض، وذلك الانسجام، ترى أشكالهما في قطع المرايا وقد تحولت أجساماً عارية ووجوهاً تقهقه، ترتفع الضحكات، تضع كفيها علىموطن الرغبة، تغمض عينيها، تصرخ بكل ما أوتيت من قوة:

- أيتها العاهرة، الكل يعرف أنكِ لعوب.

لم تتمالك الأرملة سيل الكلمات، أمسكت بشعر وردة تسحبها أرضاً، حاول قمر فضَّ الشجار، تكاثرت النساء على الدرج والسطح، سحب قمر وردة وقد أُدمي وجهها المثلث المقلوب وتمزق صدر ثوبها.

- ما هكذا الوفاء،لم تكن ظنوني إثماً، كلهن يتحدثن عن مسامرتك لها، عن خياناتك.

يعبر بها القناطر وبين نساء الدور وهي تهذي بصوتٍ زاعق كالمسحورة، لم يستطع إسكاتها، وصل بعد عناء إلى دارهم المظلمة وهو يرتجف، يرتفع صوتها وقد خالطه النحيب، حاول إصماتها، سحب خيط حذاء بيادته، طوَّق رقبتها، شدَّه بقسوة وهو يبكي، تغرغر ظلام المكان، صمت كل شيء إلَّا من نحيبه.

* * *

ارتفعت ضوضاء طوابق حريم صنعاء العليا، أضواء تعبر قناطرها المعلقة، كل النساء يبحثن عن القاتل ضارب الدف، صانع القمريات وغرف المرايا، عدة أيام من البحث المتواصل اشتركت فيه نساء الطوابق العليا، فتشن القناطر، سقوف الدور العالية، الدور المهجورة، تلك التي صنع لها قمريات وأحزمة جصية ورفوفاً، لم يتركن داراً إلا وفتشنها، تذكرن طيرمانة الأرملة، اتجهن نحوها، وبالفعل وجدن وجهه وقد انعكس على قطع مرايا الجدران، أمسكنه، لم يقاوم أو يتفوَّه بكلمة، تناولنه بالصفع والعضّ والقرص، أحكمن وثاقه، سحبنه إلى أسفل الدار، سرن يدردحن به في شوارع وأزقة يعرفها جيداً، يتلقى الصفعات والركلات وبُصاق المارة، إحداهن ترد على من يسأل: قاتل، فتردّ بقية النساء: قاتل،قاتل. أطفال يهتفون: خنثى، خنثى، خنثى، كاد يهلك بين أيديهن،إلى أنأنقذته مجموعة من المارة، أقنعوهن بأنهم سيقتادونه إلى الشرطة، وهنا أودعه عسكر الثورة غرفةً ازدحمت بسجناء كثر بمبنى الداخلية، التفّ حوله النزلاء يستقبلونه بالتصفيق، كانت هيئته مترية وملامحه منهكة، تقدم أحدهم يتأمل وجهه، شعره الطويل،آثار حروق وجهه وأطرافه، نظراته التائهة.

– ما أنت؟

– ...!

– ما اسمك؟

– قمر.

– قمر؟

– لكني رجل!!

– كيف هذا، قل خنثى؟

صفّق النزلاء بمرح، وتعالت صيحاتهم. أطلّ عسكري:

– ما هذه الربشة؟

– كيف تدخلون حرمة بيننا، خذوها بعيداً قبل أن يجنّ الليل، ولا جمهورية؟

– اهدأوا يا أنذال، هو رجل بس متنكر.

– واسمه قمر؟

– اصمتوا أو نرويكم الوجه الثاني، قلت لكم رجَّال، وقاتل.

صمت النزلاء لوقع كلمة قاتل، يتأملونه متفرقين إلى مراقدهم.

عند منتصف الليل تم اقتياده معصوب العينين، تحدّ خطواته حلقات القيود، أجلسوه على كرسي بارد، سمع صوتاً خاله مألوفاً: أزيلوا عصابة عينيه.رأى غرفة جرداء إلا من طاولة في المنتصف، ونور يتيم يتدلى فوق رأسه، رجل ببدلة عسكرية، يدفعه جندي على مقعد متحرك،

نوافذ سُدّت بأحجارٍ وطين، مجموعة من العسكر ملأوا فم الباب، التصق المقعد بالجهة الأخرى للطاولة، وضع ذراعيه على سطحها هامساً:

- ها هي رائحتك تذكرني بأيامنا!

بحلق قمر مرعوباً في وجه الصوت،نظارة تغطي نصف وجهه، كرر الصوت: ألم تعرفني؟

صعقته المفاجأة، وجه عظمي وقد اكتسى ببشرة ممتلئة، يغطي رأسه كاب مهيب، جاكت عسكري ملأته النياشين، تحرك لسان قمر:

- الصبري، أقصد العظمي؟!

فجأةً لطمه عسكري من الخلف بمؤخرة بندقيته وهو يصرخ بتملق:

- تكلم بأدب، الفندم علوس.

ودون أن يهتم لتأوهه قال العظمي:

- يقولون إنهم وجدوك بين يدي نسوة يدردحن بك في الشوارع، يصرخن: قاتل قاتل؟

قبل أن يستوعب كلماته تلقى ضربة قوية على ظهره، كتمت أنفاسه.

- أجب على سؤال الفندم علوس دون تلكؤ.

-لا تنسَ أننا أصدقاء، تكلم لا تخشَ شيئاً، فقط أخبرني لماذا دردحت بك الحريم في الشوارع.

رزعه الجندي أسفل رقبته،كاد يغمى عليه.

- الفندم يسألك، لا تبلِّم، أجب بسرعة!

وجَّه العظمي صوته المألوف له:

- هيا تكلم، أنا في شوق لسماع حكايتك مع أولئك النسوة،- وأشار بيديه أن يبدأ، اختلط الأمر على قمر، ظل صامتاً لا يعرف ما يقول.

- أجب دون مماطلة.

ارتفع صوت الجندي: وإل... قاطعه:

- أنت تمتلك موهبة الإنصات واليوم جاء دوري لأسمعك.هيا أسمعني صوتك، أم أنك تريدني كما كنا نفعل؟

أومأ قمر برأسه علامة الموافقة، لكنها بندقية العسكري سارعت بضربة اهتز معها الكرسي، بينما العظمي يحرك دواليب مقعده بيديه، مستديراً بعربته بمهارة ليقترب بمحاذاته. دُهش قمر حين رآه بنصف قامةعلى مقعده المتحرك، وأن ذراعيه طالتا بشكل ملفت. همس العظمي مبتسماً:

– قد تتساءل أين ذهبت ساقي الأخرى؟ ولو كنت قد عدت لزيارتي لعرفت أني نجوت من الموت بشكل عجيب، تمددت أسبوع فاقداً الوعي بعد أن سقطت عدة قذائف على عنبرنا، كنت من المحظوظين، إذ أن معظم نزلاء العنبر قتلوا بعد أن سقط جزء من السقف، أصبت بشظايا في أسفل الحوض، لم أكن أعي شيئاً، تمت إزالة ما تبقى من جسمي الأسفل بعدة عمليات لأنجو من موت محقق، وها أنذا بنصف قامة. تكيَّفت مع وضعي الجديد بصعوبة، أو أني أظن ذلك، لأصاب بعد أشهر من خروجي من المستشفى بإصابة بالغة أفقدتني النظر بعد ذلك– قالها مزيلاً نظارته التي تغطي نصف وجهه، ليبدو محجراه كحفرتين عميقتين زادتا من حزن تقاسيم وجهه– استعدت وعيي بنصف كائن مشوَّه، وهكذا يا صديقي، كما قلت لك ذات مرة، نموت بالتقسيط، وها أنذا كما ترى قد دفعت القسط الثاني والثالث، ولا أعرف أي جزء مما تبقى هو القسط الرابع. كنت بحاجة إليك أن تطلَّ لتواسيني، انتظرتك كثيراً كثيراً، توقعت رائحتك في كل لحظة، أن تجلس إلى جواري، تجيد الإصغاء أو أسمع منك كما كنت تعدني، وها أنتذا تأتي لكن بشكل قسري هذه المرة.

***

صمت للحظات مادّاًكفه، تلمَّس يد قمر صافحها، تعجَّب أن يرى تلك المحاجر الخاوية تفيض دمعاً. لا يدري قمر كيف عليه أن يتصرف أمام عدد من الجنود، تتدفق مشاعره ليُخرج صوتاً خفوتاً:

– عدت من عدن، بحثت عنك ولم أجدك، ذهبت إلى سمسرة أبي عامر، عندها أيقنت أنك غادرت هذه الحياة.

– ذهبت إلى عدن؟

– نعم ذهبت.

– ولمَ ذهبت؟!

– باحثاً عن أمي.

– أمك؟

– والتقيت بتلك الصومالية التي حمَّلتني سلاماً إليك!

– وماذا؟

– البلد هناك في حالة غليان.

– وأمك وما ذهبت إليه؟

– لم أجد أحداً، فقط الاقتتال بين القومية والتحرير، وحصار الاستعمار لكل شارع.

نحن أصدقاء ولا يجوز أن نكذب على بعض، أرجو أن تكون صادقاً معي،الأمانة بين الأصدقاء تقضي بذلك، وعليك الآن أن تكون صادقاً في كل ماتقول.

- لن أخفي عنك شيئاً.

- أتذكر في إحدى زياراتك، وكنت أعاني من غيبوبة متقطعة،أني سمعتك تقول لي: نحن أصدقاء ورفاق وعلينا أن نكون صادقين في صداقتنا، وقلت:دعنا نقترب أكثر من بعض، وحدثتني بأنك كنت تخشاني كما تخشى كل الناس، وأنك هارب من الموت تتخفَّى خوف أن يتعرف عليك أحدهم فيشي بك. قلت لي: أظنك تصون العهود بألَّا تفشي سري. لم أفهم يومها ماذا كنت تعني، لكنني أحسست بصدق مشاعرك في تلك اللحظة، وحين أخذت أستعيد وعيي سألتني: «ألم تسمع ما حكيته لك أثناء غيبوبتك؟»،أجبتك: وهل يسمع الميت؟ واليوم ها أنذا أعترف لك بأن نبرة صوتك كانت صادقة، وأود أن تحكي لي ما حكيته ذلك المساء. ثم أريد أن أصدقك القول بأني كنت أتحرق لمعرفة ملامح وجهك، والآن هل تسمح لي بتلمُّسه.

لم يتوقع قمر كل ذلك، ولم يعد قادراً على تحديد ما عليه قوله، شعر بوخز تلك الكلمات، ينظر حوله في تلك الغرفة الكبيرة والفارغة إلا من جند يقفون عند الباب وآخر يقف خلفهينهره كلَّما أراد دون مقدمات.

-أتتذكر ما نشرته صحيفة الثورة حول إعدامكبير ضباط الحربية هادي والرعيني؟ وبعدها طالت الإعدامات ضباطاًآخرين.

- أتذكر، نعم.

- هو عين الموضوع الذي حدثتك حوله أثناء غيبوبتك.

- لم أفهم!

- ولذلك حين أستعيد ما حكيت لك أثناء غيبوبتك ألاحظ أن هناك تشابهاً، أو أقول تطابقاً بين ما نشرته الصحف وما حكيت لك، وكنت أود سؤالك عن تأويلك لذلك.

- جانبت الصواب الآن! بل وتخلط. وأسألك لماذا إذاًاختفيت وتركتني؟ ألا تعرف أنك سببت لي وجعاً باختفائك، فما أسباب انقطاعك عن زيارتي؟

- لا شيء، فقط كنت خائفاً!

- والآن؟

- لم يعد لديَّ ما أخافه!

-أظنني أفهمك الآن، إذاً هيا أدلِ بشاهدتك حول نفسك، واحكِ عن سبب دردحة أولئك النسوونعتهن لك بالقاتل، هيا تكلم، احكِ، اعتبرها إحدى حكاياتك التي تدين لي بها، تذكر أننا مجرد حكايات، فإن لم نحكها حكتنا.

فجأةً أمطره العسكر بأعقاب بنادقهم، ضاقت أنفاسه، سقط مغشياً عليه تلاحقه ركلاتهم، أحدهم رافعاً صوته:

- أجب على الأسئلة، أرهقتنا...

أعادوه إلى مقعده، واضعاً رأسه بين كفيه، أغمض عينيه، يريد أن يصرخ بما يثقل روحه، شك أنهم لا يريدونه أن ينفِّس عمَّا يعانيه، فما أن يهمّ بالحديث حتى يتلقى ضرباتهم، يود أنيعترف بكلِّ شيء، لم يعد للحياة ذلك الطعم. رفع رأسه، لم يعد من أحد غير مجموعة عسكر، خاف تلقي أعقاب البنادق لو سألهم عنه، أعادوه يجرجر قيوده إلى غرفة لا تحتمل تكوّم قامته، ظن أنها الغرفة الوحيدة، حتى سمع صراخاً وكلمات مجاورة قادمة من ظلام دامس، سأله أحدهم:

– من أنت؟

رفع صوته يريد أن يحكي لكنه اكتشف أن السؤال يتكرر، ظن أن صاحب الصوت أصم، حتى أحس بحنجرته تؤلمه، وأنها معطوبة.

علـوس

بعد وقت من الظلمة فُتح باب غرفته لتتصاعد روائح مخلّفاته التي تكوَّمت في الزاوية، هو لا يميِّز، اقتادوه دون عصب لعينيه، يقتصّون من رائحته بضربه وشتمهإلى غرفة التحقيقات، نفس الطاولة، المقعد، نور السقف، لحظات وظهر العظمي يدفعه عسكري على مقعده، اقترب علوس من الطاولة:

– هذه ليست رائحتك يا صديقي، أم أنك استبدلتها بأنتن منها؟ ما كان عليك أن تأتي بهكذا رائحة!

– هي ليست رائحتي.

كانت ضربة العسكري أسرع من أن يوضح، لم يكتفِ بضربة بل أخذ يصرخ:

– بل رائحتك يا كومة الضفع.

– لي اسم أيها العسكري ولست ضفعاً.

تقاطرت عليه أعقاب البنادق بالضرب. رفع العظمي صوته:

– أوه، ولك اسم، من يصدق أننا أصدقاء منذ زمن بعيد واشتركنا في معركة الدفاع عن صنعاء ولا يعرف كلٌّ منا اسم الآخر. أرجوك اسعفني به، دعك من العسكر.

– قمر.

– قمر!

– نعم قمر...

– وأنا علوس. لكن لمَ لم نهتم بتقديم أسماءنا واعتمدنا على نعوت؟ كنت تنعتني بالصبري، وتارةً بالعظمي.

–نعم أنت الصبري، لكن...

قاطعة أحد الجنود مهدداً:

– أيها القاتل،اعرف مقامك وإلا...

– حتى العسكر يصمونك بالقتل! لكنهم لا يعرفون عمق صداقتنا، وعليك أن تحكي سر التصاق هذه الصفة بك، ابتداءً بأولئك النسوة، أتحرَّق شوقاً لسماعك.

رفع أحد العسكر صوته مؤنباً:

– يبدو أنك لا تقدِّر من يعاملك بالطيب!

شاهراً عقب بندقيته، ليشاركه عدد منهم بضربات متلاحقة على رأسه ووجهه. سريعاً ما نزف أنفه وتورَّم حول عينيه وتشوَّشت رؤيته لما حوله،ليعيده العسكر إلى مقعده.

– لم أكن يوماً بخيلاً عليكفلمَ تبخل عليَّ يا صديقي– صمت قليلاً ثم بدأ بصوت هادئ كمن يحدث نفسه– يبدو أن عليَّ الاعتذار لك كصديق، فأنا كنت أقوم بواجبي، ولم أكن صديقاً كما ادّعيت، لكنني أحببتك، لتتحول صلاتي بك من تنفيذ الواجبإلى الشعور بأنك بالفعل صديقي. بعد هذا الاعتراف عليك أن تكون صادقاً كأي مواطن يتحدث عمَّا جرى له أو ارتكبه. كما ترى، خرجت من المستشفى بنصف قامة، وكي أثبت لهم أني ما زلت أستطيع أن أقوم بما يقوم به غيري في الدفاع عن الثورة والجمهورية طلبت منهم نقلي إلى جبهات القتال، حاملاً بندقيتي على كتفي، دحرنا المرتزقة في(جحانة) **وكبدناهم** خسائر كبيرة في الأرواح، هرب المرتزقة والخونة مخلفين أسلحة أميركية وبريطانية وصناديق ذخيرة سعودية وأجهزة إرسالو«ونيتات» معطبة، لاحقناهم حتى مشارف الحيد الأبيض. كنت في المواقع المتقدمة أقاتل، وكنت أتوقع في أي لحظة الاستشهاد، لكنهم اكتفوا بعيني.

***

في ذلك الصباح تجدّد القتال بيننا وبينهم بعد هدوء طوال الليل، استطعنا الاستيلاء على موقعهم الرئيسي بكافة محتوياته، كنت أزحف على ذراعي، أتبع رفاق السلاح الذين يهرولون صاعدين، لينفجر لغم تحت أقدام أحد الرفاق كان يتقدمني بخطوات، سماء ملأتها خيوط سوداء، رأيته يطير أشلاءً، تلك آخرصورة يحتفظ بها رأسي، لتصيبني زخة من الأتربة وحصوات، أو أنه بارود، في وجهي ورقبتي وأذرعي، أحسست بجمر يحرقني، تم إسعافي على عربة روسية عليها أكثر من عشرين قتيلاً، اعتذر لي الأطباء وقالوا:«لا نستطيع إلّا أن ننظف محجري عينيك حتى لا يصل التلف إلى أعماق رأسك»، لأحتفظ بذلك المنظر عالقاً في كل وقت، ومن يومها لا أعرف لماذا تضاعفت حاسة الشم لديَّ. بعدها أُرغمت، كما ترى، على أن أكون ضمن فرق عملها التحقيق مع الخونة، وصدقني أنا الآن لا أعرف إلا أنهم أنقذوك من بين أيادي نساء يرددحن بك كقاتل، وأريد أن أعرف خيانتك تلك؟

ما إن فكر بالحديث حتى انكفأ على نفسه واضعاً رأسه على ركبتيه، ليتلقى عدة ضربات مصحوبة بصوت العسكري،ذلك ما كان متيقناً من حصوله،ليتصارخ العسكر:

– هيا أجب دون مماطلة...

بالفعل أحس بأنها رغبته في أن يحكي، لا يعرف من أين يبدأ، وجد صوته يقول: «سأحكي لك حكاية قاتل».

تدافع العسكر نحوه، أمطروه بأعقاب بنادقهم، لم يعِ بعدها ما يدور، أفاق ليجد نفسه داخل تلك الغرفة الضيقة وحيداً، يعذّبه طيف وجهها المقلوب.

كان يود أن يتحدث عن ذكرياته كقاتل، عن صلاته بالسجون وبغرف التحقيق، لكنهم ما أن حرك شفتيه حتى أمطروه بأعقاب بنادقهم. ومن يومها تأكد له أنّ الكلام محرم أمام الفندم، وأنه يشعر بحسرة لعدم الإدلاء باعترافات، بل ويحس بالاضطهاد.

* * *

غشاه ملاك النوم، رأى نفسه والعظمي يجلسان متجاورين يمضغان القات، وجهه المليء بالعظام، العينان الغائرتان، لم يكن أعمى، ساقاه سليمتان، رفع وجهه مستغرباً، ضوء يملأ المكان، صوت العظمي ينسال بهدوء، يحدثه بحكايات قديمة، ودون سابق إنذار التفت العظمي لينشب أصابعه القوية حول رقبته، حاول المقاومة، فكر بخيط حذائه، لكنه لم يقوَ على الحركة، أفاق من نومه غارقاً بعرق غزير، شعر بكفٍّ تلامس رأسه وسط الظلمة الحالكة، أنفاس تلفح رقبته، تمتم مصلياً لله، يردد ما بحوزته من أدعية واستغفار، يتحرق شوقاً لقدوم العسكر،استجاب الله، لم يتأخروا، ولم يعد يهمه حديثهم حول رائحة البراز الذي يملأ غرفته الضيقة، شتائمهم، ضربات أعقاب بنادقهم،اقتادوه إلى حجرة التحقيقات،أجلسوه تحت نور السقف المتدلي، سمع خبطات أقدام العسكر على الأرض لحظات ظهور عربة علوس بوجهه العظمي، لم يكن من عسكري يدفع العربة، معتمداً على ذراعيه الطويلتين في تحريك دواليب العربة، دار يعرف تضاريس الغرفة الكبيرة، حاذاه، وقف ملاصقاً مقعده، لو لم يرَ محجريه الفارغين لشك أنه يرى، لم يعد يخيفه العسكر من المتجمعين عند الباب، يرى نفسه وقد تخلَّص منه ومن العسكر واحداً واحداً، يرتجف من شدة الانفعال، يتمتم بأدعية.

– والآن لا أريدك أن تراوغ، كن سخياً ولو لمرة واحدة.

رفع العسكري صوته ينهره:

– ألا تسمع، هيا أجب عليه وإلَّا...

استغرب كيف ينهره العسكري دون ضرب هذه المرة.

رفع العظمي صوته:

– والآن أستطيع أن أسمعك، يمتعني ذلك.

تأمّل قمر ذلك الوجه المشوه، قبعته العسكرية المهيبة، نياشينه المستهلكة، عبارة عن بقايا قشور نحاسية، رقبته التي تغطيها بشرة شبيهة بحرافيش السحالي. سمعه يستعجله:

– هيا أسمعني ما عندك.

التفت قمر إلى العسكر،رآهم متحلِّقين ينتظرون صوته. خرج صوت قمر حاداً:

– لن أتكلم إلا إذا صرفت العسكر من حولنا.

تفرّق مَن حولهما.

– والآن هات صوتك.

دنا قمر،بأصابعه أمسك بطرف خيط حذائه، سحبه، نهض،استدار ليطويه بحرفية المجرّب حول رقبة العظمي، حاول مقاومته صارخاً، هوى أرضا وقد جثم قمر فوقه يشدّه أكثر،ارتفع صخب العسكر،أحكم شدّه بيدٍ وحيدة، ضجّ صوت علوس يستنجد،أعقاب بنادقهم، ركّز على إحكام شدّ خيط الحذاء بكلتا يديه،ظل قمر يشد خيطه غير مبالٍ بما يصنعه العسكر،نجحوا في رفعه،سحبوه خارجاً،يتمنى أنه ساعد روح صديقه في الانتقال إلى الملأ الأعلى، سحبوه، ألقوا به في غرفته الضيقة تشاركه أكوام البراز، ينتظر العسكر أن يأتوا لقتله، يردّد صلواته بصوت مسموع، يسمع من يردد معه من الغرف المجاورة، يشعر بأمان غريب. يومان لم يذق فيهما قطعة خبز أو رشفة ماء، سمع صراخ الآخرين يتضورون جوعاً، لم تدم تلك الحالة فقد سمع صخب أصوات قادمة، ليل دامس إلَّا من وميض كشافات محمولة، صرخات من هنا وهناك.

يا قمر قُميرة

كما لو كان في حلم،يسمع نداءات متكررة، يملأ صداها عتمة الجدران، فُتحت أقفال الأبواب ليتدفق مئات السجناء، أشباح رثة ومتسخة، فُكَّت القيود، أمروهم بسرعة الانتظام في صفوف منتظمة، وزعوا عليهم بدلات عسكرية، وسريعاً ما حملوهم على عربات كبيرة سارت خارج المبنى عبر شوارع فجر وليد إلى سرادق كبير من الزنك، جنود كثر متفرقون، حاول معرفة أين يكون؟ وأين سيذهبون بهم؟ انشغلت مسامعه بدوي الانفجارات الآتية من قريب، أصوات رصاص، خمَّن أن يكونوا قد نقلوهم إلى أطراف صنعاء، صُفُّوا في طوابير طويلة:

«اليوم نحن أمام اختبار حقيقي لوطنيتنا، فإما الحرية أو الموت، إما العبودية أو الجمهورية والحرية، أن نثبت إخلاصنا لثورتنا وجمهوريتنا أو نستسلم لكهنوتية بغيضة، الأئمة يدقون أبواب صنعاء مستعينين بمرتزقة أتوا من خلف البحار، وقوى الشر تصرف الذهب والسلاح، إما النصر وإما الشهادة.

شهران وصنعاء المدينة محاصرة،قطعوا الطرق، منعوا الإمدادات، ينتظرون ركوعها لينقضوا علينا،لينهبوها ويستحلوا حرماتها، مات أطفال صنعاء جوعاً ولفظ الجرحى والمرضى أرواحهم دون علاج. اليوم علينا أن نكون جديرين بهذا الوطن، جديرين بحياة كريمة، وعلينا أن نلقن أذيال البغي المدعومين من دوائر الرجعية والاستعمار درساً يسطره لنا التاريخ. نحن أبناء هذا الوطن من جنود ومواطنين وقبائل ومزارعين وعمال علينا أن ندافع عن عاصمة الثورة والجمهورية والحرية في الجزيرة العربية صنعاء، عن وطننا. لستم الوحيدين من ستحملون السلاح لدحر هذا الهجوم وفك الحصار عن صنعاء، لقد هبَّ الشعب بكل شرائحه من طلاب وفلاحين وعمال وربات بيوت، بعد أن تخلَّى عنا حلفاؤنا. صنعاء اليوم تتعرض لهجوم المرتزقة وقبائل الذهب السعودي، تستغيث بكل أبنائها أن يدافعوا عنها، أن يصدّوا هجوم أعداء الثورة والحياة».

أكمل الضابط خطبته وقد وقف الجميع في صفوف طويلة دون حركة، لم يسألوا أحداً إن كان يجيد حمل السلاح، فقط سلّموا لهم بنادق جديدة بعد أن دُوِّنت أسماؤهم،وأشرطة قنابل يدوية و(زعب) رصاص علّقها قمر على حزامه العريض، لم تعجبه خيوط بيادته الجديدة، استبدلها بخيوط بيادته القديمة، قبعة حديدية، أحس بلهيب الحماس يسري في دمه وأصوات الجموع تردد: «الجمهورية أو الموت». وهج الفجرغمر الأنحاء، يرى ما حوله بوضوح وقد أضمر في نفسه الهرب حين تتاح له الفرصة، مستعيناً بملابسه العسكرية، كالمجنون ارتفعت ضحكته لفكرة الحرية!

***

خرجت العربات على صفحة صباح صنعاء، تقاطر السكان إلى الشوارع والميادين، النساء والرجال من مختلف الأعمار،الجميع في طوابير مشياً على الأقدام نحو الأطراف، صنعاء تحيطها أربعون جبهة ملتهبة، الإذاعات الخارجية تتوقع سقوطها واستباحتها.

فوج قمر كان من نصيب الجبهات الشرقية، سفوح نقم، وحتى الجبل الطويل شمالاً، وبني حشيش ، شكَّل أفراد المقاومة الشعبية– طلاباً وموظفين وعمالاً وتجاراً– طوقاً مرادفاً لقوات الجيش، النساء تم توزيعهن على مواقع المستشفيات الميدانية والخطوط الخلفية للمدافعين. كل الشوارع المؤدية إلى أطراف صنعاء تحولت إلى طرق إمداد وسير بالأقدام للسكان باتجاه جبهات القتال.

صنعاء تحولت إلى جرح مفتوح، تلتهب جبالها وتتصاعد الصرخات ممزوجةً بروائح البارود والسحب السوداء، الكل مرعوب من انتصار القبائل المحاصرة، يستحضرون دورات استباحتها عبر التاريخ، إذلالها بالقتل والحرق والسلب والنهب.

سحب دخان كثيف تحجب الأفق الجنوبي، أخبار عن إحراق قرى حزيز وشعسان ودار سلم وبيت الحضرمي إلى بيت بوس وزُهم وسحار حتى بيت معياد. يُسمع أن قوات القبائل الموالية للملكية والمرتزقة تحرق الأخضر واليابس من الجهة الجنوبية.

أيام من القتال الشرس، لا صوت يعلو فوق صوت الأنين وطعم الدم، غطت السماء بهزيع المدافع وأنين الطائرات، يصدّون المهاجمين ليُقتل ويُجرح المئات، يسيرون فوق جثث لا يعرفون هل هي جثثهم أم جثث الإخوة الأعداء المغرِّر بهم.

تسرَّبت شائعات اختلاف قيادتي بيت حميد الدين على الإمامة بعد أن يكونوا قد أسقطوا صنعاء، لتتحول الشائعات إلى أخبار برفض أمير الحرب السيف محمد بن الحسين تعيينه رئيساً لمجلس الإمامة، بينما كانت عينهعلى كرسي الإمامة،ليرتفع صوت أحد مشايخ الذهب، مشيراًإلى صنعاء من علو جبالها:«تلك هي صنعاء يامولانا، متِّعوا ناظريكم لكنها محرّمة عليكم»، ثم أعقب بكلمات أخرى حين سأله لماذا، فقال:«إن كان آباؤكم يحبسوننا فأنتم ستذبحوننا».

تلك الأخبار هبطت على جموع المرتزقة والموالين للإمامة كوقع الوباء، لتأخذ مواقعهم بالتساقط موقعاً بعد آخر، تصليهم السماء نار طائراتها ومدافع الأرض جمراً. أخذت قوات الثورة تتقدم من ربوة إلى أخرى ومن وادٍ إلى آخر. قمر في مقدمة الصفوف، لا يعرف إلا أنه يريد الموت،دحر المعتدي من مواقعه في الجبهة الجنوبية وتبقت مواقعهم في الجبهات الشمالية الشرقية في الجبل الطويل وما حوله.

أجهزة الترانزستور الصينية التي وُزِّعت على قوات الثورة تبث أخبار الثورة من صنعاء: «أيها الشعب الأبيّ، لقد تمكنت قوات الشعب وقوات الثورة من فكِّ حصار طريق الحديدة، ليلتحم أبناء تهامة للدفاع عن الثورة والجمهورية»، ثم أخبار أخرى: «بفضل الله والتكاتف الشعبي

كسرت قوات الثورة حصارطريق نقيل – يسلح بحملة شعبية قادمة من ذمار وإب وتعز والضالع والشعيب ورداع». توالت أخبار الانتصارات من كل الجبهات، إلا أن الجبهة الشمالية الشرقية ظلت مشتعلة، ظل المرتزقة يقاومون غارات الطائرات والمدفعية، كانوا يحتمون بالكهوف والمغارات.

خططت قوات الثورة لاقتحام آخر معاقل المرتزقة في جبل الطويل لتنفذ هجوماًانطلق من عشر جهات، كان قمر ضمن إحدى فرق الهجوم، ظلت تلك الفرق تزحف صاعدةً طيلة الليل. مع وهج أفق الفجر اقترب مقاتلو الثورة من كهوف قمم الجبللتدور معركة استمرت ست ساعات متواصلة، بلغ الأمر أن التحم الطرفان بالسلاح اليدوي، امتلأت السفوح بقتلى الطرفين، لتلتف إحدى فرق الثورة من جهة جبل براش لتباغتهم من الخلف،لحظات اقترابهم من المواقع على قمة الطويلة قصفت الطائرات تساند الثوار. كان المرتزقة قد تغلبوا على سبع فرق وأبادوا أفرادها، لتتمكن فرقتان من صعود قمة الجبال. اندلع قتال بالرشاشات الهجومية، قُتل وجُرح عدد ممّن صعدوا، تلتها بالصعود المجموعة الثالثة، وللحظات تحولت الهزيمة إلى نصر بعد هبوط مظلي لعدد كبير من الجنود، ليتوارى معظم العناصر الملكية أسفل مغارات الجبلالتي تصل بينها سراديب سرية إلى كهوف سفلية. فرَّ من تبقى لتحصد البنادق أرواحهم. لم يبقَ على قيد الحياة من قوات الثورة الصاعدة عدا أحد عشر مقاتلاً بينهم قمر الذي كان ينزف نتيجة إصابته بعدة رصاصات مزّقت ساعده الأيمن إلى كتفه.

للحظات كثّفت قوات الثورة إنزالاً مظلياً آخر على قمة الجبل لمنع صعود من في الأغوار والكهوف، لتهبط السماء بنصرها تمشّط وتصفّي جيوب الكهوف والمغارات الكثيرة حول جبل الطويل والجبال المتصلة به، وتمّ الاستيلاء على مخزون هائل من الأسلحة والذخيرة والمواد الغذائية، كدَّسته القوى المعادية في كهوف كبيرة منذ أشهر، كهوف مُلئت بالسلاح والذخائر وأخرى بمواد تموينية. أُطلق على قمر «بطل الجبل الطويل»، ورددت نشرات الأخبار اسمه كبطل من أبطال الثورة والجمهورية،تمّ نقله على طائرة (هيلوكبتر) مع من نُقل من جرحى تحرير جبل الطويل، مكث عدة أسابيع في المستشفى، بُتر ساعده الأيمن من الكتف، وتبقّت آثار جراح على جبهته. قضى أياماً صامتاً وجلاً، لا يقبل زيارة أحد ولا يتحدث إلى أحد، يستجرّ ماضي أيامه بحزن، يستحضر تلك الحوادث والشخصيات لتدمع عيناه في صمت.

حفل كبير احتفاءً بالنصر وفكّ الحصار عن صنعاء،وبمرور ست سنوات على انفجار الثورة.

كان قمر يجلس في مقدمة صفوف المكرَّمين، إلى يمينه منصة كبار الضيوف، وإلى يساره جماهير خلف عازل من الحديد المشبك. للحظة تفرس وجوه تلك الجماهير،صدمه ما رأى: وجوه بدون عيون، دون أفواه ، تضجّوجوه فقدت حواسها.

***

التفت إلى منصة تشريفات كبار الضيوف: رئيس الجمهورية بعمَّته،تحفُّه شخصيات قيادة الثورة،لم يسمع عزف النشيد الوطني، ولا صوت رئيس الجمهورية يبارك للشعب اليمني انتصاراته التاريخية، مفاخراً بأبطال الشعب اليمني من جيش وأمن ومقاومة شعبية ومتطوعين، مترحِّماً على الشهداء، شاكراً الأشقاء المصريين والأصدقاء السوفييت والصينيين من دعموا الثورة والجمهورية، ومن اشتركوا في فك الحصار عن صنعاء من الإخوة السوريين والعراقيين والجزائريين.شدّ ناظري قمر شخصيات منصة التشريفات، اعتقد أن ما يراه وهم،كرّر تفحص تلك الوجوه،خُيِّل إليه رؤية الدويدار بشاله الكشمير وجنبيته المذهبة، إلى جواره ذو الوجه العظمي ببدلته العسكرية ونياشينه النحاسية المهترئة، المحقق حامل السوط بكابه الأحمر المهيب، شاوش السجن، شيخ بلاده بجسمه المتضخِّم، الأعمش بلحيته الطويلة وعمامته الضخمة، شخصيات تجاور بعضها زامَلَهم في السكن الداخلي بالمدرسة العلمية، وأخرى في سجون حجة والرادع.

سأل من يجاوره إن كان يعرف أحداً ممّن على منصة التشريفات؟ رد متعجباً:

- قيادات الثورة،ومن لا يعرفهم؟

ثم أخذ يعدِّد أسماءهم ليتأكد له أنّ ما يراه واقع.

وقف مذيع الحفل يكرّر كلمات: اليوم نحتفل بتكريم رموز أبطال فك حصار صنعاء، من منحوا الوطن معنى ليوم عيده هذا، ونترحم على شهدائنا الأبرار.

استمر المذيع في كلماته، بينما قمر لم يعد يعي ما تردده مكبرات الصوت، ولا عاصفة التصفيق وضجيج أفواه الحشود بوجوه دون عيون، تائه النظر فيما حوله، ولم يعِ صوت المذيع يدعوه، حتى نبَّهه من يجاوره إلى أن مكبِّر الصوت يردد اسمه،داعياًإياه لإلقاء كلمة المكرَّمين.

نهض رئيس الجمهورية مبتسماً حين مرّ أمامه، نهض الجميع يصفقون، يسير متأملاً وجوههم، مندهشاً يتمتم: كيف يكونون أحياء، أم أنني كنت واهماً، أم أنه الوهم ما أعيشه الآن؟

تنحنح معيداً ناظريه إلى المنصة ليتأكد من أنهم هم! ذاكراً اسم الله، مصلياً على رسوله الكريم، ثم صمت حتى ظن الجميع أنه لن ينطق، محدِّقاً فيهم:

«فليسمح لي الحضور أن أتحدث بكلِّ صراحة، لن أتحدث باسم أحد، فقط سأتحدث عن نفسي، أن أعترف، نعم أعترف بأنني لست بطلاً ولا أستحق التكريم ولا أوسمتكم. قد يعرف بعضكم معنى ما أقوله، لكن اسمحوا لي أن أعترف لكم بأنني مجرد قاتل، نعم قاتل استبدَّت بي شهوة الانتقام، قتلت عدداً ممّن يقفون اليوم على منصة التشريف إيماناً مني بأنهم سبب بلاء الثورة،واليوم يوصفون بقيادات الثورة: ذلك الضابط الجالس على مقعده المتحرك علوس، والجلاد حامل السوط الذي يقف إلى يمينه، وشاوش السجن، وقتلت سيدنا صاحب أكبر عمامة بينكم، وشيخ البلاد من أنهيت له بصره،والدويدار ،وآه من الدويدار، ترونهم وترون غيرهم على المنصة،

واسمحوا لي أن أعبّر عن حيرتي،أن أسألكم: كيف يعيش الأموات بيننا؟ هل ما أراه وهم أم أن ما عشته وهم؟ أم أن عزرائيل يمارس معي ألاعيبه؟! وها أنا ذا اليوم أقف أمام رئيس الجمهورية الذي يعرفني وأعرفه، مقرّاً لكم بجرمي، لا أريد أن يبذل المحققون جهوداً إضافية لانتزاع اعترافاتي، أو أن أضطرهم لاستخدام أساليبهم التي تعرفونها،ها أنا ذا أعترف أمام جمعكم الكريم بأنني قاتل،وأن من على منصة التشريفات مجنيٌّ عليهم،وأنا الجلاد! وبدلاً من أن تبحثوا عمَّن يشهد، هذا اعترافي وأنتم الشهود».

دوَّى تصفيق استمر لدقائق، ووقف الحضور يهتفون لبطلٍ يتواضع في كلِّ شيء.

تقدَّم رئيس الجمهورية باتجاه قمر مصافحاً، داعياً إحضار محبي البطل من الأهل والأصدقاء للصعود إلى منصة التكريم.

زادت دهشته حين خرج من بين الحضور عدة نساء: امرأة تحمل صندوقاً، تمتم وهو يتفرَّس: إنها الحَجّة وردة، تتبعها فتاة الصحراء بوجهها الأعمى تحمل كلبها الأسود، أخرى بفم هلالي ووجه مقلوب، هزَّ رأسه غير مصدقٍ ما يراه، تبعها وجه تلك الأرملة الصغيرة، بينما وقفت امرأة عجوز وحولها عدة أولاد، نسي كل ما حوله، اقترب منها، وقف الجميع يتابعون ما يدور، رفع ذراعه الوحيدة يتلمَّس وجهها وقد أمسكت بكفه، تهامسه:

– يا قمر قُميرة.

تلعثم وعقله يسافر بعيداً إلى طفولته الأولى،ليخرج صوته خجولاً:

– قُميرة.

فتواصل هي:

– يا سراج الليلة.

فيرتفع صوت قمر:

– الليلة،

فيعاود صوتها وقد فتحت ذراعيها لتحتضنه:

– طر بنا سرب الحمام.

فيكمل رافعاً ذراعه الأيسر:

– سرب الحمام،

فتواصلالعجوزوقد ضمَّته إلى صدرها دامعة العينين:

– يا قمر صنعاء ويا أحلى قمر، يا ضياء القلب يا نور البصر...

صدر للمؤلّف

- **الشراشف**، قصص قصيرة،دمشق، اتحاد الأدباء العرب، ١٩٩٧.
- **الظل العاري**، قصص قصيرة، صنعاء، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨ – ط٢/ بيروت، ١٩٩٩.
- **حريم أعزكم الله**، قصص قصيرة، صنعاء، نادي القصة، ٢٠٠٠ – ط٢/ القاهرة،مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١.
- **ختان بلقيس**، قصص قصيرة، صنعاء، نادي القصة، ٢٠٠٢.
- **منارة سوداء**، قصص قصيرة، صنعاء، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، ٢٠٠٤.
- **مصحف أحمر**، رواية،بيروت، رياض الريس، ط١، ٢٠١٠ – ط٢/ صنعاء، نادي القصة.
- رواية ثانية صدرت بعدة عناوين من عدة دور: **(يائيل**، دار طوى، لندن،٢٠١١)؛ **(ظلمة يائيل**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢)؛ **(ظلمة** يائيل، نادي القصة، صنعاء، ٢٠١٢)؛ **(الطريق إلى مكة**، دار عين، القاهرة، ٢٠١٣)؛ **(الطريق إلى مكة**، المؤسسة العربية، عمان، ٢٠١٣).

فازت روايته **ظلمة يائيل** بجائزة الطيب صالح ٢٠١٢، المرتبة الأولى.

- عضو الأمانة العامة لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين.
- رئيس نادي القصة،صنعاء.
- الأمين العام لاتحاد البرلمانيين اليمنيين (السابقين).
- رئيس مركز الحوار لثقافة حقوق الإنسان.

للتواصل مع الكاتب:
إيميل: algarby@ gmail.Com
الصفحة على الفيسبوك: الغربي عمران
هاتف: ٠٠٩٦٧٧٧٧٤١١١٢٠